تفسير القرآن

النبي الجامع

في

الإعجاز البياني واللغوي والعلمي

إعداد ودراسة

الدكتور محمد الهلال

دار المعراج — دار جوامع الكلم

تفسير القرآن الثري الجامع

في

الإعجاز البياني واللغوي والعلمي

إعداد ودراسة

الدكتور محمد الهلال

الجزء الثاني

دار المعراج

دار جوامع الكلم

تفسير القرآن الثري الجامع

في

الإعجاز البياني واللغوي والعلمي

الجزء الثاني

تفسير القرآن الثري الجامع
إعداد ودراسة : الدكتور محمد الهلال
عدد الأجزاء: (١٢)
عدد الصفحات : (٦٧٠٤)
القياس : ١٧ × ٢٤
التنضيد والإخراج الضوئي: محمود الجعبري

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٤٣ هـ - ٢٠٢٢ م

دار المعراج
تلفاكس : 2247242 11 963 +
ص.ب: 31429 . سورية . دمشق
E-mail: meraj.press@gmail.com

للطباعة والنشر والتوزيع
دار جوامع الكلم
جوال : 60 60 84 933 963 +
سورية - دمشق - تلفاكس : 2216555 11 963 + - ص . ب 13118
www.j-alkalem.com m.algabary@gmail.com

ISBN : 978-9933-586-77-5

ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى
يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ
مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ
مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ
فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ
ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟
فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ
أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ
ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ
إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى
ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾

سورة البقرة [الآيات ٢٧٥ - ٢٨١]

[٢٧٥] ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾:

﴿ٱلَّذِينَ﴾: الّذين اسم موصول.

﴿يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾: أي: يأخذون الربوا، والربا في اللغة: الزّيادة على رأس المال.

والربا نوعان: ربا النسيئة: وهو الزّيادة المشروطة الّتي يأخذها الدائن من المدين نظير التأجيل، وربا الفضل: وهو بيع النقود بالنقود، أو الشّيء بالشيء مع الزّيادة. ارجع إلى سورة الروم آية (٣٩) لمزيد من البيان.

وعبر عن الأخذ بالأكل، أو شبه من يأخذ الربا بالذي يأكل الطعام؛ لأن الّذي يأخذ الربا هو شره جشع يأخذ باستمرار، أو بشكل متكرر؛ كالذي يأكل عدَّة مرات باليوم، أو لأننا حين نأكل الطعام الذي يُشترى بمال ربوي كأننا نأكل الربا؛ لأنّ الطعام يُشترى بالمال الربوي.

انتبه إلى كلمة الربوا بالواو، كتبت بهذا الشكل في سبع آيات، وكتبت الربا بالألف بهذا الشكل في آية واحدة فقط في سورة الروم، آية (٣٩).

والاختلاف يعود إلىٰ أنّ الربوا بهذه الهيئة جاءت في سياق الربوا الكثير المتكرر، والربا بهذه الهيئة جاءت في سياق ذكر الربا القليل، أو غير المتكرر.

﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾:

﴿لَا﴾: النّافية.

﴿يَقُومُونَ﴾: من قبورهم يوم البعث؛ أي: يخرجون من الأجداث.

﴿إِلَّا﴾: حصراً وقصراً.

﴿كَمَا﴾: الكاف: كاف التشبيه.

﴿يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾: المس: الصرع؛ أي: لا يقوم من قبره إلّا كما يقوم المصروع من صرعه، أو المجنون من جنونه، أو نوبة جنونه.

والممسوس: المجنون؛ الّذي اختلط عقله.

كيف يقوم؟ يقوم علىٰ غير استواء، واتساق، ويسقط كلما نهض، ويتأرجح يمنة ويسرة، ثم يقع علىٰ الأرض، فيحاول الوقوف فيسقط وهكذا.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾:

﴿ذَٰلِكَ﴾: اسم إشارة؛ للبعد، إشارة إلىٰ ما يحدث لهم يوم القيامة بسبب أكلهم الربا، وقد نُهُوا عنه.

وقولهم: ﴿إِنَّمَا﴾: كافة مكفوفة تفيد التّوكيد.

﴿ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾: أي: اعتقدوا بأنّ الزّيادة الربوية عند حلول أجل الدَّين مثل أصل الثمن في العقد؛ أي: شبهوا الربا بالبيع؛ فاستحلوه.

وقالوا: إنما البيع مثل الربا، والأصل أن يقولوا: إنما الربا مثل البيع.

فهؤلاء ظهرت أعراض مرضهم، وهو المس الجنون، أو الخبل قبل مجيء يوم القيامة؛ حيث جعلوا المشبه مكان المشبه به، وهم لا زالوا في الدّنيا.

﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾:

﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾: إنكار على بطلان قياسهم: أنّ البيع مثل الربا، وأنه غير صحيح؛ لأنّ البيع أمر حلال، والربا أمر حرام، فلا يستويان.

﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾: من: شرطية؛ أي: من بلَغه أمر التحريم؛ أي: بُلِّغ فانتهى.

﴿فَٱنتَهَىٰ﴾: أي: ترك أخذ الربا، وتوقف، الفاء: تدل على جواب الشرط.

﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾: فلا يؤاخذ على ما أكل من الربا قبل نزول التحريم.

﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾: يوم القيامة يحكم في شأنه إن شاء عفا عنه، وإن شاء عذبه على فعله، وليس أمره موكولاً إليكم لتحاسبوه على ما فعل.

﴿وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾:

﴿وَمَنْ عَادَ﴾: وأما من بُلغ ولم ينتهِ، ويحرم ما حرم الله، وعاد إلى أكل الربا ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: الفاء: للتأكيد، أولئك: اسم إشارة للبعد.

﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾: ارجع إلى الآية (٣٩) من سورة البقرة للبيان.

[٢٧٦] ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾:

﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾: المحق: هو النقصان وزوال بر يخالطه الربا.

فالربا، وإن كان ظاهره الزّيادة في المال، ولكن باطنه النقصان وزوال البركة منه.

﴿وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾: جمع صدقة، سواء كانت زكاة، أو صدقة تطوع؛ أي: يزيد ثوابها ويضاعفها أضعافاً كثيرة، فتنموا وتزداد بركتها بعكس الربا.

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾: تقديم الفاعل على الفعل؛ للتعظيم والتحذير.

﴿كُلَّ﴾: للتوكيد.

﴿كَفَّارٍ﴾: اسم فاعل، وكفار صيغة مبالغة لكافر؛ لأنه كرر فعله وهو الكفر، واستمر عليه؛ أي: الكفر بالدين وعدم الإيمان.

﴿أَثِيمٍ﴾: على وزن فعيل من فعل أثم، وتدل على المبالغة في الإثم؛ أي: في أكل الربا، والإصرار على التعامل بالربا، وقيل: نزلت هذه الآية في ثقيف الذين كفروا بالله تعالى، وأصروا على التعامل بالربا، والعبرة بعموم اللفظ وليس بخصوص السبب.

[٢٧٧] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾:

المناسبة: بعد ذكر آكلي الربا، وذكر الكفار، والأثيم، بشر الله سبحانه الّذين آمنوا، وعملوا الصالحات بقوله:

﴿إِنَّ﴾: للتوكيد، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول.

﴿ءَامَنُوا۟﴾: بالله، وبما أنزل ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: أي: استقاموا على فعلها.

﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: ارجع إلى الآية (٣) من سورة البقرة.

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: ارجع إلى الآية (٤٣) من سورة البقرة.

﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: ارجع إلى الآية (٣٨) من سورة البقرة للبيان.

[٢٧٨] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: نداء جديد إلى الّذين آمنوا، وهو نداء أخير أيضاً لمن يتعاطى الربا منهم، والياء: للنداء للبعد، والهاء: للتنبيه.

﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾: أطيعوا أوامر الله، وتجنبوا نواهيه، فبذلك تتقون غضبه وعقابه.

﴿وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟﴾: اتركوا، ودعوا، وتجنبوا التعامل بالربا حالاً، وألغوا، وتخلّوا عما عندكم من المعاملات الربوية.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: ﴿إِن﴾: شرطية تفيد الاحتمال والندرة.

﴿كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: إن كنتم تدّعون أنكم مؤمنون، وصفة الإيمان عندكم ثابتة.

[٢٧٩] ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾:

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟﴾: الفاء: للتوكيد، إن: شرطية تفيد الاحتمال، والندرة؛ أي: لم تفعلوا وتتركوا التعاطي بالربا، والمعاملات الربوية.

﴿فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ﴾: فاعلموا ﴿فَأْذَنُوا۟﴾: من أذن، وأذن بالشيء علم به، أو أعلمه؛ أي: أنتم في حرب من الله ورسوله. الباء: للإلصاق، والدوام؛ أي: دخلتم في حرب من الله ورسوله دائمة.

﴿بِحَرْبٍ﴾: نكرة؛ للتهويل تشمل كل نوع يتصوره العقل من أنواع المحاربة، أو الحروب، والحرب تعني: كذلك المعاداة، والغضب، والعقاب.

﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾: من: ابتدائية، بحرب من الله بغضب من الله، ومعاداة رسوله.

﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾:

﴿وَإِن﴾: شرطية تفيد الاحتمال، احتمال حدوث التوبة.

﴿تُبْتُمْ﴾: أي: تركتم الربا، ولم تعودوا إليه، وندمتم على ما فعلتم، وسألتم الله المغفرة، ارجع إلى سورة النّساء، آية (١٧-١٨) لمزيد من البيان.

﴿فَلَكُمْ﴾: الفاء: رابطة لجواب الشرط؛ تفيد التّوكيد، لكم: اللام: لام الاختصاص.

﴿رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾: الّتي أقرضتموها (من دون فائدة).

﴿لَا تَظْلِمُونَ﴾: ﴿لَا﴾: النّافية، ﴿تَظْلِمُونَ﴾: غيركم فتأخذون زيادة منهم.

﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾: بأخذ أقل من رؤوس أموالكم.

وتكرار (لا): يفيد لا هذه، ولا تلك، ولا كلاهما معاً.

[٢٨٠] ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾:

﴿وَإِن﴾: شرطية تفيد الاحتمال.

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾: وإن كان الّذي عليه الدَّين مُعسراً؛ أي: ليس عنده القدرة على سداد الدَّين.

﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾: أمر في صيغة الخبر؛ أي: عليكم بانتظاره حتّىٰ يتيسر له القدرة علىٰ الدفع، وزوال عذره، والنظرة تعني: التأخير؛ أي: أمهلوه، واصبروا عليه.

﴿مَيْسَرَةٍ﴾: أي: إنظاره حتّىٰ يتيسر له (ميسرة: وقت اليسر والرخاء).

﴿وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾:

﴿وَأَن﴾: مصدرية تفيد التّوكيد.

﴿تَصَدَّقُوا۟﴾: علىٰ المعسر بالتنازل عن الدَّين تطهيراً لأموالكم، وتزكية لأنفسكم (أي: الصدقة عليه أفضل من استرجاع الدَّين)، وهذا من باب الندب.

﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾: أفضل لكم من استرجاع رأس المال، أو الدَّين.

﴿إِن﴾: شرطية، ﴿كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: أنه خير لكم فافعلوه.

[٢٨١] ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾:

قال ابن عبّاس ﷺ، وغيره من العلماء: أنّ هذه الآية هي آخر آية نزلت من القرآن الكريم؛ أي: نزلت من السماء، وآخر موعظة تلقتها البشرية من خالقها.

قال ابن عبّاس ﷺ: توفِّي الرّسول بعدها بـ(٨١) يوماً، وقيل: (٣١) يوماً، أو أقل من ذلك.

﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا﴾: أي: اجعلوا بينكم وبين ما يقع في ذلك اليوم من أحداث عظيمة وقاية وحاجزاً.

أي: احذروا ذلك اليوم وتجنبوا وقائعه بطاعة الله بامتثال أوامره، وتجنب نواهيه.

﴿يَوْمًا﴾: بصيغة التنكير؛ للتعظيم، والتهويل لما يحدث في يوم القيامة من الأهوال.

﴿تُرْجَعُونَ﴾: ولم يقل: تَرجِعون، تُرجعون بضم التاء؛ لأنّ هذا الرجوع في ذلك اليوم يكون قسراً، وجبراً، وليس بإرادتكم.

﴿فِيهِ﴾: قدَّم فيه؛ أي: في ذلك اليوم حصراً، وقصراً ترجعون فيه ﴿إِلَى اللَّهِ﴾: وحده.

﴿ثُمَّ﴾: لترتيب الأخبار، وليس التراخي في الزمن.

﴿تُوَفَّىٰ﴾: تجزىٰ.

﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾: مؤمنة، أو كافرة، مطيعة، أو عاصية.

﴿مَّا كَسَبَتْ﴾: ما: اسم موصول؛ بمعنىٰ: الّذي (ولكنها أوسع شمولاً) كسبت من خير وشر، أو حسنات وسيئات، ولم يقل: ما عملت؛ لأنّ الآية في سياق الأموال والكسب، والكسب: هو بشكل عام جلب النفع أو دفع الضرر. ارجع إلىٰ سورة البقرة آية (٢٨٦) للبيان المفصل في الكسب.

﴿وَهُمْ﴾: ضمير فصل يفيد التّوكيد.

﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾: لا: النّافية.

﴿يُظْلَمُونَ﴾: من الظّلم، وهو نقصان الحق؛ أي: يعطون أجورهم كاملة، ولا ينقصون حسنة، ولا يزاد في سيئاتهم سيئة.

❖ ❖ ❖

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى
فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِۢبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ
كَاتِۢبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ
ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ
فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ
أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ
مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ
مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ
إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ
أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ
عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ
تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ
أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِۢبٞ
وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ
ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٨٢﴾

سورة البقرة [الآية ٢٨٢]

[٢٨٢] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾: نداء إلىٰ الّذين آمنوا بتكليف جديد.

﴿إِذَا﴾: ظرفية متضمنة معنىٰ الشـرط، وتدل علىٰ أنّ الأمر واقع لا محالة، أو كثير الوقوع، وهو التداين.

﴿تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾: الدَيْن هو الاقتراض إلىٰ موعد يسدَّد فيه القرض.

﴿تَدَايَنتُم﴾؛ أي: داين بعضكم بعضاً في شراء، أو بيع، أو قرض.

وهنـــاك كلمة تشـــابه الدَيْن هي الدِّيـــن: هو يوم الجـــزاء، والدِّين هو دين الإسلام.

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾: أي: وقت محدد بالأيام، أو الشهور، أو الأعوام؛ لأن هناك أجل مجهول مثل إلىٰ يوم الحصـــاد، أو يوم رجوع الحجاج، أو يوم ترجع من الحج، فربما مات الرجل، ولم يرجع، أو تأخرت به الطائرة، أو حدث حادث، فهذا غير مقبول.

﴿فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾: الفاء: رابطة لجواب الشرط، وتفيد التّوكيد.

اكتبوه: فعل أمر؛ أي: للندب، وقيل: للوجوب، وهو تشـــريع سماوي، فقد يموت أحدكم، والهاء: تعود إلىٰ الدَيْن (فاكتبوا الدَيْن).

ولا تقل: نحـــن أصحاب ويثق بعضنـــا ببعض، ولا داعـــي للكتابة، فهذا مخالف للآية.

﴿وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾:

﴿وَلۡيَكۡتُب﴾: اللام: لام الأمر، أو التّوكيد.

والكتابـــة: هي لحماية الدائن (الّذي أعطىٰ القرض)، كذلك، فلولا الكتابة فقد يتقاعس المَدِين (الّذي تســـلَّم القرض)، ويماطل، ويمدد الوقت، وتحدث خلافات بين الطرفين.

﴿وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾: أي: لا الدائن، ولا المدين لهما حق الكتابة، فلا بد من رجل ثالث يسمىٰ كاتب العدل، ليس له مصلحة في القضية.

﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾:

﴿وَلَا يَأْبَ﴾: لا: النّاهيــة، ﴿كَاتِبٌ﴾: نكرة؛ أي: أيُّ إنســان يعرف الكتابة والقراءة عليــه ألا يمتنع إذا طُلــب منه الكتابــة، ﴿أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾: بالعدل، أو كتابة العقود، كما أمره الله.

﴿فَلْيَكْتُبْ﴾: هــذا حضٌّ له على التطوع للكتابــة إذا لم يوجد غيره، أو لــم يُطلب منه؛ لكونهم لا يعرفون أنه قادر علــى الكتابة فعليه أن يتطوع، ويتقدَّم للكتابة.

﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾:

أي: الذي عليه الدَيْن هو الّذي يملــي الصيغة، والكتابة تكون حُجَّة عليه، ولذلك الدائن لا يمل، ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾: ذكر الله والرب معاً؛ لإدخال الخوف والردع في ضمير السامع، فيكون حذراً.

﴿اللَّهَ﴾: اسم العلم؛ أي: الإله المعبود، ﴿رَبَّهُ﴾: الّذي خلقه ورباه، وتولَّى أمره، ورزقه.

وقوله: الله ربه فيها تذكير بالعبودية والربوبية معاً، فذكر كليهما معاً يحمل على الخشية، والخوف أكثر.

﴿وَلَا يَبْخَسْ﴾: والبخــس: النقص بالظلم؛ أي: لا ينقص منه شــيئاً ظلماً، وقدَّم الجار والمجرور للتوكيد ليعني: ولا ينقص من الحق الّذي عليه شيئاً.

أما النقصان فيكون بظلم، أو بغير ظلم، وبخفاء وغفلة عن صاحب الحق.

﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾:

﴿فَإِن﴾: الشرطية؛ للدلالة على قلة حدوث هذا الأمر؛ أي: أن يكون الّذي عليه الحق سفيهاً.

﴿سَفِيهًا﴾: الّذي لا يحسن التصرفات المالية؛ كأن يكون مبذراً؛ أي: سيِّئ التصرف.

﴿أَوْ ضَعِيفًا﴾: كالشيخ الكبير، أو الصبي، ضَعيفاً: بفتح الضاد مقارنة بقوله تعالى في الآية (٢٦٦) في نفس السورة ﴿وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ﴾ بضم الضاد؛ فأما ضعيفاً بفتح الضاد تعني: الضَعف قد يكون في الجسم والرأي والعقل، وأما الضُعف: بالضم يكون في الجسم خاص.

﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ﴾: كالأخرس، أو المريض، ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾: عندها يقوم الولي، أو الوصي بالإملاء.

ولا تكفي الكتابة، ولا بد من أمر ثانٍ وهو إحضار شهيدين، فقال:

﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾: ولم يقل: وأشهدوا، إنما قال: واستشهدوا، اطلبوا إحضار شهيدين، ولم يقل: شاهدين، فالألف والسين والتاء؛ للطلب، وتفيد المبالغة في إحضار شهيدين.

وشهيدين غير شاهدين: الشّهيد صيغة مبالغة من الشاهد، والشّهيد يعلم بواطن الأمور وظواهرها، ويدرك كل صغيرة وكبيرة، وليس كالشاهد؛ أي:

الحاضر فقط، شـاهد معروف بين النّاس بعدالته، وصدقه، وأمانته، وليس مجرد شـاهد؛ أي: له القدرة والعلم بالشهادة، وتكررت شـهادته، واستشهدوا أقوىٰ وأبلغ من وأشـهدوا. ارجع إلىٰ الآية (١٣٣) من سورة البقرة؛ لمعرفة الفرق بين الشاهد والشّهيد.

﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾:

﴿فَإِن﴾: الفاء: عاطفة، إن: الشرطية تفيد الاحتمال، ﴿لَّمْ﴾: نافية، ﴿يَكُونَا رَجُلَيْنِ﴾.

﴿فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾: الفاء: جواب الشرط.

﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾: ممـن كان معروفاً بصدقه، وأمانته، ودينه، من الشهداء: جمع شاهد، أو شهيد، وهنا تعني جمع شهيد.

﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾:

الضّلال هنا: يعني النسـيان، أو الخطأ، أو السـهو، أو الضياع، أن تنسـىٰ إحداهما فتذكر إحداهما الأخرىٰ إن نسـيت، والنسيان قد يطرأ لأي منهما، فلا تظن إحداهما أنها هي المذكرة للأخرىٰ، ولذلك كرَّر كلمة إحداهما مرتين.

وقال: أن تضل، أن: شـرطية تسـتعمل في الاحتمال، أو قلة الحدوث، أو الشك؛ أي: خشية أن تضل إحداهما، وقد لا يحدث ذلك.

﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟﴾:

﴿وَلَا﴾: الواو: عاطفة، لا: ناهية.

﴿يَأْبَ﴾: يرفض، ويمتنع إذا طلب من الشهداء أن يشهدوا.

والشهادة لها مرحلتان: مرحلة التحمُّل، ومرحلة الأداء.

وسماهم الشهداء: قبل التحمُّل (تحمُّل الشهادة)؛ لرفع منزلتهم.

واستعمال (إذا ما) بدلاً من (إن) دعوا: تدل على حتمية الحدوث؛ أي: يجب ألا يأبوا.

واستعمال (ما) للتوكيد، وكان يكفي أن يقول: إذا دعوا، وذلك لأنّ الشّهيد قد يتباطَأ، أو يتقاعس عن الشهادة؛ لأنه ليس له مصلحة فيها، أو قد يلحقه ضرر، ولذلك أكد بـ(ما).

﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا﴾:

﴿وَلَا﴾: الواو: عاطفة، لا: النّاهية.

﴿تَسْـَٔمُوٓاْ﴾: أي: تكسلوا، وعبر عن الكسل بالسأم، أو لا تضجروا أو تملوا ﴿أَن تَكْتُبُوهُ﴾: سواء كان ديناً ﴿صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا﴾: فلعل الكاتب ملَّ الكتابة من كثرة الكتابة، وكثرة الدعاوى.

﴿إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾: إلى الوقت المسمى، والمحدد الّذي اتفق عليه الدائن والمدين بالأيام، والأشهر، أو الأعوام.

﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾: تشير إلى الكتابة والشهادة.

﴿أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾: أقسط؛ أي: أعدل وأحفظ، وأقسط: على وزن أفعل؛

أي: أفضل؛ أي: فيه مبالغة في العدل، وأقسط تعني: العدل مع تنفيذه وعدم الجور والظلم.

وقال: عند الله؛ لأنه هو أَمرَ بذلك.

﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ﴾: ﴿وَأَقْوَمُ﴾: من الإقامة؛ أي: أن تؤدىٰ الشهادة علىٰ التمام، والكمال من دون نقص، أو زيادة، وأقوم: علىٰ وزن أفعل، وفيه مبالغة علىٰ الإقامة.

﴿وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا﴾: ﴿وَأَدْنَىٰٓ﴾: أقرب؛ لتجنب أي ريبة.

﴿أَلَّا﴾: أنّ + لا، أن: حرف مصدري يفيد التعليل والتوكيد، وأدنىٰ علىٰ وزن أفعل للمبالغة.

﴿تَرْتَابُوٓا﴾: الريبة: هي الشك، والتهمة في قلوب أحدكم، سواء كان الدائن والمدين والشهداء.

﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾:

﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء، ﴿أَن﴾: مصدرية تفيد التعليل والتوكيد.

﴿تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾: أي: إذا كانت التجارة البيع والشراء يداً بيد، وليس فيها أجل مسمىٰ، أو دين، وتأخير في المداولة.

﴿فَلَيْسَ﴾: الفاء: للتوكيد، وليس: للنفي، ﴿عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾: لا إثم من عدم

الكتابة، ولكن أشهدوا، وجناح: مشتقة من الميل عن الحق. ارجع إلى الآية (١٥٨) من نفس السورة لمزيد من البيان.

﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا﴾: إذا: شرطية تفيد الحتمية، أو الكثرة، ﴿تَبَايَعْتُمْ﴾: اشتريتم، أو بعتم؛ أي: الإشهاد؛ أي: الشهادة كافية دون الحاجة إلى كاتب العدل، أو الكتابة، أو الإشهاد واجب، أو مندوب، وقال بعض المفسرين: إن شاء أشهد، وإن شاء لم يشهد.

﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾: الواو: عاطفة، لا: النّاهية، ﴿يُضَآرَّ﴾: بالإدغام.

﴿يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾: لها معنيان، الأول: لا الكاتب، ولا الشّهيد يضر المدَّعي، أو المدَّعى عليه بالتحريف، أو الكتم، أو التغيير، أو رفض الكتابة، أو الامتناع عن الأداء.

والمعنى الثّاني: لا الكاتب، ولا الشّهيد يُضر بضم الياء؛ أي: بالأذى في ماله، أو بدنه، أو تعطيل عمله؛ أي: لا يؤذيان، ويهددان إذا شهدوا لأي طرف بالقول، أو الفعل.

وتكرار لا: للتوكيد، فلا يضارَّ أيٌّ منهما أو كلاهما معاً.

﴿وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾:

﴿وَإِن تَفْعَلُواْ﴾: إن: الشرطية تدل على الشك في وقوع ذلك الضرر، وهذا تزكية لهم؛ أي: أنهم عدول، ولن يفعلوا ذلك، وأما إن ضر أحدٌ منكم الآخر سواء

كان الدائن، أو المدين، أو الكاتب، أو الشـــهداء، فهو فاسق: أي: عاص، وخارج عن أمر الله.

﴿فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾: أي: خروج من طاعة الله، وعليكم إثمه، وتبعته.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾: أطيعوا أوامره تعالىٰ، وتجنَّبـــوا نواهيه، وذلكم وقاية لكم من غضبه، وعقابه، وناره.

﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾: كل ما تحتاجونه في دنياكم، ويعلمكم دينكم الحق.

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾: ﴿بِكُلِّ﴾: الباء: للإلصاق، ﴿شَىْءٍ﴾: نكرة مهما كان هذا الشّيء، والشيء هو أقل القليل، مهما كان نوعه، وشكله، وحجمه، ولونه، وقول أو فعل، سرّاً أو علناً، حسناً أو سيئاً.

﴿عَلِيمٌ﴾: صيغة مبالغة من عالم علىٰ وزن فعيل؛ أي: كثير العلم.

عليم بكل ما تقولونه من صدق وكذب وحق وباطل، وبكل ما تفعلونه من خير وشر، وتكتبونه، وبما تشهدون عليه، وما تملونه، وما تديرونه بينكم، وعليم بنواياكم، وما تخفيه صدوركم.

❖ ❖ ❖

۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ
فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ
ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ
ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ
يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ
وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ
إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ
وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا
وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ
ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ
رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ
عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا
تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۚ
أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

سورة البقرة [الآيات ٢٨٣ - ٢٨٦]

[٢٨٣] ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾:

﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾:

﴿وَإِن﴾: شرطية تدل على الاحتمال، وقلة الحدوث؛ أي: أن تكونوا على سفر ولم تجدوا كاتباً.

﴿كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾: سفر لا يُقصد فيه المعصية؛ أي: سفر البر والصلاح.

﴿وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا﴾: أي: من يكتب لكم الدَيْن.

﴿فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾: أي: عوضاً عن الكتابة فرهان مقبوضة هدفها حماية الدائن؛ أي: أن يضع المدين رهناً لدى الدائن؛ أي: دائنه عوضاً عن الكتابة، هذا في حال الخوف منه، أو عدم معرفته بشكل يبعث على الطمأنينة والأمان.

﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾:

﴿فَإِنْ﴾: الفاء: عاطفة، إن: شرطية.

﴿أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾: أي: إذا كان المدين؛ أي: الّذي يحتاج إلى القرض أميناً وعدلاً وذا أمانة وسمعة طيبة بين النّاس، فلا حاجة لدائنه أن يطلب منه رهناً.

﴿فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾:

﴿فَلْيُؤَدِّ﴾: الفاء: للترتيب، والتعقيب، والمباشرة، أو التّوكيد.

﴿ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾: ﴿ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ﴾: هو (المدين)؛ أي: جاء الموعد

فعليه إيفاء الدَين (وسمى ذلك أمانة)، والذي اؤتمن يعني: أو يشمل الّذي تسلَّم الرهان المقبوضة.

فواحد مأمون على الرهن، والآخر مأمون على الدَين.

لأنّه ليس هناك كتابة، ولا شـــهود، فعلى المدين إيفاء الدَين، وعلى الدائن إعادة الرهن.

﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾: كل واحد منهما ربه؛ أي: يخاف عقابه إن راودته نفســه بالمماطلة، والتأخير، أو الإنكار، أو التغيير، أو التحريف في تلك الأمانة.

﴿وَلَا تَكْتُمُوا ٱلشَّهَـٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾:

﴿وَلَا﴾: الواو: استئنافية، لا: النّاهية، والخطاب موجَّه إلى الشهود.

﴿تَكْتُمُوا ٱلشَّهَـٰدَةَ﴾: الشهادة: مصدر شهد من الشهود؛ بمعنى: الحضور، وهي الخبر بالشيء الواقع الّذي شهدته؛ أي: القاطع الّذي لا يتغير.

﴿تَكْتُمُوا﴾: من الكتمان، وهو السكوت عن ذكر الشّيء للعلن، والكتمان يختص بالأســـرار والأخبار (أي: بالمعاني)، وأما الإخفاء فهـــو أعم، وغالباً ما يكون في الأشياء المادية الحسية والمعنوية.

وكتم الشـــهادة هو عقد النية؛ لترك أدائها؛ أي: إياكم أن تكتموا الشهادة إذا دعيتم إلى إقامتها.

﴿وَمَن يَكْتُمْهَا﴾: من: شرطية استغراقية.

﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾.

﴿فَإِنَّهُۥٓ﴾: الفاء: للتوكيد، إنّه: لزيادة التّوكيد.

﴿ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾: خـــصَّ القلـــب بالذكـــر؛ لأنّ الكتمان من عمـــل القلب،

والجوارح كلها خاضعة للقلب، وتتبع القلب؛ لذلك نسب الإثم إلىٰ القلب، وليس إلىٰ النفس، أو الذات، أو العبد.

أي: كاتم الشهادة سوف يعاقب علىٰ الذّنب العظيم، وفيه تهديد ووعيد لمن يكتم الشهادة، أو يقول الزور.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾: ﴿بِمَا﴾: الباء: للإلصاق، ما: اسم موصول بمعنىٰ الّذي تعملون، أو مصدرية (وما أوسع شمولاً من الذي).

﴿تَعۡمَلُونَ﴾: تضم الأقوال والأفعال، وقدَّم تعملون علىٰ عليم، ولم يقل: الله عليم بما تعملون؛ لأنّ السياق في الأعمال، وكتابة الدَّين، وأداء الأمانة.

﴿عَلِيمٞ﴾: ارجع إلىٰ الآية (٢٨٢) من سورة البقرة للبيان.

[٢٨٤] ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾:

﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: ملكاً، وخلقاً، وحكماً، وتدبيراً.

فهو مالك لهنَّ، وما فيهنَّ، الكل ملكه، وتقديم الجار والمجرور.

لفظ الجلالة للحصر، والقصر، فلا مالك إلا هو، وهو المالك الحق، (ولم يقل: ما في السموات وما في الأرض لله).

﴿مَا فِي﴾: ما: اسم موصول، وهي مطلقة تشمل العاقل، وغير العاقل، ما في السموات السبع وما فيها من كواكب ومجرات ونجوم وغيرها، وما في الأرض وما فيها؛ أي: أنّ الله سبحانه هو الخالق، والمالك، والحاكم، والغني.

وتكرار (ما) في السموات، و(ما) في الأرض: يفيد التّوكيد، وفصل كل عن الآخر، أو كلاهما معاً.

لأنّ هناك أشياء موجودة في السماء، وليست في الأرض، أو أشياء موجودة في الأرض، وليست في السماء.

والظرف السموات، وما فيهنَّ هو المظروف.

والظرف الأرض، وما فيها هو المظروف.

﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾:

﴿وَإِن﴾: الواو: عاطفة، إن: شرطية.

﴿تُبْدُواْ﴾: من الإبداء، وإبداء ما في النفس هو إظهار ما يضمره العبد، سواء بالنطق، أو العمل به.

﴿مَا﴾: اسم موصول تفيد الشمول (كل شيء تبدونه من خير، أو شر صغير، أو كبير تنطقون به، أو تفعلونه في كل زمان، وفي كل مكان).

﴿فِيٓ﴾: ظرفية زمانية ومكانية.

﴿أَوْ﴾: للتقسيم.

﴿تُخْفُوهُ﴾: من الإخفاء، ويشمل الكتمان، والسر، والكتمان يكون للمعنى، أو الأشياء المعنوية مثل كتم السر، أو الخبر، والإخفاء يكون للأشياء الحسية خاصة، والمعنوية أحياناً.

﴿مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾: ولم يقل: ما في نفوسكم؛ لأنّ الأنفس أقل من النفوس (النفوس تعني: كل نفس).

فيصبح المعنى: إن الله سيحاسب أنفساً، وليس كلَّ النفوس؛ لما تبديه، ولما تخفيه؛ أي: يعفو، ويغفر لمن يشاء، وسيحاسب من يشاء.

وهل يعني: سيحاسب الله كلَّ نفس على نوازعها الكثيرة الّتي تضم الهواجس (والخواطر، وأحاديث النفس، والوساوس، والهم؛ أي: النية والقصد، والعزم؟) الجواب: لا.

وما قاله الفقهاء في هذا: أنّ الوساوس، وأحاديث النفس، والخواطر لا

تدخل فيما ستحاسب عليه النفس، ولكن الّذي سيحاسب عليه الله سبحانه هو العزم، أو ما يُبدي الإنسان، وليس ما يُخفي؛ أي: حين يبدأ بفعل المعصية أو السيئة ولا رجعة بعدها.

﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾: يستر من أراد مغفرته، (واللام في لمن: للتوكيد)، يستره بفضله.

﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾: يعاقب من أراد تعذيبه.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: على محاسبتكم، وجزائكم، ومغفرتكم، وعذابكم.

وفي هذه الآية قدَّم الإبداء (الإظهار) على الإخفاء، فقال: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾: للاهتمام، والمفروض من المؤمن أن يكون سرُّه كجهره، وليس كالمنافق الّذي يختلف ظاهره عن باطنه.

عن أبي هريرة قال: لما نزل على رسول الله ﷺ: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾: اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فأتوا رسول الله ﷺ، ثم جَثَوْا على الرُّكب، فقالوا: أي: رسول الله! كلفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة، والصّيام، والجهاد، والصدقة، وقد أنزل الله هذه الآية، ولا نطيقها، فقال رسول الله ﷺ: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتاب من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير.

فلما قرأها القوم وذلّت (لانت) بها ألسنتهم، أنزل الله في إثرها: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾». رواه مسلم، وأحمد، وابن حبان.

[٢٨٥] ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ

وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾:

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ ﴾: أولاً ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾: آمنوا ثانياً بعد أن بلغهم الرسالة.

﴿كُلٌّ ﴾: للتوكيد؛ أي: الرّسول ﷺ، والمؤمنون.

﴿ءَامَنَ بِٱللَّهِ ﴾: (بأركان الإيمان). آمن بالله: هو الاعتقاد الجازم واليقين بوجوده وأنه الإله الحق وبواحدانيته سبحانه وتعالىٰ وربوبيته وإلوهيته وأسمائه وصفاته بدون تحريف أو تعطيل أو تمثيل أو تكييف.

﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾: ارجع إلىٰ الآية (١٧٧) من نفس السورة.

﴿بِمَآ ﴾: الباء: للإلصاق، والملازمة.

﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ ﴾: من الوحي والقرآن، إيمان عقيدة، وتصديق معاً، والمؤمنون كذلك آمنوا بكل أركان الإيمان.

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾:

﴿لَا ﴾: النّافية، ﴿نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾: أي: نحن نؤمن بكل رسول ونبيٍّ، ونصدِّق أنّ كلاً منهم قد بلغ رسالته، وأنّ عقيدتهم واحدة (لا إله إلّا الله)، والإسلام، وإن اختلفت الأحكام باختلاف العصور، ولا نؤمن ببعض الرسل، ونكفر ببعض، فالإيمان لا يتجزأ.

﴿وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾:

﴿وَقَالُوا۟ ﴾: الرّسول والمؤمنون.

﴿سَمِعْنَا ﴾: ما أُنزل إلينا من الوحي (القرآن)، وما شرعت لنا، واستجبنا.

﴿وَأَطَعْنَا﴾: ما أمرنا الله سبحانه به، وما نهانا عنه، وما أحلَّ لنا وحرَّم علينا، وما أمرتنا أنت به وما نهيتنا عنه، وما أحللت لنا وحرَّمت علينا.

﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾: تعني طلب المغفرة من الله فقط، ولا تستعمل إلا مع الله سبحانه؛ أي: اغفر لنا ربنا، أو نستغفرك ربنا، أو نسألك المغفرة، والمغفرة تشمل الستر مع العفو، والثواب على الأعمال الصالحة.

﴿وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾: تقديم الجار والمجرور يفيد الحصر؛ أي: إليك وحدك المصير (المنتهى)، المرجع؛ للمحاسبة والثواب.

[٢٨٦] ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾:

في الآية السابقة قال سبحانه ما معناه: لن يحاسبكم على الوساوس، أو الخواطر، وأحاديث النفس، وفي هذه الآية: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

﴿لَا﴾: النّافية؛ أي: ينفي الله سبحانه أن يكلِّف نفساً إلَّا وسعها.

﴿يُكَلِّفُ﴾: لا يلزم، ﴿اللَّهُ نَفْسًا﴾: بأمر، أو عبادة، أو فرض، أو يأمرها بأي أمر تكليفي فوق قدرتها.

﴿إِلَّا﴾: أداة حصر، ﴿وُسْعَهَا﴾: والوسع: هو القدرة + ما يستطيع القيام به من الزّيادة (التطوع).

﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾: الكسب: قد يكون في الخير والشر؛ أي: ما أصابت من الخير، والكسب: هو جلب نفع أو دفع ضرر، اللام تفيد الاختصاص، والاستحقاق، ﴿مَا﴾: اسم موصول؛ بمعنى: الّذي وهي أعم شمولاً من الذي، أو مصدرية. الكسب: سواء لنفسه، أو لغيره، والكسب يتم من دون تكلف،

ويستعمل في الخير عادة؛ أي: لها ثواب ما عملت، أو كسبت من الخير، وقد يستخدم في الشر أحياناً من باب التهلكم أو السخرية.

﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾: اجتهدت في تحصيله من المعاصي على فيها معنى المشقة والعلوية، ﴿مَا﴾: اسم موصول؛ بمعنى الّذي، أو مصدرية، ﴿اكْتَسَبَتْ﴾: على وزن افْتَعَلَ، والاكتساب يكون على نفسه فقط، وفيه جهد، وافتعال، ومشقة، وتكلُّف، وتستعمل في الشر، وارتكاب المعاصي؛ أي: عليها وزرُ ما اكتسبت من الشر واجتهدت في تحصيله، وكل اكتساب كسب، وليس كل كسب اكتساباً، وقد وردت كلمة كسب أو اكتسب ومشتقاتها في (٦٧) في القرآن ووردت بصيغة الماضي والمضارع، وجاءت بمعان عدة منها: العمل، والجمع، والرشوة، وغيرها...، ومنها كسب الصالحات، والسيئات، والأموال، ومنها: الخبيث، والطيب.

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾:

﴿رَبَّنَا﴾: لا تعاقبنا، ﴿إِن﴾: شرطية تفيد الاحتمال، والندرة، ﴿نَّسِينَا﴾: من النسيان: هو ترك بغير اختيار الإنسان، ويختلف عن الغفلة التي هي ترك باختيار الغافل، والغفلة: اسم عام فكل نسيان غفلة، وليس كل غفلة نسيان؛ أي: الغفلة أعم من النسيان، وقيل: النسيان الغفلة عن الشيء مع انمحاء صورة أو معناه عن العقل أو الخيال بالكلية، وأما الغفلة عن الشيء فهي عدم حضور الشيء في الذاكرة أو الخيال؛ أي: انمحاء صورة أو معناه بشكل كامل أو مؤقت، والنسيان هنا يكون عن عمد أو يعني كذلك الترك العمد.

﴿أَوْ أَخْطَأْنَا﴾: من الفعل الرباعي أخطأ؛ أي: ارتكب الخطأ بغير عمد واسم الفاعل المخطئ فهو المرتكب الخطأ من دون قصد وتعمد، فالخاطئ يعلم الصواب ويتعدّاه، أما المخطئ فلا يعلم الصواب، وأما الفعل الثلاثي خطِئ بكسر الطاء: وهو الذي يتعمد الخطأ، أو يقع في الذنب وهو يعلمه كقوله تعالى: ﴿إِنَّكِ

﴿كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ [يوسف:٢٩]، وفاعل خطِئ مخطئ، فقالوا الفعل الثلاثي خطِئ (خاطئ) في العمد، والرباعي أخطأ (مخطئ) في غير العمد، وهناك من العلماء من قال كلاهما يستعمل في العمد وغير العمد، أو في غير العمد، وهناك من قال الخاطئ من أراد فعلاً لا يحسنه ففعله، والمخطئ من أراد فعلاً يحسنه فوقع منه غيره.

لأنّ النسيان، أو الخطأ الناتج عن السَّهو، ومن دون تعمد، أو قصد: لا إثم عليه أصلاً.

﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾:

﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ﴾: من التحميل، والتحميل: لا يكون إلَّا لما يستثقل من التكاليف الشاقة والقيود، أما التكليف فقد يكون لما لا ثقل له من التكاليف مثل: الاستغفار، والتسبيح، والذِّكر، فكل ذلك تكليف وليس تحميلاً.

﴿عَلَيْنَآ﴾: تفيد الاستعلاء والمشقة.

﴿إِصْرًا﴾: الإصر: الأمر الغليظ الصعب؛ أي: التكاليف الشاقة، والقيود، والإصر: يطلق على العهد الثقيل، وما كان ناتج عن يمين موثق.

﴿كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾: الكاف: كاف التشبيه، ﴿حَمَلْتَهُۥ﴾: فرضته، وحملته ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾: أمثال بني إسرائيل، وغيرهم مثل الزكاة بربع المال، والتوبة لا تقبل، والطهارة إلَّا بقطع مكان النجس، وإحراق الغنائم، وتحريم شحوم الأغنام، والبقر، وغيرها من الأحكام.

ما الفرق بين الإصر والوزر: الإصر: هو التكاليف الشاقة والقيود في العبادات، والطاعات، أو العهد، أو اليمين المؤكد مثال: ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾ [آل عمران:٨١].

والوزر: الذّنب، أو الإثم، وأصل الوزر: الحمل الثقيل على الظهر، واستعير للذنب؛ لأن الذّنب له ثقل مثال: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنعام:٣١]، ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح:٢].

﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا﴾: من العقوبات، والمصائب، والكوارث، والصواعق، والابتلاءات ﴿مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾.

فهم دعوا ربَّهم الإعفاء من التكاليف الشاقة في العبادات، والإعفاء من الكوارث الكونية، والمصائب والبلايا.

﴿مَا﴾: اسم موصول؛ بمعنى: الّذي، لا: نافية للجنس.

﴿طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾: الطاقة: هي الوسع + المقدرة (غاية مقدرة القادر).

﴿مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾: من العبادات، أو الأعمال الشاقة.

﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾:

﴿وَٱعْفُ عَنَّا﴾: العفو: هو ترك العقوبة على الذّنب؛ أي: لا تعاقبنا على ذنوبنا.

﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾: استر ذنوبنا، ولا تفضحنا، وائتنا ثواب أعمالنا الصالحة.

وستر الذّنب يعني: إسقاط العقوبة؛ أي: العفو، فالمغفرة = العفو + استحقاق الثواب (إيجاب الثواب)، وتعني: لا تطرح سيئاتنا من حسناتنا، وأعطنا الثواب كاملاً.

﴿وَٱرْحَمْنَآ﴾: جنبنا وأبعدنا عن الذّنوب، وارحمنا مشتقة من الرّحمة: وهي جلب ما يسر ودفع ما يضر، والرحمة تعني: إيصال النعمة؛ أي: أنعم علينا.

﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾: ﴿أَنتَ﴾: تفيد التّوكيد، أنت وحدك ﴿مَوْلَىٰنَا﴾: مالكنا، ومتولي أمورنا، وناصرنا.

﴿فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾: للحدِّ من فسادهم وعبثهم في الأرض، أو حتّىٰ يتبيَّن لهم الحق، والهدىٰ، والنصر: لا يعني النصر بالقوة، والسلاح فقط، بل بالحجَّة، والسلطان، وإظهار أمر الله (الإسلام) ولو كره الكافرون.

لو عكسنا الآية تكون كما يلي: ارحمنا (أبعدنا عن الذنوب)، واغفر لنا (استر ذنوبنا، ولا تفضحنا إذا ارتكبناها)، واعف عنا (لا تعاقبنا عليها).

فضل هاتين الآيتين:

روىٰ البخاري، عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه».

واختلف في معنىٰ كفتاه: قيل: أجزأتاه عن قيام الليل، أو قيل: كفتاه أجراً وفضلاً، وقيل: كفتاه من كل شيطان، أو من كل آفة.

وما رواه الإمام أحمد، عن أبي ذر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يعطهنَّ نبيٌّ قبلي».

وما رواه مسلم، عن ابن عبّاس ﷺ قال: «بينما رسول الله ﷺ وعنده جبريل؛ إذ سمع نقيضاً فوقه، فرفع جبريل بصره إلىٰ السماء، فقال: هذا باب قد فتح من السماء، ما فتح قط، قال: فنزل منه ملك، فأتىٰ النّبي ﷺ، فقال له: أبشر بنورين قد أوتيتهما، لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ حرفاً منهما إلّا أوتيته».

❖ ❖ ❖

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

ترتيبها ٣ آياتها ٢٠٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ
بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۖ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن
قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ ۖ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ
عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ
شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ
فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾ هُوَ
الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ
وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ۖ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ
مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ
وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ
إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ
لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ
النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٩﴾

سورة آل عمران [الآيات ١ - ٩]

ترتيبها في القرآن (٣) وترتيبها في النزول (٨٩) نزلت بعد سورة الأنفال.

وتسمىٰ سورة البقرة، وآل عمران بالزَّهْرَاوَين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[١] ﴿الٓمٓ﴾:

ارجع إلىٰ الآية (١) من سورة البقرة؛ للبيان.

[٢] ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾:

﴿اللَّهُ﴾: هو الاسم الأعظم الذي تفرد به الحق سبحانه، واختصه لنفسه، وقدَّمه علىٰ سائر أسمائه الجامع لجميع صفات الكمال الإلهية، فهو يدل علىٰ المعبود، ولا معبود إلا هو، وكل اسم من أسمائه جل وعلا نعت له (أي: صفة له). ارجع إلىٰ سورة الفاتحة آية (١) لمزيد من البيان.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: ﴿لَآ﴾: النافية للجنس. ﴿إِلَٰهَ﴾: معبود بمعنىٰ مألوه علىٰ وزن مفعول؛ أي: لا معبود ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر، ﴿هُوَ﴾: ضمير متصل يفيد التوكيد والحصر.

﴿الْحَيُّ﴾: الواجب الوجود، الباقي الدائم من أزل الأزل إلىٰ أبد الأبد؛ أي: الباقي أولاً وأبداً، والأزل: هو دوام الوجود في الماضي، والأبد: هو دوام الوجود في المستقبل.

﴿الْحَيُّ﴾: واهب الحياة، والحي اسم جامع لصفات الذات؛ كالسميع، والبصير، والعليم، وغيرها.

الحي الذي لا ينام ولا يموت: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص:٨٨]، ولا يزول، ولا يحول.

﴿ٱلْقَيُّومُ﴾: دائم القيام بتدبير خلقه، وكونه، وملكه، وعرشه، القائم بذاته، وعظمته، وصفاته، والغني عن خلقه، لا يقوم شيء إلا به، السيد المدبر الحافظ للعالم بكل الأحوال، والأمور، وهو سبب وقوام لكل ما سواه.

والقيوم تعني: كامل التدبير، والقيوم اسم جامع لكثير من أفعال الله سبحانه؛ كالخالق، والبارئ، والمصور، والرزاق.

وقيل: الحي القيوم: اسم الله الأعظم. ارجع إلى سورة البقرة، آية (٢٥٥)؛ لمزيد من البيان.

[٣] ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾:

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾: نزل على وزن فعّل، وتدل على كثرة التنزيل، وإنه منزل منجماً (مفرقاً) في ثلاث وعشرين عاماً.

﴿عَلَيْكَ﴾: يا محمد ﷺ.

﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: يقصد به القرآن في هذه الآية، يسمى الكتاب؛ لكونه مكتوباً في السطور، وفي اللوح المحفوظ، وجاء بـ(ال) التعريف؛ للدالة على الكمال؛ أي: الكتاب الكامل التام.

والكتاب (القرآن) له نزولان:

نزول أول: أنزل جملة واحدة (دفعة واحدة، أو مرة واحدة) من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، أنزل في ليلة القدر في شهر رمضان ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان:٣]، ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر:١]، ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة:١٨٥].

نزول ثان: منجماً؛ أي: مفرقاً؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء:١٠٦].

نزل به جبريل عليه السلام في ثلاث وعشرين سنة حسب الأحداث والوقائع والحاجة علىٰ رسول الله ﷺ منذ بعثته إلىٰ وفاته.

فعندما يقول: أنزل؛ أي: جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلىٰ السماء الدنيا، وعندما يقول: نزل منجماً متفرقاً (أي: بالتدرج) نزل علىٰ رسول الله ﷺ خلال (٢٣) سنة.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾؛ أي: أنزله الله سبحانه، وأنزل مقصورة علىٰ الله سبحانه، وتعني: مصدر الإنزال من الله سبحانه؛ أي: هو المنزل.

﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾؛ أي: جبريل عليه السلام.

﴿نَزَلَ بِهِ﴾: بـه: تعود علىٰ الكتاب؛ يقصد بـه القرآن في هذه الآية، فكلمة نزل: قد تنسب إلىٰ جبريل عليه السلام، وتعني: آلية النزول، وطريقته. ارجع إلىٰ الآية (٤) من سورة البقرة؛ لمزيد من البيان.

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ﴾: كلمة عليك يستعملها بمعنىٰ التشريف، وفي سياق الأمور الخاصة، والعبادة، وعلىٰ: تعني: العلو، والمشقة، فالقرآن نزل علىٰ الرسول ﷺ من أعلىٰ؛ أي: من جهة واحدة، هي السماء العليا.

وأما كلمة نزل إليك: إليك: يستعملها في سياق الدعوة، والتبليغ، والتعميم، وإلىٰ تقيد الانتهاء؛ أي: انتهاؤه إلىٰ عامة الناس، والغاية من الإنزال: هو أن ينتهي إلىٰ أيدي الناس ليقرؤوه.

وإلىٰ: لا تعني جهة معينة، فالكتب تنزل علىٰ الرسل أولاً، وتنتهي إلىٰ أممهم، عليك: تشير إلىٰ البداية، وإليك: تشير إلىٰ النهاية.

والخلاصة: إذا كان القصد، أو السياق، والنهاية إلىٰ الناس يستعمل إليك.

﴿بِٱلْحَقِّ﴾: الباء: للإلصاق، والملازمة؛ أي: ملازمة للحق، فالكتاب: هو الحق، والحق هو الكتاب.

والحق: هو الأمر الإلهي الثابت الذي لا يتغير.

﴿مُصَدِّقًا﴾: موافقاً. اسم فاعل من صدق؛ أي: موافقاً لما سبقه من الكتب السماوية، لا يخالفها في القضايا العقدية، والإيمانية، والنبوَّة.

﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: من الكتب السماوية؛ كالتوراة، والإنجيل.

﴿لِّمَا﴾: (اللام - ما) اللام: للتوكيد، ما: اسم موصول يستعمل في المفرد، والمثنى، والجمع، والمذكر، والمؤنث.

﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾: أنزل التوراة جملة واحدة على موسى عليه السلام، وأنزل الإنجيل جملة واحدة على عيسى عليه السلام.

﴿ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾: الكتاب الذي أنزل على موسى، والتوراة كلمة عبرية؛ تعني: الشريعة، والتوراة: تشتمل على خمسة أسفار: هي سفر التكوين، وسفر الخروج، وسفر اللاويين، وسفر العدد، وسفر تثنية الاشتراع، ويظن اليهود أن موسى هو الذي كتبها، ويسميها النصارى العهد القديم.

﴿وَٱلْإِنجِيلَ﴾: الكتاب الذي أنزل على عيسى، والإنجيل كلمة يونانية، معناها: البشارة، وهو ما أوحاه الله تعالى إلى عيسى عليه السلام، ويسمى العهد الجديد.

ويشمل أربعة أناجيل: هي إنجيل متى، ويوحنا، ومرقس، ولوقا.

ويشمل على تعاليم المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، وأعمال الحواريين.

وهي أناجيل كتبت بعد زمن طويل من وفاة المسيح عليه السلام.

[٤] ﴿مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾:

﴿مِن قَبْلُ﴾: إنزال القرآن؛ أي: أنزل الله سبحانه التوراة، والإنجيل من قبل نزول القرآن هُدىً للناس.

﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾: اللام: في كلمة الناس للاختصاص؛ أي: أنزلنا التوراة، والإنجيل، والقرآن من أجل هدايتهم.

﴿هُدًى﴾: نكرة تشمل كل أنواع الهداية التي يحتاجونها في حياتهم الدنيا، هدىً لهم للخروج من الظلمات إلىٰ النور، وهدىً للوصول إلىٰ الصراط المستقيم، أو الصراط الحق الموصل إلىٰ الغاية.

﴿وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾: وأنزل ما يفرق بين الحق، والباطل، والحلال، والحرام، والهدىٰ، والضلال بالدلائل، والآيات والبراهين في هذه الكتب جميعها.

فالقرآن، والتوراة، والإنجيل وصفها الله سبحانه وتعالىٰ بأنها الفرقان؛ لأنها كلها نور من الله تفرِّق به، وتميِّز بين الحق والباطل.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾:

المناسبة: بعد ذكر إنزال الكتب السماوية هدىً للناس، وما فيها من الفرقان فما مصير الذين كفروا بآيات الله؟ إن لهم عذاباً شديداً.

﴿إِنَّ﴾: للتوكيد.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾: ﴿كَفَرُوا﴾: جحدوا، ولم يصدقوا بآيات الله. الآيات المنزلة في كتبه، والآيات الكونية، والمعجزات التي أنزلها علىٰ رسله. الباء: للإلصاق، والملازمة.

﴿لَهُمْ﴾: اللام: لام الاختصاص.

﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾: في الدنيا والآخرة. عذابٌ: نكرة يشمل كل أنواع العذاب،

وهو عبارة عن عقوبة قد تكون في الدنيا أو الآخرة، والعذاب أوسع من العقاب، ولم يرد في القرآن أن الله سريع العذاب.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾: قوي لا يُغلب، ولا يُقهر، ولا يضره، ولا يناله أحدٌ بسوء، فله العزة جميعاً عزة الامتناع، والقوة، والغلبة، والقهر.

﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾: ذو انتقام من أهل الكفر، والانتقام: يعني: العقوبة والجزاء على أعمالهم؛ أي: يعاقب ويجازي الناس على أعمالهم.

﴿ذُو﴾: أشرف وأبلغ في الثناء، والمعنى من صاحب. ارجع إلى سورة الأنبياء، آية (٨٧)؛ لمزيد من البيان.

[٥] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾:

﴿إِنَّ﴾: للتوكيد.

﴿ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ﴾: ﴿لَا﴾: النافية للجنس، ﴿يَخْفَىٰ﴾: عليه شيء: لا يعزب، ولا يغيب عنه مثقال ذرة في السموات، ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك، ولا أكبر، ولا تخفى عليه خافية في الكون من أقوال، أو أفعال خلقه، أو مخلوقاته.

﴿شَيْءٌ﴾: أقل القليل، شيء نكرة؛ أيُّ شيء مهما صغر، ودق، أو كبر حجمه، وأي نوع.

﴿فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾: ظرفية تعني: الأرض ذاتها، وما فيها؛ وتعني: كل زمان، وتكرار لا تفيد التوكيد، وتفيد كلاً على حدة، السماء لوحدها والأرض لوحدها، وكليهما معاً.

والسماء: تعريفها كل ما علاك، وتشمل السموات السبع وما فيهن.

وفي هذه الآية تحذير لكل كافر بآيات الله سبحانه وتعالى.

[٦] ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾:

﴿ هُوَ ﴾: ضمير فصل يفيد الحصر والتوكيد.

﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول.

﴿يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾: أي: يخلق الناس في صور مختلفة متميز بعضها عن بعض في الصفات والأشكال والألوان، وكل ذلك ناتج الصفات الوراثية التي تقدر (٢٥-٣٠) ألف صفة وراثية، ويتم ذلك عند خلق الجنين، فقوله: ﴿يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾؛ يعني: يختار لكم الصفات الوراثية بحيث لا تجدوا إنساناً يشبه إنساناً آخر، منذ آدم إلى قيام الساعة، وهذا دلالة على طلاقة قدرته الخلقية الدالة على عظمته.

﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾: بتغيير الصبغيات، والجينات والمحفظة الوراثية.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾: ﴿لَآ﴾: النافية، ﴿إِلَٰهَ﴾: معبود، ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر، ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل يفيد التوكيد، ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: القوي الذي لا يُغلب، ولا يقهر، ولا يناله أحد بسوء، وعزيز المنعة، والغلبة، والقوة، ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴾: في تدبير خلقه، وكونه، وتشريعه، وصنعه، وأحكامه القدرية، والشرعية، والجزائية، أحكم الحكماء، يؤتي الحكمة من يشاء، لا يخلق شيئاً عبثاً، والحكيم مشتقة من الحكم؛ فهو الحاكم، ومشتقة من الحكمة؛ فهو أحكم الحكماء، وأحكم الحاكمين.

[٧] ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾:

﴿ هُوَ ﴾: ضمير فصل يفيد الحصر والتوكيد.

﴿ٱلَّذِىٓ﴾: اسم موصول يفيد التعظيم.

﴿أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾: ارجع إلى الآية (٣).

﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾: آيات الفرائض، والحدود، وآيات الأحكام كلها، والأسرة، والطلاق، والزواج، والعبادات، وآيات الأمر، والنهي، والحلال، والحرام.

﴿ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾: واضحة المعنى، ظاهرة الدلالة، لا تحتمل التأويل والاشتباه، ولا يختلف فيها الناس، ولا تتغير ولا تتبدل، ولا تحتمل إلا معنى واحداً، وهي عماد الدِّين، أو أصول علم الفقه، ارجع إلى سورة هود، آية (١)؛ لمزيد من البيان.

أمثلة على الآيات المحكمة: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾، ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ﴾، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾، ومعنى هذه الآيات واضح وجلي.

﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾: أم الكتاب؛ أي: الأصل؛ لأن أم كل شيء أصله.

ومما ذكر، أو كتب في أم الكتاب لا يتغير، ولا يتحول، ولا يقع فيه محو، أو تغير.

وأما ما ذكر في اللوح المحفوظ يمكن أن يتغير، ويتبدل؛ لقوله تعالى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾: لها معانٍ كثيرة متشابهة، أو متعددة، خفية وظاهرة.

مثل أمور الغيب، وفواتح السور: وهي آيات الاعتقاد، والقدر.

وتتعلق بصفات الله تعالى.

نسلم بها كما جاءت، وغير مسؤولين عن تأويلها.

وأفضل ما نقول فيها ما قاله الله تعالى ونسكت.

أمثلة: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾، ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، ﴿يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾.

والقرآن وصف كله بالتشابه، ووصف كله بالإحكام، فقال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود:١]، ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾ [الزمر:٢٣].

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾:

﴿فَأَمَّا﴾: الفاء: استئنافية، أما: حرف شرط وتفصيل.

﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول.

﴿فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾: الزيغ: هو الميل عن الحق، بسبب الأهواء، والشهوة، أو الشبهة، أو الفتنة، والزيغ: مشتقة من تزايغ الأسنان؛ أي: اختلاف منابتها، فتظهر خارجه، أو داخله.

في قلوبهم مرض الزيغ.

والزيغ: مرض يطرأ علىٰ القلوب التي تخلق لا زيغ فيها؛ لأنها تخلق علىٰ الفطرة السليمة، وما يجعلها تزيغ هي الأهواء، والشهوات.

﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾: يتخذون الآيات المتشابهات وسيلة للطعن، أو يعطلون صفات الله، أو يحرفونها؛ ليخدموا شهواتهم، وأهواءهم.

﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾: أي: يتبعون الزيغ طلباً لفتنة المؤمنين في دينهم، ومعتقداتهم، وليضلوا عقول الذين يضلونهم، وإثارة للشبهة، والتناقض، وتشكيك المؤمنين بدينهم، والتلبيس عليهم.

والفتنة: هي أشد الابتلاء، والاختبار، وتكون في الخير والشر، وأصلها مشتق من فتنة (عرض) الذهب علىٰ النار ليميز الجيد من الرديء، ولها معانٍ كثيرة، ومختلفة؛ منها: الكفر، والشرك، والأذية (أذىٰ الناس)، والقتل، والأسر، والضلالة، والزيغ، والعدول عن الحق والصراط، وتعني: الحجة، والمعذرة،

والتعذيب في النار، أو غيره، والوقوع في المعاصي، والنفاق، والعذاب، والصد عن سبيل الله، وغيرها.

﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾: طلباً للتأويل، وهو التحريف؛ ليوافق معتقداتهم الفاسدة، كما في تأويلهم خاتم النبيين: يقولون: إنه الخاتم الحقيقي الذي في الإصبع، وليس هو آخر النبيين، فهناك أنبياء سيأتون من بعده.

والتأويل: هو نقل ظاهر اللفظ إلىٰ دلالة أخرىٰ، أو معنىٰ آخر، ولا يجوز التأول كيف نشاء وله شروطه.

أما التفسير: فهو كشف المراد من اللفظ، أو المعنىٰ، أو الآية.

﴿وَمَا﴾: الواو: حالية؛ تفيد التوكيد، ما: نافية؛ لنفي الاستمرار، نفي مستمر.

﴿يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾: أداة حصر؛ أي: الله وحده سبحانه هو الذي يعلم تأويل المتشابه.

﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾: جمع راسخ، ورسوخ الشيء في الشيء ثبوته؛ أي: أتقنوا علمهم بلا شك ولا لبس، والقادرون علىٰ تأويله يعلمون المحكم والمتشابه، ويعلمون الشيء بدلائل كثيرة، ويعرفون أصل الشيء، ومن المفسرين من يقف علىٰ قوله إلا الله: ويفسرون المتشابه لا يعلمه إلا الله وحده ويبتدئ والراسخون في العلم يقولون، ومن المفسرين مَنْ عطف الراسخين في العلم علىٰ الله تعالىٰ؛ أي: الله سبحانه، والراسخون في العلم يعلمون تأويل المتشابه، ونتيجة علمهم يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ (نؤمن به جميعاً).

وفي كلا الحالتين: إن علموا تأويله وحكمته، قالوا: آمنا به كلٌّ من عند ربنا (نؤمن بالمحكم والمتشابه جميعاً)، وإن لم يعلموا تأويله، وحكمته قالوا: آمنا به كلٌّ من عند ربنا، النهاية نفسها.

وهناك من المفسرين من قال: إن من المتشابه في القرآن ما هو حقيقي، لا

يعلمه إلا الله سبحانه؛ كقوله: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، أو كيف ينزل إلىٰ السماء الدنيا، ومن المتشابه ما هو نسبي، والراسخون في العلم قادرون علىٰ تأويله، وإرجاعه إلىٰ ما جاء في المحكم.

وقيل: الراسخ: هو الثابت المتمكن في العلم.

﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾؛ (أي: المحكم والمتشابه)، ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾: المحكم من عنده، والمتشابه من عنده، لا يتناقض كلامه، ولا يختلف كتابه.

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: ما: النافية، يذكر: أصلها يتذكر؛ أي: لا يغفل، ولا ينسىٰ ذلك، أولو العقول النيرة الذين أسلموا وجوههم لله.

أولو التفكير، والتدبير، والحكمة، أو الصفوة من المؤمنين.

واللب: منطقة التفكير، والتدبر في العقل (وسموها قديماً باطن العقل).

وجاء تعريفهم في القرآن في سورة الزمر، آية (١٨): ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ﴾ (القرآن والسنة) ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ﴾ (المحسنين) ﴿ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾. ارجع إلىٰ الآية (١٧٩)، والآية (١٩٧) من سورة البقرة؛ لمزيد من البيان.

[٨] ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾:

﴿رَبَّنَا﴾: منادىٰ محذوف منه ياء النداء، وهي الياء التي تفيد البعد، ولم يقولوا: يا ربنا؛ لأن الرب قريب جداً، ولا يحتاج إلىٰ ياء النداء، فهو أقرب إلينا من حبل الوريد بعلمه سبحانه وتعالىٰ.

﴿لَا﴾: الناهية، وحاشا الله أن يُنهىٰ.

﴿تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾: تزغ من الزيغ، وهو الميل عن الحق (ارجع إلىٰ الآية:٧)، والفرق بين الميل والزيغ: أن الميل عام في الحق والباطل، والمحبوب والمكروه، أما الزيغ: خاص بالحق.

﴿بَعْدَ﴾: ظرف زمان.

﴿إِذْ﴾: ظرف زمان، بمعنى حين، وللتعليل.

﴿هَدَيْتَنَا﴾: أرشدتنا لدينك، وهديتنا للإسلام الحق.

ثم ذكر تتمة دعاء هؤلاء الراسخين في العلم:

﴿وَهَبْ﴾: من الهبة: والهبة: كل عطاء بلا مقابل، ومقتضى التمليك فيه تمليك؛ (أي: إذا وهبته ملكته)، وكل عطاء من الله هبة، والهبة عطاء من وراء الأسباب، وعطاء ليس حقاً للعبد، والهبة: قد تكون هبة في العطاء، أو هبة في المنع.

﴿لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾: فيها تقديم من لدنك على رحمة بدلاً من قوله: رحمة من لدنك، فيها تقديم لذات الله على الرحمة.

﴿رَحْمَةً﴾: نكرة تشمل كل رحمة مثل الغنى والصحة.

ولم يقل: منك، فمن لدنك خاصة بالمؤمنين فقط، أما لو قال: رحمة منك فهي رحمة عامة تشمل المؤمن والكافر.

﴿إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾: إنك: للتوكيد، أنت: ضمير فصل يفيد زيادة التوكيد، الوهاب: المنعم على العباد، والذي يهب بلا عوض، ولا حساب، واهب النعم الظاهرة والباطنة، وكثير النعم، دائم العطاء، شمل بره وكرمه سائر مخلوقاته.

الوهاب: صفة مشتقة فيها مبالغة لاسم الفاعل من فعل وهب.

[٩] ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾:

﴿رَبَّنَا﴾: ارجع إلى الآية (٨).

﴿إِنَّكَ﴾: إن للتوكيد.

﴿جَامِعُ النَّاسِ﴾: الأولين والآخرين، الإنس والجن، وأهل السماء وأهل الأرض، والظالم والمظلوم، وكل نبي وأمته، جامع الناس للحساب والجزاء.

﴿لِيَوْمٍ﴾: اللام: لام التوقيت (الدخول)، وهذا يدل على الاستقبال، يوم:

يــوم القيامة، يوم الجمع، يوم التغابن، يوم الحشــر، وقد تكــون اللام في كلمة (ليوم): لام التعليل؛ أي: لأجل ذلك اليوم؛ للدلة على تهويله وعظمته.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: لا: النافية، ريب: يعني: الشك والتهمة، فيه: ظرفية في زمن حدوثه.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾: إن: توكيد، الميعاد: يطلق على الزمان (وهو يوم القيامة)، والمكان (أرض المحشــر)، إنك لا تخلــف الزمان، ولا المكان، إنك جامع: اسم الله الجامع؛ أي: الذي جمع الكمالات كلها في ذاته، وصفاته، وأسمائه، وأفعاله، والذي يجمع الأولين والآخرين، جامع الخلائق يوم الحشر.

انتبه:

أولاً: هم يخاطبون اللــه إنك، ثم قالوا: إن الله لا يخلف الميعاد، بدلاً من إنــك لا تخلف الميعاد كما ورد في الآية (١٩٤) في نفس الســورة، الانتقال من صيغة الخطاب إلى الغيبة؛ للفت الانتباه، وكذلك إن الله لا يخلف الميعاد: خبر من الله تعالى، بينما إنك لا تخلف الميعاد في ســياق الدعاء، وقوله إنك بصيغة المخاطب أقوى وأبلغ من صيغة الخبر.

ثانياً: إلى الفرق بين الميعاد، والمعاد: ميعاد: من الوعد، وقت الوعد؛ أي: زمنه ومكانه.

أمــا المعاد: من عاد يعود، اســم مكان، ومعاد الرجل: عــودة الرجل إلى مكانه، يذهب إلى البلاد الأخرى، ثم يعود إلى بلده.

كقوله تعالــى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ [القصص:٨٥]؛ أي: إلى مكة. ارجع إلى سورة القصص آية (٨٥) لمزيد من البيان.

❖ ❖ ❖

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم
مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ
فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ
وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ
وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ
لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ
وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ
يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى
ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ
وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ
وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ
ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ
أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ
وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾

الحزب ٦

سورة آل عمران [الآيات ١٠ - ١٥]

[١٠] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾:

﴿إِنَّ﴾: للتوكيد.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن﴾: لنفي المستقبل القريب، والمستقبل البعيد.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: ارجع إلى سورة البقرة، آية (٦).

﴿تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾: لن: تقيهم أموالهم من عذاب الله، أو تنفعهم يوم القيامة، ولا أولادهم، وتكرار لا: (أداة النفي) تفيد: توكيد النفي، وتكرار (لا) تفيد لا أموالهم لوحدها، ولا أولادهم لوحدها، ولا كلاهما معاً تغني عنهم.

وقدم الأموال على الأولاد؛ لأن الكل يملك المال، وليس الكل يملكون أولاداً.

﴿مِّنَ﴾: ابتدائية، استغراقية.

﴿مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾: أي: من عذاب الله.

﴿شَيْـًٔا﴾: نكرة، والشيء: أقل القليل، والشيء كل ما يعلم ويخبر عنه سواء أكان حسياً أم معنوياً.

﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾: اسم إشارة يفيد البعد.

﴿هُمْ﴾: ضمير فصل يفيد الحصر والتوكيد. ولو قال تعالىٰ: وأولئك وقود النار لتم المعنىٰ، وجاء بالضمير للتوكيد والقصر.

﴿وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾: أي: يصورهم كالحطب حطب جهنم الذي تسعر به، وقود النار جملة اسمية تفيد الثبوت. وتشير إلىٰ شدة العذاب والإهانة.

[١١] ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾:

دأب هؤلاء الذين كفروا: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: أمثال قوم نوح، وعاد، وثمود، ولوط.

الدأب: أي: الحال، والشأن، والدأب يعني: السعي المتواصل حتىٰ يصبح كالعادة، ولكن هناك فرق بين العادة والدأب، فالعادة: تكون علىٰ ضربين: اختيار، أو اضطرار، بينما الدأب: لا يكون إلا اختياراً.

إذن: حال وشأن وتظاهر هؤلاء الكفرة (كفرة قريش، وبنو قريظة، وبنو النضير) علىٰ محمد ﷺ كحال وشأن وتظاهر آل فرعون علىٰ موسىٰ عليه السلام، وغيرهم من الأقوام علىٰ رسلهم.

﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾: جحدوا بها، ولم يؤمنوا بها، ويصدقوها، والكفر أشد من التكذيب (كذبوا بآياتنا التسع)، والذين من قبلهم مثل قوم صالح (كذبوا بالناقة) وغيرها من الآيات.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾: أهلكهم الله تعالىٰ، بذنوبهم: الباء: للإلصاق، والتعليل، أو البدلية، أو السببية، والأخذ: يكون بقوة وشدة، ويأتي بمعنىٰ: العقاب والعذاب والهلاك.

﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾: والعقاب من التعقيب، والمعاقبة التي تتلو الجرم،

أو الذنب، وسمي بالعقاب؛ لأن الفاعل يستحق العقاب عقب إجرامه، أو ذنبه. ارجع إلى سورة البقرة آية (٢١١) لمزيد من البيان في العقاب والعذاب، وارجع إلى سورة الأنفال آية (٥٢)، والآية (٥٤) للمقارنة بين آيات آل عمران والأنفال.

[١٢] ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾:

﴿ قُل ﴾: يا محمد ﷺ ﴿ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾: اللام لام الاختصاص، الذين كفروا عامة كفار قريش بما فيهم يهود المدينة أمثال: بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة. ارجع إلى سورة البقرة، آية (٦)؛ لمزيد من البيان.

﴿ سَتُغْلَبُونَ ﴾: السين: للاستقبال القريب؛ أي: ستغلبون عما قريب، (وكان ذلك) في بدر، وفي غيرها من الغزوات.

﴿ وَتُحْشَرُونَ ﴾: من الحشر: وهو الجمع مع السوق بعد البعث، والخروج من القبور.

﴿ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾: جهنم: اسم من أسماء النار، وسميت بذلك؛ لكونها كريهة المنظر، الشيء المرعب المخوف مشتقة من الجهومة، أو لكونها بعيدة القعر. ارجع إلى سورة الرعد آية (١٨) للبيان المفصل. وبئس: فعل لإنشاء الذم، بئس المهاد: ارجع إلى الآية (٢٠٦) من سورة البقرة؛ للبيان. المهاد: كالفراش، أو الموضع الذي يمهد للصبي، وجمعه: مُهد.

[١٣] ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾:

﴿ قَدْ ﴾: حرف للتحقيق، والتوكيد.

﴿ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ ﴾: خاصة، اللام: لام الاختصاص، والكاف كاف

الخطاب موجَّهة إلىٰ المؤمنين (أصحاب رسول الله ﷺ) خاصة، والمؤمنين عامة، وكذلك موجَّهة إلىٰ الكفار، واليهود، ولم يقل: قد كانت. الجواب: كل ما ليس بمؤنث حقيقي، يجوز تذكيره، أو تأنيثه. وأما تنكير آية فهو للتفخيم والتهويل.

الآية: العلامة الثابتة، أو الدلالة علىٰ صدق ما يقول رسول الله ﷺ، وتذكير الآية بدلاً من تأنيثها؛ يدل علىٰ قوة الآية والتوكيد.

﴿فِي﴾: ظرفية زمانية ومكانية.

﴿فِئَتَيْنِ﴾: الفئة: وهي الجماعة التي يحمي وينصر أفرادهم بعضهم بعضاً وقت الحرب، أو الشدة، والفئة من الفيء وهو الرجوع.

فكل فرد من هؤلاء الجماعة لا يستطيع، أو يظن أنه قادر علىٰ يحمي نفسه إلا إذا فاء؛ (أي: رجع) إلىٰ فئة كي تحميه.

فئتين: ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (الفئة المؤمنة).

﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾: الفئة الكافرة التي تقاتل في سبيل الطاغوت والشيطان.

﴿الْتَقَتَا﴾: يوم بدر (غزوة بدر الكبرىٰ).

﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾؛ أي: يرونهم ومثليهم؛ أي: إذا كان عددهم ألفاً؛ فإنهم يرونهم ألفين.

ويرونهم مثليهم؛ أي: الفئة الكافرة ترىٰ الفئة المؤمنة مثليهم في العدد وذلك حين بدأت المعركة، ومثليهم تعني مثلي عدد المؤمنين. ارجع إلىٰ سورة الأنفال، آية (٤٣-٤٤)؛ لمزيد من البيان.

رأي العين: رؤية ظاهرة مكشوفة بالعين (رؤية معاينة)؛ أي: ليست رؤية قلبية.

﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾: يؤيد: يقوي من أيده، بدون الأسباب العادية، ويعين بنصره من يشاء، كما أيد المؤمنين على عدوهم.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾: إن للتوكيد، في ذلك: اسم إشارة للبعد، وفيه معنى العلو إشارة إلى النصر في معركة بدر.

﴿لَعِبْرَةً﴾: الدلالة الموصلة، أو المؤدية إلى العلم: والعبرة الآية التي يعبر منها من منزلة الجهل إلى منزلة العلم، ومشقة من العبور عبر الوادي؛ أي: قطعة من شاطئ إلى شاطئ.

وسمي الاتعاظ عبرة؛ لأن المتعظ يعبر من الجهل إلى العلم، ومن الهلاك إلى النجاة.

الموعظة: ما يُنصح، أو يُذكر به من قول، أو فعل ففيها نصح، وتذكير بالعواقب، أو إرشاد.

﴿لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾: ولم يقل: أولي البصائر.

الأبصار: جمع بصر؛ أي: من له عينان عليه أن يبصر بهما، ويرى المشهد؛ لأن الأمر أمر مشاهد ومحسوس.

والبصائر ذوي البصيرة؛ أي: العقول كيف نصر الله الأقلية المسلمة، وهزم الأكثرية الكافرة، وأنزل جنوداً لم تروها.

ولا ننسى ما ورد في هذه الآية من البلاغة المسمى فن الاحتباك حيث حذف

القول فئة (مؤمنة) تقاتل في سبيل الله وأخرىٰ كافرة تقاتل في سبيل الطاغوت أو الشيطان.

[١٤] ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾:

﴿زُيِّنَ﴾: فعل ماض مبني للمجهول، المزين قد يكون هو الله سبحانه للابتلاء، والاختبار، والتزيين من الله هنا يقصد به الحض علىٰ الشهوات المنصوص عليها شرعاً؛ كالنكاح، والأبناء، فالله سبحانه زين لكل أمة عملها، وجعل علىٰ الأرض زينة ليبلوهم أيهم أحسن عملاً، وتزينه سبحانه لا يكون إلا لخير العبد أبداً.

أو المزين هو الشيطان بوسوسته؛ ليقود الإنسان إلىٰ المعاصي، والآثام فهو يزين الشهوات المحظورة، والله سبحانه يزين للشهوات المباحة، وتزيين الشيطان لا يكون إلا في الشر، وليس لمصلحة العبد.

﴿لِلنَّاسِ﴾: تشمل الرجال والنساء، وعادة حين نقرأ هذه الآية نظن أن هذه الآية تخص الرجال فقط دون النساء؛ لأنه لم يذكر فيها اسم النساء؛ ولكنه سبحانه شمل ذلك في المعنىٰ، فالآية تشير إلىٰ الرجال، والنساء.

﴿حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾: حُبٌّ: الحب هو قيل القلب الدائم، والإقبال علىٰ أمر أو شيء في الخير أو الشر؛ الشهوات: جمع شهوة، وهي توقان النفس والميل إلىٰ المشتهىٰ، وليست من قبيل الإرادة، والشهوة تتعلق بما يلذ من المدركات بالحواس، وقد عددها الله سبحانه في الآية منها: النساء والبنين والمال والذهب والفضة والخيل المسمومة والأنعام والحرث.

﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾: من البعضية ابتدائية، النســاء: ابتدأ بالنساء؛ لأن الشهوة إلىٰ النساء تفوق الشهوة إلىٰ البنين والمال.

﴿وَٱلْبَنِينَ﴾: ولم يقل الأولاد؛ أي: الذكور والإناث، أما البنين: الذكران، ولم يقل البنــات؛ لأن حب الذكور مقدم علىٰ حب الإناث كما كان ســائداً في الجاهلية، ومنهم من قال: البنين يشمل البنات، والبنين وكيف يأتون إلا عن حب الرجال للنساء، والنســاء للرجال، ولم يصرح باسم النساء في هذه الآية، ولكنه ضمنها في كلمة الناس، والبنين، ومراعاة لشعور المرأة وحيائها.

﴿وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾: القنطــار هو (١٠٠ رطل)، وقيل: (١٠٠ ألف دينار).

قناطيــر مقنطرة: قناطير جمع قنطار المــال الكثير، والمنضدة بعضها فوق بعض كالقنطرة.

والمقنطرة: صفة، أو نعت للقناطير.

والذهب والفضة ليس خاصاً بالرجال؛ فالنســاء: هي التي تشتري الذهب والفضة؛ كزينة، وتشتهي الزينة، ولو كان لها من الزينة أكثر وأكثر.

﴿وَٱلْخَيْلِ﴾: جمع مفردها فرس، وســميت خيلاً؛ لاختيالها في مشيتها، وطول أذنابها. والخيل يقابلها في زمننا الحاضر وسائل النقل السيارات الفاخرة، والقوارب، وغيرها من وسائل النقل.

﴿ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾: تســويمها؛ أي: حســنها، أو المعلمة، من الســيماء، وهي العلامة، أو مروضة، أو فيها علامــات كالغُرة، والتحجيل، وهذا حصان أغر، أو أدهم، أو أشقر، وكذلك المسومة ترعىٰ حيث تشاء، وتأكل كما تشاء.

﴿وَٱلْأَنْعَـٰمِ﴾: ثمانيــة أزواج من الضأن اثنين، ومــن الماعز اثنين، والإبل

اثنين، ومن البقر اثنين، وتمثل في وقتنا الحاضر الأسهم التجارية، والعقارية، وغيرها.

﴿وَٱلْحَرْثِ﴾: الزرع، أو المزروعات، والثمار، والفاكهة، والنخيل، والأعناب، وتمثل الأراضي، والبساتين، والعقارات.

﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: ذلك اسم إشارة للمذكور سابقاً، أو المتقدم ذكره من النساء والبنين والمال والخيل والحرث وغيره من متاع الحياة الدنيا: ما يتمتع به في الدنيا، ثم يفنى ومنه الطعام، وأثاث البيت، والسلعة، والأداة، والمال، والتمتع: هو كل ما ينتفع به، ويرغب في اقتنائه، والمتاع يطلق على القليل والكثير.

﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾: عنده: ظرف مكان، أو زمان، حسن المآب؛ أي: المرجع، وهو الجنة، فيه إشارة إلى التزهيد في الدنيا، والترغيب في الآخرة والجنة. المآب: من آب؛ أي: رجع، حسن المآب؛ يعني: ما أعده الله تعالى لأوليائه من النعيم.

[١٥] ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾:

﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم﴾: الهمزة للاستفهام، والتشويق، وحين تسمع أنبئكم؛ تعني: من النبأ، والنبأ: هو الخبر الذي له شأن عظيم، أو الخبر ذو الفائدة العظيمة يحصل به العلم.

﴿بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾: ذلك: اسم إشارة للبعيد إشارة إلى (النساء والبنين والقناطير المقنطرة) من الذهب والفضة، وغيرها. بخير من ذلكم: أي أفضل وأحسن.

﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ﴾: الفردوس، النعيم، جنات عدن، جنات المأوىٰ، للذين: اللام: لام الاستحقاق، اتقوا: أي: امتثلوا أوامر الله، وأطاعوه، وتجنبوا نواهيه.

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: تنبع من تحتها الأنهار، أو تجري الأنهار من أمامها.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾: خلوداً بلا موت، والخلود: اللزوم المستمر، أو استمرار البقاء من وقت مبتدأ.

﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾: خَلْقاً وخُلُقاً لا حيض مطهرة من كل عيب يصيب نساء الدنيا.

﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾: علىٰ وزن فعلان فيه مبالغة من الرضا، الكثير من الرضا، أعظم الرضا، ورضوان الله هو أفضل النعيم وما يعطىٰ العبد يوم القيامة، ولنقارن هذه الآية بآية التوبة (٧٢): ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾: الرضوان هنا أكبر من الجنة، والمساكين الطيبة، فهناك الأعمال الصالحة التي تؤدِّي إلىٰ الجنة، وهناك من الأعمال الصالحة التي تؤدِّي إلىٰ رضوان الله، وهو أكبر من الجنة.

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾: مطلع، ومحيط علمه وبصره، وسمعه بجميع الكائنات في أقطار الأرض، والسموات، ويعلم مقدار ما يستحق كل عبد من ثواب.

❖ ❖ ❖

ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا
عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ
وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ
ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ
لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ
ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ
بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ
ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ
وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ
ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا
عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ
بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ
ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ
فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾

سورة آل عمران [الآيات ١٦ - ٢٢]

[١٦] ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾:

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾: تعود على الذين اتقوا ربهم، فهو قد بين لهم الجزاء والثواب أولاً، ثم عاد ليبيِّن لهم ما هو مطلوب منهم؛ لنيل تلك الجنات الذين يقولون: جاءت بصيغة المضارع؛ ليدل على التجدد والاستمرار.

﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾: ربنا: لم يقولوا يا ربنا؛ لأنه سميع قريب، لا يحتاج إلى أداة نداء. إننا: توكيد، آمنا: بك إلهاً، وربّاً، وآمنا بوحدانيتك، وربوبيتك، وبأسمائك، وصفاتك، وملائكتك، وكتبك، ورسلك، واليوم الآخر، والقضاء، والقدر خيره وشره.

ونعلم: أن الإيمان يحتاج إلى العمل الصالح، ونحن لنا شهوات وعدونا الشيطان، وقد نخطئ فنرجوك أن تغفر لنا ذنوبنا.

﴿فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾: أي: استرها لنا وجاء بالفاء ليدل على المباشرة، والتعقيب بدون انتظار مجرد ما شعروا بأنهم أذنبوا استغفروا ربهم، والذنوب: هي الجرم الذي يترتب عليه عقاب، وإذا سهوا عن الاستغفار سألوا الله الوقاية من عذاب النار.

﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾: والوقاية تعني: أن اجعل بيننا وبين النار حاجزاً ومانعاً.

وإذا نظرنا إلى هذه الآية نرى أن طلب الغفران جاء بعد الإيمان، والتوبة شرعها لنا؛ لأنه سبحانه علم أننا سنخطئ، ونتكاسل، وربما ننحرف، ونخرج

عن طاعتــه، ولا بد من العودة، والرجوع إليه، فترك باب التوبة مفتوحاً دائماً ليلاً ونهاراً؛ ليتوب مسيء الليل بالنهار، ومسيء النهار بالليل.

[١٧] ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾:

في هذه الآية يبيِّن لنا سبحانه صفات المتقين بعد أن ذكر لنا بالآية (١٥) ما هو الثواب والجزاء، وفي الآية (١٧) ذكر لنا شيئاً عن إيمانهم، وتوبتهم، وهنا يبيِّن لنا بعضاً من صفاتهم.

﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾: علىٰ التكاليف الشرعية؛ أي: صابرون علىٰ الطاعة، والعبادات، وما أمروا به، وصابرون عن المعاصي، وصابرون علىٰ الأحداث القدرية.

﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾: أي: صدقوا الله ما عاهدوه عليه، وصدقوا في أقوالهم وأفعالهم، وصدقوا الله في لا إله إلا الله، ويفعلون ما يقولون.

﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ﴾: جمع قانت: وهو المطيع العابد بخشوع، وخضوع، ولزوم.

﴿وَٱلْمُنفِقِينَ﴾: مما رزقهم الله ابتغاء مرضات الله بالصدقة والزكاة.

﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾: يعود، ومرة ثانية ليؤكد علىٰ أهمية الاستغفار، فقد ذكرها سابقاً بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾: فهم رغم صبرهم، وصدقهم، وقنوتهم، وإنفاقهم لا يزالون بحاجة إلىٰ التوبة والاستغفار؛ لأنهم معرضون للأغيار.

ويذكر سبحانه في هذه الآية الزمن المفضل للاستغفار، وهو وقت السحر، وهو الثلث الأخير من الليل إلىٰ طلوع الفجر، وهو زمن سكون الليل، وبعد النوم والراحة.

الواو العاطفة بين الصفـــات؛ للدلالة على كمالهم في كل صفة ذُكرت من الصفات الخمسة.

[١٨] ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾:

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ ﴾: أي: أقر الله، بيَّن وأعلم الله تعالى لخلقه جميعاً بالدلائل، والآيات، والبراهين الحسية والمعنوية: أنه لا إله إلا هو، والشاهد هو الذي يبيِّن ما علمه وشاهده، والشاهد هنا هو الله سبحانه، والمشهود له هو الله سبحانه.

شهد الله سبحانه شهادة الذات للذات، وكفى بالله شهيداً.

شهد الله سبحانه أعظم شـــهادة، وهي لا إله إلا هو من أعظم الشهود وهو الله لأعظم مشهود له وهو الله سبحانه.

شهادة لا حاجة بعدها لشـــهادة أحد من خلقه، ولا ملائكة، ولا إنس، ولا جن.

شهد الله سبحانه، ماذا شهد؟

﴿أَنَّهُۥ﴾: للتوكيد.

﴿لَآ﴾: النافية للجنس.

﴿إِلَٰهَ﴾: لا معبود.

﴿إِلَّا﴾: حصراً وقصراً.

﴿هُوَ﴾: للتوكيد والحصر.

أي: لا معبود في الوجود إلا هو حصراً وقصراً. ارجع إلى الآية (٢٥٥) من سورة البقرة؛ لمزيد من البيان.

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: شهدوا بأنه لا إله إلا هو بعد أن أخبرهم بشهادته.

﴿وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾: سرعان ما شهدوا أنه لا إله إلا الله بعد أن أخبرهم، وبيَّن لهم آياته ودلائله.

وأولو العلم: هم الأنبياء، والمرسلون، والصديقون، والشهداء، والصالحون، وحملة العلم، والفقه في الدِّين، وعلماء الأمة الموحدون المخلصون؛ الذين علِموا التوحيد، وعلَّموهُ لغيرهم.

وعطف شهادة أولي العلم على الملائكة يدل على شرف ومنزلة أولي العلم.

﴿قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾: أي: الله سبحانه وتعالى، وملائكته، وأولو العلم شهدوا أولاً أنه لا إله إلا هو، وشهدوا ثانياً أنه سبحانه قائمٌ بالقسط.

قائماً: بتدبير خلقه، وكونه وحده.

بالقسط: بالعدل، مع التنفيذ والتطبيق، والقسط يعني: الحصة والنصيب، وتعني: العدل في الميزان أيضاً.

فتصبح قائماً بالقسط: قائماً بتدبير خلقه بالقسط (بالعدل) من حيث الرزق، والعلم، والموت، والحياة، والصحة، والمرض.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾: الشهادة الأولى جرت مجرى الشهادة وهذه تعتبر الشهادة الثانية بعد لا إله إلا هو الأولى التي جرت مجرى الشهادة، وأما الشهادة الثانية فهي تجري مجرى الحكم الدائم بوحدانية الله تعالى.

﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾: العزيز الغني عن خلقه، وعن شهادتهم، القوي الذي

لا يُغلب، ولا يُقهر، والممتنع على خلقه؛ الذي تفرد بعزة الوحدانية، والقوة، والغلبة.

الحكيم: في تدبير خلقه، وكونه، وأفعالهم، الحكيم في شرعه وقضائه وعدله، واهب الحكم، أحكم الحكماء. ارجع إلى الآية (١٢٩) من سورة البقرة.

[١٩] ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾:

شهد الله أنه لا إله إلا هو، وشهد الله أنه لا إله إلا هو قائماً بالقسط، لا إله إلا هو العزيز الحكيم، وشهد أن الدِّين عند الله الإسلام، وكذلك شهد الملائكة، وأولوا العلم نفس الشهادة.

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ﴾: إن: للتوكيد؛ أي: لا دين عند الله إلا الإسلام، وهذا الدِّين هو الحق، وهو الدِّين القيم. ارجع إلى سورة البقرة، آية (١٣٢)؛ لمعرفة معنى كلمة الدِّين والملة.

﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾: جاءت للتوكيد؛ لتؤكد حصراً، وقصراً: أن الدِّين عند الله هو الإسلام: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٨٥].

وأما اليهودية، والنصرانية: فهي ديانات، وليستا ديناً، أو أدياناً، بل رسالات سماوية؛ لقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨]، والإسلام يعتبر ديناً، ويمكن أن يطلق عليه ديانةً أحياناً.

الدِّين: من دان؛ أي: أطاع، ودان له؛ أي: أطاعه.

ودان: اعتقد، ودان به؛ أي: اعتقده.

والدِّين: هو الشرع الذي أنزل الله سبحانه من آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ، فهو

دين الرسل جميعاً، وهو يشمل الملة، والشريعة، والأحكام، والكتاب، والسنة، فموسىٰ عليه السلام دينه الإسلام، وشريعته، أو ديانته اليهودية.

وعيسىٰ عليه السلام دينه الإسلام، وشريعته، أو ديانته النصرانية.

ومحمد ﷺ دينه الإسلام، وشريعته، أو ديانته الإسلام.

والإسلام بالنسبة للرسالات السابقة كان وصفاً، وأما بالنسبة لأمة محمد ﷺ فهو وصفٌ واسمٌ ودينٌ كاملٌ، والإسلام لغة يعني: الاستسلام، والخضوع لأوامر الله تعالىٰ وطاعته، ويعني: السلام، والأمن، وجوهره التوحيد: توحيد الألوهية، والربوبية، والأسماء والصفات، وتهذيب وإصلاح الفرد، والمجتمع بالعمل الصالح.

﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾:

وما: الواو: عاطفة، ما نافية.

﴿ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾: اليهود والنصارىٰ.

اختلف: الخلاف عدم الاتفاق في الشرع، وهو مذموم، وهو من مظاهر الهوىٰ.

١ - أوجه الاختلاف في مسألة التوحيد، والعقيدة في لا إله إلا الله، أو اختلفوا، قالت اليهود: ليست النصارىٰ علىٰ شيء، وقالت النصارىٰ: ليست اليهود علىٰ شيء.

أو اختلفوا في عيسىٰ فقالوا: ابن الله، ثالث ثلاثة، أو هو الله.

أو اختلفوا في عزير، أو اختلفوا في نبوَّة محمد ﷺ، وأن الدِّين هو الإسلام.

٢ - ومتىٰ حدث الاختلاف: من بعد ما جاءهم العلم؛ أي: الحق؛ أي: القرآن بأن الله واحد، وعيسىٰ عبده ورسوله، ومحمد عبده ورسوله.

٣ - سبب الخلاف: الحسد بغياً بينهم، وطلباً للسلطة، والقوة، والمال، والاستعلاء.

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾: ومن: شرطية، يكفر؛ أي: يستر آيات الله، (وسمي ذلك كفراً) بسبب الاختلاف، أو البغي.

بآيات الله: الباء: للإلصاق؛ أي: يسترها، أو يجحد بها، ولا يؤمن بالآيات الحاملة لشرائعه ودينه.

فإن: الفاء: رابطة لجواب الشرط، إن الله: للتوكيد. سريع الحساب: في الدنيا إذا شاء، وقد يؤجِّله سبحانه إلىٰ الآخرة، وهو سريع الحساب في الآخرة أيضاً.

[٢٠] ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾:

﴿فَإِنْ﴾: الفاء: عاطفة، إن: شرطية.

﴿حَآجُّوكَ﴾: من المحاجة: وهو أن يدلي كل خصم من الخصمين بحجته، وعادة يكون لإظهار الحق، ودحر الباطل، أو لمعرفة الصدق من الكذب. ارجع إلىٰ الآية (٢٥٨) من سورة البقرة؛ للبيان.

فإن حاجوك: أي: وفد نجران النصراني حاجوك في شأن وأمر عيسىٰ عليه السلام.

﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ﴾: أي: داعياً إياهم إلىٰ الإسلام، وإلىٰ التوحيد، وإسلام الوجه لله، والإخلاص له.

أو حاجوك الكفار في الدِّين ولم يؤمنوا، فقل: الفاء: رابطة للجواب.

أسلمت وجهي لله: والوجه يراد به الذات (مجاز مرسل) إطلاق الجزء، وإرادة الكل؛ أي: أخلصت له وانقدت وخضعت لله. أسلمت ذاتي لله، وإسلام الوجه وهو أعلىٰ درجات الإسلام، وإذا قارنا هذه الآية مع الآية (٢٢) في سورة لقان وهي قوله تعالىٰ: ﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ يسلم إلىٰ الله تعني: يتوكل علىٰ الله، أو يفوض أمره إلىٰ الله، أما يسلم لله؛ أي: يخلص لله وينقاد له ويستسلم له.

﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾: ومن: ابتدائية، اتبعن: من المسلمين، أو من البشر؛ أي: كذلك هؤلاء أسلموا وجوههم لله كما أسلمت أنا (أي: محمد ﷺ) لله سبحانه، وأسلموا وجوههم لله، تعني: أخلصوا عبادتهم لله، والإخلاص لله هو أعلىٰ درجات العبودية.

وبما أن المخلصين لله، والذين لا يراؤون في عبادتهم والاتباع هم قلة جداً، ولذلك جاء بكلمة ومن اتبعن بدون ياء مقارنة بكلمة اتبعني، فالياء تدل علىٰ الكثرة (زيادة المبنىٰ تدل علىٰ زيادة المعنىٰ)، ولذلك قال: ومن اتبعن، وإذا قارنا هذه الآية مع الآية (١٠٨) من سورة يوسف رأينا كلمة اتبعني جاءت في سياق الدعوة، فهناك الكثير من الدعاة، ولذلك قال: من اتبعني، ومنهم من هو مخلص، أو غير مخلص، أما المخلصون لله (إسلام الوجه) فهم القلة، ولذلك استعمل اتبعن.

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ﴾: وقل يا محمد ﷺ، للذين: اللام: لام الاختصاص. قل للذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارىٰ.

والأميين: جمع أُمي، وسموا أميين نسبة إلىٰ الأم؛ لكونهم غير قادرين علىٰ

الكتابة والقراءة، وقيل: الأمي من لا يكتب. ارجع إلىٰ الآية (١٥٧) من سورة الأعرف؛ للبيان، أو نسبة لقلة من يقرأ، أو يكتب منهم.

أأسلمتم: الهمزة للاستفهام، وتحمل معنىٰ الأمر؛ أي: أسلموا خيرٌ لكم.

﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا﴾: الفاء: استئنافية، إن أسلموا: إن: شرطية تفيد الشك؛ أي: استجابوا لك، ودخلوا في الإسلام.

﴿فَقَدِ اهْتَدَوا﴾: ظفروا بالهداية، فقد: الفاء: رابطة لجواب الشرط، قد: حرف تحقيق وتوكيد.

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾: وإن: شرطية، تولوا: أعرضوا رفضوا الإيمان أو الدخول في الإسلام، أو رفضوا التوحيد، وعدم الشرك بالله، فلا يضرك أمرهم المهم تبليغهم كلام الله تعالىٰ.

﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾: فإنما: الفاء: رابطة لجواب الشرط، إنما: كافة مكفوفة تفيد التوكيد، البلاغ: تبليغ الرسالة؛ أي: الإعلام؛ أي: الإيصال والإفهام.

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾: ارجع إلىٰ الآية (١٥) من سورة آل عمران.

[٢١] ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾:

﴿إِنَّ﴾: للتوكيد.

﴿الَّذِينَ يَكْفُرُونَ﴾: يكفرون، ويقتلون جاءت بالفعل المضارع؛ ليدل علىٰ قباحة ما فعلوه (وهذا يسمىٰ حكاية الحال). ارجع إلىٰ الآية (٦١) من سورة البقرة؛ لمزيد من البيان.

﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾: الباء: للإلصاق، الآيات: وتشمل آيات الكتاب، أو

المعجـزات، أو الآيات الكونية، أو البينات، والكفـر بآيات الله يعني: إنكارها، وعدم التصديق بها.

﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾: ولم يقل: الرسل؛ لأنه لم يقتل رسول أبداً، ولكنهم قتلـوا بعض الأنبياء الذين أرسـلوا إليهـم. ويقتلون: جـاءت بصيغة المضارع (الحال) لتدل على بشاعة القتل وكأنه يحدث الآن.

﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾: بغير سـبب، وقتل أي نبي من أكبر الذنوب؛ أي: ليس لهم أي حق في قتله، فهـو لم يقتل لهم قريب، أو بعيـد، أو يتعدى عليهم حتى يراد القصاص منه. ارجع إلى سـورة البقرة، آيـة (٦١)؛ لمقارنة هذه الآية مع الآيات الأخرى مثـل: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [البقـرة:٦١]، ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران:١١٢]، ﴿وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [النساء:١٥٥].

﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾: ويقتلـون بصيغة الحاضر؛ لاستحضار مشـهد قتلهم؛ لبشاعته، والتذكير به (حكاية الحال) الذين يأمرون بالقسط: هم من يأمرون بالعدل، وبالمعروف، وينهون عن المنكر، ورفع الجور والظلم عن الناس، أو أهل الدعوة، ومن يدافعون عن الأنبياء والدِّين.

﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: استعمل البشـارة بدلاً من وأنذرهم بعذاب؛ للتهكم عليهم، والفاء: رابطة لجواب الشـرط؛ أي: فبشـرهم الآن بعذاب أليم، شديد الإيلام.

[٢٢] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾: اسم إشارة، واللام للبعد إشارة للذين كفروا بآيات الله، وقتلوا النبيين بغير حق.

وقتلوا الذين يأمرون بالقسط لم يبق لحسناتهم أثر، أو فائدة في الدنيا والآخرة (بطلت).

﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾: من مرض الحبط الذي يصيب الماشية حين تتورم وتصاب بمرض الكبد، ويسمى الحبن، بسبب احتباس الماء، فيظن الناس أنها غنية باللحم، والشحم، فإذا ذُبحت لتؤكل وجدوها مليئة بالأورام والأمراض، والسوائل، فلا يُستفاد منها.

وهكذا أعمال هؤلاء الكفرة من صدقة، أو صلاة، أو خير سوف تبطل، وليس لها أي ثواب في الآخرة.

﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾: وسيحل بهم الخزي والبلاء في الحياة الدنيا، وفي الآخرة لهم عذاب النار.

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾: جمع ناصر في الدنيا والآخرة يدفعون عنهم العذاب، أو ينقذونهم منه، فالآية تنفي النصرة عن الظالمين، ولم يقل: من أنصار جمع نصير: صيغة مبالغة وأقوى من ناصر (أقوى من ناصرين)؛ أنصار: تمثل الذين نصروا الرسل وجاهدوا معهم كما في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ الآية (٥٢) من نفس السورة، أو تعني النصر المؤكد في سياق الآية التي ذكرت.

من: استغراقية، لا أحد ينصرهم، ولا أحد يستطيع أن ينصرهم؛ حتى ولو استطاع نصرهم.

❖ ❖ ❖

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ
ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾
ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ
فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ
لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۖ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ
لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ
مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ ۖ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ
مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ
فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ
وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾
لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن
يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ
تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ
إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾

سورة آل عمران [الآيات ٢٣ - ٢٩]

[٢٣] ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾:

﴿أَلَمْ﴾: الهمزة: همزة استفهام، وفيها معنىٰ التعجب والإنكار معاً. لم: حرف نفي.

﴿تَرَ﴾: تعلم؛ أي: ألم يصلك خبر، أو قصة، أو ترىٰ هنا رؤية فكرية قلبية.

﴿الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾: أوتوا: أعطوا، والإيتاء: أعم من العطاء، وليس فيه تملك، ويستعمل للأمور المهمة. ارجع إلىٰ الآية (٢٥١) من سورة البقرة؛ للبيان.

نصيباً: هو الحظ المنصوب (المعين)، ويكون في المحبوب والمكروه، أما الحظ يكون غالباً في الخير.

من الكتاب: من التوراة، من: ابتدائية، وتفيد البعضية.

أي: اليهود الذين لم يصلهم إلا جزءاً من التوراة (نصيباً) نكرة، والتنكير: للتقليل، نصيباً من التوراة بسبب الكتمان والتحريف، والتغيير، والنسيان، ولأن التوراة نسخت، أو كُتبت بعد موسىٰ بأعوام كثيرة، وقيل: أن كتبة التوراة كانوا خمسة، وكانت عبارة عن مخطوطات في المعابد، وحدث لها تغيرات كثيرة علىٰ مر السنين.

واستعمال أوتوا نصيباً من الكتاب بدلاً من أهل الكتاب تدل علىٰ الذم، والتقريع، وأما استعمال أهل الكتاب يأتي في سياق المدح.

﴿يُدْعَوْنَ﴾: بصيغة المضارع بدلاً من دعوا في الماضي؛ لاستحضار حكاية الحال، ولتدل على استمرارهم في عدم الإذعان للحق وإعراضهم.

﴿إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾: قال ابن عباس ﷺ: نزلت هذه الآية بعد أن دخل رسول الله ﷺ على يهود في بيت المدراس، فدعاهم إلى الإسلام، فقالوا له: على أي دين أنت؟ فقال: على ملة إبراهيم، فقالوا: إن إبراهيم كان يهودياً، فقال النبي ﷺ: هلمُّوا بالتوراة فهي بيننا وبينكم، فأبَوا فنزلت هذه الآية.

يدعون إلى كتاب الله: قيل: هو التوراة، وقيل: هو القرآن، والأرجح: هو التوراة.

ليحكم بينهم: اللام: للتعليل، يحكم بينهم في ادعائهم أن إبراهيم كان يهودياً، أو نصرانياً، أو في إقامة حد الزنى على الرجل والمرأة الذين كرهوا رجمهما؛ لشرفهما، فحكم النبي بالرجم، وهذا الحكم ورد في التوراة، فأبَوا حكم الرسول ﷺ، أو في صحة نبوَّة محمد ﷺ؛ حيث اختلفوا في صفاته وشأنه.

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾: ثم لمجرد الترتيب، يتولى فريق منهم عن الإجابة إلى ما دعوا إليه مع علمهم بالحق، بينما فريق منهم آخر أمثال عبد الله بن سلام تمسكوا بالحق، ويتولى: من التولي؛ يعني: الابتعاد، والتولي أشد من الإعراض.

﴿وَهُم﴾: ضمير فصل يفيد التوكيد.

﴿مُّعْرِضُونَ﴾: جمع معرض، والإعراض يعني: البعد والترك، ويأتي في سياق الشر؛ أي: معرضون عن قبول الحكم الصادر عن رسول الله ﷺ، أو في التوراة في إقامة حد الزنى على أشرافهم، أو ما ورد في نعت رسول الله ﷺ ونبوته.

[٢٤] ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾:

﴿ذَٰلِكَ﴾: اسم إشارة، واللام: للبعد يشير إلىٰ الإعراض والتولي عن الإجابة، والقبول بحكم رسول الله ﷺ.

﴿بِأَنَّهُمْ﴾: الباء: للإلصاق، أو التعليل. أنهم: للتوكيد.

﴿قَالُوا۟ لَن﴾: لن للنفي المستقبل القريب والبعيد.

﴿تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ﴾: من المس (الإصابة الطفيفة الخفيفة)، والمس، يعني: إصابتهم بالنار ستكون خفيفة طفيفة مجرَّد أيام معدودات.

﴿إِلَّآ﴾: أداة حصر؛ أي: حصراً.

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾: معدودات جمع قلة وأياماً معدودة جمع كثرة؛ أي: أياماً قليلة (معدودات جمع قلة، أو قيل: سبعة أيام لكل (١٠٠٠) سنة يعيشونها في الدنيا يومٌ في النار، وقيل: (٤٠) يوماً مدة عبادتهم العجل، وقيل: كانوا فريقين: فريق يقول: سبعة أيام، وفريق ثان يقول: (٤٠) يوماً، وذلك لاعتقادهم بأنهم أبناء الله وأحباؤه. ارجع إلىٰ سورة البقرة آية (٨٠) للمقارنة.

﴿وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم﴾: الغرر: الطمع فيما لا يصح، ولا يحصل إلا عن غفلة؛ أي: وغرهم الشيطان بأن وسوس لهم، وزين لهم ظنهم، والشيطان سمي بالغَرور.

وهكذا ذهب بعضهم إلىٰ الطمع في الدِّين، فافتروا علىٰ الله (الكذب المتعمد والاختلاق)؛ كقولهم: لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات.

وللفرق بين أيام معدودة: (جمع كثرة)، وأيام معدودات: (جملة قلة). ارجع إلىٰ الآية (٨٠) من سورة البقرة؛ للبيان.

[٢٥] ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾:

﴿ فَكَيْفَ ﴾: الفاء: استئنافية، كيف: استفهام فيه معنى الإبطال، إبطال ما غرهم، وتهويل، وتعظيم ما سيحيق بهم من الأهوال، وما سيحل بهم.

﴿إِذَا﴾: ظرفية زمانية.

﴿جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ ﴾: اللام في ليوم: للاختصاص؛ أي: لأجل ذلك اليوم؛ للدلالة على تهويله وتعظيمه، ولام الميقات؛ أي: للجزاء والحساب في ذلك اليوم. وتنكير اليوم: للتهويل والتعظيم أيضاً.

﴿لَّا رَيْبَ ﴾: لا: النافية، الريب: الشك والتهمة.

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾: تعطى كل نفس حقها وأجرها تاماً. كسبت: اجتهدت في الخير أو الشر. ارجع إلى سورة البقرة الآية (٢٨٦) للبيان المفصل في الكسب، وإذا قارنا هذه الآية مع الآية (١١١) من سورة النحل وهي قوله تعالى: ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ نجد القرآن يستعمل ما كسبت في سياق آيات الأموال والإنفاق والربح والخسارة ويستعمل ما عملت في سياق الأعمال الأخرى.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾: هم ضمير فصل يفيد القصر، والتوكيد، لا: النافية، يظلمون: بنقص حسناتهم، ولا بحسنة واحدة، ولا بزيادة سيئاتهم ولو بسيئة.

[٢٦] ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾:

﴿ قُلِ ﴾: ادع.

﴿اللَّهُمَّ﴾: أصلها: يا الله، فحين تقول: اللهم؛ كأنك تقول: يا الله.

والفرق بين الله، واللهم: الله: اسم الجلالة، واللهم: نداء المراد به: يا الله.

كيف اشتقت اللهم: الكلمة أصلها: يا الله حذفت منها الياء، وعوض عنها

بالميم المشـــددة في آخـــر الكلمة، وهذا خاص لصاحب الخصوصية ســـبحانه وتعالىٰ، ولا يختص بها وحده إلا هو.

﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾: صاحب الملك، المُلك: بضـــم الميم، وهو الحكم؛ أي: صاحب الحكم، أما مِلك: بكسر الميم تعني: التملك.

وجمع كليهما بقوله: مالك الملك؛ أي: له ما في السموات وما في الأرض، والحاكم معاً، فهو الحاكم وبيده ملكوت كل شيء.

﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾: فما دام هو مالك الملك فإنه يهب أو يعطي شـــيئاً من ملكه لمن يشـــاء من عباده، أو ينزع الملك ممن يشـــاء مـــن عباده، تؤتي من الإيتاء، وهو العطاء الذي ليس فيه تملك، ويمكن اســـترداد ذلك العطاء، والإيتاء يكون للأمور العظيمة الحسية، والمعنوية، والإيتاء أعم من العطاء. من: ابتدائية، استغراقية في كل الآية.

﴿وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾: النزع هو الأخذ بشدة، (أو القلع)؛ أي: يحتاج إلىٰ شـــدة؛ لأن صاحب الملك يكون متمسكاً بملكه، أو كرسيه، أو بالحكم، ولا يريد أن يُسلب منه، أو يؤخذ منه بأي شكل، أو وسيلة، ولكن الله سبحانه قادر أن ينزع الملك ممن أعطاه الملك؛ لأن الله صاحب الملك الحقيقي.

﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾: العزة: تعني القوة، والقهر، والغلبة، والمنعة. فلله العزة جميعاً، والله مع كرمه، وفضله يُعز من يشاء من عباده بالنصر، والغنىٰ، والطاعة، والهداية؛ فهو يُعز رسله، ويعز المؤمنين به تعالىٰ.

﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾: بالقهر، والفقر، والمرض، والغلبة، والهزيمة.

﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾: بقدرتك الخير، الخير مثل النصر، والعزة، والجاه، والمال، والملك، وغيرها من مظاهر الخير، وذكر الخير، ولم يذكر الشـــر رغم أن كلاً من عند الله، ولأن كل أفعال الله تعالىٰ من نافع وضار صادر عن الحكمة، ومصلحة العباد فهي خير كلها، ولأن الشـــر، أو السوء يبدؤهما العبد نفسه، أو اكتفىٰ بذكر الخير؛ لدلالته علىٰ الآخر.

﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: إنك صاحب القدرة المطلقة على كل شيء مادي، أو معنوي نافع، أو ضار، خير أو شر، وشيء: نكرة تشمل كل شيء مهما كان نوعه، وحجمه، وشكله في السموات، أو في الأرض.

ثم يبين الله سبحانه بعض مظاهر القدرة الإلهية في الآيتين الكونيتين الليل والنهار، الموت والحياة، فيقول:

[٢٧] ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾:

﴿تُولِجُ﴾: من الولوج وهو الدخول.

﴿اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾: من الناحية العلمية: الولوج: إشارة إلى كروية الأرض، وإلى دورانها حول محورها، وحول الشمس، وإلى تبادل الليل والنهار؛ الذي هو من ضروريات استقامة الحياة على الأرض، ومن الناحية اللغوية: الولوج: هو تداخل الليل في النهار بحيث إذا قصر أحدهما طال الآخر، كما نرى في فصل الصيف والشتاء.

﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾:

لم يعد تفسير هذه الآية في ضوء الاكتشافات العلمية مطابقاً لما قيل قديماً؛ حيث اكتشف العلماء: أن لكل شيء في الوجود حياة مناسبة له، فكل الجمادات والنباتات لها حياتها، فمثلاً: البذرة، أو البيضة، أو الحبة: فيها أجنة في حالة همود، أو سكون، أو لا تتحرك ومجرد ما توفرت له الأسباب الحياتية، أو الظروف البيئية الخاصة من تروية، أو غذاء ينمو ويتحرك، فالبذرة لها نقير؛ أي: فتحة يحيط بها غلاف من المواد الغذائية، فإذا دخل الماء إليه يذيب المواد الغذائية، وتبدأ البذرة بالتغذي بهذه المواد، فتنمو، ويخرج لها جذور تربطها بالتربة فتتغذَّى من التربة، ويصبح لها ساق وأوراق تحمل مواد التربة إليها، وتصبح تتغذَّى بذلك، وتحول تلك المواد إلى ثمار.

إذن: هذه المواد الكيماوية المشكلة لعناصر التربة، أو المواد الغذائية

المحيطة بهذه البذرة التي تمثل الجنين تتحول إلىٰ خلايا حية تنمو، وتثمر، ثم يموت هذا النبات، ويعود إلىٰ تراب الأرض، فبذلك تحول من حي إلىٰ ميت، وبعد ذلك يتحول تراب الأرض إلىٰ غذاء مرة أخرىٰ، فيخرج منه بذرة أخرىٰ، أو جنين آخر، وهكذا وكذلك الإنسان يخلق من تراب ويعود إلىٰ تراب. وإذا نظرنا إلىٰ الآيتين (٢٦-٢٧) تؤتي الملك، تنزع الملك، تعز وتذل، تولج الليل في النهار، وتولج النهار في الليل، وتخرج الحي من الميت، والميت من الحي: كلها تشير إلىٰ تغيرات لا يقدر عليها إلا الله سبحانه، وهي تدل علىٰ عظمة قدرته سبحانه، وتشير أنه الخالق الذي يجب أن يُعبد ويطاع.

[٢٨] ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾:

المناسبة: بعد ذكر أن الله هو المعز والمذل نبَّه المؤمنين بعدم الْتماس العزة، والقوة عند الكافرين، فقال:

﴿لَّا﴾: الناهية.

﴿يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾: نهي لطيف رقيق من الله للمؤمنين بموالاة الكافرين بمحبتهم، وتأييدهم، ونصرهم، والاستعانة بهم، واطلاعهم علىٰ أسرار المؤمنين، أو نقل الأخبار لهم.

وسبب هذه الموالاة؛ لكونهم أقرباء لهم، أو تربطهم صداقات، أو جوار، وغيرها من الأسباب.

أولياء: جمع ولي، الله ولي المؤمنين: أي: يرعاهم ويكلؤهم ويمدهم وينصرهم، والولي: هو من يليك؛ أي: القريب الذي يهتم بك، والمعين، والولاء: هو الحب والنصرة.

﴿وَمَن﴾: شرطية.

﴿يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾: ذلك: اسم إشارة يفيد البعد، ويشير إلىٰ موالاة الكافرين.

﴿فَلَيْسَ﴾: الفاء: رابطة لجواب الشرط، ليس نافية.

﴿مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾: من: استغراقية، الله في شيء: أي: فليس من ولاية الله في شيء لا تقع عليه الولاية؛ أي: إن الله بريءٌ منه، أو منسلخ من ولاية الله له، وقد خرج عن منهج الله.

﴿إِلَّآ أَن﴾: إلا: أداة استثناء، أن: حرف مصدري يفيد التوكيد.

﴿تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾: أي: مباح لكم موالاتهم إذا ضاقت بكم السبل، ووجدتم أنفسكم ضعفاء، ولا تستطيعون أن تتقوا منهم ضرراً في النفس، أو المال، فيجوز في هذه الحالة التقية، وهي الموالاة باللسان دون القلب، والتقية تكون من عدو في الدِّين لا تقدرون عليه، أو عداوة في المال والمتاع.

وغاية التقية: المحافظة على النفس، أو العرض، أو المال من شر الأعداء، وهي تقية مؤقتة حتى يزول السبب والاضطرار.

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾: أي: ذاته ولم يقل غضبه أو جبروته ليدل على شدة الحذر من مخالفة أوامره، ويحذركم الله أن تتخذوا أعداءه أولياء، ويحذركم الله غضبه وعقابه إن عصيتم، وهذا التهديد من باب الرحمة بكم. ويحذركم من الحذر: وهو توقِّي الضرر بكل أشكاله، سواء حدث الضرر أم لم يحدث، والحذر يختلف عن الخوف، فالخوف هو توقع الضرر الذي يُظن أنه سيقع.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾: تذكير بأن إلى الله المنتهى، والمرجع، فإذا كانت هناك مبررات لاتخاذ الكافرين أولياء لأي سبب من الأسباب، فلا بد أن يتذكر هؤلاء الذين يستعملون التقية حُجة لهم في الدنيا أن الله يعلم سرهم ونجواهم، ومصيرهم إلى الله؛ ليحكم فيهم إما إلى الجنة، أو إلى النار.

[٢٩] ﴿قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾:

﴿قُلْ﴾: لهم يا محمد ﷺ.

﴿إن﴾: شرطية.

﴿تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ﴾: من الموالاة للكفار، أو مودتهم، قولاً، أو فعلاً، أو محبة.

ما: لغير العاقل، ولصفات العاقل، ومطلقة تشمل كل شيء، تخفوه في قلوبكم، أو تبدوه (تظهروه) بألسنتكم يعلمه الله سبحانه.

وبدأ بالإخفاء، ويشمل الأشياء الحسية والمعنوية، ولا يقتصر علمه على ما في صدوركم، بل هو: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: ويعلم ما في البر والبحر، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض، ولا رطب، ولا يابس إلا يعلمها، ويعلم ما يجري في السموات والأرض من طاعة ومعصية بسر وعلن.

وذكِر يعلم ما في السموات، وما في الأرض بعد ذكِر ما في صدوركم يمثل ذكر العام بعد الخاص.

﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: ارجع إلى الآية (٢٦) من نفس السورة؛ للبيان. وإذا قارنا هذه الآية مع الآية (٢٨٤) من سورة البقرة وهي قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾: نجد أن آية البقرة جاءت في سياق الحساب يوم القيامة، وقدم الإبداء على الإخفاء، وآية آل عمران جاءت في سياق العلم، وقدم الإخفاء على الإبداء.

❖ ❖ ❖

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ
مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ
ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ
فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ
وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ
مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا
وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ
وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ
وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ
حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا
زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ
قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾

ربع الحزب ٦

سورة آل عمران [الآيات ٣٠ - ٣٧]

[٣٠] ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾:

المناسبة: ذكر في الآيات السابقة، ويحذركم الله نفسه، وإلى الله المصير، يقول سبحانه يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً.

﴿يَوْمَ﴾: القيامة: نكرة للتهويل والتعظيم.

﴿تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾: ما: اسم موصول، أو مصدرية ما لغير العاقل، والعاقل.

﴿مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾: عملت في الدنيا، من: استغراقية، خير: نكرة تشمل كل خير مهما كان نوعه، ومهما صغر، أو كبر. محضراً: أي: تجد عملها ينتظرها مكتوباً في الصحف، محضراً مهيَّأً؛ ليقرأها بنفسه.

﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾: تكرار ما عملت؛ للتوكيد، ولفصل الخير عن السوء؛ أي: ما عملت من خير على حدَة، وما عملت من سوء على حدَة، أو كلاهما معاً.

من سوء: من شر، أو سيئات (صغائر أو كبائر).

﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ﴾: تود آنذاك: تتمنى، لو أن: حرف شرط (امتناع لامتناع). أن: للتوكيد.

﴿بَيْنَهَا﴾: تعود على النفس، ﴿وَبَيْنَهُۥ﴾: وبيَّن السوء.

﴿أَمَدًا بَعِيدًا﴾: الأمد: إما أن يكون ظرفاً للزمان أو ظرفاً للمكان، وهنا بمعنى: ظرف مكان؛ أي: تود أن يكون بينها وبين عملها بعدٌ طويلٌ، مسافة طويلة كبعد المشرقين.

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾: ويحذركم الله عقابه، وسخطه من ارتكاب المعاصي، والمخالفات، أو ما نهاكم عنه، وفي هذا تهديد عظيم، وتحذير صادر من ذات الله تعالى. ارجع إلى الآية السابقة (٢٩)؛ لمعرفة معنى الحذر.

﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾: جاء بأل التعريف بالعباد التي تدل على الاستغراق؛ أي: رؤوف بكل الناس مسلمهم وكافرهم ولو قال رؤوف بعباده كما في قوله تعالى ﴿يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام:٨٨]؛ فالهداية تكون خاصة بهؤلاء فقط من العباد. رؤوف من الرأفة، والرأفة أبلغ وأشد من الرحمة، والرحمة أعم من الرأفة. ارجع إلى الآية (٢٠٧) من سورة البقرة؛ لمزيد من البيان.

وإذا نظرنا إلى الآية (٢٨)، والآية (٣٠) ليس هناك تكرار؛ لأن:

الآية (٢٨): ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾: جاءت في سياق التحذير من اتخاذ الكفار أولياء من دون الله.

والآية (٣٠): ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾: جاءت في سياق الحث على الأعمال الصالحة، والحذر من الأعمال السيئة.

وقد يسأل سائل، لماذا لم يقل سبحانه: والله رؤوف رحيم، بدلاً من: والله رؤوف بالعباد.

الجواب: لم يذكر الرحمة؛ لأن المقام مقام تحذير، ومع التحذير لا يناسب ذكر الرحمة؛ خشية التواكل.

[٣١] ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

﴿قُلْ﴾: لهم يا محمد ﷺ.

﴿إِن﴾: شرطية تفيد الاحتمال.

﴿كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾: المحبة: ميل النفس إلى الشيء؛ لكمال أدركته فيه عن قصد، وأعظم المحبة هي محبة الله لذاته العلية، ومحبة الله تتجلى برضاه، وعدم سخطه، ومحبة الله تتضمن محبة رسوله، ومحبة كل ما أمر به تعالى، ورسوله، أو تجنب كل ما نهى عنه سبحانه، ورسوله.

﴿فَاتَّبِعُونِي﴾: الفاء: رابطة لجواب الشرط، ومن يطع الرسول؛ فقط أطاع الله، فطاعة الله وطاعة رسوله واحدة، وليست منفصلة.

اتبعوني: اتبعوا سنتي، امتثلوا أوامري، واجتنبوا ما نهيتكم عنه.

﴿يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾: أي: يثيبكم على أعمالكم، ويرضى عنكم، ويثني عليكم في ملائكته، ومن ثم تحبكم الملائكة، وأهل الأرض.

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾؛ أي: جميع ذنوبكم، ولم يقل: ويغفر لكم من ذنوبكم (أي: بعض ذنوبكم)، وحين يخاطب الله غير المؤمنين على لسان رسله يخاطبهم بالقول يغفر لكم من ذنوبكم: من: البعضية؛ أي: بعض ذنوبكم كما في قوله تعالى: ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [إبراهيم:١٠].

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾: غفور: صيغة مبالغة كثير الغفران؛ لمن أطاعه، وأطاع رسوله، واتبع دينه، كثير الغفر، يغفر الذنوب مهما كثرت؛ أي: تعددت، ومهما عظمت؛ أي: كبرت (كمّاً وكيفاً).

﴿رَّحِيمٌ﴾: في الدنيا والآخرة. ارجع إلى سورة الفاتحة آية (١).

[٣٢] ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾:

﴿ قُلْ ﴾: لهم يا محمد ﷺ، قل لأهل مكة والأعراب، ومن اتبعك من الناس أجمعين.

﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾: ولم يقل: أطيعوا الله، وأطيعوا الرسول، فذلك يعني: طاعة الله سبحانه، وطاعة رسوله ﷺ في أمر ما واحدة؛ كقوله و﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾، فطاعة الرسول من طاعة الله، ولا يمكن فصلهما.

مثال: الله سبحانه أمر بالصلاة، والرسول أمر بالصلاة، والصلاة أمر واحد، أو مسألة واحدة، لا يختلف حكم الله فيها عن حكم رسوله، فيقول: أطيعوا الله ورسوله.

وأما قوله تعالىٰ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾: هنا تعني: أطيعوا الله في أمر الصلاة (بشكل مجمل) فيما بيَّنه لكم.

وأطيعوا الرسول فيما بيَّنه لكم من عدد ركعاتها، وأركانها، وسننها، وأوقاتها، وكيف تُصلىٰ.

أي: أطيعوا الله تعالىٰ فيما أمر، أو فرض، وأطيعوا الرسول ﷺ فيما فصَّل لكم ما فرض الله عليكم، وما أمر؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾ [الحشر:٧].

وأما قوله في سورة النساء، آية (٥٩): ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾: هنا طاعة أولي الأمر غير منفصلة عن طاعة الرسول ﷺ، فلم يقل سبحانه: وأطيعوا الله، وأطيعوا الرسول، وأطيعوا أولي الأمر منكم؛ أي: أطيعوا أولي الأمر منكم إذا أطاعوا الله وأطاعوا رسوله، فطاعة أولي الأمر ليست كياناً بحد ذاتها، وإنما تابعة لطاعة الرسول ﷺ، وطاعة الله، فإذا أمرنا أولو الأمر

بأمر يخالف الله، أو يخالف الرسول نرفضه، وبالعكس نطيعهم إذا أطاعوا الله سبحانه ورسوله ﷺ.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾: الفاء: للتوكيد، إن: شرطية تفيد الاحتمال والشك، تولوا: أعرضوا عن طاعة الله، والرسول، ورفضوا، أو جحدوا ذلك، وابتعدوا عنها.

﴿فَإِنَّ﴾: الفاء: رابطة لجواب الشرط، إن: حرف مشبه بالفعل؛ للتوكيد.

﴿ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: لا: النافية، ولا تفيد النفي المؤبد (المطلق)؛ لأن الكافر قد يتوب، ويرجع عن كفره، وطغيانه، ويؤمن بالله تعالىٰ فيما بعد.

لا يحب الكافرين: الكافرين: جملة اسمية تفيد الثبوت؛ أي: الذين أصبحت سمة الكفر عندهم ثابتة لا تتغير، لا يحب الكافرين إذا استمروا في كفرهم وإعراضهم ولم يتوبوا.

أما إذا تابوا إلىٰ الله واستغفروا لذنوبهم؛ فإن الله كان غفوراً رحيماً، أو كان عزيزاً حكيماً.

وانتبه إلىٰ الانتقال من صيغة المخاطب إلىٰ صيغة الغائب؛ فإن تولوا، ولم يقل: فإن توليتم؛ للتحذير، والتنبيه، أو لفت الانتباه.

والفرق بين الكافرين، والكفار: الكافرين: يستعملها للدلالة علىٰ العمل، الحدث (الكفر) بكثرة، والكفار: يستعمل هذه الكلمة للدلالة علىٰ الاسم، الكثرة والعدد، والكفار أعم من الكافرين.

[٣٣] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

المناسبة: بعد أن ذكر الله سبحانه: أن محبته تتمثل في محبة الرسول ﷺ، وطاعة الله تعالىٰ: تتمثل في طاعة الرسول ﷺ، ناسب أن يذكر من أحبهم الله تعالىٰ، واصطفاهم من الرسل؛ كي نطيعهم ونصدقهم.

﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل؛ للتوكيد.

﴿ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا﴾ اصطفىٰ: اختارهما، والاصطفاء: هو أن تختار من بين الأشياء المتشابهة المتناظرة مثل الناس، أو الجن، أما الاختيار: هو أن تختار من غير المتشابهات مثلاً أن تختار من بين الناس والجن والملائكة.

والاصطفاء هنا: قد يعني: التميز؛ أي: ميَّزهم، أو اصطفاهم بالنبوَّة، أو اختارهم كصفوة خلقه.

اصطفىٰ آدم حتىٰ يكون أباً للبشر؛ حيث خلقه، ونفخ فيه من روحه، وعلمه الأسماء كلها، وأسجد له الملائكة.

وكيف قال سبحانه: اصطفاه، ولم يكن قبله أحد، أو معه أحد؟

الجواب: اصطفاه أن يكون أول الخلق، وأبا البشر.

واصطفىٰ نوحاً ﷺ أباً للبشر بعد الطوفان، وآدم أباً للبشر قبل الطوفان.

ونوحاً هو: بن لامك بن متوشلخ بن إدريس، وإدريس من ذرية شيث بن آدم.

اصطفىٰ آدم ونوحاً علىٰ المؤمنين، وهل اصطفاهم بعد أن رآهم طائعين، أم علم الحق أزلاً أنهم سيكونون طائعين فاصطفاهم؟ ارجع إلىٰ سورة الأعراف آية (١٤٤) لمزيد من البيان ومعرفة الفرق بين الاختيار والاصطفاء والاجتباء.

الجواب: علم الله سبحانه أزلاً أنهم سيكونون طائعين فاصطفاهم.

﴿وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: الآل: هم الذرية، والأقارب، والأتباع.

وآل إبراهيم تشمل: إبراهيم، وذرية إسماعيل، وإسحاق، ويعقوب،

والأسباط، ومن اتبع إبراهيم عليه السلام، ومحمد ﷺ من إسماعيل، وإسماعيل من إبراهيم.

وآل عمران: وعمران: هو والد مريم عليها السلام، ومنها عيسىٰ عليه السلام، وآل عمران يشمل مريم، وعيسىٰ، وزكريا، ويحيىٰ.

وامرأة عمران: هي حنة من بني إسرائيل، وهناك عمران آخر هو أبو موسىٰ عليه السلام وهارون.

وقيل: الزمن بين عمران زوج حنة أم مريم، وعمران أبو موسىٰ وهارون هو (١٨٠٠ سنة)، وبين إبراهيم وموسىٰ (١٠٠٠ سنة)، وبين موسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام (٢٠٠٠ سنة).

علىٰ العالمين: اختارهما علىٰ عالمي زمانهم، وخص هؤلاء بالذكر؛ لأن الأنبياء والرسل كلهم من نسلهم.

[٣٤] ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾:

﴿ذُرِّيَّةً﴾: الذرية في الأصل: الأولاد، ولفظ الذرية يطلق علىٰ الواحد، وعلىٰ الجميع، ويطلق علىٰ الولد، والوالد.

وذرية: مأخوذة من ذرأ، والذرء؛ يعني: التفريق.

﴿بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ﴾: لها عدة معان:

١ - بعضها من بعض: في توارثها الدِّين والقيم، آل عمران ذرية من آل إبراهيم، ولا يعني أنساب بالدم، والمسألة ليست مسألة وراثة بالدم، وإنما بالفضل، والقيم، والدِّين.

٢ - بعضها من بعض: أي: سلالة واحدة، جعل النبوَّة والرسالة فيهم مثلاً:

آل إبراهيم (هم: إسماعيل، وإسحاق، ويعقوب)، هم من نسل إبراهيم عليه السلام، وإبراهيم من نسل نوح عليه السلام، ونوح من آدم عليه السلام.

٣ - وذرية بعضها من بعض: قد تعني: الأبناء ذرية الآباء، والآباء ذرية للأبناء، فالولد للوالد ذرية؛ لأنه ذُرِئ منه، وكذلك يجوز أن يقال للأب ذرية الابن؛ لأن ابنه ذُرِئ منه.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: سميع لمن يدعون حقاً، أو باطلاً، أنهم من ذرية هذا النبي، أو ذاك، أو من سلالة هذا، أو ذاك.

عليم: صيغة مبالغة من عالم كثير العلم يعلم من يصلح للاصطفاء، وعليم بالخلق، وعليم بمن هو ذرية من، عليم من هو من ذرية إبراهيم حقاً، وهل اليهود والنصارىٰ من ذرية إبراهيم أم لا.

[٣٥] ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾:

﴿إِذْ قَالَتِ﴾: ظرف زمان، واذكر إذ قالت، أو حين قالت.

﴿ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ﴾: هي أم مريم عليها السلام، زوجة عمران كانت عاقراً، لا تلد، ولماذا قال سبحانه امرأت عمران ولم يقل زوجه؟ ارجع إلىٰ سورة القصص آية (٩) للبيان ومعرفة الفرق بين الزوجة والمرأة في القرآن، وهناك ملاحظة أخرىٰ هي كيف تكتب كلمة امرأت أو امرأة بالتاء المفتوحة أو المبسوطة أو المربوطة نجد في هذه الآية كتبت بالتاء المفتوحة (المبسوطة) بينما في الآية (١٢) في سورة النساء كتبت بالتاء المربوطة فقد تبين أنها حين تكتب بالتاء المفتوحة أو المبسوطة تكون مرتبطة بزوج (أي: لها زوج) وحين تأتي مكتوبة بالتاء المربوطة لا يكون لها زوج أو تنسب إلىٰ زوج. وامرأت عمران قد اشتاقت للولد، فنذرت إن رزقها الله ولداً أن تتصدق به لخدمة بيت المقدس.

﴿رَبِّ﴾: لأن الرب هو المتولي التربية والـولادة، والأمور الحاجية، ولم تقل: يـا الله؛ لأن هذا النداء نداء من العابد إلـى المعبود، فيما يخص التكاليف والأوامر التعبدية.

﴿إِنِّي نَذَرْتُ﴾: إنـي: للتوكيد، نـذرت: النذر هو أمر أريد بـه الطاعة فوق التكليف؛ أي: يُلزمُ العبد نفسه بشيء زائد عن التكاليف المفروضة.

﴿لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾: لـك: اللام لام الاختصاص، لـك وحدك. ما في بطنـي: أي: ما أحمله في رحمي من ولد، والمحـرر هو العتيق، وأعتقت الغلام حررته؛ ليصبح متفرغـاً لعبادتك وحدك، وخدمة بيتـك المقدس، غير مملوك لأحد خالصاً لوجهك، ولداً ليقوم على خدمة بيتك وسدنته.

﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّي﴾: ودعت الله أن يتقبل هذا النذر، والتقبل أخذ الشـيء برضا؛ لأنك قد تأخذ الشيء بكره، أو تأخذه على مضض.

﴿إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾: تؤكد أنه يسمع نذرها، وما قالته.

والسميع: صيغة مبالغة تعني: يسمع كل ما يقال في السر والعلن.

العليم: يعلم نواياها، وما تكن؛ أي: إخلاصها وعزمها على فعل ذلك.

العليم: صيغة مبالغة من العلم، عليم بظواهر وبواطن الأمور.

[٣٦] ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾:

﴿فَلَمَّا﴾: الفاء: للتعقيب، ويدل على النذر كان قريباً من زمن الوضع، ولم يكن في بداية الحمل.

﴿وَضَعَتْهَا﴾: أي: ولدتهـا، فلماذا لـم يقل: ولـدت، أو وضعت، وقال:

وضعتها؟ لأنه سبحانه كان يعلم أنها أنثىٰ قبل ولادتها، وكذلك قيل: وضعتها الهاء: تعود إلىٰ امرأة عمران، لا إلىٰ ما ولدت.

﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ﴾: وكأنها تتعجب، أو تعتذر إلىٰ الله، وتقول ذلك قسراً؛ لأنها كانت ترجو أن ترزق مولوداً ذكراً؛ للقيام علىٰ خدمة بيت المقدس، والأنثىٰ في العُرف لا تصلح لخدمة البيت.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾: والله أعلم بما وضعت: أمر بديهي، والسؤال لماذا قال ذلك؟ قيل: تعظيماً لمريم عليها السلام، وأنها ستكون أماً لعيسىٰ عليه السلام، أو لعل هذه الأنثىٰ خير من الذكر الذي تريديه.

﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾: في هذه الآية: إشارة من رب العالمين إلىٰ أن بنية الأنثىٰ ليست كبنية الذكر، سواء هناك اختلافات تشريحية، وفيزيولوجية، وهرمونية تناسب مهمتها كأم وزوجة، وتغلب الجانب العاطفي فيها غالباً علىٰ الجانب العقلي، وكذلك لا تصلح الأنثىٰ لما يصلح له الذكر من ناحية دخول بيت المقدس، والإقامة فيه؛ لما يلحق بالأنثىٰ من الحيض، والنفاس، والولادة، والاختلاط بالناس وغيرها من أمور الفطرة، ولا يعني ذلك بأي حال تقليل من قيمة الأنثىٰ، ودورها الاجتماعي.

وليس: للنفي (غير مقيدة بزمن).

﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾: أي: العابدة، وقيل: قد اختارت هذا الاسم؛ للتقرب من الله.

﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾: وإني: للتوكيد، أعيذها بك: أصل التعوذ والاستعاذة بالله الالتجاء إليه، والاستجارة به من وساوس الشيطان ونزغاته، فهي تدعو الله أن يحفظ مريم، ويمنع الشيطان منها، وكذلك ذريتها، والذرية هنا النسل؛ أي: نسلها، والذي سيكون عيسىٰ عليه السلام.

ولنتذكر حديث أبو هريرة ﷺ الذي رواه البخاري ومسلم: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «كل بني آدم يمسه الشيطان يوم ولدته أمه إلا مريم وابنها»، وفي رواية ثانية: «ما من مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد».

فمن هذه الآية ندرك أهمية الإسراع بهذا الدعاء عند ولادة المرأة، والاستعاذة من الشيطان، كما فعلت امرأة عمران خوفاً من الشيطان، ولقد أدركت امرأة عمران: أن الشيطان هو الذي بوساوسه ونزغاته وتزيينه قد يقف حائلاً، أو عائقاً أحياناً لبعض الناس من القيام بالطاعة والعبودية.

أعيذها: فعل مضارع؛ للدلالة على الاستمرار، والتجدد في الاستعاذة، واللجوء إلى الله تعالى.

﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾: كلمة الشيطان اشتقت من شطن؛ أي: بعد عن الحق، وتمادى في الشر، ومن شاط: احترق، ومن شاطن؛ أي: خبيث.

الرجيم: المرجوم بالشهب، والمرجوم الملعون، والمرجوم المطرود المبعد من رحمة الله تعالى.

[٣٧] ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾:

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا﴾: رضي بمريم (كأنثى) في النذر بدلاً من الذكر (الولد)؛ أي: قَبِلَ الله مريم برضاً بدلاً من المحرر.

وقَبِلَ تسلمها من أمها، وذلك أن أمها جاءت بها بيت المقدس، ووضعتها عند الأحبار، وقالت لهم: دونكم هذه النذيرة، فتنافسوا فيها، فقال زكريا: أنا أحق بها عندي خالتها، فقالوا: لا لكنا نقترع عليها، فتكون عند من خرج سهمه، فألقوا أقلامهم فخرج قلم زكريا فوق الماء، ورست أقلامهم، فتكفلها زكريا حينذاك.

القبول: هو أخذ الشيء برضاً؛ أي: بعث لها من يتكفل بتربيتها التربية الحسنة، وهو زكريا.

﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾: برضاً حسن؛ أي: رضاً زائد.

﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾: رباها ربها تربية حسنة، ونشأت نشوءاً حسناً، وذلك على يدي زكريا. وقال تعالى: (نباتاً) ولم يقل (إنباتاً): لكي يظهر لنا أنها كانت أهلاً لهذا الإنبات لطهارتها وطاعتها لربها، ولو قال إنباتاً: لما كان لها فضل أو مشاركة في الإنبات.

﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾: بوحي من الله؛ للقيام بذلك، وكان زكريا متزوجاً من أخت مريم، فهو زوج خالتها، وكفلها؛ أي: تولى أمر تربيتها، ورعاية شؤونها، وقيل: ضم زكريا مريم إلى خالتها، واسترضع لها حتى إذا شبت وبلغت مبلغ النساء بنى لها محراباً في المسجد لا يرقى إليها إلا بالسلم؛ أي: لا يصعد إليها غيره.

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقًا﴾: كلما: تدل على كثرة الدخول؛ أي: المرات المتعددة؛ حتى يأتيها بالطعام، والشراب، وقيل: كان يغلق عليها الأبواب.

كلما: مركبة من (كل): ظرف شرطي، و(ما): مصدرية ظرفية؛ أي: هي أداة شرط تفيد التكرار.

المحراب: هو مقدم كل مصلى؛ حيث يقف الإمام، وقيل: المحراب غرفة، أو مقصورة في مقدم المعبد، يُصعد إليها بسلم، واشتقت كلمة المحراب من الحرابة، وتعني: محاربة الشيطان، ومحاربة وساوسه التي تكون على أشدها في هذا المكان، مكان الإمام.

﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقًا﴾: في كل مرة يدخل يجد عندها رزقاً، ورزقاً: نكرة لم

يحـــدد ما هو الرزق؛ لكثرته، فهـــو أجناس متعددة، قيل: من ثمـــار الجنة فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف.

﴿قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ﴾: أنىٰ؛ أي: من أين لك هذا الرزق؛ أي: مصدره، لا يشـــبه أرزاق الدنيا؛ لكونه في غير حينه (زمنـــه)، والأبواب مغلقة عليك، ولا يدخل عليك أحد.

انتبه:

(أنىٰ) هذه تحمل معنىٰ كيف، ومعنىٰ أين، وللاســـتفهام (فالاســـتفهام بها أقوىٰ من كيف)، وتحمل معنىٰ التعجب.

﴿قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾: أجابت بهذه الإجابة، وهي طفلة صغيرة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾: إن: للتوكيد، يرزق من: من اســـتغراقية، من يشاء بغير حساب؛ أي:

١ - بغير عد (أي: بغير إحصاء لكثرته).

٢ - بغير حساب أن تنفذ خزائنه سبحانه.

٣ - بغير استحقاق للمرزوق (مقابل الإيمان، أو عمل صالح).

٤ - من حيث لا يحتسب المرزوق.

٥ - يرزقه ولا يُسأل لماذا ترزقه الكثير، أو أكثر من غيره.

٦ - وبغير تقتير وتضييق.

❖ ❖ ❖

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً
طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ
يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ
ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ
أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ
كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ
قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر
رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ وَإِذْ قَالَتِ
ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ
عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى
وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ
إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ
مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ
ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ
عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾

سورة آل عمران [الآيات ٣٨ - ٤٥]

[٣٨] ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾:

﴿هُنَالِكَ﴾: هنا ظرف للزمان، والمكان، اللام: للتأكيد، والكاف: للخطاب؛ أي: في ذلك المكان (المحراب)، والزمان.

﴿دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾: بعد أن رأى رزق الله تعالى لمريم أن يرزقه الذرية الطيبة. دعا ربه: طلب من ربه، والدعاء يكون برفع الصوت وخفضه.

حيث بلغه الكبر وامرأته عاقر، وهو بحاجة ماسة إلى ولد صالح يرثه، ويرث من آل يعقوب فلعل الله يستجيب دعاءه.

﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي﴾: الهبة تكون عند السؤال، وتعطى لمن يستحق، أو لا يستحق، والواهب هو الله، ولا ينتظر الرد من الموهوب إليه بشيء، فالهبة عطاء بلا مقابل، وليس حقاً على الواهب؛ أي: يهب لمن سأله. ارجع إلى سورة الأنعام آية (٨٤) لمزيد من البيان في معنى: الهبة.

﴿مِن لَّدُنكَ﴾: وليس منك، من لدنك: خاصة بالمؤمنين والمقربين، أما منك: عامة لكل الناس (المؤمن والكافر).

﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾: والذرية: قد تكون ولداً واحداً، أو أكثر، وليس معناها الكثيرة دائماً، كما يظنون. الطيبة: المباركة الصالحة، ولداً صالحاً مباركاً.

﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾: قيل: مجيب الدعاء، وقابله، فهو كان يطلب ولداً يرث منه النبوَّة، كما بيَّنت ذلك سورة مريم، كما سنرىٰ.

[٣٩] ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾:

﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: الفاء: تدل علىٰ التعقيب والمباشرة بعد الدعاء ردت عليه الملائكة.

ـ هل كل الملائكة نادته، أم عدد منهم، أم جبريل وحده؟ قيل: المراد هنا جبريل عليه السلام، والعرب أحياناً تخبر عن الواحد (أو المفرد) بلفظ الجمع؛ للتفخيم، أو نادته جماعة من الملائكة، ونلاحظ في هذه الآية نادته الملائكة جاء بصيغة التأنيث، وفي أغلب الآيات يأتي بصيغة التذكير حين يذكر الملائكة، ويجوز التذكير والتأنيث من ناحية اللغة، والملائكة لا يعلمهم إلا الله سبحانه الذي خلقهم، ولكن لوحظ من سياق الآيات في القرآن: أن صيغة التذكير تأتي في سياق الأمر، وما يقع منهم من أفعال، أو حين وصفهم وعبادتهم والعذاب، والتأنيث في سياق الموت والبشرىٰ والنزول.

ـ زكريا عليه السلام دعا ربه أولاً، ثم قام إلىٰ الصلاة فنادته الملائكة وهو قائم يصلي، ولم تنتظر إلىٰ أن ينتهي من صلاته.

﴿وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ﴾: أشرف الأماكن، وأشرف ما في المسجد مقام الإمام المحراب. ارجع إلىٰ الآية (٣٧)؛ للبيان.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾: للتوكيد.

﴿يُبَشِّرُكَ﴾: من البشارة، وهي الإخبار بأمر سار، أو خير قادم زمنه لم يأت بعد، ولأول مرة.

﴿بِيَحْيَىٰ﴾: بشارة بيحيىٰ، يحيىٰ: اسم أعجمي أو مشتق من الفعل المضارع يحيا؛ أي: بغلام، فالله سبحانه حدد البشارة.

﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: كلمة من الله هو عيسىٰ عليه السلام مصدقاً مؤمناً بعيسىٰ ابن مريم، وقيل: هو أول من آمن بعيسىٰ عليه السلام، وسمي عيسىٰ (كلمة من الله)؛ لأنه خُلق بكلمة الله تعالىٰ (كن)؛ فيكون.

﴿وَسَيِّدًا﴾: من ساد يسود سيد قومه: أشرفهم، وأصلحهم في الدِّين، والخلق، والعلم، والعبادة؛ أي: يفوق قومه في جميع خصال الخير.

﴿وَحَصُورًا﴾: الحصر: هو الحبس مع التضييق، وقالوا: الإحصار في اللغة: هو المنع بغير الحبس، والحصر المنع بالحبس وأُحصر؛ أي: بسبب مرض أو نفقة أو غيره من الأسباب، وأما الحصر: هو منع و تضييق؛ أي: يحبس نفسه عن شهواتها، أو معصوم من الفواحش، ولا رغبة له في النساء، مع كونه سليماً وصالحاً أن يتزوج إذا أراد.

﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: من الصالحين؛ لأنه كان من أصلاب الأنبياء، من: ابتدائية، أو من جملة الأنبياء الصالحين.

[٤٠] ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾:

قال زكريا: ﴿أَنَّىٰ﴾: تعني: كيف يكون لي غلام، وقد بلغني الكبر، وامرأتي عاقر.

أو من أين؛ أي: هل ستلد زوجتي، أم هل سأتزوج امرأة أخرىٰ يأتيني منها الولد، وفيها تعجب، واستفهام، والاستفهام لا يعني أن زكريا يشك في قدرة الله تعالىٰ أبداً، ولكن هو يسأل عن الكيفية.

﴿وَقَدْ﴾: الواو: عاطفة، قد: حرف تحقيق وتوكيد.

﴿بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾: أدركني، وأضعفني الكبر، وفي سورة مريم، آية (٨) صرح قائلاً: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾، ويشبه الكبر بأنه إنسان يلاحقه، ويطارده.

﴿وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾: عاقر: من العقر؛ أي: القطع (قطع الرحم لعدم القدرة على الحمل)، والعاقر من الرجال والنساء: الذي لا يأتيه ولد.

وامرأتي عاقر؛ أي: غير قادرة على الإنجاب (سواء أكان السبب الكبر، أو بسبب طبي)، وقد تكون ولدت من قبل، وأصبحت عاقراً، والعاقر يمكن علاجها أحياناً، وتصبح قادرة على الإنجاب.

أما المرأة العقيم، وهذا ما حدث لامرأة إبراهيم ﷺ حين وصفت نفسها بالعجوز العقيم؛ أي: هي لم تلد أبداً، أو عندها عيب خلقي لا يمكن علاجه.

وانتبه إلى قوله: وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر: ولم يقل: وامرأتي عاقر فقط، ولم ينسب إلى نفسه القدرة والصلاح؛ لأن في هذا إساءة إلى شعور المرأة، والأمر هو من قضاء الله وقدره.

وإذا جمعنا هذه الآية مع الآية رقم (٨) من سورة مريم؛ حيث يقول تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾: فهذا يدلنا على أن امرأته كانت عاقراً (في شبابها)، وقوله: وامرأتي عاقر (في آية آل عمران): تعني الآن؛ أي: كانت ولا زالت عاقراً؛ فيدل ذلك على أنها هي السبب في العقم، وفي آية آل عمران قدم نفسه أولاً، ثم امرأته ثانياً: ﴿بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾، وأما في آية سورة مريم قدَّم امرأته أولاً ونفسه ثانياً: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾: هذا التقديم

والتأخير المتعاكس في هاتين الآيتين إن دلَّ فإنما يدل على أدب معاملة الزوجة، وإن كانت عاقراً، فهذا قدر وقضاء رباني يجب عدم اتخاذه وسيلة لإيذاء شعور الزوجة العاقر.

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾: أجابه الله تعالى على لسان الملائكة. كذلك: مثل ذلك (جعلها قادرة على الإنجاب) يفعل الله الكثير من الأفعال؛ أي: سبحانه قادر على أن يصلح له زوجه، كما ورد في الآية (٩٠) من سورة الأنبياء: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾، ويفعل ما يشاء، ولا يعجزه شيء في الأرض، ولا في السماء.

فلم التعجب، والاستفهام على فعل ذلك.

ولا بد من مقارنة هذ الآية: ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾؛ التي جاءت في خلق يحيى مع قوله سبحانه: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾؛ التي جاءت في سياق خلق عيسى عليه السلام، ففي شأن يحيى قال تعالى: يفعل الله ما يشاء، وفي شأن عيسى عليه السلام قال تعالى: يخلق الله ما يشاء، فما الفرق؟

الجواب: خلق يحيى عليه السلام يختلف عن خلق عيسى عليه السلام، فالفعل (يفعل ما يشاء) أيسر من الخلق (يخلق ما يشاء)، وجاء ذلك في سياق يحيى عليه السلام (من زكريا وزوجته)، واستعمل الخلق مع عيسى عليه السلام؛ لأن مريم لم يمسسها بشر، وجاء عيسى من مريم بدون زوج.

[٤١] ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾:

﴿قَالَ﴾: زكريا ﴿رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾: أي: علامة ستدلني على أن امرأتي

أصبحت حاملاً يستعجل زكريا من شدة فرحته بالبشارة، فيريد أن يعلم الزمن، ويؤكد على أن الوعد بالبشارة بيحيى قد أصبح فعلاً.

﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾: قال: لم يطلعنا من هو القائل، قد يكون جبريل، أو أحداً من الملائكة.

ألا: مركبة من (أن ولا)، أن: التعليلية، لا: النافية.

ألا تكلم الناس: أي: تُمنع من كلامهم إلا رمزاً؛ أي: بالإشارة بيد، أو رأس، أو غيرها، وهذا يسمى فن الإشارة؛ فهو يدل على ما في النفس من معان؛ أي: يحبس لسانك عن الكلام، رغم كونك صحيحاً سويَّ الجسم ومعافى.

ثلاثة أيام: أي: يدوم ذلك الحبس من الكلام ثلاثة أيام، واليوم في القرآن لا يعني (٢٤) ساعة، وإنما اليوم يعني من طلوع الشمس إلى غروبها؛ أي: حوالي (١٢) ساعة.

وماذا يحدث من الليل قد بيَّنه سبحانه في سورة مريم، آية (١٠) بقوله: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾، فإذا جمعنا الآيتين؛ فالحبس من الكلام سيكون ثلاثة أيام بلياليها.

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾: ورغم كونك غير قادر على الكلام، فلا يمنعك ذلك من الاستمرار في الذكر، والتسبيح الكثير، فذاك عبادة قلبية.

واذكر ربك كثيراً: يعني: الصلاة، والذكر المطلق هو ذكر الله بآلائه، وعظمته، والذكر يتضمن الشكر.

والتسبيح: هو التنزيه لله تعالى عما لا يليق بذاته، وأسمائه وصفاته من كل عيب، أو شرك، أو نقص أو عجز.

بالعشي والإبكار: العشي من زوال الشمس إلىٰ المغيب، والإبكار من طلوع الفجر إلىٰ شروق الشمس.

والتعريف بـ(ال) التعريف في كلمتي العشي والإبكار؛ تفيد في الدلالة علىٰ الدوام علىٰ الذكر، والشكر، والتسبيح؛ ليتناسب عظم الذكر والشكر والتسبيح مع عظم البشارة بالغلام (يحيىٰ عليه السلام)، وكأنه يقول: لا تشغلك النعمة (نعمة الولد) عن ذكر المنعم سبحانه وتعالىٰ، ولا بد من مقارنة هذه الآيات التي وردت في سورة آل عمران مع الآيات التي وردت في سورة مريم؛ ارجع إلىٰ سورة مريم للبيان.

[٤٢] ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

هذه الآية تتحدث عن اصطفاءين: اصطفاء أول، واصطفاء ثانٍ، ونرىٰ في الاصطفاء الثاني أتبعه بـ(علىٰ) أما الاصطفاء الأول لم يرد فيه (علىٰ)، فهو اصطفاء مبهم، علىٰ ماذا؟ لم يذكر، فتعال لنرىٰ مفهوم هذه الآية.

﴿وَإِذْ﴾: تعني: واذكر إذ قالت الملائكة، أو حين قالت الملائكة.

﴿قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: المراد بالملائكة هو جبريل عليه السلام. ارجع إلىٰ الآية (٢٩) من نفس السورة؛ للبيان، وقد يكون ذلك علىٰ سبيل المجاز (إطلاق الكل؛ «أي: الملائكة»، وإرادة البعض؛ أي: «جبريل»).

﴿يَٰمَرْيَمُ﴾: يا: أداة نداء للبعد.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: إن: للتوكيد، الله: اسم الله الجامع لصفاته وأسمائه. ارجع إلىٰ الآية (٢٥٥) من سورة البقرة؛ لمزيد من البيان.

﴿اَصْطَفَىٰكِ﴾: اختارك، أو اجتباك على ماذا؟ لم يذكر سبحانه، ومعنى اصطفاك. ارجع إلى الآية (٣٣) من نفس السورة.

﴿وَطَهَّرَكِ﴾: من الكفر، والفاحشة، والإثم، وطهرك من مس الرجال.

﴿وَاَصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: بكونك المرأة الوحيدة التي ستلد بدون زوج، وستحمل بدون أن يمسها بشر، وبكلمة كن فيكون.

إذن: الاصطفاء الأول يختلف عن الاصطفاء الثاني.

فالاصطفاء الأول: قال تعالى عنه: ﴿اَصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ﴾: ولم يقل: على، فقال المفسرون: اصطفاها على إيمانها، وصلاحها من بين النساء.

بينما الاصطفاء الثاني: قال تعالى عنه: ﴿وَاَصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: جاء بعلى؛ أي: حدد فقال على نساء العالمين.

فالاصطفاء الأول يبدو أنه اصطفاء مطلق، ومبهم، وليس خاصاً بها، فقد يشاركها في هذا الاصطفاء غيرها من النساء، أو الرجال في الخلق، والصلاح، والإيمان، وجاء هذا الاصطفاء قبل الحمل بعيسى عليه السلام.

إذن: تكرار اصطفاك مرتين؛ لأن كل اصطفاء له ميزاته وهناك من قال أنه كرر ذلك؛ للتأكيد، والله سبحانه أعلم.

[٤٣] ﴿يَٰمَرْيَمُ اقْنُتِى لِرَبِّكِ وَاسْجُدِى وَارْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾:

﴿يَٰمَرْيَمُ﴾: يا: النداء للبعد، نداء من جبريل عليه السلام إلى مريم عليها السلام.

﴿اقْنُتِى لِرَبِّكِ﴾: من القنوت، وهو لزوم الطاعة مع الخضوع، وأديمي له الطاعة والخضوع.

لربــك: ابتغاء ربك: أخلصي له وحده العبــادة، واللام: لام الاختصاص، وتدل على أنها على طريق القنوت، وعليها الاستقامة في السير عليه.

الرب: هو الخلاق، والمربي، والمطعم، والرزاق، والمدبر لشــؤون خلقه وكونه.

﴿وَٱسْجُدِى﴾: من الســجود في الصلاة؛ أي: صلى (من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل)، ويضم سجود الشكر والتلاوة.

﴿وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾: صلــي مع المصلين، ورغم أن الصلاة للمرأة في بيتها أفضل من صلاتها في المسجد، ولكن مريم لم يكن لها بيت، أو منزل سوى بيت المقدس، والأصل أن يقول: واركعي مع الراكعات.

أولاً: جاء بصيغة الذكورة؛ لأن الراكعين تشــمل الذكــور والإناث، وفيه تغلب للذكور على الإناث، ورفع لمنزلة مريم على النســاء بأن جعلها في درجة الرجال في قنوتها وصلاتها.

فالقنوت يشــمل كل العبادات، فهو أكثر من السجود (الذي هو مرتين في الركعة الواحدة)، والســجود أكثر مــن الركوع (الركوع مــرة واحدة في الركعة الواحدة)، فالتدرج هنا من الكثرة إلى القلة: القنوت- السجود- الركوع.

ثانياً: قدَّم السجود على الركوع رغم أن الركوع يسبق السجود؛ لأن السجود أفضل أركان الصلاة؛ لأن أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ســاجد، والسجود له منزلة عظيمة عند الله تعالى.

وإذا قارنا هذه الآيــة: ﴿ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾، مع الآية (٧٧) من ســورة الحــج: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: نجــد التدرج في هذه الآية بعكس

ما هو عليه في آية آل عمران فهو تدرج من القلة إلى الكثرة. الركوع-السجود-العبادة - فعل الخيرات.

[٤٤] ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾:

﴿ ذَٰلِكَ ﴾: اسم إشارة للبعد وهو إشارة إلى حديث زكريا وامرأة عمران، وما حدث لمريم حين ولادتها.

ذلك يا محمد: ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ ﴾ من: ابتدائية، أنباء: جمع نبأ؛ أي: أخبار الغيب العظيمة (النبأ هو الخبر العظيم).

﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ الوحي: هو إعلام بخفاء؛ أي: لا أحد يسمع الله سبحانه حين يوحي إلى المرسل إليه، أو إلى بشر، أو إلى الأرض، أو النحل، أو الملائكة. ارجع إلى سورة النساء، آية (١٦٣)؛ لمزيد من البيان.

ووسيلة العلم بالنبأ تكون بثلاثة وسائل هي: المشاهدة، أو السماع، أو القراءة.

فالنبأ الذي أخبر الله سبحانه رسوله عن حديث زكريا ومريم وامرأة عمران كان قبل بعثة الرسول ﷺ بعدة قرون طويلة إذن الحدث لم تشاهده.

وأما بوسيلة القراءة فالرسول لم تكن لديه كتب يقرؤها، إذن: رسول الله سمع هذه الأنباء من جبريل عليه السلام.

﴿وَمَا ﴾: الواو عاطفة، ما: النافية.

﴿كُنتَ ﴾: يا محمد ﷺ.

﴿لَدَيْهِمْ ﴾: ظرف مكاني؛ أي: حاضراً عندهم. (ارجع إلى الآية (٣٧)

من نفس السورة؛ للبيان) في قصة كفالة زكريا مريم. لديهم: لدىٰ أحبارهم، أو أشراف القوم حين تنافسوا علىٰ رعاية مريم وتربيتها.

﴿إِذْ﴾ ظرف زماني للماضي.

﴿يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ﴾: أي: يرمونها يطرحونها للاقتراع (فجاءت القرعة لزكريا) والقلم هو ما نكتب به.

﴿أَيُّهُمْ﴾: أي: للاستفهام.

﴿يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾: يرعاها ويربيها.

﴿وَمَا كُنتَ﴾: التكرار؛ للتوكيد.

﴿لَدَيْهِمْ﴾: كالسابقة.

﴿إِذْ﴾: ظرف زماني

﴿يَخْتَصِمُونَ﴾: يتنازعون في كفالتها مما يدل علىٰ حرارة الحب إلىٰ كفالتها الأمر الذي أدَّىٰ إلىٰ إثارة الخصومة والاقتراع بالأقلام، والاقتراع في الإسلام مباح، وله شروطه.

[٤٥] ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾:

﴿إِذْ﴾: واذكر إذ أو حين قالت الملائكة: ظرفية.

﴿قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: أي: جبريل عليه السلام.

﴿يَٰمَرْيَمُ﴾: يا: النداء؛ للبعد.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ﴾: البشارة لا تكون إلا بخبر عظيم مفرح، ولأول مرة،

(وإذا استعملت في غير ذلك الغرض؛ تعني: التهكم، والتحقير، مثل قوله: وبشر المنافقين).

﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾: المراد بهذه الكلمة عيسىٰ، وسمي بالكلمة؛ لأنه خلقه بكلمة كن فيكون كما حدث لآدم عليه السلام.

﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾: إنها ثلاثة أسماء تتركب من: اللقب والاسم والكنية.

المسيح: هو اللقب، أو صفة، وتعني ما مسح ذا عاهة، إلا برأ منها، أو لأنه كان يسيح في الأرض، ولا يقيم في مكان، أو الممسوح من الذنوب، أو المسيح المبارك، وفي اللغة العربية يستعمل اللقب؛ للمدح، أو الذم.

عيسىٰ: هو الاسم، ويستعمل الاسم في حالة التكليف، أو النداء، أو الثناء، وعيسىٰ قيل: مأخوذة من العيس، وهو: بياض تعلوه حمرة.

ابن مريم: هو الكنية لم يرد ابن مريم لوحده أبداً في القرآن، وفي مقام تصحيح العقيدة يستعمل غالباً المسيح عيسىٰ ابن مريم، أو المسيح ابن مريم، أو عيسىٰ ابن مريم، ولا يمكن أن ينسب الطفل للأم مع وجود الأب.

﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾: وجيهاً: من وجهاء القوم؛ أي: ذا جاه، وقدر، وكرامة، إذا سأل يستحيي الناسُ أن يردوه خائباً.

وجيهاً في الدنيا: بالنبوَّة، وذا جاه، وكرامة في الدارين.

والآخرة: بالشفاعة، والمنزلة العالية في الجنة.

ومن المقربين: من: ابتدائية المقربين عند الله سبحانه، رفعه الله إليه.

ورد اسم مريم (٣٤) مرة في القرآن.

ورد اسم عيسىٰ في القرآن حوالي (٢٥) مرة، وكان اسمه كما يلي عيسىٰ ابن مريم (١٤) مرة، المسيح عيسىٰ ابن مريم (٣) مرات، وورد اسم المسيح ابن مريم (٦) مرات، وذكر فقط المسيح (٢).

وسواء المسيح عيسىٰ ابن مريم، أو عيسىٰ ابن مريم، جملة اسمية تفيد الثبوت؛ ليظل هذا الوصف ابن مريم ثابتاً مقرراً في الأذهان إلىٰ يوم القيامة، رداً علىٰ من ادعىٰ بألوهية عيسىٰ ابن مريم، واسم عيسىٰ يأتي في سياق النداء، والتكليف، وفي سياق تعداد الرسل وبشكل عام، بينما يأتي اللقب المسيح في سياق الثناء والعقيدة، (والمسيح معناها المبارك)، ويأتي ابن مريم في سياق الوحدانية، أو الشرك، أو الإلوهية، أو الولد، أو تصحيح العقيدة.

❖ ❖ ❖

وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾
قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ
ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾
وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾
وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ
أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ
فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ
وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ
فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾
وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم
بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ
فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ
هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ
ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ
أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾

نصف الحزب ٦

سورة آل عمران [الآيات ٤٦ - ٥٢]

[٤٦] ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾:

﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ﴾: في المهد: مضجع الصبي، وهو رضيع.

في: ظرفية مكانية وزمانية في زمن الرضاع، وهو في مهده.

يكلم الناس: لتبرئة أمه مما قُذفت به، وليد بدون أب؟ فقد اتهمها المفترون بعرضها، وكرامتها، وعفتها، ولم يُبيِّن في هذه الآية ما كلمهم به في المهد، ولكنه بيَّنه في سورة مريم (٣٠-٣٣) فقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾.

وعيسىٰ عليه السلام كان واحداً من بين عدة أطفال تكلموا قبل أوان الكلام، كآية أو معجزة، من آيات الله الدالة علىٰ قدرته سبحانه وعظمته.

﴿وَكَهْلًا﴾: الكهولة المرحلة بين الشباب والشيخوخة، وقيل: بعد سن الثلاثين، وقيل: الكهل من تجاوز سن (٣٠)، والبعض قال: سن الأربعين؛ أي: حال كونه كهلاً يكلمهم بالوحي، ويدعو الناس إلىٰ الإيمان.

وسمي الكهل كهلاً: لاجتماع قوته، وكمال شبابه، واشتقت من: اكتهل النبات، أو حين تبدأ شعرات الشيب تظهر لأول مرة في الرجل العادي الصحيح.

وكهلاً كما قال ابن عباس رضي الله عنهما؛ أي: يكلم الناس بعد نزوله من السماء، وعودته بعد أن رفعه الله عزَّ وجلَّ إليه يكلم الناس يدعوهم إلىٰ الإسلام، ويخبرهم بالحق، وأنه لم يصلب، وأنه رسول الله سبحانه.

﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: في أعمالهم، والمخلصين في دينهم، والصلاح ،يعني:

الاستقامة في جلب الخير ونشره، والتخلص من الشر والفساد في الأرض، والالتزام بما أنزل الله ورسوله ﷺ.

[٤٧] ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾:

﴿قَالَتْ﴾: مريم ﴿رَبِّ﴾: حذفت ياء النداء؛ لكونها تعلم أن الله قريب بعلمه منها، وهو أقرب إلينا من حبل الوريد.

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾: أنى: من أين وكيف، وللاستفهام والتعجب من أن يكون لها ولد.

﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾: لم: حرف نفي، يمسسني: أي: لم يقربني زوج، والمس هو الجماع.

﴿بَشَرٌ﴾: سمي الإنسان بشراً؛ لظهورهم بعكس الجن، ومشتقة من البشرة ظاهر جلد الإنسان. ارجع إلى الآية (٧٩) من نفس السورة؛ للبيان.

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ﴾: تأكيداً لما قالته عن إنجاب عيسى دون أن يمسسها بشر، كذلك هو الأمر، أو كما قلت.

﴿اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾: ولم يقل: يفعل الله ما يشاء، كما في سياق زكريا، ويحيى. ارجع إلى الآية (٤٠) من نفس السورة؛ أي: الحق سبحانه قادر على أن يخلق ما يشاء، والخلق أصعب من الفعل؛ الفعل أيسر من الخلق، وهذا في ميزان البشر، أما بالنسبة لله سبحانه ليس في ميزانه صعب وسهل، فالكل سهل لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

- من تراب.
- أو من ذكر وأنثى.
- أو من أنثى بدون ذكر.

ـ أو من ذكر بدون أنثىٰ.

﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾: ارجع إلىٰ الآية (٣٦) من سورة مريم؛ للبيان.

ومن الجدير بالذكر: أن الملائكة لم تخبرها أنها ستلد ولداً بأب، أو غير أب، ويبدو أنها هي بذكائها استخلصت ذلك من تبشير الملائكة لها، وقيل: إن الذي خاطبها هو جبريل عليه السلام.

ولنقارن هذه الآية (٤٧) مع الآية (٢٠) من سورة مريم:

﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾: ففي الآية (٤٧) قالت: ولد، وفي الآية (٢٠ من سورة مريم) قالت: غلام، والغلام يطلق علىٰ الذكر، وأما بالنسبة للعمر اختلف فيه؛ قيل: علىٰ الغالب المرحلة قبل سن البلوغ، وقد سميت إلىٰ سن البلوغ.

فما هو الفرق بين الآيتين، آية آل عمران، قيل: جاءت في سياق البشارة، وقبل الحمل بزمن غير معلوم، فهي لا تعلم هل هو ذكر أم أنثىٰ، فقالت ولد، والولد يحتمل أن يكون ذكراً أو أنثىٰ.

أما في سورة مريم جاءت في سياق بدء الحمل جاءها جبريل ليخبرها أن الحمل سيبدأ، وقال لها جبريل: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾: عندها أجابت بنفس الكلمة ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ﴾، غلام يعني: ولد.

[٤٨] ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾:

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ﴾: أي: الكتابة والخط.

﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾: الفقه بالأحكام الشرعية، والدِّين، وحسن التدبير، وقد تعني: النبوَّة.

﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ﴾: كتاب موسىٰ عليه السلام.

﴿وَٱلْإِنجِيلَ﴾: الكتاب الذي سينزل عليه، وقد تلقى الإنجيل من جبريل حين كان عمره (٣٠ سنة)، وقيل: تلقاه على جبل يسمى جبل الزيتون، والإنجيل معناه: البشارة.

[٤٩] ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾:

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: أي: أبعثه رسولاً إلى بني إسرائيل ودائماً كقاعدة عامة حين يأتي من يدعي أنه رسول، أو يقول: أنا رسول من عند الله سبحانه لا بد من أن يقدم بين يدي دعواه معجزة، أو آية تثبت أنه رسول من الله، كما فعل موسى بالعصا، واليد، وغيرها، وصالح جاء بالناقة، فلا بد من آية يأتي بها؛ للدلالة على صدقه ونبوته.

﴿أَنِّى﴾: أن جاءت للتوكيد.

﴿قَدْ﴾: للتحقيق، وزيادة التوكيد.

﴿جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: الآية هنا معجزة من ربكم، وقال ربكم ليجلب قلوبهم فيؤمنوا مع العلم أنه ﷺ جاءهم بكثير من الآيات (إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص)، وغيرها، ولكنه جمعها بآية واحدة؛ لأنها من جنس واحد كلها تدل على نبوته فمن يؤمن بآية يؤمن ببقية الآيات؛ للدلالة على نبوته، والذي لا يؤمن بآية لا يؤمن بغيرها.

﴿أَنِّى﴾: للتكرار والتوكيد.

﴿أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ﴾: أولاً: يجب الانتباه إلى أن هذا كلام عيسى ﷺ؛ فيه: جاء بصيغة التذكير، والضمير يعود على الطين قبل أن يكون طيراً، وإذا قارنا هذه الآية مع الآية (١١٠) في سورة المائدة قال تعالى:

﴿فَتَنفُخُ فِيهَا﴾ جاء بصيغة التأنيث، فهذا الكلام جاء في سياق يوم القيامة، وسياق تعدد نعمه على عيسى عليه السلام، وهو كلام الله سبحانه، وليس كلام عيسى عليه السلام، وقد سبق حين كان في الدنيا أن صنع من الطين طيراً، والطير قد يكون مفرداً أو جمعاً، ففيه إخبار عن وقوع الفعل سابقاً، والضمير فيها يعود على الطير التي سبق أن نفخ فيها.

﴿فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: أي: بأمر من الله تعالى، ومشيئته، وقوله بإذن الله: حتى لا يظن أحدٌ أن الله سبحانه هو عيسى ابن مريم عليه السلام، ففي هذه الآية عيسى عليه السلام يخاطب قومه عن معجزاته، فيقول: بإذن الله، ولا يجوز أن يقول: بإذني.

ـ وقال: بإذني في آية (١١٠) في سورة المائدة؛ لنفي الألوهية عن عيسى عليه السلام.

والنفخ في كلا الحالتين ليس هو بحد ذاته المعجزة، وإنما المعجزة الحقيقية هي تحول الطير الجامد إلى طير يتحرك، ويطير بجناحيه.

وفي كلا الآيتين تم الأمر بإذن الله، أو بإذني (التي تعود إلى الله).

﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ﴾: البرء: هو الشفاء؛ أي: أشفي.

الأكمه: هو الذي يولد أعمى؛ أي: العمى الجنيني الذي يحدث زمن الحمل، وتشكل الجنين فهو أكثر صعوبة في الشفاء من العمى المكتسب الذي يحدث بعد زمن الولادة.

والأبرص: وهو فقدان الجلد للون البشرة، فيصبح الجلد مصاباً ببقع بيضاء متناثرة، وهذا مرض سببه نقص في هرمون الميلانين، وهو مرض يصيب قسماً من الغدة النخامية؛ فيؤدِّي إلى فقدان لون البشرة، وخص الله تعالى هذه الأمراض؛ لأنها كانت شائعة عندهم وجاء ذكر البرص في التوراة.

﴿وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: وإحياء الموتى معجزة خارقة لم يتطرق إليها أحد منذ عيسى، ولم يدق بابها عالم حتى الآن.

﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾: الأمور الثلاثة السابقة كانت عامة للكل، أما الإنباء بألوان الطعام، وما يدخر كل إنسان في بيته، وما يأكل هذه أمور خاصة جداً لا يعلمها إلا علام الغيوب.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: ما ذكر سابقاً عدد من الآيات وليس آية واحدة، فكيف جمعها في آية واحدة، فقال: إن في ذلك لآية؛ لأن من يؤمن بآية يؤمن بكل الآيات الأخرى، والذي لا يؤمن بآية لا يؤمن بكل الآيات، والآيات (المعجزات) السابقة كلها تدل على نبوَّة عيسى عليه السلام.

إن: للتوكيد، لآية: اللام: لام لزيادة التوكيد، إن: شرطية، كنتم مؤمنين: مصدقين بآيات الله الباهرة، ودليلاً قاطعاً على صدق رسالتي ونبوتي.

[٥٠] ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾:

﴿وَمُصَدِّقًا﴾: موافقاً، أو مطابقاً لما جاء في التوراة.

﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾: جئت مصدقاً لما نزل قبلي من التوراة.

﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾: وجئت لأحل (اللام: لام التعليل) أحل لكم (خاصة) بعض الذي حرم عليكم من الطيبات. فقد حرم الله سبحانه سابقاً على بني إسرائيل ما جاء في سورة الأنعام، الآية (١٤٦) حيث قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾.

وذلك بسبب ظلمهم كما ورد في سورة النساء، آية (١٦٠): ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾.

﴿وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: الباء: للإلصاق، تعني: وجئتكم بآية بعد آية من ربكم شاهدة على صدقي؛ أي: بآيات كثيرة، ولكنه وحَّد الكل؛ لأن الكل من جنس واحد.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾: الفاء: للتوكيد، اتقوا الله: أطيعوا أوامره، وتجنبوا نواهيه، وأطيعون (فيها حثٌّ على التقوى والطاعة)؛ أي: طاعة عيسى عليه السلام أيضاً.

[٥١] ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾:

﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل يفيد التوكيد، فهذا عيسى عليه السلام يثبت الربوبية والألوهية والعبودية لله سبحانه، وفي آية الزخرف (٦٤) يزيد بكلمة: هو ربي وربكم؛ لزيادة التوكيد، والسبب في زيادة هو في آية الزخرف؛ لأن سياق الآيات في الحديث عن ألوهية عيسى عليه السلام. ارجع إلى سورة الزخرف، آية (٦٤)؛ لمزيد من البيان.

[٥٢] ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾:

﴿فَلَمَّا﴾: الفاء: تدل على التعقيب والمباشرة. لما: ظرف للزمان الماضي بمعنى: حين.

﴿أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾: الحس: هو أول العلم؛ أي: علم من أول وهلة كُفر بني إسرائيل، وأحس؛ أي: علم علماً لا شبهة فيه علم إدراك؛ أي: علم يقيناً، أو بكل تأكيد.

فلما أحس عيسى كفر بني إسرائيل، واستمرارهم في الضلال عندها:

﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِي﴾: من اسم استفهام؛ أنصار: جمع نصير فيه مبالغة وتأكيد يدل على الثبوت، وفي سياق نصرة الرسول عيسى، ونصرة الله سبحانه، وأضاف إليها ياء المتكلم؛ أي: نصر حقيقي تام وليس جزئي.

﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾: قيل: كانوا اثني عشر رجلاً، وسموا الحواريين:

١ - أي: الخواص الأصفياء؛ أي: أصفياء عيسىٰ، أو خاصة عيسىٰ، والحواريون في اللغة؛ أي: الذين أخلصوا، ونقوا من كل عيب.

٢ - أو سموا بذلك: لبيض ثيابهم.

٣ - أو لأنهم كانوا يحورون ثيابهم؛ أي: يبيضونها، ويقال لهم: القصارون بسبب ذلك.

٤ - وقيل: الحواريون المجاهدون.

٥ - والحواريون الصيادون، قيل: كانوا يصطادون السمك.

٦ - وقيل: كلمة الحواريين مأخوذة من الحور شدة بياض العين، وشدة سوادها، وهم جماعة أشرقت وجوههم بنور الإيمان.

﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾: أي: أعوان دينه، فهم أول من آمن بعيسىٰ عليه السلام.

﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾: فقد أعلنوا إيمانهم لله أولاً بعد أن أبلغهم عيسىٰ عليه السلام الرسالة.

﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾: ثم جاء من بعد ذلك طلبهم الشهادة، وطلبوا من عيسىٰ عليه السلام بأن يكون شاهداً علىٰ شهادتهم، بأنهم مسلمون؛ أي: موحِّدون ومخلصون، والشهادة ليست مجرَّد قول، بل عقيدة، وعملاً، وأحكاماً.

ولم يقولوا: نحن أنصارك إلىٰ الله؛ لأن هذا يعني: نحن أنصارك، ومتىٰ مُت تنتهي النصرة، وينتهي الأمر، ولذلك قالوا: نحن أنصار الله سواء كنت معنا أم لم تكن، وهكذا تكون عقيدة المسلم.

لنقارن هذه الآية من سورة آل عمران: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، مع الآية (١١١) من سورة المائدة: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾:

لماذا قالوا في آل عمران: (بأنا مسلمون)، وفي المائدة: (بأننا مسلمون)؟ أكدوا بنون التوكيد بقولهم: بأننا.

الجواب: أولاً: آية آل عمران جاءت رداً لعيسى عليه السلام على سؤاله من أنصاري إلى الله.

أما آية المائدة: فجاءت رداً لله تعالى على أن يؤمنوا به، وبرسوله، والمخاطب هو الله سبحانه؛ لذلك جاء التأكيد بنون النسوة في كلمة بأننا، أما في آية آل عمران: فالمخاطب هو عيسى عليه السلام، وليس الله سبحانه، ولذلك قالوا: بأنا؛ أي: أكدوا لله تعالى على إسلامهم أكثر مما أكدوا لعيسى عليه السلام.

ثانياً: آية آل عمران: جاء في آخر دعوته التي قيل: دامت ثلاث سنين قبل رفع عيسى إليه تعالى.

وآية المائدة: جاءت في سياق بدء الدعوة، وإذا أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي فهم أكدوا إسلامهم في بدء الدعوة، أما في آخر الدعوة لا يحتاج إلى توكيد، فهم مسلمون منذ زمن طويل.

ثالثاً: آية آل عمران: جاءت في سياق الدعوة إلى الانضمام إلى أنصار الله.

آية المائدة: جاءت في سياق تعداد النعم للحواريين.

❖ ❖ ❖

رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ
ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ
ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ
إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ
فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ
فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَمَا
لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾
ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ
مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ
لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾
فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ
أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ
ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾

سورة آل عمران [الآيات ٥٣ - ٦١]

[٥٣] ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾:

هذا تتمة قول الحواريين: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ﴾: الباء: للإلصاق، ما: اسم موصول، آمنا بما أنزلت على عيسى عليه السلام؛ أي: الإنجيل، وما فيه من عقائد وتشريعات وأحكام.

﴿وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾: عيسى ابن مريم.

﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾: الفاء: للتوكيد، الشاهدين لك بالوحدانية، والشاهدين على رسولك بالصدق، والشاهدين لرسلهم بأنهم بلغوا الرسالة.

[٥٤] ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾:

﴿وَمَكَرُوا۟﴾: من المكر، وكلمة مكر: مأخوذة من الشجر الملتف أغصانه على بعضها البعض، فلا يستطيع الإنسان أن يعرف أي ورقة من أي فرع.

فالمكر هو: تدبير خفي؛ لإيقاع الضرر بالغير، ويحتاج إلى خبرة، وحنكة، وهو علامة على الضعف؛ لأن القوي لا يمكر، ولكن يواجه الأمر. ارجع إلى الآية (٤٦) من سورة إبراهيم؛ لمزيد من البيان.

والمكر غير الخداع، فالخداع: هو إظهار للشخص خلاف ما هو الحقيقة؛ كي يستر عنه وجه الصواب، أو الحقيقة؛ لجلب منفعة، أو دفع مضرة.

ومكروا: تعود على كفار بني إسرائيل الذين أحس عيسى منهم الكفر، ومكروا ليقتلوا عيسى عليه السلام.

﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾: بأن رفع الله سبحانه عيسى إلى السماء، وألقى شبه عيسى على الذي مكر بعيسى، فأخذوا الذي ألقي عليه شبه عيسى؛ فقتلوه، وصلبوه، وظنوا أنهم قتلوا وصلبوا عيسى.

﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾: سبحانه الغني عن أن يوصف بهذا الوصف؛ فالله سبحانه لا يمكر ولا يحتاج إلى المكر، وإنما ذكر ذلك عن طريق المشاكلة في بديع اللغة، والمكر من الله: هو المجازاة؛ أي: هو أحسن المجازين؛ أي: المحاسبين للماكرين، أو أحسن المدبرين لإنقاذ أوليائه، وإهلاك أعدائه.

[٥٥] ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾:

﴿إِذْ﴾؛ أي: اذكر إذ: ظرف زمان؛ أي: اذكر إذ قال، أو حين قال.

﴿قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ﴾: حين ينادي الأعلى الأدنى باسمه المجرد: يا عيسى (ولم يقل: يا عيسى ابن مريم) هذا النداء فيه نوع من التحبب، والقربى، وحين يكون النداء من الأدنى إلى الأعلى باسمه المجرد يعتبر غير لائق.

﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾: إني: للتأكيد.

متوفيك: من الوفاة، والوفاة لها معانٍ متعددة.

١ - منها المرحلة التي تسبق الموت، وقبض الروح، الموت: كقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة:١١].

٢ - ومنها النوم: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ [الزمر:٤٢]؛ أي: منيمك ورافعك إليَّ.

٣ - ومنها أخذ الشيء وافياً؛ أي: قبضه، أو مثل استوفىٰ دينه؛ أي: استرد دينه وافياً؛ أي: مستردك يا عيسىٰ ورافعك إلي وافياً تاماً من غير أن ينال منك عدوك شيئاً.

﴿وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾: الرفع الصعود، أو العروج، والواو: تدل علىٰ الترتيب، فالوفاة أولاً، والرفع ثانياً، وإذا كانت لا تدل علىٰ الترتيب ربما حدث الرفع أولاً، ثم الوفاة ثانياً.

﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: مُبعدك، ومبرئك من أقوال وأفعال الذين كفروا.

﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾: اتبعوك: تشمل كل من صدق بك وبرسالتك، اتبعوا المنهج الحق.

فوق الذين كفروا: الفوقية هنا بالحجة، والبرهان، أو القوة والغلبة إلىٰ أن يأتي يوم القيامة. ارجع إلىٰ سورة البقرة، آية (٦)؛ لبيان معنىٰ الذين كفروا.

﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾: ثم: للتريث والتراخي، إليَّ مرجعكم يوم القيامة فأحكم بينكم في أمر عيسىٰ عليه السلام، أو فيما اختلفتم فيه من الأحكام في دنياكم، ومن هو علىٰ الحق، ومن هو علىٰ الباطل.

فأحكم بينكم وما هو الحكم؟

أخبر عنه في الآيتين القادمتين (٥٦، ٥٧).

[٥٦] ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾:

فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا (بالقتل والذل والبأساء والضراء)، والآخرة (بالنار)، وما لهم من ناصرين: جمع ناصر أقل مبالغة وتأكيد من أنصار، وجاء لنفي النصرة عن الكافرين؛ أي: ناصرين يشفعوا لهم، أو يمنعوا عنهم العذاب في الدنيا والآخرة.

قدَّم جزاء الذين كفروا على الذين آمنوا؛ لأنه سبقها الكلام عن الذين مكروا وكفروا وأخّر الذين آمنوا وذكرهم في الآية (٥٧).

وأسند التعذيب إلى نفسه سبحانه (استعمل ضمير المتكلم) فأعذبهم؛ للدلالة على التحذير، وشدة العذاب، فهو سيعذبهم بنفسه.

[٥٧] ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾:

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾: بعيسى وصدقوا به، وآمنوا بالله وحده، ﴿ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾.

﴿ فَيُوَفِّيهِمْ ﴾: تتناسب مع متوفيك، واستعمل ضمير الغائب فيوفيهم ﴿ أُجُورَهُمْ ﴾: كاملة غير منقوصة.

وفي قراءة أخرى: فنوفيهم أجورهم.

الأجر: يكون مقابل العمل، ولا يستخدم الأجر إلا في النفع (يأتي بمعنى النفع).

وفي هذه الآية لم يذكر ما أعمال هؤلاء الذين آمنوا، وإنما ذكر فقط صلاحهم وإيمانهم، ولذلك أعقبها بقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: هنا عاد وأكد أنه سبحانه لا يحب الذين ظلموا وكفروا والذين أصبح الظلم صفة ثابتة عندهم.

[٥٨] ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْـَٔايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾:

﴿ذَٰلِكَ﴾: ذا: اسم إشارة، والكاف: للخطاب، اسم إشارة يشير إلى المذكور من أمر عيسى والحواريين.

﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾: نتلوه عليك يا محمد ﷺ عن طريق تلاوة جبريل عليك. ونتلوه: النون: نون الجمع أو العظمة، وتدل التلاوة على التشريف، وكذلك آية من آيات صدق نبوتك.

﴿مِنَ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾: آيات القرآن والدالة على صدق نبوتك ورسالتك.

﴿وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾: أي: القرآن، والذكر في اللغة: يعني عدم النسيان، والحفظ، ويحمل معنى الشرف؛ أي: ذي شرف، فهو كتاب الله العزيز ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت:٤٢]؛ أي: محفوظاً أعظم القدر؛ فيه تذكير بما تضمن من أحكام ومواعظ وقصص وترغيب وترهيب.

الحكيم: صفة للقرآن مشتقة على وزن فعيل؛ لكثرة حِكمه، وحكيم معناها: المحكم؛ أي: هو محكم وكثير الحكمة. ارجع إلى الآية (١) من سورة هود؛ لمزيد من البيان.

[٥٩] ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾: نزلت هذه الآية في وفد نجران حيث قالوا لرسول الله ﷺ: أتقول أن عيسىٰ عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلىٰ مريم، فغضبوا وقالوا: هل رأيت إنساناً من غير أب؟

فأنزل الله تعالىٰ هذه الآية؛ أي: كون عيسىٰ خلق من غير أب، كمثل آدم خلقه من غير أب، ولا أم.

﴿ثُمَّ﴾: للتراخي والمهلة، أو تباين صفة الخلق من تراب، والخلق من أم بدون أب.

﴿قَالَ﴾: الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾: ﴿كُن﴾: فعل أمر، الفاعل ضمير مستتر تعود علىٰ الله، فالهاء تعود علىٰ آدم، أو عيسىٰ. فيكون: الفاء عاطفة نسبية، يكون: فعل مضارع لم يقل فكان قال فيكون، جاء بصيغة المضارع؛ للدلالة علىٰ حكاية الحال.

استحضاراً لصورة تكونه. ارجع إلىٰ سورة مريم، آية (٣٥).

[٦٠] ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾:

﴿ٱلْحَقُّ﴾: خبر مبتدأ محذوف تقدير هذا الحق من ربك، أو هو الحق من ربك.

﴿فَلَا﴾: الفاء: للتأكيد، لا: ناهية.

﴿تَكُن﴾: ولم يقل: فلا تكونن، أو فلا تك من الممترين.

﴿ٱلْمُمْتَرِينَ﴾: والامتراء: هو الجدال بالباطل بعد تبيُّن الحق؛ أي: لا تجادل وفد نجران أو غيرهم بشأن عيسىٰ بعد أن تبيَّن لك الحق من ربك.

ولنقارن آية البقرة (١٤٧)، وآية آل عمران (٦٠)، وآية الأنعام (١١٤)، وآية يونس (٩٤)، (٣) آيات: فلا تكونن، وآية واحدة تكن.

آية البقرة (١٤٧): ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾.

آية آل عمران (٦٠): ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾.

آية الأنعام (١١٤): ﴿أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾.

آية يونس (٩٤): ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾.

في آية البقرة: جاءت في سياق تحويل القبلة وما صاحب ذلك من ارتجاف شديد في قلوب المؤمنين حتىٰ أن ضعاف الإيمان ارتدُّوا، وإن كانت لكبيرة إلا علىٰ الذين هدىٰ الله، فالأمر هذا يحتاج إلىٰ توكيد، فأكد بالنون الثقيلة، فقال: فلا تكونن.

وفي آل عمران: جاءت في سياق عيسىٰ وخلقه، وليس هناك فيه خلاف أنه خلق من غير أب، وبكلمة كن فيكون، وإرجاف كما هو الحال في تحويل القبلة، فقال: فلا تكن بدون نون.

وفي الأنعام: جاءت في سياق التكذيب بالرسل، وعدم الإيمان، فلا بد من التوكيد، فجاء فلا تكونن.

وفي يونس: جاءت لإزالة الشك مما أنزلنا إليك، فلا بد من التوكيد بالنون، وأضيف إلىٰ ذلك اللام وقد.

[٦١] ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾:

﴿فَمَنْ﴾: الفاء: عاطفة، من: شرطية.

﴿حَاجَّكَ﴾: من المحاجة: الحوار بالحجة؛ أي: كل طرف يأتي بما لديه من الحجج والبراهين التي تؤيد رأيه لمحاولة الوصول إلى الحق، والمحاجة تكون عادة بين حق وباطل، ولا يمكن أن تكون بين حق وحق، أو باطل وباطل.

﴿فِيهِ﴾: في شأن عيسى عليه السلام.

﴿مِنْ﴾: ابتدائية.

﴿مَا﴾: للتوكيد.

﴿جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾: عن طريق الوحي، ولم يؤمنوا (وفد نجران، أو غيرهم من الكافرين)، بما جاءك من العلم بأمر عيسى عليه السلام، وأن عيسى ليس إلهاً، أو ابن إله، أو ثالث ثلاثة، وغيرها...

﴿فَقُلْ﴾: لهم يا محمد ﷺ.

﴿تَعَالَوْا﴾: هلمُّوا أقبلوا.

﴿نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾؛ أي: كلا الفريقين يدعوا أعزة الأهل من الأبناء والنساء، وأنفسنا وأنفسكم.

ولماذا أعزة الأهل من الأبناء والنساء كان يكفي أنفسهم؟ لأن هؤلاء أهم الأقارب الذين يصعب أن يُضحي بهم أي إنسان، ويزرع في قلوبهم الخوف؛ لأنهم ظهرت عليهم علامات الاستكبار والغلو.

﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾: من المباهلة: تختلف عن الدعاء؛ تعني: اجتماع فريقين من الناس يدعون على الظالم، أو الكاذب من بينهما أن تنزل عليه اللعنة، ويتضرعون ويبالغون في الدعاء (وتسمى الملاعنة)؛ لاستنزال اللعنة على الكاذب، مثل: يا رب أنزل لعنتك على الكاذب منا، أو التداعي باللعن، ويقال: بُهلة الله عليه؛ أي: لعنة الله عليه.

يقف كل طرف في موقف واحد، وكل طرف يدعو الله أن يلعن الطرف الآخر، فالله هو القوة الظاهرة التي تنهي الخلاف.

وقد دعا رسول الله ﷺ وفد نجران إلى المباهلة، فخافوا على أنفسهم، ولم يجرؤوا على المباهلة، ورفضوا المباهلة، ولو باهلوا لهلكوا جميعاً.

❖ ❖ ❖

إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾
قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ
أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا
بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا
مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ
إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ
عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ
لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ
حَنِيفًا مُّسْلِمًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ
بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ
وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ
ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾

سورة آل عمران [الآيات ٦٢ - ٧٠]

[٦٢] ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾:

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾: للتوكيد، هذا: الهاء: للتنبيه، وذا: اسم إشارة يفيد القرب.

﴿لَهُوَ﴾: اللام: للتوكيد، وهو: للحصر والقصر.

﴿ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾: مصدر قص يقص، وما يرويه الله سبحانه يسمى القصَص لا خيال فيه ولا كذب. ارجع إلى سورة يوسف، آية (٣)؛ لمزيد من البيان.

والحق: الثابت الذي لا يتغير بأن خلق عيسى عليه السلام كخلق آدم عليه السلام، وعيسى ليس إلهاً، أو ابن إله، أو ثالث ثلاثة، وأن الله رفعه إليه.

﴿وَمَا مِنْ﴾: من: الاستغراقية التي تستغرق كل إله مهما كان نوعه، فلا المسيح، ولا أمه، ولا الملائكة، ولا عزير، ولا جبريل آلهة.

﴿إِلَٰهٍ﴾: معبود.

﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾: إلا الله حصراً وقصراً.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ﴾: إن: للتوكيد.

﴿لَهُوَ﴾: اللام: لزيادة التوكيد، هو: ضمير فصل يفيد الحصر والتوكيد.

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: القوي الذي لا يُغلب ولا يُقهر، ولا يناله أحد بضر، أو سوء، عزيز المنعة والقوة.

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: في تدبير خلقه، وشأنه، وتشريعه، ذو الحكمة البالغة. ارجع إلىٰ الآية (٦) من نفس السورة؛ لمزيد من البيان، والآية (١٢٩) من سورة البقرة.

[٦٣] ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾:

﴿فَإِن﴾: الفاء: عاطفة، إن: شرطية تفيد الشك، أو احتمال الحدوث.

﴿تَوَلَّوْا۟﴾: التولي: الابتعاد، وهو أشد من الإعراض؛ أي: لم يقبلوا المباهلة، ولم يقروا بالوحدانية.

﴿فَإِنَّ﴾: الفاء: رابطة لجواب الشرط، إن: للتوكيد.

﴿ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ﴾: صيغة مبالغة من علم (كثير العلم) مطلع ومحيط، وخبير، وبصير بالمفسدين.

﴿بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾: الباء: للإلصاق، المفسدين: تشمل المشركين الكافرين، والظالمين والمجرمين وغيرهم؛ لأن الشرك والكفر هو أعظم الفساد في الأرض، ولم يقل: عليم بالمعرضين؛ لأن المعرضين عن الإيمان بوحدانية الله من المفسدين. ارجع إلىٰ سورة البقرة، آية (٢٥١)؛ لمزيد من البيان.

[٦٤] ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾:

﴿قُلْ﴾: لهم يا محمد ﷺ، أو الخطاب موجَّه إلىٰ الدعاة.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: يا: أداة النداء للبعيد، أهل الكتاب: أي: اليهود والنصارىٰ (والكتاب: التوراة والإنجيل)، يا أهل التوراة والإنجيل، ونداؤهم بأهل الكتاب فيه شيء من المدح مقارنة بقوله: يا أيها الذين أوتوا نصيباً من الكتاب.

﴿تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ﴾: هلمُّوا وتعالوا معنا إلىٰ كلمة سواء فيها دعوة إلىٰ العلو والسمو للنطق بكلمة التوحيد لا إله إلا الله؛ أي: ذات عدل وإنصاف نأخذ بها، وأنتم تأخذون بها؛ أي: نتبعها جميعاً، وهي لا إله إلا الله وحده، ولا نعبد إلا الله وحده.

﴿أَلَّا﴾: أن: مصدرية تفيد التعليل، لا: النافية.

﴿نَعْبُدَ﴾: نؤمن ونطيع.

﴿إِلَّا﴾: أداة حصر.

﴿ٱللَّهَ﴾: وحده.

﴿وَلَا﴾: الواو عاطفة، لا: النافية، وتكرار لا: يفيد زيادة التوكيد.

﴿نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾: به: تعود علىٰ الله سبحانه، شيئاً: جاءت بصيغة نكرة؛ أي: لا نتخذ معه من لا يستحق أن يكون رباً، وليس عنده مقومات الألوهية أو الربوبية؛ كعيسىٰ عليه السلام، أو أحد من خلقه، أو أيِّ وثن، أو صنم، أو شمس، أو قمر، أو ملك، أو ولي، أو أي شيء مهما كان.

﴿وَلَا﴾: الواو: عاطفة، لا: النافية.

﴿يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا﴾: يتخذ: الاتخاذ هنا تفيد، أو تستعمل في الشيء الذي لا أصل له، ولا صحة.

يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً: أي: أن نجعل أحبارنا ورهباننا أرباباً؛ أي: ننزلهم منزلة الرب، فنقبل تحريمهم، أو تحليلهم لما لم يحرمه الله، أو لما لم يحلِّله.

أرباباً: جمع رب، وهو السيد المربي المطاع فيما يأمر وينهىٰ.

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: من غير الله، أو سواه، فلا نشرك بالله شيئاً، ولا نتخذ بعضنا بعضاً أرباباً، لا هذه ولا تلك، ولا كليهما معاً.

﴿فَإِن﴾: الفاء: عاطفة، إن: شرطية.

﴿تَوَلَّوْا﴾: أعرضوا، ورفضوا الكلمة، كلمة التوحيد.

﴿فَقُولُوا۟﴾: الفاء: رابطة لجواب الشرط.

﴿ٱشْهَدُوا۟﴾: اعلموا.

﴿بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾: بأنا موحِّدون مخلصون لله وحده، وبأنه لا إله إلا الله وحده.

[٦٥] ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾:

نداء آخر إلىٰ أهل الكتاب. ارجع إلىٰ الآية السابقة (٦٤).

﴿لِمَ﴾: استفهامية، وفيها معنىٰ الإنكار، والتعجب.

﴿تُحَآجُّونَ﴾: تأتون بحجج باطلة، والحجاج كل من الخصمين يحضر الدليل والبرهان للوصول إلىٰ الحق أو الصواب.

﴿فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾: قال ابن عباس ﷺ اجتمع عند النبي ﷺ نصارىٰ نجران، وأحبار اليهود، فقال الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهودياً، وقال وفد نجران: ما كان إلا نصرانياً فنزلت هذه الآية.

وقد بيَّن الله تعالىٰ في آية أخرىٰ محاجَّتهم في إبراهيم أنه يهودي، أو أنه نصراني، كما جاء في سورة البقرة، آية (١٤٠): ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾.

﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾: أي: لا يمكن أن يكون إبراهيم يهودياً، كما يدَّعي اليهود؛ لأن التوراة أنزلت من بعده، فاليهودية إذن جاءت من بعده بأزمنة طويلة، فقد روي عن ابن عباس ﷺ أنه كان بين إبراهيم وموسىٰ (٥٧٥ سنة)، وابن إسحاق قال: (٥٦٥ سنة)، وكذلك الإنجيل أنزل بعد مجيء إبراهيم، وبالتالي فالنصرانية كذلك جاءت من بعد إبراهيم بمئات السنين، فقد كان بين موسىٰ وعيسىٰ (١٦٣٢ سنة)، كما قال ابن عباس، وابن إسحاق قال (١٩٢٥ سنة).

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: الهمزة: همزة استفهام إنكاري، وتعجب علىٰ المحآجَّة الباطلة، وألا: أداة حض، وتنبيه علىٰ التفكر والتعقل.

تعقلون: تدركون بطلان ما تقولونه في إبراهيم، أو تدركون الحقيقة من الدلائل والمعطيات بشأن إبراهيم.

[٦٦] ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾:

﴿هَٰٓأَنتُمْ﴾: الهاء: للتنبيه، أنتم: الهمزة: للاستفهام الإنكاري، والتعجب من بطلان ما يقولونه.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾: الهاء: للتنبيه، أولاء: اسم إشارة للقريب.

﴿حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾: أي: أنكم أتباع موسىٰ عليه السلام، وأنكم علىٰ شريعته، أو أتباع التوراة، أو أنكم أتباع عيسىٰ عليه السلام، وأنكم علىٰ شريعته، أو ما في الإنجيل، أو حاججتم في أمر محمد ﷺ ونعته وصفاته.

﴿فَلِمَ﴾: الفاء: للترتيب، والتعقيب، لم: استغراقية.

﴿تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾: أي: أمر إبراهيم عليه السلام.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾: في هذا توبيخ لهم على زعمهم الباطل، وتكذيبٌ لهم في أنهم يعلمون من هو إبراهيم عليه السلام.

[٦٧] ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾:

﴿مَا﴾: النافية، تنفي الحال والماضي والمستقبل، تنفي جميع الأزمنة.

﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا﴾: في الماضي، ولا في الحال، ولا في المستقبل.

﴿وَلَا﴾: تفيد التوكيد.

﴿نَصْرَانِيًّا﴾: ما كان نصرانياً في الماضي، والحال، والمستقبل.

﴿وَلَٰكِن﴾: استدراك وتوكيد.

﴿كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾: ارجع إلى الآية (١٣٥) من سورة البقرة.

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: تكرار وما كان: يفيد التوكيد، من المشركين: أي: من قريش الذين قد يدّعون أنهم على ملة إبراهيم. إذاً إبراهيم عليه السلام ما كان من اليهود، وما كان من النصارى، وما كان من المشركين (قريش).

ولنقارن هذه الآية مع آية سورة النحل: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾:

لم يك من المشركين: يك، ولم يقل: يكن، يك: تعني: ولو شيئاً قليلاً، والشيء هو أقل من القليل؛ أي: لم يك البتة مشركاً، وهذا ينفي الشرك عن إبراهيم نفياً تاماً، وتنفي عنه كل أنواع الشرك ومقداره.

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: تنفي الزمان في الحال، أو الماضي، فنفى عنه الشرك نفياً تاماً مهما كان صغره ونوعه، وفي كل الأزمنة والأحوال.

[٦٨] ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

﴿إِنَّ﴾: للتوكيد.

﴿أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ﴾: أي: أحق وأقرب الناس، أولىٰ من الولي، أو القريب. بإبراهيم: الباء: للإلصاق؛ أي: التمسك به.

﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾: أي: اتبعوه في زمانه، وعلىٰ التوحيد، ولم يقل نسله، أو ذريته، بل الذين اتبعوه؛ أي: آمنوا به، وصدقوه، وعلىٰ التوحيد، واللام في للذين: تدل علىٰ الاختصاص، فلا ولاية لإبراهيم بمن جاء من ذريته، أو نسله ممن حرفوا ملته.

﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾: هذا: اسم إشارة للقرب، والتعظيم، والهاء: للتنبيه.

فهو أقرب الناس لإبراهيم فهو من ذريته، وعلىٰ ملة، أو شريعة إبراهيم؛ لأنه يطبق منهجه.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: من أمة محمد ﷺ هم أولىٰ باتباع إبراهيم عليه السلام من غيره.

﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: أي: متولي المؤمنين؛ أي: مدبر أمورهم، ومعينهم، وقريبهم، وناصرهم، ومصلح شؤونهم.

[٦٩] ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ۚ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾:

سبب النزول: نزلت هذه الآية في معاذ بن جبل، وعمار بن ياسر، وحذيفة بن اليمان حين دعاهم اليهود للرجوع عن دينهم الإسلام.

﴿ وَدَّت ﴾: من الود، وهو التمني، وحب القلب لشيء ما، وما يتبعه من الود، فالمحبة تسبق المودة، فكل مودة محبة، وليس كل محبة مودة.

﴿طَّآئِفَةٌ ﴾: جماعة، وهم الأحبار والرؤساء، طائفة: مشتقة من طاف يطوف، جماعة تطوف حول عقيدة، أو فكرة ما.

﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾: من اليهود والنصارىٰ (أهل التوراة والإنجيل).

﴿لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ﴾: لو: حرف مصدري يفيد التمني، يوقعونكم في الضلال؛ أي: بالرجوع عن دين الإسلام إلىٰ الكفر، والشرك، وجاء بنون التوكيد بدلاً من لو يضلوكم فقال: لو يضلونكم.

﴿وَمَا يُضِلُّونَ ﴾: الواو: حالية تفيد التوكيد. ما: نافية للحال والمستقبل؛ يضلون: من الضلال: وهو الضياع والنسيان والهلاك والعدول عن الحق والطريق المستقيم، وجاء بالمضارع للدلالة علىٰ بشاعة ما يودون، ويسمىٰ ذلك (حكاية الحال)، وتدل علىٰ التجدد، والتكرار، والاستمرار في تمني ردِّكم إلىٰ الكفر.

﴿إِلَّآ ﴾: حصر.

﴿أَنفُسَهُمْ ﴾: لأن إثم إضلالهم علىٰ أنفسهم؛ لأن المؤمنين لن يطيعوهم.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾: الشعور: هو العلم الكامل الخفي، وما: ما: لزيادة، أو تأكيد النفي، يشعرون: أن وبال إثمهم وإضلالهم عائد عليهم.

ولماذا ودَّت هذه الطائفة لو يضلون المؤمنين؟

كما بيَّن ذلك سبحانه في آية (١٠٩) من سورة البقرة: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾.

[٧٠] ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴾:

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾: ارجع إلىٰ الآية (٦٥).

﴿لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾: لم: اللام: حرف، ما: استفهامية، استفهام إنكاري.

تكفرون: جاءت بصيغة المضارع؛ لتدل علىٰ دوام كفرهم وجحدهم، وعدم إيمانهم وتصديقهم بآيات التوراة والإنجيل.

تكفرون: من الكفر، والكفر هنا يعني: الستر، والإخفاء، والإعراض، والتكذيب.

﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾: الباء: للإلصاق، آيات الله: الدالة علىٰ صدق نبوَّة محمد ﷺ في التوراة والإنجيل، والمشتملة علىٰ صفاته، أو لا تؤمنون بآيات الله تعالىٰ عامة.

﴿وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴾: أنتم: ضمير فصل يفيد التوكيد، تشهدون: محمد ﷺ بأعينكم، وترون صفاته ومعجزاته، ثم تنكرونها، أو ترون آيات الله تعالىٰ بأعينكم.

❖ ❖ ❖

يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ
وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ
بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ
لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ قُلۡ إِنَّ
ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ
عِندَ رَبِّكُمۡۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ
عَلِيمٞ ﴿٧٣﴾ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ
ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ
يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا
مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ
سَبِيلٞ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾
بَلَىٰ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا
خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ
يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٧٧﴾

ثلاثة أرباع الحزب ٦

سورة آل عمران [الآيات ٧١ - ٧٧]

[٧١] ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: تكرار النداء؛ لإيقاظهم من سباتهم، وتوبيخهم لما يقومون من الكفر والستر لآيات الله الدالة على صدق نبوَّة محمد ﷺ.

﴿لِمَ﴾: استفهام استنكاري.

﴿تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾: من اللبس، وهو الخلط، يقال: لبس عليه الأمر؛ أي: اختلط عليه حتى لا يعرف صحته من باطله، واشتقت من اللبس إدخال شيء في شيء.

تلبسون الحق (نعت النبي وصفاته) بالباطل (بالتحريف والتزوير في التوراة والإنجيل).

﴿وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ﴾: (وهو نبوَّة محمد ﷺ) وصفاته، والكتمان: هو السكوت عن ذكر خبر، أو أمر ما، والكتمان: يختص بالأسرار والأخبار، وهو حالة من حالات الخفاء.

﴿وَأَنتُمۡ﴾: ضمير فصل يفيد التوكيد.

﴿تَعۡلَمُونَ﴾: أنه الحق من عند الله.

[٧٢] ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾:

﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: ارجع إلى الآية (٦٩).

﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾: من أحبارهم ورؤسائهم، قالت لأتباعهم من اليهود والنصارىٰ: أظهروا إسلامكم وإيمانكم بما أنزل علىٰ المسلمين ﴿وَجْهَ النَّهَارِ﴾: أول النهار؛ أي: ساعات الصباح، واكفروا آخره، أي: في ساعات المساء.

﴿وَاكْفُرُوا آخِرَهُ﴾: قد تعني: ارتدوا عن الإسلام، أو قولوا: قرأنا الكتب السماوية وشاورنا علماءنا ،فوجدنا أن محمداً ليس هو النبيَّ المبعوث، وظهر لنا كذبُه، أو صلّوا إلىٰ قبلة الذين (آمنوا) أول النهار، واكفروا بقبلتهم آخر النهار لعلهم يرجعون عن قبلتهم.

﴿لَعَلَّهُمْ﴾: لعل: للتعليل.

أو أدخلوا الشكَّ والريبة في قلوب أصحاب محمد ﷺ.

﴿يَرْجِعُونَ﴾: لعلهم يرتدون عن دينهم، ويرجعون عنه.

[٧٣] ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾:

﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾: تتمة للآية (٧٢) السابقة، وقالت الطائفة نفسها: آمنوا بالذي أنزل علىٰ الذين آمنوا وجه النهار، واكفروا آخره لعلهم يرجعون، وهذه الآية تحمل عدة تفسيرات:

١ - الاحتمال الأول: هو أن نعتبر جملة قل: إن الهدىٰ هدىٰ الله جملة اعتراضية، وما تبقىٰ من الآية هو قول أهل الكتاب.

٢ - الاحتمال الثاني: أن يعتبر أن كلام أهل الكتاب قد انتهىٰ بقوله: ولا تؤمنوا إلا لمن يتبع دينكم قل: إن الهدىٰ جملة جديدة، وما بعدها تتمة لقوله: إن الهدىٰ هدىٰ الله.

التفسير على ضوء الاحتمال الأول:

﴿وَلَا﴾: الواو: عاطفة، لا: الناهية.

﴿تُؤْمِنُوٓاْ﴾: أي: لا تصدقوا، أو تتولوا من الموالاة، وتثقوا بأحدٍ إذا لم يكن يهودياً، أو نصرانياً.

﴿إِلَّا﴾: أداة حصر؛ أي: لا تؤمنوا حصراً وقصراً إلا.

﴿لِمَن﴾: اللام: للتوكيد، من: ابتدائية.

﴿تَبِعَ دِينَكُمْ﴾: ملتكم، وشريعتكم.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾: جملة اعتراضية كما قلنا سابقاً جاءت في منتصف كلام أهل الكتاب.

إن: للتوكيد، قل: لا ينفع مكركم، وما تبيتونه؛ لأن الهدىٰ هدىٰ الله، الهدىٰ: المراد به الدين؛ أي: الإسلام، هدىٰ الله: دين الله، الهدىٰ الموصل إلىٰ الغاية وهي رضوان الله وحده، وهو الهدىٰ الكامل التام، وإذا قارنا هذه الآية مع الآية (١٢٠) في سورة البقرة وهي قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ المراد بهدىٰ الله في هذه الآية: تحويل القبلة.

﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾: أي: لا تقرُّوا لأحدٍ من أتباع محمد أنهم قد أوتوا من العلم شيئاً، مثل ما أوتيتم، أو لا تخبروا بأنهم على الحق، أو أسروا تصديقكم بأن المسلمين قد أوتوا من كتب الله مثل ما أوتيتم، أو لا تظهروا ما عندكم من العلم للمسلمين فيتعلموه منكم، ويساووكم فيه، أو يتخذوه حُجَّة ضدكم، واحجبوا أسراركم عن المؤمنين.

والخلاصة: لا تؤمنوا لأتباع محمد من المسلمين، ولا تطلعوهم على ما عندكم من العلم، إلا إذا ارتدوا وتبعوا دينكم.

ولا تصدقوا أن يؤتى أحد مثلما أوتيتم من العلم، والآيات والنعيم، ولا تصدقوا أن يجادلوكم يوم القيامة عند ربكم؛ لأنكم أصح ديناً منهم، قل إن دين الإسلام هو دين الله.

التفسير على ضوء الاحتمال الثاني وهو:

أن قول الطائفة قد تم عند قولهم: ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم. وانتهى كلامهم.

وما بعده هو قول الله سبحانه؛ أي: قل: أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، المخاطب هنا أمة محمد ﷺ.

﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾: أن: تفسيرية، أو نافية؛ (أي: لم يؤتَ أحدٌ مثلما أوتيتم)؛ أي: أعطيتم يا أمة محمد ﷺ من الدِّين والقرآن والحجة ما لم يُعطَ أحدٌ من الناس، ولا تصدقوا أن أهل الكتاب، أو غيرهم سيحاجونكم عند ربكم؛ لأنهم لا حجة لهم.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾:

﴿قُلْ﴾: يا محمد.

﴿إِنَّ﴾: للتوكيد.

﴿ٱلْفَضْلَ﴾: هو القرآن (الكتاب)، كما قال تعالى في سورة فاطر، آية (٣٢): ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾.

﴿بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾: من عباده.

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾: ارجع إلىٰ الآية (٢٦٨) من سورة البقرة.

﴿عَلِيمٌ﴾: بمن يستحق الفضل، ومن لا يستحقه.

[٧٤] ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾:

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ﴾: يعطي فقط الرحمة: النبوَّة، رداً علىٰ اليهود الذين زعموا أن النبوَّة لا تكون إلا فيهم.

﴿مَن يَشَآءُ﴾: من عباده.

﴿وَٱللَّهُ ذُو﴾: صاحب، وذو: أشرف وأبلغ من صاحب. ارجع إلىٰ سورة الأنبياء آية (٨٧)، أو غافر آية (٢)؛ للبيان.

﴿ٱلْفَضْلِ﴾: الزيادة عن الأجر والثواب.

﴿ٱلْعَظِيمِ﴾: كماً وكيفاً.

[٧٥] ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾:

﴿وَمِنْ﴾: الواو: استئنافية، من: ابتدائية.

﴿أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾: اليهود والنصارىٰ.

تشير هذه الآية علىٰ العدل الإلهي أن يخبرنا أن بعض أهل الكتاب ذوو أمانة، فلو أمنته علىٰ قنطار من الذهب (والقنطار=١٠٠رطل) والرطل يعادل (٢،٥كغ) يؤده إليك، واستعمل القنطار للمبالغة.

﴿مَنْ إِن﴾: من: اسم موصول، إن: شرطية.

﴿بِقِنطَارٍ﴾ الباء: للإلصاق، أو تعني: علىٰ، ولكن لماذا استعمل الباء بدلاً

من (علىٰ)؛ لأن الأمانة في هذه الآية هي الوديعة (المال) أو الأمانة بالمعاملة وأنت غير متمكن من الذي تأمنه هل يرد الأمانة أم لا بقوله تعالىٰ علىٰ لسان يعقوب ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ﴾ [يوسف:٦٤] علىٰ تدل علىٰ التمكن.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ﴾: واحد لا يؤده إليك، وهذه تدل علىٰ قلة أمانتهم.

﴿لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾: لا: النافية، يؤده إليك: لا يرجعه إليك، إلا: أداة حصر، ما دمت عليه قائماً، أي: تلح في طلب الدينار، وتكون دائم السؤال عنه، أو مطالباً له ليلاً ونهاراً، فالقيام عليه تعني المطالبة به، والقاعد عنه تعني: غير المطالب به.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾: ذلك: اسم إشارة للبعد، ويشير إلىٰ ترك الأداء الذي دل عليه لم يؤده؛ أي: تركهم أداء الحقوق بسبب قولهم، ليس علينا في الأميين سبيل: الأميين؛ أي: العرب (وتعني: المؤمنين)، والتسمية مشتقة من الأم، والأمي من لا يكتب، والأميين: من لا كتاب لهم. سبيل؛ أي: إثم أو حرج، أو مؤاخذة، أو تبعة.

أي: قالوا ليس علينا إثم إذا أكلنا أموال الأميين العرب؛ لأنهم كانوا أنفسهم يعتقدون أنهم أبناء الله وأحباؤه، ولأن الأميين ليسوا علىٰ دينهم، والخلق عبيد لهم؛ مما يدل علىٰ تعصبهم الدِّيني، وأنهم استحلوا أموال الناس ظلماً وباطلاً.

﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾: بادعائهم الباطل ليس علينا في الأميين سبيل قد جاء في كتابهم فهم بذلك يفترون علىٰ الله الكذب، وهم: ضمير فصل تفيد التوكيد (أنفسهم)، يعلمون: أنهم كاذبون، ويعلمون أن الخيانة محرَّمة في شرع الله.

[٧٦] ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾:

﴿بَلَىٰ﴾: أي: عليهم إثم وذنب وتبعة في أكل أموال الأميين.

﴿مَنْ﴾: ابتدائية شرطية.

﴿أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ﴾: التزم بالوفاء بعهده، واتقىٰ الله في ترك الخيانة، وأطاع الله.

﴿فَإِنَّ﴾: الفاء: رابطة لجواب الشرط، إن: للتوكيد.

﴿ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾: الذين يوفون بعهد الله، ويؤدون الأمانات إلىٰ أهلها، ويطيعون الله ورسوله.

[٧٧] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

روىٰ الشيخان وغيرهما: أن الأشعث قال: «كان بيني وبين رجل من اليهود أرض، فجحدني، فقدَّمته إلىٰ النبي ﷺ فقال: «ألك بينة؟» قلت: لا، فقال لليهودي: «احلف»، فقلت: يا رسول الله! إذن يحلف، فيذهب مالي، فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾».

وأخرج البخاري عن عبد الله بن أبي أوفىٰ: أن رجلاً أقام سلعة له في السوق، فحلف بالله، لقد أعطي بها ما لم يعطه؛ ليوقع فيها رجلاً من المسلمين، فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وأخرج ابن جرير عن عكرمة: أن الآية نزلت في حُيي بن الأخطب، وكعب بن الأشرف، وغيرهما من اليهود الذين كتموا ما أنزل الله في التوراة وبدلوه،

وحلفوا أنه من عند الله، وقيل: نزلت في أبي رافع ولبابة بنت أبي الحُقيق، وحيي بن أخطب: حرَّفوا التوراة، وبدَّلوا صفة رسول الله ﷺ، وأخذوا الرشوة على ذلك.

﴿إِنَّ﴾: للتوكيد.

﴿يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾: العهد هنا: هو العهد الذي أخذه الله على أهل الكتاب بأنهم إن أدركوا بعثة رسول الله محمد ﷺ ليؤمنوا به ويصدقوه ويتبعوه، وهو العهد الذي جاء في قوله تعالى في سورة آل عمران، آية (٨١): ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾.

فعندما جاءهم ما عرفوا كفروا به أنكروا ما عاهدوا عليه من الإيمان، والتصديق بمحمد، وأتباعه مقابل الثمن والمال الذي أخذوه كرشوة.

أيمانهم: جمع يمين؛ أي: أيمانهم الكاذبة بالله، جعلوا الأيمان الكاذبة مقابل الثمن الذي وُعدوه.

﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: ووصف الثمن بالقليل؛ حتى ولو كان ثمناً كبيراً وعظيماً؛ لأنه مهما كان الثمن (كثيراً عظيماً) فهو قليل، أو سماه قليلاً؛ لأن من يشتري بآيات الله، أو عهد الله المال فهو قد باع آخرته بدنياه، فأي ثمن يقبضه سيكون قليلاً مهما كانت صفته.

وكلمة (ثمناً) وردت في القرآن في (١٠) آيات في تسع آيات منها ترافقت كلمة (ثمناً) بكلمة (قليلاً)، إلا آية (١٠٦) من سورة المائدة جاءت كلمة (ثمناً) بدون ذكر (قليلاً)، ووردت بثمن بخس في الآية (٢٠) من سورة يوسف فقال تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾.

﴿أُولَٰئِكَ﴾: اسم إشارة، واللام: للبعد، إشارة إلى الذين يشترون بعهد الله.

﴿لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾: لا نصيب لهم في الآخرة، ولا حظ لهم من نعيم الآخرة، أو خيرها. ارجع إلى سورة البقرة، آية (١٠٢)؛ لمزيد من البيان.

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾: لغضبه عليهم، لا يسمح لهم بالتكلم، أو الاعتذار، لا يؤذن لهم.

﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾: استهانة بهم، والسخط عليهم؛ أي: ولا يهتم بهم، ويهملهم.

﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾: لا يطهرهم من ذنوبهم، والتزكية الثناء، أو النماء والثناء.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: اللام: لام الاستحقاق، عذاب شديد الإيلام ودائم، وإذا قارنا هذه الآية مع الآية (١٧٤) في سورة البقرة وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: نجد أن الذنب في آية البقرة وهو الكتمان، وإضلال الغير: هو أشد من الذنب في آية آل عمران وهو: يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً، ولذلك كان العقاب أشد في آية البقرة ما يأكلون في بطونهم إلا النار مقارنة بلا خلاف لهم؛ أي: لاحظ ولا نصيب لهم يوم القيامة.

❖ ❖ ❖

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ
مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ
مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ
وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ
وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن
دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ
وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ
وَٱلنَّبِيِّۧنَ أَرْبَابًا ۚ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾
وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ
وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ
بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ
قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾
فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾
أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

سورة آل عمران [الآيات ٧٨ - ٨٣]

[٧٨] ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾:

﴿وَإِنَّ﴾: الواو: استئنافية، إن: حرف مشبه بالفعل يفيد التوكيد.

﴿مِنْهُمْ﴾: جار ومجرور، وتقديم الجار والمجرور؛ للاختصاص والحصر، منهم: (من اليهود).

﴿لَفَرِيقًا﴾: اللام: لام الاختصاص. فريقاً: الفريق هم: كعب بن الأشرف، ومالك بن الصيف، وحيي بن أخطب، وغيرهم.

﴿يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ﴾: اللّي: هو الفتل؛ أي: يفتلون ألسنتهم يميلون ألسنتهم عن القراءة الصحيحة المنزلة إلى القراءة المحرفة والمبدلة بالزيادة في كلام الله، أو النقص، أو تغيير المعنى، أو قراءته بنغمة توهم الناس أنه من التوراة.

ومن الأمثلة على تحريفهم قولهم إذا سلموا على رسول الله ﷺ قالوا: السام عليكم بدلاً من السلام عليكم، والسام: هو الموت، وكلمة راعنا من الرعونة والحماقة، وقولوا: حطة.

﴿لِتَحْسَبُوهُ﴾: اللام: لام التعليل، والهاء في تحسبوه تعود على الكلام المحرف.

تحسبوه: من حسب؛ أي: ظن الظن الراجح القائم على حساب قلبي، وتجربة، وحساب.

﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: تظنوه ظناً مرجحاً: كبيراً أنه من التوراة؛ للتدليس والتلبيس.

﴿وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: الواو: عاطفة، ما: نافية، هو: ضمير فصل يفيد الحصر والتوكيد، من الكتاب: من التوراة.

﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾: ويقولون: ولم يقل: وقالوا، بل جاء بالفعل المضارع بدلاً من الماضي؛ لنقل صورة كذبهم إلى الحال الزمن الحاضر؛ للدلالة على بشاعة ما قالوه، وهذا يسمى حكاية الحال، وليدل على استمرارهم في قولهم وتحريفهم. وتكرار كلمة الكتاب ومن عند الله للتوكيد لكي يصدقهم الناس أن ما يفترون من الكذب أنه من الكتاب (التوراة) وهو من عند الله وإنما هو تحريف وباطل.

هو: ضمير منفصل يفيد التوكيد والحصر، من عند الله: فهم لا يكتفون باللَيِّ وفتل ألسنتهم، بل يزعمون كذباً أنه من الله، وأنه مكتوب في التوراة، ويدل ذلك على جرأتهم على الله، وعدم خوفهم من الجبار القهار.

﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾: يرد الله سبحانه بنفسه عليهم، وما هو من عند الله؛ لأنه سبحانه يعلم ما أنزل في التوراة.

﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾: يقولون: هو من عند الله أولاً، ويقولون على الله الكذب ثانياً بالتحريف، والتزوير، ويحاولون تأكيد كذبهم.

﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾: أنه كذب وافتراء وليس من عند الله.

[٧٩] ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾:

﴿مَا﴾: النافية؛ لنفي الحال خاصة وقد تنفي المستقبل والماضي، وأقوىٰ أو آكد من ليس في النفي، والنفي بـ(لم) أقوىٰ وآكد من النفي بـ(ما).

﴿كَانَ﴾: في الماضي، والحاضر، والمستقبل؛ أي: كان ينبغي، أو يحق، أو يستقيم لبشر.

﴿لِبَشَرٍ﴾: اللام: لام الاختصاص، لبشر: أي: من نبي، ولا رسول. والبشر: مشتقة من البشارة، ومن معانيها: حسن الهيئة، يقال: رجل بشير، وبشر؛ أي: حسن الهيئة، ولفظ البشر يعني: الظهور، وسموا بشراً؛ لظهورهم علىٰ وجه الأرض بعكس الجن، وظهور شأنهم، وعبر عن الإنسان بالبشر؛ بسبب الطبقة الظاهرة من الجلد، والتي تسمىٰ البشرة، وهي غير مغطاة بالشعر، وخاصة بالإنسان.

﴿أَن﴾: حرف مصدري يفيد التوكيد.

﴿يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ﴾: أي: ينزل عليه الكتاب، تشمل الكتب السماوية والصحف وغيرها. يؤتيه: من الإيتاء لمعرفة معنىٰ الإيتاء ارجع إلىٰ الآية (٢٥١) من سورة البقرة.

الكتاب: اسم جنس (القرآن، التوراة، الإنجيل، أو الزبور). ارجع إلىٰ الآية (٣) من سورة آل عمران.

﴿وَٱلْحُكْمَ﴾: الفقه، والعلم في الدِّين (الشريعة)، ومعرفة الأحكام، والفتاوىٰ.

﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾: الرسالة.

﴿ثُمَّ يَقُولَ﴾: ثم: تفيد الترتيب الذِّكري، وليس التراخي في الزمن.

يقولَ، ولم يقل: يقولُ، ما هو الفرق؟

يقولَ: بالنصب يدل علىٰ الاستقبال.

يقولُ: بالضم يدل علىٰ الحال الماضي.

﴿لِلنَّاسِ﴾: اللام: لام الاختصاص. الناس: ارجع إلىٰ الآية (٨) من سورة البقرة؛ للبيان.

﴿كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: أي: اتخذوني إلهاً أو رباً. من دون الله: أي: من غير الله. لي: اللام: للاختصاص، والياء: ياء المتكلم.

﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾: ولكن: حرف استدراك وتوكيد؛ أي: فلا يقول للناس: كونوا عباداً لي من دون الله، ولكن يقول للناس: كونوا ربانيين.

﴿كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾: بدلاً من القول كونوا عباداً لله كونوا ربانيين جمع رباني منسوب إلىٰ الرب ليكون المعنىٰ أشد إخلاصاً للرب، وربانـي، وهو العالم الفقيه بالدِّين، المتصف بالعبادة، والطاعة، والحكمة، والحلم، والعمل الصالح وغيرها، ورباني: مشتقة من مرب: وهو الذي يُعلّم الناس أمور دينهم، ويعلمهم الخير، والصلاح، فيصبح كالمربي.

وكلمة رباني: فيها نسب؛ أي: منسوب إلىٰ الرب؛ لكثرة عبادته، ووسع علمه، وفقهه في الدِّين، فالرباني: هو المتمسك بطاعة الله تعالىٰ عن علم ودراسة، وعظيم الخُلق، ومربي للناس.

﴿بِمَا﴾: الباء: للإلصاق، ما: مصدرية.

﴿كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾: تعلمون الناس أمور دينهم وتعلمونهم الكتاب المنزل عليهم، وتكونون قدوة لهم في الطاعة والاستقامة، والعمل الصالح.

﴿وَبِمَا﴾: وتكرار بما تفيد التوكيد، وفصل كل من الأمرين علىٰ حدة تعليم الناس (لفائدة الناس) تدرسون (لتعليم أنفسكم).

﴿تَدْرُسُونَ﴾: تدبرون، وتقرؤون، وتفهمون الكتاب ومعانيه، وتدرسون الأحكام، والفقه، وتعليم الكتاب للناس، ودراسته توجب الطاعة التامة، والقدوة الحسنة؛ كي تنالوا درجة الربانية.

وهذه الآية تشير إلىٰ أهمية تعلم كتاب الله ودراسته، ودراسة الفقه والشريعة والعمل بها، وأنه لا بد من تعليم الناس أمور دينهم، ونشر الدِّين والدعوة إلىٰ الله؛ للتقرب منه سبحانه وتعالىٰ.

[٨٠] ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۚ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾:

﴿وَلَا﴾: الواو: عاطفة، لا: النافية، جاءت بعد ما (ما كان لبشر.... ولا...)؛ لزيادة النفي وتوكيده.

﴿يَأْمُرَكُمْ﴾: بالنصب عطفاً علىٰ يقولَ.

﴿أَن﴾: حرف مصدري يفيد التوكيد.

﴿تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا﴾: تجعلوا الملائكة، ولا الرسل والأنبياء.

أرباباً: جمع رب بمعنىٰ الرازق، والخالق، والمدبر.

كما حدث في أمر قريش حين عبدوا الملائكة واليهود، والنصارىٰ حيث اتخذوا عزيراً، والمسيح أرباباً من دون الله.

﴿أَيَأْمُرُكُم﴾: الهمزة همزة استفهام إنكاري وفيه معنىٰ التعجب.

﴿بِٱلْكُفْرِ﴾: الباء: للإلصاق، بالشرك بالله، أو الردة عن الإسلام إلىٰ الكفر.

﴿بَعْدَ﴾: ظرف زمان.

﴿إِذْ﴾: ظرف زماني.

﴿أَنتُم﴾: ضمير منفصل يفيد التوكيد والحصر.

﴿مُّسْلِمُونَ﴾: مخلصون لله موحِّدون له.

وهذا تبرئة لعيسىٰ عليه السلام وعزير، ولغيره من الأنبياء والرسل والملائكة؛ أي: من المستحيل أن يبعث الله سبحانه نبياً ولا رسولاً، ثم يدعو هذا النبي أو الرسول الناس إلىٰ عبادة أحدٍ إلا الله.

[٨١] ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ

رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾:

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾: أي: واذكر إذ، أو حين أخذ الله ميثاق جميع الأنبياء والرسل.

والميثاق: هو العهد المؤكد باليمين. ارجع إلى الآية (٨٣) من سورة البقرة؛ لمزيد من البيان.

والميثاق هنا: أن يصدق بعضهم بعضاً، ويؤمن كل نبي بمن يأتي بعده، أو من يعاصره من الأنبياء، ومن أتى قبله، وينصره إن أدركه؛ فإن لم يدركه يأمر قومه بنصرة ذلك النبي، أو الرسول إن أدركوه، واكتفى بذكر الأنبياء عن ذكر الأمم؛ لأن في أخذ الميثاق على المتبوع دلالة على أخذه على التابع.

﴿لَمَآ﴾: اللام: لام الاختصاص، أو التعليل؛ أي: لأجل ما آتيتكم. ما: إما شرطية، أو موصول بمعنى: الذي، آتيتكم، أو الذي آتيتكموه.

﴿ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ﴾: كتاب: نكرة تشمل الكتب السماوية والصحف، والإيتاء غير الإعطاء. ارجع إلى سورة البقرة، آية (٢٥١)؛ للبيان.

﴿وَحِكْمَةٍ ﴾: أي: النبوَّة.

﴿ثُمَّ﴾: تفيد الترتيب، والتراخي في الزمن.

﴿جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ ﴾: هو محمد ﷺ، أو غيره من الرسل السابقين مرسل من عند الله.

﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ ﴾: اللام والنون في تؤمننَّ: للتوكيد، به: أي: لتصدقنَّه.

﴿وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾: اللام والنون: للتوكيد بالقول والفعل، ومعونته بشتى الوسائل.

﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ﴾: الهمزة للاستفهام، والإقرار (استفهام تقريري)، مأخوذة من قر الشيء؛ إذ ثبت في مكانه. أقررتم: أي: اعترفتم (كل اعتراف إقرار)، ونقيض الإقرار الإنكار. انظر في كلمة أقررنا.

﴿وَأَخَذْتُمْ﴾: أي: قبلتم.

﴿عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾: الإصر: هو العهد الشديد أو الميثاق، وكذلك التكاليف الشاقة تسمى إصراً.

واشتقت كلمة الإصار: وهي الأوتاد التي يشد بها البيت، والعهد الموثق إصر؛ لأنه يُشد ويُعقد، وهو إذا أرسل الله سبحانه رسولاً أن يصدقوه وينصروه، والعهد المؤكد يحمل صاحبه على الوفاء بما التزمه.

واستعمل ذلكم بدلاً من ذلك؛ لأن ذلكم تستعمل لما هو آكد وأشد من ذلك، وللأمور المتعددة مثل: الإقرار والأخذ.

وقال سبحانه: إصري؛ أي: عهدي، نسب العهد إليه سبحانه؛ للدلالة على شدة أهميته.

﴿قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا﴾: من الإقرار عادة وهو التكلم بالحق، والاعتراف اللازم على النفس، مع توطين النفس على الانقياد والإذعان، وقد يقر إنسان بالباطل.

والإقرار: قد يكون باللسان، أو بغيره من القرائن، وهو سيد الأدلة.

الإقرار: اعتراف، كل اعتراف إقرار، وليس كل إقرار اعترافاً.

فالاعتراف: هو التكلم بالإقرار. وقيل: الإقرار: هو تحصيل ما لم يصرح به القول، والإقرار كان من الرسل والأنبياء وأممهم؛ لما جاءهم من كتاب وحكمة ورسول.

﴿قَالَ فَٱشْهَدُوا﴾: أي: فليشهد بعضكم على بعض بالإقرار. فالشهادة دائماً تقتضي شاهداً، ومشهوداً عليه، ومشهوداً به.

بأن يشهد كل نبي على الأنبياء الآخرين أنه صدق النبي الذي جاء من بعده، أو عاصره، ونصره، وبلغ أمته ونصره وأيده، وتشهد كل أمة على رسولها، ويشهد أولوا العلم من الأمة الإسلامية على غيرها.

﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾: تعود على العزيز الحكيم على إقراركم وشهادة بعضكم على بعض من الشاهدين.

[٨٢] ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾:

﴿فَمَن﴾: الفاء: للترتيب والتعقيب. من: شرطية تستعمل للمفرد، والمثنى، والجمع.

﴿تَوَلَّىٰ﴾: أعرض، أو رجع عما أقره واعترف به، أو نقض عهده.

﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾: أخذ الميثاق، والإقرار، والشهادة. ذلك: اسم إشارة للبعد يشير إلى الميثاق والإقرار.

﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾: الفاء: رابطة لجواب الشرط، أولئك: اسم إشارة يفيد البعد.

﴿هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾: هم: ضمير منفصل يفيد المبالغة والقصر. الفاسقون: أي: إذا كان هناك فاسقون فهم الفاسقون حقاً.

والفاسق: هو الخارج عن طاعة الله، أو دينه، والتولي عن طاعة الله هو فسق، والتولي والفسق مستحيل في حق الأنبياء والرسل، والمقصود بالفاسقين هنا: هم أتباع الرسل والأنبياء من الأمم. ارجع إلى سورة البقرة آية (٢٦) لمزيد من البيان في معنى فاسقين.

[٨٣] ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾:

انتهت الآية السابقة بقوله: فأولئك هم الفاسقون، وبدأت هذه الآية: أفغير دين الله يبغون.

﴿أَفَغَيْرَ﴾: الهمزة: للاستفهام، والتوبيخ، والإنكار.

﴿دِينِ ٱللَّهِ﴾: دين الإسلام. ارجع إلى سورة البقرة، آية (١٣٢)؛ لمعرفة معنى الدِّين، والملة.

﴿يَبْغُونَ﴾: يريدون، ويطلبون، وقدم هنا المفعول به الذي هو غير دين الله على الفعل يبغون؛ لشدة الإنكار على عبادة غير الله؛ (أي: غير دين الله)، وجاءت النون في كلمة يبغون؛ لتوكيد شدة الإنكار.

وقيل سبب نزول هذه الآية كما قال ابن عباس: اختصم أهل الكتابين: اليهود، والنصارى إلى رسول الله ﷺ فقالوا: أينا أحق بدين إبراهيم؟ فقال النبي: «كلا الفريقين بريء من دينه»، فقالوا: ما نرضى بقضائك، ولا نأخذ بدينك؛ فنزلت هذه الآية.

﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ﴾: وله تعالى أسلم له خضع وانقاد سواءً.

﴿مَن﴾: للعاقل. أهل السموات والأرض (الملائكة، والإنس، والجن).

﴿فِي﴾: ظرفية زمانية ومكانية.

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: الملائكة في السموات، وكل المخلوقات.

﴿طَوْعًا﴾: اختياراً، والطوع: الانقياد بسهولة.

﴿وَكَرْهًا﴾: أي: بالقهر، والقوة لا بالإرادة والاختيار، فالكل تحت سلطانه سبحانه. ارجع إلى سورة البقرة لمزيد من البيان في معنى كرهاً، والفرق بين كَرهاً: بفتح الكاف، وكُرهاً: بضم الكاف.

﴿وَإِلَيْهِ﴾: تقديم الجار والمجرور إليه تفيد الحصر إليه حصراً، لا إلى غيره.

﴿يُرْجَعُونَ﴾: بضم الراء بدون اختيار أو إرادة، الكل يرجع إليه سبحانه الطائع، والكاره للحساب والجزاء رغماً عن أنوفهم؛ أما يَرجعون: بفتح الياء تدل على الرجوع بالإرادة والاختيار.

❖ ❖ ❖

قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ
وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ
مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ
مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ
دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾
كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟
أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ
وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ
عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ
بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ
وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ
كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ
ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾

سورة آل عمران [الآيات ٨٤ - ٩١]

[٨٤] ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾:

المناسبة: ذكر في الآيات السابقة أخذ الله الميثاق من النبيين على أن ينصر بعضهم بعضاً، ويؤمن بعضهم ببعض؛ أي: يصدقوا بعضهم بعضاً، سواء عاشوا في زمن واحد، أو أزمنة مختلفة، على كل رسول أن يبلغ أمته أن يؤمنوا بكل الرسل، وعدم التعصب؛ لأن العقيدة واحدة، ولكن هؤلاء الأتباع هم الذين ضلوا الطريق، فجعلوا رسلهم آلهة تُعبد، وأشركوا، وحرفوا كتبهم، ورفضوا الإيمان بغير رسلهم؛ فظهر الاختلاف بين الرسل وأممهم؛ أي: أتباعهم، والكل يدعي الصلاح، وأنه على الدِّين القيم، وغيره على الباطل.

فجاءت هذه الآية؛ لتوضح لنا الحل لإزالة الاختلاف.

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾: كلمة قل هي خطاب للنبي وحده ﷺ بدل من قولوا آمنا كما في الآية (١٣٦) في سورة البقرة، وجاءت آمنا بدلاً من آمنت؛ لتدلنا وتوضِّح لنا أن هذا النبي ﷺ وأمته شيءٌ واحدٌ؛ أي: وحدة إيمانية واحدة، سواء تخاطب رسولها، أو تخاطبها، فرسولها واحدٌ من أفرادها، وتحمل في طياتها أن أمة محمد ﷺ طائعة لرسولها.

فإذا جاء الأمر إلى الرسول ﷺ فالتنفيذ يكون من جميع أفراد هذه الأمة، كما قال تعالى في سورة البقرة، آية (٢٨٥): ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ

وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾.

﴿وَمَآ أُنزِلَ﴾: أنزل، ولم يقل ما نزل؛ ارجع إلىٰ سورة البقرة آية (٤) للبيان؛ أنزل علينا، وفي آيات أخرىٰ: أنزل إلينا.

فالإنزال يأتي مرة متعدِّياً بـ(علىٰ)، ومرة أخرىٰ متعدِّياً بـ(إلىٰ).

﴿عَلَيْنَا﴾: وما: اسم موصول، وتعني الذي، علينا: علىٰ الرسول، وعلىٰ أمته معاً، والذي أنزل علىٰ الرسول هو الذي أنزل علىٰ أمته.

استعمال علىٰ يفيد العلو والسمو والتشريف، فحين يقصد الإنزال وجهته يأتي بعلىٰ، وحين يقصد الغاية، أو النهاية، أو يقصد التبليغ والدعوة يأتي بإلىٰ؛ أي: إلينا: تفيد الانتهاء، وعلينا: تفيد الجهة، ومختصة بالأنبياء والرسل. ارجع إلىٰ الآية (٤) من سورة البقرة للبيان.

﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾: وما أنزل علىٰ إبراهيم من الصحف، وعلىٰ إسماعيل، وإسحاق من الوحي، والأسباط: المرجح هم من أحفاد أو ذرية يعقوب عليه السلام، وليسوا أولاده (أخوة يوسف) كما ظن الكثير؛ لأن أبناء يعقوب عليه السلام لم يكونوا أنبياء إلا يوسف عليه السلام، والسبط يعني: القبيلة أو الجماعة الذي يرجعون إلىٰ أب واحد، أو أحفاد الرجل (ابن البنت).

﴿وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾: وهنا نلاحظ عطف العام علىٰ الخاص، وصدقنا بما أوتي موسىٰ من التوراة، وعيسىٰ من الإنجيل، وما أوتي سائر الرسل والأنبياء من ربهم من الآيات والمعجزات، لا نفرق بين أحد منهم؛ أي: لا نؤمن ببعض الرسل والأنبياء،

ونكفر ببعض، بل نؤمن بالكل، ونحن له مسلمون؛ أي: مخلصون في التوحيد، والعبادة، والطاعة. ارجع إلىٰ سورة البقرة آية (٢٥١) لبيان معنىٰ الإيتاء، والفرق بين الإيتاء والعطاء.

[٨٥] ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾:

﴿ وَمَن ﴾: شرطية، مَنْ: للمفرد، والمثنىٰ، والجمع.

﴿يَبْتَغِ ﴾: يُرد، أو يطلب ﴿غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾: فلن: الفاء: للتأكيد، ولن: للنفي، وهي أقوىٰ أدوات النفي؛ لنفي المستقبل القريب والبعيد معاً. غير الإسلام: الإسلام دين الله ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾، وليس هناك دين آخر غير الإسلام، وإنما هناك شرائع، أو ديانات، والإسلام دين التوحيد، (وهو ملة إبراهيم حنيفاً)، وأي شريعة لا تنادي بالتوحيد؛ فلن تقبل من العبد. ارجع إلىٰ سورة البقرة، آية (١٣٢)؛ لمزيد من البيان.

﴿وَهُوَ ﴾: ضمير فصل يفيد التوكيد والحصر.

﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾: الخاسرين لأنفسهم، أو أنفسهم وأهليهم.

[٨٦] ﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾:

سبب النزول:

١ - قيل: رهط من قريش كانوا (١٢) رجلاً ارتدوا عن الإسلام، وعادوا إلىٰ مكة؛ فنزلت هذه الآية بحقهم.

٢ - أو قيل: إن رجلاً من الأنصار أسلم، ثم ارتد، ولحق بالمشركين، ثم أراد التوبة، وسأل قومه أن يسألوا رسول الله ﷺ؛ فنزلت هذه الآية.

٣ - وقيل: فريق من أهل الكتاب عندهم علم بالتوراة، والإنجيل كانوا يجدون نعت النبي ووصفه مكتوباً في كتبهم قبل أن يُبعث، وكانوا ينتظرون قدومه، فلما بُعث رسول الله ﷺ كفروا به.

والعبرة بعموم اللفظ، وليس بخصوص السبب.

﴿كَيْفَ﴾: للاستفهام، والنفي، والاستبعاد لهدايتهم (أي: لا يهدي).

﴿يَهْدِي ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾: أي: أسلموا، ثم ارتدوا.

﴿وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ﴾: آمنوا بصدق نبوَّة محمد ﷺ، وآمنوا بأنه ﷺ الرسول المنتظر، وأنه حق.

﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾: البينات: جمع بينة، الدالة على صدق نبوَّة محمد ﷺ، وذكر البينات فقال: وجاءهم البينات بدلاً من: جاءتهم البينات.

البينات: في اللغة: يجوز تأنيثها ويجوز تذكيرها؛ لأنها ليست مؤنث حقيقي، ولكن في القرآن لها سياق خاص حين يذكرها تدل على الآيات في القرآن، والتوراة، والإنجيل، أو الأحكام بما فيها الأوامر والنواهي، وحين يؤنث البينات؛ تعني: المعجزات، والعلامات، والبينات الدالة على النبوَّة كما في قوله تعالى: ﴿جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [البقرة:٢٥٣] لمزيد من البيان.

وإذا قارنا في هذه السورة الآية (٨٦): ﴿كَيْفَ يَهْدِي ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾: في هذه الآية عندنا تائبين وتوبتهم تقبل.

والآية (٩٠): ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ

﴿تَوْبَتُهُمْ﴾: في هذه الآية هؤلاء ارتدوا، وكانوا سبباً في ارتداد آخرين؛ لن تقبل توبتهم عند الموت؛ أي: حضور الموت تطبيقاً لقوله سبحانه في آية (١٨) من سورة النساء: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، واستمروا في ذلك: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: الله لا يهدي: من اختار طريق الضلال لنفسه، والشرك، وأصبح من القوم الظالمين (الظلم من الشرك)؛ أي: أسرف في الظلم، أو ارتد، أو ابتعد كثيراً عن طريق الهداية، فكانت هدايته مستبعدة، أو مستحيلة، فهذا أصبح من الظالمين لأنفسهم؛ لأنه أورد نفسه مورد التهلكة. ارجع إلىٰ الآية (٥٤) من سورة البقرة؛ لمعرفة المزيد عن الظلم.

[٨٧] ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾:

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾: اسم إشارة للبعد، وتشير إلىٰ الظالمين، والمرتدين، والكافرين.

﴿جَزَآؤُهُمْ﴾: أي: أجرهم.

﴿لَعْنَةَ ٱللَّهِ﴾: من اللعن: وهو الطرد، والإبعاد عن رحمة الله مع المنع من الخير.

واللعنة: اسم، والاسم يدل علىٰ الثبوت، وهؤلاء عليهم اللعنة الثابتة ما داموا علىٰ شركهم، وضلالهم ولم يتوبوا.

وتقديم الجار والمجرور (عليهم)؛ أي: خاصة بهم حصراً وقصراً.

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾: أي: لعنة الملائكة بالدعاء عليهم باللعن.

﴿وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾: الإنس والجن، والمؤمن والكافر، وهذا يكون يوم القيامة؛ حيث يلعن الله الكافر، ثم تلعنه الملائكة، ثم يلعنه الناس أجمعون.

وأجمعين: توكيد لجميع الناس، والكافر سيلعن نفسه لقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت:٢٥]، فمثلاً حين يلعن الظالمين والكافرين فهو منهم؛ فقد لعن نفسه.

[٨٨] ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾:

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾: جمع خالد، والخلود: هو الدوام المستمر، واستمرار البقاء من بدء وقت معين، وكذلك الخلود، يعني: البقاء بدون تغير، أو تلف.

﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾: شدةً، أو زمناً لا يخفف عنهم شدته، أو لا ساعةً، ولا يوماً.

﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾: ولا: الواو: عاطفة؛ لا: الناهية؛ هم: ضمير فصل يفيد التوكيد؛ ينظرون: من الإنظار: هو الإمهال؛ أي: لا يؤخرون عن تقديمهم للعذاب، أو يمهلون يوماً، أو ساعة؛ أي: يبدأ عذابهم مباشرة، وإذا قارنا هذه الآية مع الآية (١٦٢) في سورة البقرة نجدها متشابهتين في قوله ينظرون، وإذا نظرنا إلىٰ الآية (٨٦) في سورة البقرة نجدها ينصرون، والاختلاف عائد أن آية البقرة (٨٦) جاءت في سياق القتال، ولذلك جاءت ينصرون، وأما الآية (٨٨) في آل عمران والآية (١٦٢) في البقرة جاءتا في سياق اللعن، والطرد من رحمة الله تعالىٰ، ولذلك انتهت بقوله ينظرون.

[٨٩] ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ﴾: أداة استثناء. الذين: اسم موصول.

﴿تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾: التوبة تعني: عدم العودة إلىٰ ارتكاب الذنب، والندم

على ما فعلوا، والإكثار من الأعمال الصالحة. ارجع إلى الآية (١٧-١٨) من سورة النساء.

ذلك: اسم إشارة؛ للبعد، يشير إلى الضلال، والشرك، والردة.

﴿وَأَصْلَحُوا﴾: ما أفسدوا، وأرجعوا الحقوق إلى أصحابها، وأصلحوا باطنهم وظاهرهم.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: الفاء: للتوكيد. إن: للتوكيد. غفور: كثير الغفران يغفر الذنوب جميعاً مهما كثرت وعظمت. رحيم: يؤخر عنهم العذاب؛ أي: يمهلهم، فلا يعجل لهم العقاب، أو العذاب؛ لعلهم يتوبون.

[٩٠] ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾:

﴿إِنَّ﴾: للتوكيد، ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾: وكانوا اثني عشر رجلاً، ومنهم: الحارث بن سويد، كفروا بعد إيمانهم: ارتدوا عن الإسلام، وعادوا إلى مكة، ثم تاب الحارث، وحسن إسلامه، ولم يتب البقية، وسواء كانوا هؤلاء، أو غيرهم من الكفرة، أو من المرتدين.

﴿ثُمَّ﴾: ثم نتباين الصفات.

﴿ازْدَادُوا كُفْرًا﴾: نشروا الكفر، والضلال، ومنعوا غيرهم من الدخول في الإسلام، وأضلوا غيرهم، وتمادوا في كفرهم، ولم يتوبوا إلى الله، ولا زالوا على قيد الحياة.

﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾: لن: لنفي المستقبل القريب والبعيد. لن تقبل توبتهم في المستقبل إذا لم يتوبوا إلى الله تعالى وماتوا وهم على حالتهم هذه لن تقبل

توبتهم حين يحضرهم الموت، أو بعد الموت، وإذا قارنا هذه الآية مع الآية التالية (٩١) نجد استعمال (فلن) بدلاً من (لن)؛ ارجع إلىٰ الآية (٩١) للبيان.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾: أولئك: اسم إشارة للبعد؛ يفيد التحقير، وبُعد ضلالهم. هم: ضمير فصل يفيد التوكيد والحصر. الضالون: هم الضالون حقاً، فهم أبعد الضالين عن طريق الهدىٰ، أو الصراط المستقيم، وأصبحت سمة الضلال ثابتة فيهم، ولن تجد من هو أضل منهم. ارجع إلىٰ سورة البقرة، آية (١٩٨)؛ لمزيد من البيان.

[٩١] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾:

﴿إِنَّ﴾: للتوكيد.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ﴾: أي: بدون أن يتوبوا إلىٰ الله، ويرجعوا عن كفرهم قبل موتهم، وهم: ضمير فصل يفيد التوكيد. كفار: ولم يقل: كافرون؛ لأن كفار صيغة مبالغة؛ تدل علىٰ كثرة القيام بالكفر، وتدل علىٰ الذوات، وتشمل عموم الكافرين، ولم يقل: وهم كافرون: كافرون: تدل علىٰ الحدث (أو الفعل)، وإن صفة الكفر عندهم ثابتة.

﴿فَلَن﴾: الفاء: للتوكيد، لن: حرف نفي؛ تنفي المستقبل القريب والبعيد، والتوكيد بالفاء؛ لأنهم ماتوا وهم كفار وانتهىٰ الأمل، بينما في الآية السابقة (٩٠): (كفروا ثم ازدادوا كفراً) لا زالوا أحياء، لا زال أمامهم بريق أمل إذا تابوا إلىٰ الله توبة نصوحاً.

﴿يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا﴾: يوم القيامة.

﴿وَلَوِ﴾: الواو: حالية تفيد التوكيد، لو: حرف امتناع لامتناع شرطية؛ أي: على افتراض أن له ملء الأرض ذهباً، وهذا مستحيل.

﴿ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾: أي: لن يقبل منه فداء إذا أراد أن يفدي نفسه أن يخلصها من العذاب.

﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا﴾: لو أنفقه في أي خير في الدنيا؛ لأنه لا ثواب له، وحبط عمله؛ لكونه مات على الكفر، ولن يقبل منه ملء الأرض ذهباً، وأنى له ذلك؛ لأنه في الآخرة لم يعد يملك مقدار ذرة.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: أولئك: اسم إشارة للبعد؛ يدل على سوء عاقبتهم، لهم: اللام: لام الاستحقاق، عذاب أليم: شديد الإيلام، ودائم.

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾: ما: النافية، ناصرين: جمع ناصر، وما لهم من يدرأ عنهم العذاب، أو يشفع لهم، أو يخفف عنهم العذاب، من: استغراقية؛ أي: ما لهم من أي ناصر مهما كان حاله، وغناه، وقوته. ارجع إلى الآية (٢٢) من نفس السورة.

❖ ❖ ❖

لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ
فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ
ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ
﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا
وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى
بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ
إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ
مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿٩٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ
عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن
سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ
بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟
فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾

سورة آل عمران [الآيات ٩٢ - ١٠٠]

[٩٢] ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾:

﴿لَن﴾: حرف نفي؛ لنفي المستقبل القريب والبعيد.

﴿تَنَالُوا۟﴾: من نال؛ أي: أصاب، أو حصل.

﴿ٱلْبِرَّ﴾: اسم جامع لكل خير، وهنا تعني: الجنة، وقيل: البر يشمل التقوىٰ، والطاعة، والخير، والقرب من الله تعالىٰ، والفضل. ارجع إلىٰ سورة البقرة آية (١٧٧).

﴿حَتَّىٰ﴾: حرف غاية نهاية الغاية.

﴿تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ﴾: الإنفاق: هو إخراج المال من الملك، فلا يُعد من ملكه سواء كان زكاة أو صدقة تطوع. مما تحبون: حتىٰ تنفقوا من أحب أموالكم إليكم، أو الثمار، أو الأنعام. مما: (من، وما)، من: الابتدائية، وما: اسم موصول؛ أي: الذي تحبون.

﴿وَمَا﴾: الواو: عاطفة، ما: شرطية.

﴿تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ﴾: من: استغراقية، شيء: نكرة؛ أي: شيء قليل، أو كثير، ومهما كان نوعه.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾: الفاء: للتوكيد. إن: لزيادة التوكيد. الله به عليم: محيط، ومطلع عليه يعلمه ويجازي به.

[٩٣] ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾:

المناسبة: قال النبي ﷺ: إنه على ملة إبراهيم، فقالت اليهود: كيف تأكل لحوم الإبل، وألبانها، وإبراهيم حرم ذلك، فقال النبي ﷺ: كان ذلك حلاً لإبراهيم، فنحن نحله، فقالت اليهود: لا إنه محرم على إبراهيم، فأنزل الله عزَّ وجلَّ هذه الآية تكذيباً لهم.

لم يحرم الله سبحانه على بني إسرائيل بما فيهم نبيهم إسرائيل وهو يعقوب عليه السلام؛ أي: طعام، فكل الطعام كان حلاً لهم من قبل إنزال التوراة على موسى.

ولكن ما حدث: هو أن يعقوب (إسرائيل) أصيب بمرض شديد، قيل: هو عرق النسا، ألم شديد بسبب الضغط على العصب الوركي، فنذر يعقوب لله إذا شافاه الله وعافاه؛ ليحرّمن على نفسه أحب الطعام والشراب (لحم الإبل وألبانها)، وحدث ذلك، وأراد الوفاء بالنذر، وهذا التحريم على نفسه لم يكن أمراً إلهياً على يعقوب، ولا على بني إسرائيل قبل تنزيل التوراة.

أما بعد تنزيل التوراة فقد حرم الله على بني إسرائيل ما جاء في الآية (١٤٦) من سورة الأنعام، قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾: وسبب هذا التحريم هو بسبب نقض بني إسرائيل المواثيق، والعصيان، وعدم الأخذ بالتوراة، والعمل بها، والظلم، وأخذهم الربا وقد نهوا عنه، وهذا ما جاء في الآية (١٦٠-١٦١) من سورة النساء، قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

فأطلع الله سبحانه وتعالىٰ رسوله محمداً ﷺ علىٰ الحقيقة، وسأله أن يسأل اليهود بأن يأتوا بالتوراة ويقرؤوها أمامه إن كانوا صادقين بأن الله حرم عليهم أي طعام قبل تنزيل التوراة، فلم يأتوا بها، وعلموا أن الله سبحانه قد أطلع نبيه محمداً ﷺ علىٰ كذبهم، وهذا تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

﴿إِن﴾: شرطية تفيد الندرة، أو الشك. ﴿كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾: أي: لستم صادقين.

[٩٤] ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

﴿فَمَنِ﴾: الفاء: عاطفة. من: شرطية للمفرد والجمع.

﴿ٱفْتَرَىٰ﴾: الافتراء: اختلاق الكذب المتعمد.

﴿عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾: الكذب جاء بـ(ال) التعريف؛ لأن الكذب هنا محدد هو بمسألة الطعام، ولو قال: فمن افترىٰ علىٰ الله كذباً، كذباً: هنا نكرة، وتشمل كل أنواع الكذب.

﴿مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾: مباشرة من بعد ظهور الحق، ونزول هذه الآية: أن الله لم يحرم علىٰ بني إسرائيل أي طعام قبل أن تنزل التوراة.

﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾: الفاء: للتوكيد جواب الشرط، أولئك: اسم إشارة للبعد، ويشير للذين يفترون علىٰ الله الكذب.

﴿هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: هم: ضمير منفصل يفيد التوكيد والقصر.

الظالمون: حقاً بما افتروا علىٰ الله، ويفيد المبالغة في الظلم، وأن صفة الظلم أصبحت ثابتة لا تفارقهم. ارجع إلىٰ سورة البقرة، آية (٥٤)؛ لبيان معنىٰ الظلم.

[٩٥] ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾:

﴿قُلْ﴾: يا محمد ﷺ: ﴿صَدَقَ اللَّهُ﴾: تعالىٰ في كل ما يخبر به، وفيما يقوله في الطعام، وفي إبراهيم ما كان يهودياً، ولا نصرانياً.

﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾: الحنيفية السمحة، والملة هي الشريعة، والمعتقدات العامة وتضاف إلىٰ النبي. أما الدِّين: فهو الأحكام، والآيات، والشريعة، والعقيدة تضاف إلىٰ الله.

﴿حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: المائل عن الضلال، أو المستقيم، والحنف: هو الميل في القدمين والساقين، فحين يعم الضلال؛ فالذي يميل منحرفاً عن الضلال هو الذي اهتدىٰ إلىٰ الصراط المستقيم. ارجع إلىٰ الآية (١٣٥) من سورة البقرة؛ لمزيد من البيان.

[٩٦] ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾:

﴿إِنَّ﴾: للتوكيد.

﴿أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾: أول بيت وضع، والواضع هو الله، أمر الملائكة ببنائه، فقد كان مكان الحرم ومكة أول جزء تشكل من اليابسة (الأرض)، وهو يتوسط كل القارات. للناس: لا يعني كل الناس، وإنما المؤمنون بالله، فاللام: لام الاختصاص.

أي: أول ما بني للعبادة علىٰ الأرض هو الكعبة.

﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾: أي: البيت الذي ببكة، واللام: للتوكيد؛ ببكة: بكة قيل: هو الاسم القديم لمكة المكرمة، ثم أبدلت الباء ميماً فأصبح اسمها الجديد مكة، وأم القرىٰ، والبلد الأمين، وقيل: مكة البلد.

وبكة: ما حول البيت موضع المسجد، أو مكان الطواف والازدحام.

وبكة مشتقة من البك. قيل: هو دفع الناس بعضهم بعضاً (الازدحام).

وقيل: سميت بكة: لازدحام الناس فيها أيام الحج ورمضان.

وقيل: بكة هي مكـــة، أبدلت الباء بدلاً من الميم، كما ورد في بعض لغات القبائل.

وبكة: لأنها تبك أعناق الجبابرة، فلم يقصدها جبار بسوء إلا قصمه الله عزَّ وجلَّ، كما حدث لأبرهة الحبشي.

ومن الأســـماء التي ذكرت في القرآن الكريم: البيت العتيق، البيت الحرام، المسجد الحرام، أم القرىٰ، البلد الأمين.

﴿مُبَارَكًا﴾: من البركـــة، والزيادة، والنماء؛ لمضاعفة الثواب والأجر، فكل صلاة في المسجد الحرام تعادل (١٠٠،٠٠٠) صلاة، وهذا يشمل صلاة الفرض، والتطوع، مقارنة بالصلاة مـــن غيره من حديث عبد الله بن الزبير، وحديث جابر رضي الله عنهم، وهذه البركة قد تكون معنوية أو حســـية، والحســـية: ما يلاحظ الحاج وأهل مكة في زمن الحج من المنافع والخيرات التي تشمل الكل، والبركة جاءت كذلك من حرمته يوم خلق الله السموات والأرض.

﴿وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾: مصـــدر هدايـــة للعالميـــن، أو ذا هـــدىٰ؛ لكونه قبلة للمســـلمين في صلاتهم، والهدىٰ: هو الطريق الموصل إلىٰ الجنة، أو الموصل إلىٰ الغاية، فمن يحج بلا رفث، ولا فسوق، ولا جدال؛ يرجع كيوم ولدته أمه.

[٩٧] ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

﴿فِيهِ﴾: يعود إلىٰ أول بيت.

﴿ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ﴾: دلائل واضحات منها مقام إبراهيـــم، والصفا، والمروة، والحجر الأسود، وزمزم، وأمن من دخله.

﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾: مقام للمـــكان الذي كان يقوم (يقف) عليه إبراهيم؛ ليرفع

القواعد من البيت؛ أي: هو الحجر الذي قام عليه إبراهيم، وفيه أثر قدميه، وقد قيل: إن إبراهيم عليه السلام نحت مكان قدميه حتىٰ تثبت قدماه، ولا تزلَّا.

وذهب بعض المفسرين: أن المراد من مقام إبراهيم: هو موضع قيامه للصلاة، والعبادة؛ أي: الموضع الذي اختاره للصلاة.

وقال آخرون: مقام إبراهيم الحرم كله؛ أي: المسجد الحرام كله.

﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾: هذا إخبار تكليفي، أو طلباً تشريعياً، والتكليف، أو التشريع قد يطاع من البعض، أو الكل، أو يعصىٰ أحياناً.

فالله سبحانه يقول: من دخله كان آمناً.

﴿وَمَن دَخَلَهُۥ﴾: من: شرطية.

﴿كَانَ ءَامِنًا﴾: علىٰ نفسه، وماله من أي: اعتداء، أو إيذاء، عصمة الدخول إلىٰ الحرم، فلا يقتص منه حتىٰ يخرج من الحرم، وفي داخل الحرم لا يجالس، ولا يبايع، ولا يكلم حتىٰ يضطر إلىٰ الخروج، هذا مذهب الحنفية والحنابلة.

أما مذهب المالكية والشافعية: إذا جنىٰ جناية تستوجب القصاص، أو الحد خارج الحرم، ولجأ إلىٰ الحرم يُقتص منه أينما وجد، وسواء كان داخل الحرم، أو خارجه قصاص في النفس، أو غيرها، والمرجح هو مذهب المالكية والشافعية، وإلا لاختل الأمن، وانتشرت الجرائم والمفاسد.

أما بالنسبة لمن ارتكب جناية في الحرم، أو انتهك حرمة الحرم؛ فقد اتفق الفقهاء علىٰ أن يقبض عليه مباشرة، ويقدم إلىٰ العدالة للحكم فيه. ارجع إلىٰ مصادر الفقه الأخرىٰ.

﴿وَلِلَّهِ﴾: اللام: لام الاختصاص والاستحقاق.

﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾: علىٰ: تفيد العلو، والمشقة، والاستعلاء.

﴿حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾؛ أي: الحج لله يكافئ به، ولله علىٰ الناس حج البيت؛ أي:

فرض على الناس أن يحجوا لله عزَّ وجلَّ. ارجع إلى سورة البقرة، آية (١٩٦)؛ للبيان.

﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾: من: اسم موصول من للمفرد، والمثنى، والجمع، والمذكر، والمؤنث، ما عدا الصغار؛ فإنهم غير مكلفين.

الاستطاعة: كما قيل تشمل ملك الزاد والراحلة (تكاليف السفر والإقامة والطعام)، المال الفائض عن حاجاته الأساسية ونفقة عياله، وتشمل أيضاً: الأمن، والإسلام، والبلوغ، وصحة البدن من الأمراض المعدية.

وقد اختلف العلماء في تحديد الاستطاعة، ولا شك أنها تختلف من زمن إلى آخر.

﴿وَمَن كَفَرَ﴾: من: شرطية. كفر: قد تعني الكفر بالله عزَّ وجلَّ، أو كفر بالحج، فالكفر بالله سبحانه معروف، أما الكفر بالحج فهو نوعان: كفر في الاعتقاد بأن الله فرض على الناس حج البيت؛ أي: لا يؤمن بالحج إطلاقاً كفريضة، فلا يحج جاحداً لوجوبه، وينكر أن الحج هو ركن من أركان الإسلام. قال العلماء: وهذا كفر حقيقي.

وهناك من يؤمن بالحج أنه فرض، وعنده الاستطاعة، ولكنه يستخدم المبررات والأعذار أنه مشغول، أو غير قادر هذا العام، وهكذا، فهذا يعتبر عاصياً.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: الفاء: جواب الشرط. إن: للتوكيد. غني عن العالمين: ولم يقل: غني عنه، بل قال: غني عن العالمين؛ لأن الله سبحانه في الحقيقة غني الذي أدَّى الحج والذي لم يؤده؛ لأن الحج فائدته ترجع إلى الحاج، وليس إلى الله تعالى، فالله سبحانه غني عن كليهما، وعن كل العالمين كافة، سواء أحجُّوا أم لم يحجُّوا.

[٩٨] ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾:

﴿قُلْ﴾: يا محمد ﷺ، وجاء بقل؛ لأن المخاطبين ليسوا أهلاً أن يخاطبوا مباشرة من قبل الله بفعل أمر ليدل على الاهتمام بالمقول.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾: أصحاب التوراة (اليهود) وأصحاب الإنجيل (النصارى).

﴿لِمَ﴾: اللام: حرف جر، ما: استفهامية استفهام إنكاري إنكاراً لكفرهم بآيات الله، وحذفت ألفها لدخول حرف الجر عليها.

﴿تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾: الكفر هنا يعمي الستر (لم تخفون وتسترون) آيات الله في التوراة، والإنجيل التي تدل على صفات ونعت محمد ﷺ، وصدق نبوته، والداعية إلى اتباعه وتصديقه.

﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ﴾: الواو: للحال والتوكيد. شهيد: صيغة مبالغة من شاهد؛ أي: المطلع، والمحيط علمه بكل شيء من سرٍّ، ونجوى، وجهر، وما تخفي الصدور، وشهيد على كل عمل من قول، أو فعل، ويعلم ما في السرائر، والعقول، وما يجري في الكون، وما يقوم به كل مخلوق من خلقه.

﴿عَلَىٰ﴾: للاستعلاء والشدة.

﴿مَا﴾: اسم موصول.

﴿تَعْمَلُونَ﴾: العمل يشمل القول، والفعل من الكفر، والفساد.

[٩٩] ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾: ارجع إلى الآية السابقة.

﴿لِمَ﴾: استفهامية.

﴿تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: تمنعون الناس من الدخول في دين الله. سبيل الله: هو دين الحق، وهو الإسلام بالتضليل، والتحريف، والفتنة.

﴿مَنْ ءَامَنَ﴾: من ابتدائية، آمن بالله.

﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾: العوج: من الاعوجاج ما كان يميل إلىٰ جهة، ثم يميل إلىٰ الأخرىٰ. وعوجاً: بكسر العين تستعمل للأمور المعنوية، أما المفتوحة بفتح العين: تستعمل للأمور الحسية المادية مثل عوج في الجدار. تبغونها عوجاً: لا تريدون ديناً قيماً، بل ديناً معوجاً مائلاً عن الحق في المعاني، والقيم، وتريدون الميل عن الاستقامة، والصراط.

أو تلبسون علىٰ الناس: الحق بالباطل.

أو تخفون الحق، وتغيرون صفة رسول الله ﷺ؛ كي تحدثوا اعوجاجاً في هذا الدِّين المستقيم. وإذا قارنا هذه الآية مع الآية (٨٦) في الأعراف وهي قوله تعالىٰ علىٰ لسان شعيب: ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾: نجد في آية الأعراف حذف به، وأضاف الواو (علىٰ كلمة وتبغونها)؛ لأن تبغونها معطوفة علىٰ تصدون، وأما آية آل عمران (تبغونها): جملة في محل نصب حال، والحال لا يدخل عليه واو، أو لأن تبغونها قد تكون استئنافية، وفي آية الأعراف قيد الإيمان بالله وحده، وفي آية آل عمران لم يقيد فأطلق الإيمان ليشمل كل أنواعه.

﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾: علىٰ أن ما جاء في التوراة في نعت محمد ﷺ هو الحق، وأنتم تعرفونه، كما تعرفون أبناءكم. وأنتم شهداء؛ أي: رأيتم محمد ﷺ، وصفاته، وأفعاله، وأقواله، وإضافة إلىٰ ما سمعتموه في التوراة، والإنجيل فيما جاء بشأنه (نعت، أو ذكر).

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾: وما: الواو: عاطفة. ما: النافية. الله بغافل: الباء:

للإلصاق. عما تعملون: من الصد، والمنع، والتحريف، والفتنة، والزيغ بالقول، والفعل. ارجع إلى سورة البقرة، آية (٧٤)؛ لمزيد من البيان.

[١٠٠] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾: نداء إلى الذين آمنوا بعد أن وبَّخ أهل الكتاب على كفرهم، وصدهم الناس عن دين الله، نداء بالحذر من إطاعة فريق من الذين أوتوا الكتاب. فقال:

﴿إِن تُطِيعُواْ﴾: إن: شرطية، تفيد القلة، أو الاحتمال.

﴿فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾: فريقاً، وليس كل الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين؛ أوتوا الكتاب (ولم يقل: أتيناهم الكتاب، أو أهل الكتاب)؛ لأن أوتوا الكتاب، أو أوتوا نصيباً من الكتاب: تأتي في سياق الذم، وأتيناهم الكتاب، أو أهل الكتاب: تأتي في سياق المدح.

سبب نزول هذه الآية: أن شماس اليهودي، وكان شديد الكفر وأصحابه أرادوا الفتنة بين الأوس والخزرج بعد أن رأوا بينهما الوئام، فذكَّروا الأوس والخزرج بحرب بُعاث، فثار الأوس على الخزرج، فعلم بذلك رسول الله ﷺ، وخرج إليهم، وقال: أبدعوى الجاهلية، وأنا بين أظهركم، فخمدت الفتنة وتصالح الطرفان.

﴿يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾: الارتداد يكون بالإقناع، والحجة الباطلة؛ حتى يرتدوا عن دينهم، ويرجعوا إلى الكفر شيئاً فشيئاً، أما الصد: فهو المنع بالقوة والقهر؛ أي: (يصدوكم): يمنعوكم من الدخول في الإسلام بالحجة والبيان، أو القوة.

والرد: هو الرجوع، أو العودة إلى المكان، (أو الحالة) الذي خرج منها، وفيه إجبار، أو إكراه على العودة، بينما الرجوع العودة إلى المكان الذي خرج منه، وفيه معنى الرغبة؛ أي: يرجع وهو راغبٌ غير مكره، أو مضطر.

ولنقارن هذه الآية: ﴿إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ مع الآية (١٠٩) من سورة البقرة: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾: نجد أن هناك ثلاثة فروق هي:

١ - أوتوا الكتاب مقابل أهل الكتاب.

٢ - بعد إيمانكم مقابل من بعد إيمانكم.

٣ - كافرين مقابل كفاراً.

١ - أوتوا الكتاب: أقل تكريماً، وتشريفاً، مقارنة بمناداتهم أهل الكتاب، أهل الكتاب أفضل درجة من أوتوا الكتاب.

٢ - بعد إيمانكم: محاولة الرد إلى الكفر فيها فسحة وتراخٍ في الزمن، وليست مباشرة، بينما قوله: من بعد إيمانكم: الرد إلى الكفر يعني مباشرة بدون تأخير فوراً وبسرعة.

٣ - كافرين: تدل على الفعل على الحدث، فعل الكفر ونوعه، بينما كفاراً: صيغة مبالغة تدل على ذوات المبالغين في الكفر، وكثرة القيام به.

❖ ❖ ❖

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ
رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم
مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ
وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ
فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ
فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ
﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ
وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا
تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ
وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ
وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ
فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ
وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ
ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾

سورة آل عمران [الآيات ١٠١ - ١٠٨]

[١٠١] ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾:

﴿وَكَيْفَ﴾: الواو: عاطفة، كيف: اسم استفهام، وتعجب واستبعاد وقوع الكفر فيهم، والقرآن يُتلىٰ عليهم ورسول الله ﷺ بينهم.

﴿تَكْفُرُونَ﴾: بصيغة المضارع؛ ليدل علىٰ تجدد، وتكرار الكفر منهم.

﴿وَأَنتُمْ﴾: الواو: حالية تفيد التوكيد. أنتم: ضمير منفصل يفيد التوكيد.

﴿تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾: تُقرأ عليكم آيات الله علىٰ لسان رسوله ليلاً ونهاراً.

﴿وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾: أي: بين أظهركم رسول الله، والذي ظهرت علىٰ يديه المعجزات الكثيرة.

﴿وَمَن﴾: الواو: استئنافية. من: شرطية.

﴿يَعْتَصِم بِٱللَّهِ﴾: يتمسك بالله عزَّ وجلَّ، وكتابه، ودينه. يعتصم: مشتقة من العصم: وهو المنع، والعصمة: المناعة؛ كالذي يأخذ تلقيحاً ضد مرض ما؛ كي لا يصاب به.

﴿فَقَدْ﴾: الفاء: للترتيب والمباشرة. قد: حرف تحقيق يفيد التوكيد.

﴿هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: فقد اهتدىٰ إلىٰ صراطٍ مستقيم إلىٰ الإسلام، وسار علىٰ الصراط الموصل إلىٰ الغاية.

وكيف تكفرون ليس معناها أنه وقع منهم الكفر، ولو حصل ذلك لما ناداهم بـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾.

[١٠٢] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾: نداء جديد إلى الذين آمنوا بالتقوى، وإسلام الوجه لله، استعمل فيها يا النداء: للبعد، والها: للتنبيه.

﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾: اتقوا الله: أطيعوا أوامر الله، واجتنبوا نواهيه. حق: من الحق: وهو الوجوب، والثبوت، والحق: هو الصدق هو كل أمر ثابت لا يتغير. حق تقاته؛ أي: اتقوه اتقاءً حقاً، أو اتقوه التقوى الواجبة؛ أي: ابذلوا جهدكم، أو أقصى استطاعتكم في طاعة الله، وذكره، وشكره، وعبادته، والإيمان التام الكامل، فلا تؤمنوا ببعض، وتكفروا ببعض، والإحسان، والرضا، والصبر، والشكر.

﴿وَلَا ﴾: الواو: عاطفة. لا: الناهية.

﴿تَمُوتُنَّ﴾: النون في تموتن؛ للتوكيد.

﴿إِلَّا﴾: أداة حصر.

﴿وَأَنتُم﴾: ضمير منفصل يفيد التوكيد.

﴿مُّسۡلِمُونَ ﴾: أي: مخلصون، موحِّدون بالاستسلام لله تعالى، وقضائه، وقدره في تلك اللحظات الحرجة، أو الساعة الرهيبة، وقوله: وأنتم مسلمون: تدخل في سياق: اتقوا الله حق تقاته، وكأنه خص التوحيد، والإخلاص؛ أي: ذكر الخاص بعد العام؛ للتوكيد على أهمية لا إله إلا الله، واليقين برحمة الله تعالى وعدله، وتجنب الشيطان، أو الشك، وعدم الزيغ، والدعاء: ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة.

فالإيمان درجات تبدأ بالإسلام، ثم ترتفع إلىٰ درجة الإيمان، ثم ترتفع إلىٰ درجة التقوىٰ، ثم ترتفع إلىٰ درجة الإحسان، ثم الإسلام، وهو إسلام الوجه، ويعني: الإخلاص التام، وأن يعبد الله كأنه يراه.

ومن معاني حق تقاته: طاعة صادقة مخلصة مستمرة حتىٰ الموت.

ويجب العلم أنه لا يوجد بشر يستطيع أن يتقي الله التقوىٰ التي تليق بجلاله وعظمته، ولو سجد وصلىٰ وصام وأطاع الله وعبده في كل ثانية ولحظة في حياته حتىٰ مماته.

وأما قوله تعالىٰ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]: معناها نفس معنىٰ الآية: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾؛ لأن قوله: ما استطعتم؛ أي: ما في وسعكم، وجهدكم، وطاقتكم، فلا يظن أحد كما ظن البعض: أن الاستطاعة في هذه الآية هي أقل درجة من حق تقاته في الآية الأولىٰ، ولا شك أن لكل إنسان طاقة وسعة محددة.

والذي يحدد الاستطاعة هو الله؛ أي: المشرع؛ فلا يصح للعبد أن يحدد الاستطاعة بنفسه، أو القدرة، ولا ينسىٰ أن الله سبحانه رخص للمريض والمسافر وللمرأة في حالة حيضها ونفاسها وحملها برخص؛ لأنه عليم حكيم، وغفور رحيم، وأكثر العلماء متفق علىٰ أن الآية: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾: لم تنسخ بالآية: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾؛ كما ظن البعض الآخر.

[١٠٣] ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾:

﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾: الاعتصام: الاستمساك والمنعة، والتمسك عادة يكون بشيء ما؛ لتجنب الوقوع، فكأن هناك شيئاً إذا تمسك به

جنبه الوقوع، وارتفع به إلى الأعلى، ومنع نفسه من السقوط، وهذا الشيء هو حبل الله؛ أي: كتاب الله سبحانه، وسنة رسوله ﷺ، وهذا يسمى في البيان استعارة تمثيلية بليغة.

بحبل الله: الباء: للإلصاق، حبل الله: هو القرآن، وسنة الرسول ﷺ، أو الدِّين، ويشمل: الإيمان، والعمل الصالح، وحبل الله: هو الأمان في الدنيا والآخرة، وعدم الخوف، والحزن، والنجاة، وهو الموصل إلى البغية والغاية.

جميعاً: للتوكيد، الكل يجب أن يعتصم بحبل الله.

﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾: الواو: عاطفة، لا: الناهية، تفرقوا: شيعاً وطوائف وأحزاباً، كما تفرقت اليهود والنصارى.

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾: قيل: الخطاب موجَّه إلى الأوس والخزرج حين كان بينهم حروب وعداوة كثيرة في الجاهلية امتدت أكثر من (١٢٠) سنة، فلما جاء الإسلام وحَّد بينهم بنعمة الألفة والوحدة، والاجتماع على القرآن، والإيمان، وطاعة الله.

والعبرة بعموم اللفظ، وليس بخصوص السبب.

فما أحوجنا نحن في هذا العصر إلى الأخذ بهذه الآية أكثر مما أخذ بها الأوس والخزرج.

﴿إِذْ﴾: ظرف زمان للماضي؛ أي: حين ﴿كُنتُمْ أَعْدَاءً﴾: في الجاهلية، فألف بين قلوبكم.

أعداء: إذا كانت العداوات بينهم مختلفة يصفهم بأنهم أعداء، وإذا كانت العداوة بينهم واحدة، أو سببها واحد مثال: عداوة في الدِّين قال عنهم عدو.

﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾: أي: وحَّد بين قلوبكم، وجمع بين الأوس والخزرج، وجمع بين قلوبكم بالأخوَّة، والإسلام، والإيمان.

﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾: أصبحتم متراحمين، ومجتمعين على أمر واحد: إخواناً في الدِّين.

﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا﴾: أي: مشرفين. شفا الحفرة: حافتها، ومن كان يقف على الحافة يوشك أن يقع، وأشفى على الشيء: أشرف عليه.

أي: مشرفين على الوقوع في نار جهنم؛ لما كنتم عليه من الكفر.

﴿فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾: فأنقذكم الله بالإسلام والوحدة والصلح، وأنجاكم من الوقوع في نار جهنم. منها: تعود للحفرة، أو النار، أو الشفا.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: كما نبين لكم ما ذكر في الآيات السابقة يبين لكم آياته؛ لتهتدوا هداية تامة، ولا تعودوا إلى أوضاع الجاهلية من التفرقة، والاختلاف، والعدوان.

﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾: أضاف الهاء لها تعظيماً، ولم يقل الآيات.

فحين يقول: آياته، أهم من قوله: الآيات، وقوله: آياتي أهم في المعنى من الآيات، أو آياته، وأحب وأقرب من الآيات.

﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾: لعل: للتعليل؛ أي: لتهتدوا.

[١٠٤] ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾:

﴿وَلْتَكُن﴾: الواو: عاطفة، واللام: لام التوكيد، أو لام الأمر، أو الاختصاص.

﴿مِّنكُمْ﴾: من: ابتدائية للتبعيض؛ لأن الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر فرض كفاية لا يلزم كل الأمة، وليس كل فرد مؤهل للقيام بذلك.

ومن المفسرين من قال: من: للبيان؛ أي: منكم من أمة محمد ﷺ منكم خاصة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على كل مسلم ومسلمة.

﴿أُمَّةٌ﴾: هي الجماعة التي تجمعها عقيدة واحدة بغض النظر عن الكم البشري، والحيز الجغرافي.

﴿يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾: الخير كل ما فيه منفعة وصلاح الناس في الدِّين والدنيا، والخير ضد الشر، أو كل ما ينفع الإنسان في حياته الدنيا والآخرة من الإيمان، والعمل الصالح.

﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾: المعروف: كل ما عرفه الشرع فأمر به لنفعه وصلاحه للفرد أو الجماعة.

﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾: المنكر: وهو كل ما نهى عنه الشرع؛ لضرر وفساد للفرد، أو الجماعة، أو ما أنكره الله ورأوه قبيحاً. وقيل: المنكر هو فعل تحكم العقول الصحيحة بقبحه.

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾: أولئك: اسم إشارة للبعد يفيد علو منزلتهم.

﴿هُمُ﴾: ضمير يفيد التوكيد.

﴿الْمُفْلِحُونَ﴾: الكاملون في الفلاح، أو إذا كان هناك مفلحون فهم في طليعة المفلحين. ارجع إلى سورة البقرة آية (٥) للبيان.

[١٠٥] ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾:

﴿وَلَا﴾: الواو: عاطفة، لا: الناهية.

﴿تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾: الخطاب إلى أمة محمد ﷺ، وهم جزء من الأمة الإسلامية التي امتدت من نوح إلى إبراهيم إلى موسى وعيسى إلى محمد ﷺ. كالذين: الكاف: كاف التشبيه. الذين: اسم موصول.

﴿تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾: تفرقوا: من التفرق، وهو الاختلاف الشديد الذي أدى إلى الابتعاد؛ أي: فارق بعضهم بعضاً فلم يكونوا يداً واحدة، وأما تتفرقوا كما في الآية (١٣) في سورة الشورى ولا تتفرقوا بدلاً من تفرقوا تأتي في سياق تفرق الأمم المختلفة، وتفرقوا تأتي في سياق تفرق أفراد الأمة الواحدة مثل أمة محمد ﷺ؛ أي: اليهود والنصارى على رأي أكثر المفسرين.

﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾: من: ابتدائية، مباشرة من بعد ما جاءهم البينات. الأدلة الواضحة، والآيات، والأوامر، والنواهي بعدم الاختلاف، والتفرق، والتشيع. ارجع إلى سورة البقرة (٢٠٩)؛ لمزيد من البيان، والفرق بين جاءكم البينات، وجاءتكم البينات.

﴿وَأُولَئِكَ﴾: اسم إشارة للبعد.

﴿لَهُمْ﴾: اللام: لام الاختصاص، أو الاستحقاق.

﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾: من أشد أنواع العذاب (يجمع بين كونه عذاباً أليماً ومهيناً ومقيماً).

قال تعالى في هذه الآية: ولا تفرقوا، بينما في سورة الشورى (١٣): ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾: ففي آية آل عمران قال: تفرقوا، حذف إحدى التاءين؛

لأن الخطاب فيها للأمة الإسلامية فقط، بينما تتفرقوا (جاء بتاءين)؛ لأن الخطاب في الآية موجَّه إلىٰ أمم مختلفة من آدم إلىٰ نوح إلىٰ إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ؛ أي: أمم مختلفة، فزيادة التاء تناسب زيادة الأمم.

والتفـرُّق في آية آل عمـران يختلف عن التفرق في آية الشـورىٰ، ففي آل عمران تحذير ونهي عن التفـرق مهما كان نوعه، ومهما قل أو صغر، وأما النهي في آية الشورىٰ فهو تحذير أوسع وأشمل.

وانتبـه إلىٰ تقديـم التفرقة علىٰ الاختلاف والأصل هـو الاختلاف، وهو الذي يؤدِّي إلىٰ التفرقة، فقدَّم التفرقة علىٰ الاختلاف؛ لأنه أحياناً التفرقة هي التي تسبب الخلاف، أو بالعكس الخلاف يؤدِّي إلىٰ التفرقة.

والاختلاف المنهي عنه هو في أصول الدِّين، وتحكيم الأهواء والمصالح، ولا يقصـد به الاختـلاف في الفـروع والاجتهـادات في تفاصيـل العبادات والمعاملات، فما هو الفرق بين الخلاف والاختلاف؟

فالاختلاف: لغة يعني: عدم الاتفاق، وفي الاصطلاح: أن يذهب كل عالم إلىٰ خلاف ما ذهب إليه الآخر، والاختلاف منه المحمود، ومنه المذموم.

ويكون الاختلاف أمراً مشروعاً إذا توافر فيه أمران:

الأول: أن لـكل من المختلفين دليلاً يصـح الاحتجاج به، وإذا لم يكن له دليل سقط، ولم يؤخذ به.

الأمـر الثاني: ألا يؤدِّي الأخـذ بالمذهب المخالف إلىٰ باطل، أو شـيء محال؛ فإذا كان كذلك بطل، ولم يؤخذ به.

أما الخلاف: هو الذي يفقد الأمرين، أو الشرطين، أو أحدهما، والخلاف منبوذ، وهو مظهر من مظاهر الهوىٰ.

[١٠٦] ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾:

﴿ يَوْمَ ﴾: يوم القيامة.

﴿تَبْيَضُّ﴾: البياض يعني النور، نور في وجوه المؤمنين المتقين، وكناية عن السرور والبهجة سببه الإيمان والوضوء والتقوىٰ.

﴿وَتَسْوَدُّ﴾: السواد من الظلمة، ظلمة في وجوه الكافرين كناية عن الخوف، والكآبة، وسببه الكفر، والشرك، والمعاصي، وقدم الذين ابيضت وجوههم للتشريف والتعظيم علىٰ الذين اسودت وجوههم.

والسواد والبياض في الآخرة لا يمدان بصلة إلىٰ الاسوداد والابيضاض الذي نراه في الدنيا، واللون ليس دليلاً علىٰ حب أو كره الله لعبده.

فاللون الأسود في الدنيا قد يصبح لوناً أبيضَ في الآخرة، واللون الأبيض في الدنيا قد يصبح أسودَ في الآخرة.

فلون البشرة في الدنيا أسبابه تختلف عن لون البشرة في الآخرة.

فاللون في الآخرة يعود إلىٰ الإيمان والكفر، وفي الدنيا يعود إلىٰ الهرمونات والجينات والبيئة، وسوف تزول عوامل البيئة؛ لأن السموات والأرض سوف تتبدل آنذاك.

﴿فَأَمَّا﴾: الفاء: استئنافية، أما: حرف شرط وتفصيل.

﴿الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾: بسبب تفرقهم واختلافهم، ومن سوء ما عاينوه من أهوال يوم القيامة.

والسواد نتيجة الغبرة التي ترهقها قترة، والقترة من القتار: وهو الهواء الممتلئ بدخان أسود يشبه دخان الدهن المحروق.

﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾: أكفرتم: الهمزة همزة استفهام وتوبيخ، والخطاب موجَّه إلىٰ أهل الكتاب الذين كفروا بمحمد ﷺ.

أكفرتم بمحمد ﷺ بغياً وتكبراً وحسداً بعد أن عرفتموه، كما تعرفون أبناءكم، ولم تؤمنوا به، أو الخطاب إلىٰ المرتدين، أو المنافقين، والمبتدعين، والكفار بشكل عام.

﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾: فذوقوا: الفاء: رابطة لجواب الشرط.

أصل الذوق يكون باللسان (الفم)، وشبه العذاب بشيء مما يؤكل أو يذاق.

﴿ٱلْعَذَابَ بِمَا﴾: الباء: للإلصاق، أو السببية، ما: حرف مصدري.

﴿كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾: بسبب كفركم في الدنيا، وجاء بصيغة المضارع (لحكاية الحال)، وتجدُّد كفرهم وعدم توبتهم.

[١٠٧] ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾:

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾: بعد الحديث عن الذين اسودَّت وجوههم يتحدث عن القسم الآخر وهم الذين ابيضَّت وجوههم، بسبب نور الإيمان والتقوىٰ، والوضوء، وقيام الليل، وقدم حين فصل الذين اسودت وجوههم علىٰ الذين ابيضت وجوههم للكثرة، أو بدأ بالتفصيل بما انتهىٰ إليه الإجمال، والله أعلم.

﴿فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ﴾: الرحمة: قيل: الجنة وزيادة، والرحمة صفة ثابتة باقية ببقاء الله، فالرحمة أعظم من الجنة.

﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾: هم: ضمير منفصل يدل علىٰ الحصر.

خالدون: صفة ثابتة لا تتغير، لا يموتون، ولا يتغيَّرون، والخلود استمرار البقاء يبدأ من وقت محدَّد هو دخولهم الجنة.

وقيل: ففي: الفاء الأولىٰ للدخول في الرحمة، والفاء الثانية للخلود.

[١٠٨] ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾:

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾: اسم إشارة، واللام للبعد يشير إلىٰ الآيات الواردة في الوعد والوعيد.

﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾: عن طريق جبريل عليه السلام، ولكنه أسند التلاوة إليه سبحانه؛ لأن جبريل إنما يتلو بإذن الله، وأمره، وكما علمه سبحانه. نتلوها: جاء بنون العظمة؛ للدلالة علىٰ أهمية الآيات وأهمية المتلو عليه.

﴿بِٱلْحَقِّ﴾: الباء: للإلصاق، فهي ملتبسة بالحق (والحق هو الأمر الثابت الذي لا يتغيَّر؛ لأنه من الله تعالىٰ).

والحق ملزق بها، لا يمكن فصله عنها، ولا فصلها عنه.

﴿وَمَا﴾: الواو: استئنافية، ما: النافية؛ لنفي الماضي، والحاضر، والمستقبل.

﴿ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾: فهو سبحانه ينفي عن نفسه أن يظلم (يفعل الظلم)، ويذهب إلىٰ أبعد من ذلك وينفي عن ذاته إرادة الظلم، ونفي الإرادة أبلغ من نفي الفعل نفسه، فهو ينفي الإرادة، وينفي الفعل معاً.

ويؤيِّد ذلك قوله سبحانه في الآية (٤٦) من سورة فصلت: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

❖ ❖ ❖

وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ
﴿١٠٩﴾ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ
وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ
أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ
وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ
وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ۖ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ
عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ
وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ
حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ
مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ
وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ
وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ
فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟
مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾

ربع الحزب ٧

سورة آل عمران [الآيات ١٠٩ - ١١٥]

[١٠٩] ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾:

﴿وَلِلَّهِ﴾: الواو: عاطفة، لله: اللام: لام الاختصاص، وتقديم الجار والمجرور لله على ما في السموات، وما في الأرض؛ تفيد الحصر، والقصر؛ أي: له وحده سبحانه.

﴿مَا﴾: لغير العاقل، والعاقل، وهي أعم وأشمل من (من).

﴿فِي﴾: ظرفية مكانية وزمانية.

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: السبع ذاتها وما تحوي.

﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾: ذاتها وما تحوي.

وتكرار ما (في يفيد) التوكيد، وحين يعيد عبارة (ما في) قد يتبع ذلك ذكر شيء عن أهل الأرض، أو تكرار ما في يفيد الفصل بين السموات والأرض، فهناك أشياء ومخلوقات توجد في السموات ولا توجد على الأرض أو بالعكس، فله سبحانه كل شيء.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾: حصراً، وقصراً له وحده، ﴿تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾: للفصل، والحساب وإصدار الحكم.

[١١٠] ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ﴾: يعني: وجدتم خير أمة، أو خلقتم.

أو تعني: كنتم في علم الله خير أمة.

أو كنتم منذ آمنتم خير أمة.

أو كنتم في الأمم قبلكم مذكورين بأنكم خير أمة.

أو معنىٰ كنتم؛ أي: أنتم خير أمة أخرجت للناس.

أو كنتم في اللوح المحفوظ خير أمة.

وهذه الخيرية مشتركة ما بين أول الأمة وآخر الأمة.

﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾: أخرجت: ولم يقل: خرجت؛ أي: خرجت بنفسها بدون مخرج؛ أي: خرجت بنفسها بدون رسالة، أو قوانين ربانية، وإنما أخرجت؛ أي: أخرجها الله سبحانه للناس بمنهج الإسلام، ولم تخرج مجرد إخراج لا فائدة فيه ولا نفع، وإنما أخرجت لهداية الناس كافة. للناس: اللام: لام الاختصاص.

﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾: تأمرون الناس بالإيمان بالله بتطبيق شرع الله، واتباع سنة رسوله ﷺ في الحياة اليومية، وتعليم الناس أمور دينهم.

وتعريف المعروف: ارجع إلىٰ الآية (١٠٤) من نفس السورة.

﴿وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾: الكفر، والشرك، وكبائر الإثم والفواحش، والفساد باليد واللسان، أو بالقلب، وذلك أضعف الإيمان.

وتعريف المنكر: ارجع إلىٰ الآية (١٠٤) من نفس السورة.

﴿وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾: والإيمان بالله يتضمن: الإيمان بكل ما أمر الله به من الإيمان بالملائكة، والكتب، والرسل، واليوم الآخر، والقضاء والقدر خيره وشره.

وقدَّم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر علىٰ الإيمان بالله؛ لأن الأمم السابقة لم تكن مكلفة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أما هذه الأمة فلها

ميزة على غيرها من الأمم كونها مكلفة بهذا الأمر، ولذلك قدَّم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان؛ لأن الإيمان عامل مشترك بين الأمم، فالكل مطلوب منه الإيمان، ويؤكد ذلك ما قاله الله سبحانه في سورة المائدة، آية (٧٨-٧٩): ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾.

ولأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا لم يصاحبه إيمان بالله فلن يُقبل من صاحبه، وهو في الآخرة من الخاسرين، وقد يجازي عليه في الدنيا، وقدَّمه للحثِّ على القيام به، وبيان أهميته.

﴿وَلَوْ﴾: الواو: استئنافية، لو: شرطية.

﴿ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾: أي: لو آمنوا بمحمد ﷺ، وبما أنزل على محمد ﷺ، أو آمنوا كإيمان المسلمين بالله، وملائكته، ورسله، وكتبه، وآمنوا برسلهم، واتبعوا ما أنزل الله تعالى.

﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾: إذ كانوا يؤمنون ببعض الكتاب، ويكفرون ببعض، يؤمنون بموسى، وعيسى، ويكفرون بمحمد ﷺ.

﴿مِّنْهُمُ﴾: أي: من أهل الكتاب.

﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: أمثال عبد الله بن سلام، وأصحابه (وهم قلة).

﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾: الخارجون عن طاعة الله عزَّ وجلَّ بعدم اتباع النبي الأمي المبعوث رحمة للعالمين، والذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل. ارجع إلى سورة البقرة آية (٢٦) لمزيد من البيان في فاسقين، وإذا قارنا هذه الآية مع الآية (٢٦) من سورة الحديد وهي قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أكثرهم: تعني العدد، أو النسبة أكثر من كثير؛ أي: كثير أقل من أكثر، وأكثر تأتي أيضاً في سياق أسوأ الصفات مقارنة بكثير.

[١١١] ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ۖ وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾:

﴿لَن﴾: حرف لنفي الضرر عنكم في المستقبل القريب والبعيد.

﴿يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾: إلا: أداة حصر؛ أي: لا تظنوا هذه الأكثرية الفاسقة قادرة على إلحاق الضرر بكم، وإنما قد يؤذوكم بالقول، أو الاستهزاء، أو السخرية، والطعن، والكذب.

يضروكم إلا أذى: لن يضروكم: ما معنى الضرر: الحدث المؤلم الذي له آثار تمتد على زمن طويل كما يحدث في الحروب والسلب والنهب.

أما الأذى: هو الحدث المؤلم ساعة وقوعه، وينتهي سريعاً بعد فترة من الزمن، والضرر أشد من الأذى، والأذى يحدث أولاً، وإذا استمر قد يصبح ضرراً.

﴿وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ﴾: الواو: عاطفة، إن: شرطية جازمة، تفيد معنى الاحتمال، وتستعمل للأمور النادرة الوقوع.

يقاتلوكم: أصلها يقاتلونكم حذف منها النون؛ تعني: عدم توكيد قتالهم لخوفهم منكم.

﴿يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ﴾: أي: ينهزموا أمامكم (تولية الأدبار تدل على الهزيمة والخذلان).

حذف النون من يولونكم فقال: يولوكم (وهي جواب الشرط، وحذف منها النون) لتعني يولوكم الأدبار بسرعة.

والأدبار جمع دبر، والدبر يقابله القبل، وتعني الظهر، واستعمل الدبر بدلاً من الظهر، أو العقب (عقب القدم) لبشاعة الانهزام أمام العدو.

ولا بد من الانتباه إلى أمر هام: هو أن القرآن العظيم يستعمل غالباً الدبر في الانهزام أمام العدو، وفي القتال والانسحاب من أرض المعركة، ويستعمل العقب غالباً في الارتداد عن دين الله، والكفر، والضلال بعد الإيمان.

أمثلة: ﴿إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾ [الأنفال:١٥]؛ أي: الفرار من أرض المعركة.

﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ﴾ [الفتح:٢٢]؛ أي: فروا من أرض المعركة.

﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران:١٤٤]؛ أي: عدتم إلى الكفر والشرك والعصيان أو الردة.

﴿إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران:١٤٩].

لأن الفرار أمام العدو يمكن العدو من ظهورنا، أو أدبارنا، فهذا أمر عظيم مستهجن، وحين يفر المسلم من أرض المعركة، أو التولي يوم الزحف من الكبائر.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾: بدلاً من قوله: ثم لا ينصروا، فهنا عطف بالرفع بدلاً من أن يعطف بالجزم.

وهذا له أهمية بلاغية هامة؛ لأنه لو جزم الفعل فقال: ثم لا ينصروا؛ لكان النصر مقيداً بتلك المعركة فقط؛ أي: تنصروا مرة واحدة، أو مرتين على الأكثر.

ولكن حين رفع الفعل، وقال: ثم لا تنصرون: كأنه وعدٌ مطلقٌ بالنصر المتكرر مرات عديدة، وليس مرة واحدة فقط؛ ليطمئن المؤمنين.

وانظر إلى كلمة (ثم) التي تدل على التراخي في الزمن؛ أي: في الزمن القادم البعيد، وهذا يدل على حكم الله تعالى على أهل الفسق، والكفر أنهم لا ينصرون أبداً، سواء بقتال أو غيره، وإن انتصروا مرة أو مرتين فلن يطول ذلك، ويعود النصر إليكم، وهذا إشارة ووعد من الله للمؤمنين يبعث في روح المؤمن التفاؤل ويحثه على التوكل على الله، واليقين بنصر الله تعالى.

يؤيد ذلك قوله تعالى في الآية (١٢٦) من سورة آل عمران: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾.

[١١٢] ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾:

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾: أحاطت بهم الذلة، أو ألصقت بهم المذلة بحيث لا يستطيعون الانفكاك عنها، كما تحيط الخيمة بما فيها (استعارة مكنية).

وكلمة ضربت مشتقة من صهر المعادن في قالب تصهر النقود الفضية فيه، تُصهر وتوضع في قالب، فتخرج مطبوعة بطباعة لا تنفك عنها.

﴿عَلَيْهِمُ﴾: جار ومجرور، وتقديم عليهم على الفاعل تفيد الحصر، وعلى تفيد الاستعلاء والمشقة.

﴿الذِّلَّةُ﴾: الذليل: هو من لا منعة له، ولا قوة (ضعفاء لا منعة لهم ولا قوة)، وحدث ذلك بعد أن تأمروا على قتل رسول الله ﷺ، وبسبب الحروب ضد المسلمين مثل حروب خيبر، وبني قريظة، وبني قينقاع.

﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوا﴾: أين: ظرف مكان تفيد الإبهام والغموض، وأوسع شمولاً وعموماً من حيثما. ما: شرطية، ثقفوا: أينما وجدوا، ولكن هناك فرق بين ثُقفوا ووجدوا.

ثقفوا: إذا ثقفت عدوك؛ أي: وجدته وأنت في حالة من القوة، والتمكن من النيل منه.

وجدوا: تعني إذا وجدت عدوك؛ أي: وجدته وأنت في حالة غير تأهب، واستعداد لقتاله، والنيل منه، وهنا يجب عدم التعرض له ومواجهته.

أي: ضربت عليهم الذلة أينما أدركوا، وأقاموا، فالذلة محيطة بهم.

﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء، إلا في حالتين يكونون فيها غير أذلاء:

الأولى: ﴿بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ﴾: الحبل هو العهد من الله.

والحبل هو المعاهدة كالمعاهدة التي تربط بين دولة ودولة أخرىٰ.

والحبل يعني الأمان؛ لأنه يوصل إلىٰ البغية، ويزول به الخوف.

إلا بحبـــل من الله؛ أي: ضربت عليهم الذلـــة في كل الأحوال إلا في حال اعتصامهـــم بحبل الله، وحبل من الناس، وحبل اللـــه يعني: الكتاب (القرآن، أو التوراة)، أو الدِّين.

أي: إذا تمســـكوا بكتابهم كالتوراة (وعملوا بما فيه)، أو الذين طبقوا ما فيه فهم في مأمن.

أو إذا أعطاهم الرسول ﷺ العهد، كما حصل في المدينة، فكانوا آمنين غير خائفين.

وبعد أن تخلىٰ عنهم الله بسبب ما فعلوه لجؤوا إلىٰ غيرهم كالدول وغيرها لتحميهم.

الثانيـــة: ﴿وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾: أو هم غير أذلاء حين عقـــدوا المعاهدات مع الدول الأخرىٰ؛ فأصبحوا تحت حماية دولة قوية تدافع عنهم.

﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: رجعوا أو اســـتحقوا غضـــب الله، والباء في كلمة بغضب للإلصاق؛ أي: غضب الله لا يفارقهم (ملتصق بهم).

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾: المسكنة أمر ذاتي نفسي داخلي، هو شعورهم بأنهم مظلومون مساكين أمام العالم كله، بينما الذلة أمر خارجي (مثل الهزائم في الحروب، والانكسار، والجبن، والخوف).

﴿ذَٰلِكَ﴾: اسم إشارة إلىٰ ضرب الذلة والمسكنة، وباؤوا بغضب الله.

كل ذلك سببه كفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء، وبسبب عصيانهم لله، واعتدائهم على حدوده.

﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾: يكفرون ولم يقل: كفروا؛ لأنهم استمروا على كفرهم، وكفرهم يتكرَّر، ويتجدَّد، ولم يتوقَّف.

أمثلة على كفرهم بآيات الله، مثل: النجاة من فرعون، وفلق البحر، وإنزال المن والسلوى، ورفع الطور فوقهم كأنه ظلة، وضرب الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً.

﴿وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾: ارجع إلى الآية (٦١) من سورة البقرة لمقارنة آيات قتل النبيين والأنبياء بحق وبغير حق.

يقتلون الأنبياء: جاءت بالفعل كفعل مضارع (لحكاية الحال)؛ ليحضر صورة القتل أمام أعيننا رغم أنه حدث في الماضي، وينقله من الماضي إلى الحاضر؛ لبشاعته.

والأنبياء: تدل على جمع كثرة (جمع تكسير) مقارنة بالنبيين جمع سالم يفيد القلة.

بغير حق: حق: نكرة، والنكرة تدل على البشاعة والذم، ولا يوجد حقٌّ أصلاً، أو سبب سواء كان معرفة، أو نكرة يدعو إلى قتل أي نبي.

﴿ذَلِكَ﴾: تفيد التوكيد والتكرار لما حدث لهم من الذلة والمسكنة والغضب.

﴿بِمَا عَصَوا﴾: الباء: باء السببية، أو البدلية.

أي: بسبب عصيانهم أوامر الله، ونواهيه، وكانوا يعتدون، أمثلة: أخذهم الربا وقد نهوا عنه، وأكلهم أموال الناس بالباطل، وصدهم عن سبيل الله كثيراً.

لنقارن هاتين الآيتين سورة البقرة، آية (٦١): ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾.

والآية (١١٢) من سورة آل عمران: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾.

ففي آية البقرة: الذلة والمسكنة ضربت عليهم في آن واحد (في زمن موسىٰ عليه السلام)، وتجلت الذلة والمسكنة في هزائمهم في الحروب مع العماليق (القوم الجبارين) الذين كانوا دائماً يهزمونهم، وسرقوا التابوت الذي فيه بقية من آل موسىٰ وآل هارون.

وأما في آية آل عمران: ضربت عليهم الذلة في زمن أول، وضربت عليهم المسكنة في زمن آخر، أو ثانٍ، وضربت عليهم الذلة حين تآمروا علىٰ قتل رسول الله ﷺ، وضربت عليهم المسكنة في حروب خيبر وبني قريظة وبني قينقاع. ومقارنة هاتين الآيتين يشير إلىٰ استعمال التنكير في آية آل عمران، وذكر الأنبياء في آل عمران الذي يدل علىٰ جمع الكثرة مقارنة بقتل النبيين جمع قلة في البقرة، واستعمال صيغة التعريف يدل علىٰ أن آية آل عمران أشد وأبلغ ذماً وتشنيعاً من آية البقرة، ولا ننسىٰ أن آية البقرة أيضاً جاءت في سياق تعداد النعم علىٰ بني إسرائيل.

[١١٣] ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾:

﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾: أي: ليس أهل الكتاب متساوين في درجة الإيمان والتقوىٰ.

﴿مِّنْ﴾: ابتدائية، أو بعضية من ﴿أَهْلِ الْكِتَابِ﴾.

﴿أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾: جماعة قائمة ثابتة على الإيمان، والعمل الصالح، مثل: عبد الله بن سلام، وجماعة معه من اليهود، وقائمة مستقيمة على طاعة الله عزَّ وجلَّ، وقائمة بالأمانة والفرائض.

﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ﴾: آيات القرآن في صلاة التهجد، والتلاوة تعني: القراءة المتتالية.

﴿آنَاءَ اللَّيْلِ﴾: ساعات الليل.

﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾: أي: يصلون (عبَّر عن الصلاة بالسجود)، عبر بالجزء وأراد به الكل، السجود جزء من الصلاة.

[١١٤] ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾:

من أهل الكتاب، من: للمفرد، والمثنى، والجمع.

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: أي: لهم نفس صفات خير أمة أخرجت للناس.

﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾: ارجع إلى الآية (١١٠) من نفس السورة بصيغة المضارع؛ للتجدد، والاستمرار.

﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾: ارجع إلى الآية (١١٠) من نفس السورة بصيغة المضارع؛ للتجدد، والاستمرار.

﴿وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾: ولم يقل: إلى الخيرات؛ أي: هم سارعوا في فعل الخيرات سابقاً، ومستمرون عليها، ويسارعون في زيادتها.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: وأولئك: اسم إشارة، واللام: للبعد يفيد علو درجتهم، وعلـو منزلتهم. من الصالحين: من جملـة الصالحين الذين أصلحوا أعمالهم عند ربهم، ورضي عنهم، واستحقوا ثناءَه، وأصلحوا استعمار الأرض، وكانوا قدوة لإصلاح غيرهم.

[١١٥] ﴿وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾:

﴿وَمَا﴾: الواو: عاطفة، ما: شـرطية، ﴿يَفْعَلُوا۟﴾: يقومـوا به من قولٍ أو عمل.

﴿مِنْ﴾: استغراقية تشمل الصغير، أو الكبير، أو القليل، أو الكثير، أو مهما كان نوعه.

﴿خَيْرٍ﴾: ما فيه نفع وصلاح الدِّين والدنيا.

﴿فَلَن﴾: الفاء: للتوكيد، لن: لنفي المسـتقبل القريب والبعيد، لن يكفروه قريباً أو بعيداً.

﴿يُكْفَرُوهُ﴾: مشـتقة من الكفر، وهو السـتر، والهاء: تعود على الخير؛ أي: لن يُستر عنهم، أو لن يحجب عنهم ثوابه؛ أي: سينالون ثوابه وافياً.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ﴾: بصيغة المبالغة على وزن فعيل، كثير العلم، لا تخفى عليه خافية، عليم بما يفعلونه ويقولونه.

﴿بِٱلْمُتَّقِينَ﴾: جمـع متقٍ، عليم بما يعملونه، ومن هم وليجازيهم على تقواهم. ارجع للآية (٢) من سورة البقرة.

❖ ❖ ❖

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم
مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾
مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا
صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ وَمَا
ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا
وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي
صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١١٨﴾
هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ
وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ
مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾
إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ
بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ
إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿١٢٠﴾ وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ
تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾

سورة آل عمران [الآيات ١١٦ - ١٢١]

[١١٦] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ﴾: ارجع إلىٰ الآية (١٠) من نفس السورة.

﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾: ارجع إلىٰ الآية (٣٩) من سورة البقرة.

[١١٧] ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾:

﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: مثل ما ينفق الذين كفروا في هذه الدنيا رياءً، وبدون إخلاص، وابتغاء السمعة، والمدح من الناس، وليس ابتغاء وجه الله؛ حتىٰ ولو تكرر إنفاقهم، وتجدد لن ينفعهم، ولن يقبل منهم، وشبهه الله كمثل ريح فيها صرٌّ.

﴿كَمَثَلِ﴾: الكاف: للتشبيه؛ أي: يشبه.

﴿رِيحٍ﴾: الريح في القرآن تحمل معنىٰ الشر والدمار، والعذاب بعكس الرياح التي تحمل الخير والبركة.

﴿فِيهَا صِرٌّ﴾: الصرُّ: هو البرد الشديد الزمهرير (ريح صرصر عاتية).

﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ﴾: الحرث: الزرع؛ أي: رزق قوم (جماعة من الناس).

﴿ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾: بالشرك، والكفر، والرياء، والمعاصي.

﴿فَأَهْلَكَتْهُ﴾: الفاء: للمباشرة، والتعقيب، أهلكته: قضت عليه، أو دمرته، أو جعلته حطاماً لا نفع منه.

﴿وَمَاظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾: بإهلاك حرثهم، أو بعدم قبول نفقاتهم؛ لأنهم كفروا بالله ورسوله، ولم يتوبوا إلى الله عزَّ وجلَّ، فكان ذلك سبب إحباط ثواب نفقاتهم.

﴿وَلَٰكِنْ﴾: حرف استدراك وتحقيق.

﴿أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾: بحبوط ثواب أعمالهم في الآخرة، أما في الدنيا فالله سبحانه يثيبهم، فما يقومون به من مشاريع خيرية مثلاً، أو إنشاء المدارس، أو التبرعات، فالله سبحانه يعطيهم أكثر منها في الدنيا، وتخلد أسماؤهم، وتقام لهم الذكريات والأعياد.

وفي هذه الآية قال سبحانه: ﴿وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، وفي آيات أخرى قال سبحانه: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة:٥٧، الأعراف:١٦٠].

يستعمل كانوا في سياق الأقوام الذين ماتوا، وانقرضوا، أو سياق الآخرة.

أما أنفسهم يظلمون: هم الآن في الدنيا، ولا زالوا على قيد الحياة (في سياق الدنيا)، فالسؤال هنا: عندما تهب ريح صرصرٍ هل تهب على هؤلاء القوم الكافرين وحدهم، أم تهب على الجميع الذين ظلموا أنفسهم، والذين لم يظلموا؟!

تهب على الجميع، فالذين ظلموا أنفسهم خسروا أموالهم وأنفسهم، وفي النار هم فيها خالدون، وأما الذين آمنوا، ولم يظلموا أنفسهم فعليهم الصبر والاحتساب، والإنابة، ولهم الثواب والأجر عند الله.

[١١٨] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: نداء جديد إلى الذين آمنوا، استعمل فيها الهاء؛ للتنبيه.

﴿لَا﴾: الناهية.

﴿تَتَّخِذُواْ﴾: الاتخاذ يعني: الجعل، أو التصيير؛ أي: لا تجعلوا.

﴿بِطَانَةً﴾: بطانة الرجل؛ أي: خاصته، وأصحابه المقربين الذين يسر إليهم أسراره، ويسمون كذلك وليجة، وبطانة: مشتقة من بطانة الثوب، وهي القماش الرقيق الذي يبطن به الثوب الداخلي، ويلتصق بجسم الإنسان، وشبه خاصة الرجل والمقربين إليه ببطانة الثوب؛ لأنهم قريبون منه يعرفون أسراره، وأعماله كقرب الثوب الباطن من صاحبه.

﴿مِّن دُونِكُمْ﴾: من غيركم؛ أي: لا تتخذوا بطانة لكم من غير المؤمنين؛ كاليهود والمنافقين تسرون إليهم أخباركم، أو تطلعوهم على أسراركم.

﴿لَا﴾: النافية.

﴿يَأْلُونَكُمْ﴾: أصل الألو: التقصير، يقال: ألا في الأمر؛ أي: قصر فيه.

الخبال: هو الشر، والفساد، وبث الأكاذيب، والنميمة، (وقيل: اختلال العقل).

﴿يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾: أي: لا يقصرون في أن يفعلوا كل ما يقدرون عليه ليوقعوا فيكم البلبلة، والفساد، والشر، وخلق الاضطراب، والاختلاف بينكم.

﴿وَدُّواْ﴾: من الود، وهو الحب الذي تمليه طباعهم، وقلوبهم.

﴿مَاعَنِتُّمْ﴾: ما: مصدرية، وتقديره: ودوا عنتكم بأي وسيلة، وأي نوع من العنت، وإلحاق الضرر، والمشقة بكم، عنتم: مشتقة من العنت: وهو الوقوع في أمر شاق، أو الضرر بكم.

إذن ودوا ما عنتم: أحبوا إلحاق الضرر بكم والمشقة، وإهلاككم.

﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق يفيد التوكيد.

﴿بَدَتِ﴾: ظهرت.

﴿ٱلْبَغْضَآءُ﴾:شدة الكراهية، وإذا اشتدت البغضاء تحولت إلىٰ شنآن، أو قِلىٰ.

﴿مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾: حيث تزل ألسنتهم بالخطأ من الشتم، والكذب، والمخالفة.

﴿وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ﴾: من الكراهية، والحقد، والعداوة.

﴿أَكْبَرُ﴾: أعظم مما يقولونه بألسنتهم بطريق الخطأ.

﴿قَدْ بَيَّنَّا﴾: قد: للتوكيد، بينا: أوضحنا وأظهرنا.

﴿لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾: الدلائل التي تهديكم إلىٰ سواء السبيل من عدم اتخاذهم بطانة لكم خاصة.

﴿إِن﴾: شرطية، وتفيد الشك، أو الندرة في الحدوث.

﴿كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾: أي: إذا كنتم ذوي عقول نيرة تفهم الآيات. ارجع إلىٰ سورة البقرة، آية (٤٤) والآية (٧٣)؛ للبيان.

وأمـــا إذا لم يظهر منهم بادرة، أو موقف من هـــذه المواقف العدائية، فالله ســـبحانه وتعالىٰ لا يمنعكم من أن تبروهم، وتقسطوا إليهم؛ حيث قال في سورة الممتحنـــة، آيـــة (٨): ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾.

[١١٩] ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ ۖ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾:

تســـتمر الآيات في التحذير من اتخـــاذ البطانة من غيـــر المؤمنين، وتبين الأسباب الداعية إلىٰ عدم اتخاذ البطانة، فيقول تعالىٰ:

﴿هَٰٓأَنتُمْ﴾: الهـــاء: للتنبيه، والتحذير لعباده المؤمنين، أنتم: ضمير منفصل يفيد التوكيد.

﴿أُو۟لَآءِ﴾: اسم إشـــارة للقرب حذف الهاء من أولاء وأصلها هؤلاء؛ لأن الموقف لا يحتاج إلىٰ الوعظ وإلىٰ التنبيه مرة أخرىٰ، واكتفىٰ بهاء التنبيه في كلمة ها أنتم.

﴿تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾: لأنهم أقرباء لكم، وبالنســـب، والصداقة، والخلة، أو تحبونهم طمعاً في إسلامهم، أو رحمة بهم، وهم لا يحبونكم. لا: النافية.

وانتبه إلىٰ قوله: تحبونهـــم، ولا يحبونكم، ولم يقل تحبوهم ولا يحبوكم، بل زاد نون التوكيد علىٰ حبكم الشـــديد لهم، وهم لا يبادلونكم أي حب، (وزاد نون التوكيد علىٰ عدم حبهم لكم).

وإذا قارنا قوله تعالىٰ: ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ﴾ في الآية (١١٩) التي جاءت في سياق اتخـــاذ البطانة، وبقوله في آية (٦٦) من آل عمران: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾: ففـــي قوله: ها أنتم هؤلاء: دخلت

هاء التنبيه على الضمير، وعلى اسم الإشارة في آن واحد مما يدل على أن التنبيه والتحذير وشدة اللوم هو أشد وأكبر في هذه الآية التي جاءت في سياق أهل الكتاب الذين يزعمون أن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً مقارنة بالذين اتخذوا بطانة من دون المؤمنين.

ولنقارن أربع آيات:

الآية (١١٩) من سورة آل عمران: ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ﴾: نجد تقديم هاء التنبيه على الضمير، وتأخير اسم الإشارة.

والآية (٨٥) من سورة البقرة: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾: نجد دخول هاء التنبيه على اسم الإشارة مع تقديم الضمير أنتم.

والآية (٦٦) من سورة آل عمران: ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ﴾: نجد دخول هاء التنبيه على الضمير، وعلى اسم الإشارة في آن واحد.

والآية (٨٤) من سورة طه: ﴿هُمْ أُوْلَآءِ﴾: لا نجد بها هاء داخلة على الضمير، ولا اسم الإشارة.

فلكل آية من هذه الآيات سياق مختلف من حيث شدة التحذير، والتنبيه؛ سنعود إليه حين دراستها.

﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾: وتصدقون بالكتاب. الباء: للإلصاق، وتعني: التمسك به. الكتاب: اسم جنس؛ أي: بكل الكتب السماوية المنزلة.

كله: توكيد للإيمان بكل الكتب، والدليل قوله سبحانه: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٨٥].

وحـذف وهم لا يؤمنون؛ حيث كان الأصل في الآيـة: وتؤمنون بالكتاب كله، وهم لا يؤمنون.

﴿وَإِذَا﴾: ظرفية للزمن المسـتقبل، وتتضمن معنىٰ الشرط، وتفيد حتمية الحدوث.

﴿لَقُوكُمْ﴾: مـن اللقاء، وهو المواجهـة، والتحدث، والفـرق بين اللقاء والاجتماع: الاجتماع قد يكون في مكان ما، والكل موجود، ولا يجري اتصال، أو حديث بينهم. أما اللقاء: فهو اجتماع وحديث معاً.

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾: أي: صدقنـا بما جاء به محمد ﷺ، قالـوا آمنا حذراً علىٰ أنفسهم، وهذه حال المنافقين.

﴿وَإِذَا خَلَوْاْ﴾: أي: خلا بعضهم ببعض، أو خلوا إلىٰ رؤسـائهم؛ بحيث لا يراهـم المؤمنون، خلا به، وخلا إليه، وخلا معه، وخلا: سـأله أن يجتمع به في خلوة ففعل (خلا معه)، وخلا قد تعني: مضىٰ وذهب.

﴿عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾: الأنامل: جمع أنملة رأس الأصابع كلها.

وعض الأنامل: عادة يعض علىٰ رأس الأنملة، ولا يعض الأنامل كلها، بل أنملة واحدة.

ولكنه اسـتعمل الأنامل بدلاً من الأنملة (مجازاً) دليلاً علىٰ شـدة الغيظ، والحقد، والندم.

وعضوا عليكم الأنامل: لأنهم لم يستطيعوا إلحاق الضرر والأذىٰ بكم.

أو عضوا من شدة الغضب لما يرون من ائتلافكم، ووحدتكم.

﴿ٱلْغَيْظِ﴾: قيل هو أشد من الغضب، والغيظ: هو الهيجان، وثورة النفس؛

لعدم القدرة على التشفي، والانتقام، والثأر بسبب سوء لحقه من الغير. ارجع إلى سورة التوبة، آية (١٥)؛ لمزيد من البيان.

﴿قُلْ﴾: لهم يا محمد ﷺ.

﴿مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾: قل استمروا على غيظكم حتى الممات، أو موتوا وأنتم فيما أنتم عليه من الغيظ؛ لأن الله سبحانه متم نوره، ومظهر دينه.

والباء تفيد الإلصاق، موتوا والغيظ ملتصق بكم، أو ملازم لكم لا ينفك عنكم.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾: إن: للتوكيد، عليم: مطّلع ورقيب على كل نفس، ويعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصدور.

بذات الصدور: تعني القلوب (القلب في الصدر).

ذات الصدور تعني: كل المعتقدات، والحقائق، والأحاسيس، والخواطر من نفاق، وإيمان، وحسد، ومكر، وكراهية، وحب، فهذه الأمور التي تعيش وتصاحب الإنسان تصبح كالصاحب الذي لا يفارق صاحبه، فلكونها ملازمة، أو مصاحبة لصدر الإنسان؛ أي: قلبه (تجول وتعيش فيه) تسمى ذات الصدور، وإن لم تخرج بعد إلى الناس.

[١٢٠] ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾:

﴿إِن﴾: شرطية تدل على الاحتمال، أو ندرة الحدوث.

﴿تَمْسَسْكُمْ﴾: تمسسكم من المس: وهو اللمس الخفيف، مجرد التقاء الماس بالممسوس، والمس يكون في الخير، أو الشر.

﴿حَسَنَةٌ﴾: نكرة؛ أي: حسنة، والحسنة: ما يسرّ النفس، وكل ما يستحسنه الإنسان من فوز، أو غنيمة، أو نصر، أو رزق، أو الدخول في الإسلام، ومهما كانت صغيرة، أو كبيرة، ومهما كان نوعها. ارجع إلىٰ سورة البقرة، آية (٢٠١)؛ لمزيد من البيان.

﴿تَسُؤْهُمْ﴾: تحزنهم، وتزعجهم؛ أي: مجرد أن تمسكم، ولو كان مسّاً طفيفاً تحزنهم، وتزعجهم.

﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ﴾: وإن: شرطية تدل علىٰ الاحتمال، أو ندرة الحدوث.

تصبكم: ولم يقل: تمسسكم، كما قال في شأن الحسنة، وإنما قال تصبكم، والإصابة أشد، وأسوأ من المس، فهم يبغون لكم الإصابة بالسيئة؛ لأن المس في نظرهم لا يكفي، بل لا بد من أن يكون شديداً إلىٰ درجة الإصابة الشديدة حتىٰ ﴿يَفْرَحُوا بِهَا﴾: يفرحوا بذلك، أما إن كان مجرد المس الخفيف لما فرحوا والسيئة قد تكون الفقر، أو الهزيمة، أو الجوع، أو الخوف، أو الكل معاً.

﴿وَإِن تَصْبِرُوا﴾: الواو: عاطفة، إن: شرطية تفيد الاحتمال، تصبروا: علىٰ أذاهم وحقدهم، وغيظهم، وعلىٰ ما أصابكم في سبيل الله، وتصبروا علىٰ طاعتكم. ﴿وَتَتَّقُوا﴾: الله في موالاتهم، وتتقوا الله بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه.

﴿لَا﴾: النافية، والكيد اسم لفعل المكروه بالغير.

﴿يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ﴾: يضركُم: بضم الكاف، وفي قراءة أخرىٰ لا يضركَم بفتح الكاف، والأكثر شيوعاً هي القراءة بفتح الكاف؛ لأن الفتحة أخف الحركات، والضمة أثقل الحركات، فعند القول بالفتح معنىٰ انظر لا يذكر قليل جداً، وأما بالضم يضركُم كما في هذه الآية تعني هناك ضر، أو أذىٰ سوىٰ يصيبكم، ولكن لا

يضركُم كثيراً، ومجيئها بالفتح، أو الضم؛ للدلالة على أن هناك حالات شديدة من الضر وحالات أخف، وليس ما يعانيه الأفراد بمستوى واحد، أو من نوع واحد، والكيد هو التدبير الخفي للضرر بالغير، وهو احتيال على إيقاع الضرر بالغير؛ بحيث يبدو أنه غير مدبر، والضُّر: ما يصيب البدن من السقم، أو الأمراض، أو الجوع، والضَّر: بفتح الضاد: ضد النفع.

﴿شَيْـًٔا﴾: للتوكيد على عدم ضر الكيد، والشيء هو أقل القليل، وشيئاً نكرة؛ أي شيء مهما كان نوعه، أو شدته، والشيء: كل ما يعلم ويخبر عنه سواء أكان حسياً أم معنوياً.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾: إن: للتوكيد، بما: الباء: للإلصاق، ما: اسم موصول، أو حرف مصدري.

إن الله عالم بكل شيء، ومحيط به إحاطة تامة من كل الجوانب، محيط به بقدرته، وعلمه، وقادر على إحباطه إن شاء، فالله سبحانه محيط بما يعمل الكافرون، وهو أيضاً محيط بالكافرين أنفسهم، ومحيط بأقوالهم وأفعالهم.

وهذه الآية تحث المؤمنين على الصبر، والتقوى على أذى الكافرين، والمشركين حتى يأتي الله بأمره بالنصر، أو الفتح من عنده.

[١٢١] ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾:

يجب الانتباه أن في سورة آل عمران (٦٠) آية تتحدث عن غزوة أحد تبدأ بهذه الآية: وإذ غدوت من أهلك إلى الآية (١٨٠).

﴿وَإِذْ﴾: واذكر إذ ظرف زماني للماضي، أو تعني: واذكر حين.

﴿غَدَوْتَ﴾: الغدوة: هي أول النهار (ما بين طلوع الفجر، وطلوع الشمس).

﴿مِنْ﴾: لابتداء الغاية.

﴿أَهْلِكَ﴾: الأهل هم الزوجة، والأولاد (غدوت من حجرة عائشة).

﴿تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: تبوئ: توطن المؤمنين في أماكن القتال، أو تنزل المجاهدين في أماكن قتالهم يقال: بوأته، وبوأت له منزلاً؛ أي: أنزلته فيه.

﴿مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾: أماكن يقفون فيها للقتال يوم أحد، وهم يومئذٍ خمسون رجلاً هم الرماة وأميرهم هو عبد الله بن جبير.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: سميع لما قاله بعض المؤمنين حين شاورتهم في الخروج خارج المدينة للقتال، فقالوا: لا تخرج إليهم، وابقَ في المدينة حتىٰ يدخلوها علينا، والذين قالوا: لنخرج عليهم حتىٰ نلقاهم خارج المدينة المنورة، والله سبحانه عليم وسميع بكل قول، ونية، وفعل، ومن أخطأ، أو أصاب، ومن أخلص، ومن نافق.

❖❖❖

إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى
ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ
أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ
أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ
مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ
هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ
﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا
ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا
مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ
مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ
﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ
وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ
﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾

سورة آل عمران [الآيات ١٢٢ - ١٣٢]

[١٢٢] ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾:

﴿إِذْ﴾: ظرف زماني بمعنىٰ: واذكر حين، أو متعلق بالآية السابقة سميع عليم؛ أي: عليم إذ همت.

﴿هَمَّت﴾: من الهم: وهو حديث النفس نحو عملٍ ما، أو الخاطر الذي يجول في عقل الإنسان، وقد يتحول أخيراً إلىٰ قصدٍ وعزم.

﴿طَّآئِفَتَانِ﴾: الطائفة: جماعة من الناس تؤمن بنفس الأفكار، أو تطوف حول أفكار واحدة، أو عقيدة واحدة.

والفرق بين الطائفة والفئة:

الطائفة: جماعة تؤمن بنفس الأفكار، أفكارها موحدة.

الفئة: جماعة من الناس لا تستطيع أن تحمي نفسها إلا إذا فاءت إلىٰ فئة أخرىٰ؛ لتحميها، والفئة تحمل معنىٰ الحماية، أو النصرة، أو القتال.

طائفتان: هما بنو حارثة من الأوس، وبنو سلمة من الخزرج في طريقهما إلىٰ معركة أحد؛ إذ هموا بالانسحاب، والعودة إلىٰ المدينة عندما رأوا تخاذل عبد الله بن أُبي رأس المنافقين مع أصحابه، وكانوا حوالي ثلاثمئة رجل، فقالوا: علام نقتل أنفسنا وأولادنا؛ مما أدَّىٰ ببني سلمة، وبني حارثة علىٰ التفكير بالانسحاب، ولكن لم يحدث ذلك حيث عصمهما الله تعالىٰ.

﴿أَن﴾: حرف مصدري يفيد التوكيد.

﴿تَفْشَلَا﴾: من الفشل هو الخور والانسحاب، ولكنهم ثبتوا وساروا إلى أرض المعركة.

﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾: والله متولي أمورهما وناصرهما.

الولي: هو الذي يواليك، ويُعينك حين الحاجة، أو الخوف، وينصرك إذا كان قادراً على ذلك، ولذا عصمهما من عدم الرجوع، وترك النبي مع القليل من أصحابه في أرض المعركة.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: وعلى الله تقديم الجار والمجرور لفظ الجلالة يدل على الحصر، حصر التوكل على الله وحده لا غيره.

التوكل: الاعتماد على الله في كافة الأمور الدِّينية والدنيوية، وهو عمل قلبي.

والتوكل: يعني تفويض الأمر لصاحب الأمر، وهو الله تعالى، والاستعانة به بعد تقديم الأسباب. ارجع إلى سورة الأعراف آية (٨٩) لمزيد من البيان.

وفي هؤلاء المنافقين الذين رجعوا عن رسول الله ﷺ يوم أحد نزل قول الله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّا ٱتَّبَعْنَٰكُمْ﴾ [آل عمران:١٦٧].

ونزل أيضاً قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران:١٧٩].

[١٢٣] ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾:

ينتقل الله تعالى في هذه الآية ليذكر بفضله على المؤمنين بالنصر يوم بدر

الذي حدث في السابع عشر من رمضان، وكان جيش العدو عددهم يقرب من الألف، وجيش المسلمين (٣١٤ رجلاً).

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾: الواو: استئنافية، لقد: اللام: للتوكيد، وقد: للتحقيق.

﴿بِبَدْرٍ﴾: الباء: باء الإلصاق؛ أي: وأنتم موجودون في بدر، وبدر: اسم مكان بين مكة والمدينة، وكان فيه بئر بدر، ويبعد عن المدينة بنحو (١٥٠ كيلومتراً).

﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾: أذلة: جمع ذليل، وأنتم تعني: المؤمنين قبل المعركة، معركة بدر أنتم أذلة. والذليل: وهو من لا منعة له، ولا قوة (كناية عن قلة عددهم، وعدتهم، وضعف حالهم).

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾: ائتمروا بطاعة الله، وتجنبوا محارمه، وكذلك أطيعوا الرسول، واصبروا واثبتوا معه، ولا تخالفوا أمره.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: أي: لتكونوا من الشاكرين، والشكر يكون عادة على النعمة، أو العطاء الواصل للعبد، ويكون باللسان والجوارح كما قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾، لعل: هنا للتعليل، فالطاعة، والصبر، والثبات من مظاهر الشكر على النعمة. ارجع إلى سورة الأعراف، آية (١٠)؛ لمزيد من البيان.

[١٢٤] ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾:

﴿إِذْ﴾: واذكر إذ قلت، وأبدلها بفعل مضارع: ﴿تَقُولُ﴾: ليدل على حكاية الحال.

﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾: اللام: لام الاختصاص، والمؤمنون: هم الصحابة.

﴿أَلَن﴾: الهمزة همزة استفهام إنكاري، إنكار أن لا يكفيهم الإمداد بثلاثة آلاف من الملائكة، وجاء بلن الذي هو لتأكيد النفي.

﴿يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾: من السماء.

اختلف المفسرون في قوله: إذ تقول للمؤمنين ﴿يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ﴾: هل هذا كان يوم بدر، أم يوم أحد على قولين:

فالذين قالوا كان هذا يوم أحد: قالوا كان هذا وعد لهم بالمدد المذكور من الملائكة على شرط الصبر، والتقوى، فلما لم يصبروا ولم يتقوا وخالفوا ما أمرهم به رسول الله ﷺ، فلم يمددهم الله لا بثلاثة، ولا بخمسة، ولم تنزل الملائكة، ولو نزلت الملائكة لما انهزموا في أحد.

والذين قالوا: كان هذا يوم بدر أمدهم بألف من الملائكة يوم بدر، ثم زادهم إلى (٣ آلاف)، ثم خمسة آلاف؛ لأنهم صبروا واتقوا، كما ذكره تعالى في سورة الأنفال آية (٩).

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾.

فهذه الألف نزلت فعلاً، وقاتلت مع المؤمنين، وشوهد ذلك يقيناً.

خلاصة القول ـ والله سبحانه أعلم ـ: ومن المحتمل أن هذه الآيات (١٢٢-١٢٧) من آل عمران نزلت في سياق معركة بدر؛ لتذكر المسلمين بنصرهم يوم بدر.

وكذلك الآيات في سورة الأنفال تتحدث عن بدر؛ أي: هناك مشهدين لمعركة بدر، ولا شك باقي الآيات في سورة آل عمران تتحدث عن معركة أحد،

كما سنرى. ارجع إلى سورة الأنفال آية (٩) لمزيد من البيان المفصل عن جمع بين الآيات في سورة آل عمران والأنفال والفرق بين المد والإمداد.

[١٢٥] ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾:

﴿بَلَىٰٓ﴾: إذا وقعت عند النفي تفيد إثبات ما بعدها؛ أي: يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة.

﴿إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾: إن: شرطية، تصبروا: على لقاء العدو، وتتقوا: ربكم تأتمروا بأوامره، وتتجنبوا نواهيه، وتتقوا المعاصي، ومخالفة النبي ﷺ، وتثبتوا مع رسوله.

﴿وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ﴾: أي: ويأتيكم المشركون من ساعتهم هذه (أي: الآن) لقتالكم.

﴿هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾: يمدكم بخمسة آلاف من الملائكة المسومين، ويمددكم من الإمداد، وأكثر ما يستعمل في المحبوب، والمد أكثر ما يستعمل في المكروه.

مسومين: مُعلِمين أنفسهم، أو خيلهم. عليهم عمائم بيض، أو صفر، وخيلهم معلمة في أذنابها ونواصيها.

[١٢٦] ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾:

﴿وَمَا﴾: الواو: عاطفة، ما: نافية.

﴿جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾: الهاء تعود على الإمداد، والله سبحانه قادر على النصر بدون الإمداد بالملائكة، أو أي شيء.

﴿إِلَّا﴾: حصراً.

﴿بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾: أي: هذا الإمداد فيه بشرى لكم، والبشارة هو أول ما يصل إليك من الخبر السار، وفي الآية (١٠) في سورة الأنفال قال تعالى: ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾ حذف لكم؛ لأن الآية في الأنفال تقدمها قوله لكم في الآية (٧) مرتين.

إذن: من هذه الآية نعلم أن حضور الملائكة المعركة، وعددهم سواء كثر، أو قل هو مجرد بُشرى؛ لأن النصر الحقيقي هو من عند الله العزيز الحكيم.

﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾: اللام للتأكيد، لتسكن وتهدأ قلوبكم به؛ أي: بالإمداد، وفي الآية (١٠) في سورة الأنفال قال تعالى: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾ قدم به على قلوبكم بعكس آية آل عمران.

﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا﴾: الواو: عاطفة، ما: النافية، إلا: حصراً ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

﴿ٱلْعَزِيزِ﴾: القوي الذي لا يغلب، ولا يُقهر، والممتنع لا يضره أحد.

﴿ٱلْحَكِيمِ﴾: الذي ينصر من يشاء، ويمنع النصر عمن يشاء حسب ما تراه حكمته.

وفي هذه الآية التي نزلت بخصوص غزوة أحد قدَّم القلوب على الإمداد للاهتمام؛ لأن القلوب في غزوة أحد كانت حزينة مجروحة وخائفة.

وأما في آية الأنفال (١٠) التي نزلت بخصوص غزوة بدر قدَّم الإمداد على

القلوب في غزوة بدر، فقال: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾؛ لأن الإمداد كان هو المهم والمنتظر.

ولنقارن بين هاتين الآيتين، الآية (١٢٦) من سورة آل عمران، والآية (١٠) من سورة الأنفال:

آل عمران آية (١٢٦): ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ الآية نزلت في غزوة أحد، وآية الأنفال نزلت في غزوة بدر، وغزوة بدر وقعت قبل أحد فبين في بدر (آية الأنفال) أن النصر إلا (حصراً) من عند الله إن الله عزيز حكيم أكد بـ(إن)؛ أي: ليس النصر بالعدد والعدة، وإنما هو من عند الله وحده سبحانه، وعلل النصر بعزته وحكمته، وفي آية آل عمران في وقعة أحد قال إلا من عند الله العزيز الحكيم بأل التعريف؛ أي: الذي تعرفونه سابقاً من غزوة بدر.

الأنفال آية (١٠): ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

الخلاصة: في آل عمران (غزوة أحد)، ولتطمئن قلوبكم به (يعني به الإمداد) قدَّم القلوب في أحد؛ لأن القلوب حزينة مجروحة، وخائفة، والقلوب أهم من الإمداد.

في الأنفال (غزوة بدر): ولتطمئن به قلوبكم (هنا قدَّم الإمداد على القلوب؛ لأن القلوب مطمئنة بالنصر الذي وُعدوه وهم ينتظرون الإمداد الإلهي).

في آل عمران: لم يؤكد، وقال: إلا من عند الله العزيز الحكيم، أما في الأنفال أكد وقال: إن الله عزيز حكيم.

في آل عمران: قال: بشرىٰ لكم، وفي الأنفال: لم يأت بذكر لكم؛ لأن سبقها ذكر لكم مرتين:

الأولىٰ: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾ [الأنفال:٧].

والثانية: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾ [الأنفال:٩].

وحذف لكم؛ لأنه مفهوم من الآيات السابقة.

[١٢٧] ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ﴾:

﴿ لِيَقْطَعَ ﴾: اللام: لام التعليل؛ ليقطع بالقتل والأسر.

﴿طَرَفًا﴾: طائفة من الذين كفروا، وهو ما كان يوم بدر من قتل (٧٠) وأسر (٧٠) من رؤساء قريش، ومن هنا: ابتدائية.

﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ ﴾: من الكبت: أصل الكبت هو الخزي والإذلال؛ أي: يخزيهم ويذلهم بالهزيمة والخيبة والأسر.

﴿فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ﴾: جمع خائب، والخائب الذي لم ينل ما أمّل، والخيبة لا تكون إلا بعد أمل، واليأس قد يكون بغير أمل.

فينقلبوا خائبين: يرجعوا إلىٰ ديارهم مهزومين، لم ينالوا ما كانوا يأملون من النصرة والعزة.

[١٢٨] ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾:

﴿ لَيْسَ لَكَ ﴾: للنفي. لك: اللام: لام الاختصاص، والكاف: للمخاطب، وهو محمد ﷺ؛ أي: ليس لك يا محمد من الأمر شيء.

﴿مِنَ﴾: استغراقية، تستغرق كل شيء.

﴿ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾: الأمر؛ يعني: هزيمة، أو نصر؛ أي: الله مالك أمرهم، إما يهلكهم أو يعذبهم، أو يتوب عليهم إن أسلموا ليس عليك إلا البلاغ والإنذار، وليس موكلاً إليك قبول توبتهم، أو تعذيبهم.

شيء: نكرة، أي شيء مهما قل، أو كثر، ومهما كان نوعه، وإنما أنت مبعوث لإنذارهم فقط، فالله هو الذي يتوب، ويعذب، وينصر، ويغلب.

وليس لك شيء، ولا تدع عليهم، ولا تتألم لقرارك بالخروج خارج المدينة إلى أُحد لقتالهم وهو ليس السبب في الهزيمة في أحد، وأنت لست مسؤولاً عما حدث في أُحد، فهو تدبير العزيز الحكيم.

﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾: حين خرجوا لقتالك، أو للدفاع عن الشرك والباطل. فإنهم: الفاء: للتوكيد، وإن: للتوكيد كذلك، ظالمون: لأنفسهم، وظالمون لغيرهم، ومشركون، وصفة الظلم ثابتة عندهم. ارجع إلى سورة البقرة، آية (٥٤) لبيان معنى الظلم.

[١٢٩] ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

﴿وَلِلَّهِ﴾: الواو: عاطفة، لله: لام الاختصاص، وتقديم الجار والمجرور لفظ الجلالة يفيد الحصر؛ أي: ما في السموات وما في الأرض حصراً له وحده، لا يشاركه أحد في ملكه وحكمه.

﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾: ملكاً، وخلقاً، وحكماً، وتدبيراً لله وحده.

ما في السموات: كظرف وما فيها كمظروف.

وما في الأرض كظرف وما فيها كمظروف.

وما في السموات لوحدها، وما في الأرض لوحدها، وما في كليهما معاً له وحده.

﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾: يحكم في السموات والأرض بما يشاء، فيغفر: يمحو ويستر ذنوب من يشاء من عباده، ويصفح ويعفو بالتوبة.

﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾: بحكمه وعدله، ففي هذ الآية قدم المغفرة على العذاب للترغيب والبشارة، وأما في آية (٤٠) في سورة المائدة وهي قوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ قدم العذاب على المغفرة؛ لأن السياق في السرقة، وقدم العذاب للترهيب والحذر من السرقة.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: صيغة مبالغة من غفر؛ أي: كثير الغفران يغفر الذنوب جميعاً إلا الشرك مهما كانت وتنوعت وكثرت.

رحيم: على وزن فعيل؛ أي: يؤخر العذاب والعقاب، ورحيم بعباده المؤمنين دائماً وأبداً في الدنيا والآخرة.

[١٣٠] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾:

المناسبة: نجد أن الله سبحانه وتعالى يتوقف عن الحديث عن الغزوة، وينتقل إلى الحديث عن الربا، فهل هناك علاقة بين معركة أحد والنهي عن الربا؟

لقد كان من أسباب الهزيمة في أحد هو ترك الرماة مواطنهم في جبل أُحد رغم أن رسول الله ﷺ حذرهم وأوصاهم بعدم فعل ذلك مهما كان الأمر.

ولكن الصحابة (الرماة) عصفت بهم شهوة الغنائم حين ظنوا أن المسلمين قد انتصروا في بداية المعركة، وطمعوا في المال والغنائم، فتركوا مواقعهم إلا العدد القليل الذين استجابوا لدعوة الرسول، وبقوا في أماكنهم؛ مما أدَّىٰ إلىٰ هزيمتهم، وقتل الكثير منهم، وتعرضهم للهلاك، فطمعهم في الغنيمة، والغنيمة مال زائد، والربا كذلك، ولذلك ذكر الربا.

أو يذكرنا الله تعالىٰ بترك الربا، وبذل المال الحلال في سبيل الله، فهذه الغزوات تحتاج إلىٰ تضحية ومال طيب حلال.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾: نداء إلىٰ الذين آمنوا بتكليف جديد وأمر جديد.

﴿لَا ﴾: الناهية.

﴿تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ ﴾: تأخذوا وشبه أخذ الربا بالأكل. ارجع إلىٰ الآية (٢٧٥) من سورة البقرة؛ للبيان. وهذا يسمىٰ المجاز المرسل، والربا ربا الفضل، وربا النسيئة.

﴿أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ﴾: لا تأخذوا؛ أي: تأكلوا الفائدة المركبة مع مرور الزمن. وما كان عليه الحال في الجاهلية كانوا يؤخرون الدَّين ويزيدون مقابل التأخير الفائدة حتىٰ تتضاعف الفوائد.

١ - في الجاهلية كان إذا حل أجل الدَّين يسألون الذي عليه الدَّين إما أن

تقضي، وإما أن تُربي؛ فإن لم يقضِ زاد عليه الفائدة، وهكذا عام بعد عام يتضاعف مبلغ الربا، ويصبح أضعافاً مضاعفة.

٢ - أضعافاً مضاعفة إذا قارنته برأس المال، مثال: إذا أودعت مبلغاً من المال مثل (١٠٠٠ درهم) بفائدة (١٠٪) بعد سنة يصبح المبلغ (١١٠٠ درهم)، ثم تترك (١١٠٠ درهم) سنة أخرىٰ تصبح (١٢١٠) وهكذا أي: تأخذ فائدة علىٰ رأس المال، وعلىٰ الفائدة، وهذا يسمىٰ بالربح المركب، فالأضعاف تتضاعف، ويصبح رأس المال الذي بدأت به شيء قليل لا يذكر ضعيف أمام المضاعفة التي حصلت من جراء تراكم الفائدة واستثمارها.

ومال الربا قل أو كثر هو حرام، ولا يقصد هنا أن الربا المضاعف أضعافاً كثيرة هو الحرام فقط، والربا القليل أو البسيط ليس حراماً، فالكل حرام.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: أطيعوا أوامر الله، وتجنبوا ما نهاكم عنه.

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: لعلكم: للتعليل، تفلحون: أي: اتقوا الله لتفحلوا في دنياكم وآخرتكم، ومعنىٰ الفلاح. ارجع إلىٰ الآية (٥) من سورة البقرة.

في الدنيا وفي الآخرة بالفوز برضوان الله وجنته.

[١٣١] ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾:

وهنا زاد التأكيد والتحذير من الربا الذي يؤدِّي إلىٰ النار.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾: أي: اجعلوا بينكم وبين النار وقاية (حاجزاً)، وذلك بالالتزام بطاعة الله فيما أمر، أو نهىٰ عنه.

﴿ٱلَّتِيٓ﴾: اسم إشارة.

﴿أُعِدَّتْ﴾: أعـدت: تعني بعديد من أنواع العـذاب؛ أي: هيئت للمرابين الذين يأكلـون الربا، وهذا دليل علىٰ النار مخلوقـة الآن ولغيرهم من الكفار والمشركين والمنافقين والمجرمين والعاصين.

﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾: ولـم يقل: أعدت للذين يأكلون الربـا؛ لأن هؤلاء من زمرة الكافرين.

[١٣٢] ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾:

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾: فـي كل أمر ونهي وتحذير، ولم يقل: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ كما في آية النساء (٥٩)؛ ارجع إلىٰ سورة النساء آية (٥٩) للبيان.

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾: رجـاء رحمـة الله، ولترحمـون: يجب الأخذ بالأسـباب الموصلة إلىٰ الرحمة، وطلب الرحمة من الله؛ أي: رجاء رحمة الله، والدعاء ترحمون في الماضي، والمستقبل، والحاضر، رحمة تتجدد وتتكرر.

ارجع إلـىٰ الآية (٣٢) من نفس السـورة؛ لمزيد من البيـان. أطيعوا الله والرسـول. ارجع إلىٰ سورة الإسراء، آية (٨)؛ لمزيد من البيان لعلكم ترحمون، وعسىٰ ربكم أن يرحمكم.

❖ ❖ ❖

۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا
ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ
فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ
عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا
فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ
لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ
مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ
مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ
فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ
فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ
١٣٧ هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ١٣٨
وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ
١٣٩ إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ
وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٠

سورة آل عمران [الآيات ١٣٣ - ١٤٠]

[١٣٣] ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾:

﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾: الواو: عاطفة، فهذه الآية معطوفة على ما قبلها من الآيات، واتقوا، وأطيعوا، وسارعوا.

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾: بترك الربا حالاً، والسرعة هي الجري بسرعة إلى طلب المغفرة.

والسرعة لا تعني العجلة؛ لأن العجلة مذمومة في معظم الأحوال؛ إلا في دفن الميت، والتوبة، والزواج للبكر، وأداء الأمانة مثلاً، والسرعة مطلوبة من كل إنسان في الإنابة، والتوبة، والاستغفار (طلب المغفرة).

وهناك فرق بين المسارعة والمسابقة (أو السباق).

المسابقة تحتاج إلى أكثر من فاعل، فلا بد من اثنين، أو أكثر لتتم المسابقة، أما المسارعة فقد تتم بواحد.

وسارعوا إلى: إلى: حرف غاية، والغاية هي المغفرة.

والمغفرة: مشتقة من الغفر، والغفران؛ أي: الستر ستر الذنوب، وبالتالي العفو عنها.

سارعوا إلى مغفرة من ربكم: ومغفرة نكرة؛ أي: مغفرة صغيرة وكبيرة؛ أي:

سارعوا إلىٰ موجبات المغفرة وأولها هي الإسراع بالتوبة، والإنابة إلىٰ الله، وترك الذنب، وكثرة الاستغفار، والإكثار من العمل الصالح، وفعل الخير.

من ربكم: الرب المربي المتولي بتدبير أموركم الذي خلقكم، ورزقكم، ورباكم.

﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾: وسارعوا إلىٰ جنة: نكرة؛ لأن هناك جنات كثيرة: جنات عدن، جنات الفردوس، جنات النعيم وغيرها. سارعوا إلىٰ أي جنة من هذه الجنات، والإسراع يعني إلىٰ موجبات الدخول في الجنة؛ كالقيام بالعمل الصالح، والإيمان وطاعة الله ورسوله.

جنة عرضها السموات والأرض: عرضها السموات السبع والأرض، فما طولها؟ لا يعلمه إلا الله.

﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾: اللام: لام الاختصاص، والاستحقاق (الملكية). أعدت: هيئت وأحضرت، فهي الآن موجودة ومخلوقة، وتنتظر أهلها.

المتقين: جمع متقٍ، والمتقي هو من أطاع أوامر الله، وتجنب ما نهىٰ الله عنه.

ولا بد من مقارنة هذه الآية (١٣٣) من آل عمران مع الآية (٢١) من سورة الحديد؛ لنرىٰ الكثير من الفروق:

آل عمران (١٣٣): ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

الحديد (٢١): ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾.

الاختلاف الأول: آية سورة آل عمران: تخاطب المتقين، وتحثهم بأن يسارعوا إلىٰ مغفرة من ربهم وجنة.

بعد أن طلب منهم التقوىٰ: ﴿فَٱتَّقُواْ﴾، وطاعة الله ورسوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾.

وبدأ بواو العاطفة.

آية سورة الحديد: تخاطب الذين آمنوا بالله ورسله، وهم أقل درجة من المتقين في الإيمان.

ولكن الذين آمنوا بالله ورسله أكثر عدداً من المتقين، وتحثهم علىٰ المسابقة إلىٰ مغفرة من ربهم وجنة بعد أن بين لهم أن الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة.

الاختلاف الثاني: في آية سورة آل عمران: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

في آية سورة الحديد: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾.

الجنة التي عرضها كعرض السماء والأرض أوسع، أو أكبر من الجنة التي عرضها السموات والأرض؛ لأن السماء أوسع وأكبر من السموات، فالسماء تشمل السموات السبع وغيرها.

وبما أن عدد الذين آمنوا بالله ورسله أكثر من المتقين فهم يحتاجون إلىٰ مكان أوسع، ولذلك ناسبهم قوله تعالىٰ: كعرض السماء والأرض.

والمتقون أقل عدداً ناسبهم جنة عرضها السموات والأرض (أقل مساحة من السماء والأرض).

[١٣٤] ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾:

أعدت للمتقين الذين من صفاتهم الإنفاق، وكظم الغيظ، والعفو عن الناس، والإحسان.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾: جاء بالفعل المضارع الذي يدل على التجدد، والاستمرار في الإنفاق.

الذين: اسم موصول يفيد المدح والتعظيم.

﴿فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾: في الغنى واليسر، والضراء: هو البلاء الذي يصيب البدن خاصة مثل المرض والسقم والفقر؛ ينفقون بكثرة في السراء والضراء.

﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾: الكاظمين: جمع كاظم، والكظم: هو حبس الغيظ في الصدر مع القدرة على إمضائه؛ أي: إخراجه وإظهاره للغير.

والغيظ: هو غم أو هيجان النفس بسبب سوء لحق بها من الغير؛ أي: هو ألم شديد يحدث في النفس عند الاعتداء عليها بسبب مادي حسي أو معنوي. ارجع إلى سورة التوبة، آية (١٥)؛ لمزيد من البيان.

وأصل الكظم مشتق أن تملأ القربة (وعاء لنقل الماء عند العرب قديماً)، وهو جلد مدبوغ فإذا ملئت بالماء شد على رأسها، أي: رُبط على فتحتها ربطاً محكماً بحيث لا يخرج من الماء شيءٌ، ويقال عن هذا الفعل كظم القربة؛ أي: ملأها وربطها، ومن ليونة القربة يحاول الماء أن يخرج منها دائماً، وكذلك الغيظ: فهو يشبه الماء في القربة، والقربة هي النفس البشرية.

يريد الله منا أن نُحكم ونربط ونكظم النفس البشرية؛ كي لا يخرج منها الغيظ، كما نربط ونكظم القربة.

﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾: العفو: ترك العقوبة على الذنب.

العفو: ترك عقوبة من أذنب، وعدم مؤاخذته مع القدرة على الأخذ بالعقوبة، أو عدم العفو، ولا يقتضي إيجاب الثواب.

أما الغفران: فهو ترك العقوبة (يسقط عنه العقاب)، ويعطيه ثواباً على أعماله الصالحة (أي: الغفران= العفو+ الثواب).

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: الله يحب كل محسن بما فيهم هؤلاء المتقين الكاظمين، والعافين عن الناس، فهؤلاء وصلوا مرحلة الإحسان.

وللمزيد عن الإحسان ارجع إلى الآية (١١٢) من سورة البقرة.

[١٣٥] ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾:

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟﴾: إذا: ظرفية شرطية.

﴿فَٰحِشَةً﴾: أي: المعاصي والذنوب وتشمل الكبائر؛ (أي: كل كبيرة)، وقيل: الفاحشة الأمر القبيح المنكر من الأفعال والأقوال، وكثيراً ما استعملت في الزنى، أو اللواط، وعبادة الأصنام، ومعصية الرسول، وتعني: القذف، والإفك، وغيرها، والفاحشة قد يكون لها حد كحد الزنى، واللواط.

﴿أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾: بعمل الصغائر من الذنوب، أو فعلوا ذنباً دون الفاحشة، وظلم النفس هو الذنب الذي يقتصر أثره على الفاعل، وظلم النفس بأن يوردها العذاب، أو العقاب، أو موارد التهلكة.

﴿ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾: بألسنتهم وقلوبهم؛ أي: تذكروا نهي الله للقيام بتلك الأعمال، أو تذكروا وعيده فخافوا الله ولاموا أنفسهم.

﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ﴾: الفاء: تدل على سرعة الاستغفار والتوبة، والندم، وعدم العودة إلى ما فعلوه، واستغفروا الله لذنوبهم.

﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾: ومن: استفهام يقصد منه النفي؛ أي: لا يغفر الذنوب إلا الله، وهذا من فضله وإحسانه، وكرمه أنه يغفر الذنوب جميعاً؛ إلا الشرك والكفر. إلا: أداة حصر؛ أي: فقط الله سبحانه هو الذي يغفر الذنوب. الذنوب: جمع ذنب، والذنب: هو الخطيئة، والذنوب: هي الخطايا، وتشمل السوء، والفحشاء، وقيل: السوء: الذنوب التي لا يوجد لها حد، والفحشاء: ذنوب لها حد.

﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ﴾: ولم: الواو: عاطفة، لم: حرف نفي، والإصرار: هو الثبات على الشيء، والمداومة، والإقامة عليه؛ أي: لم يستمروا، أو يداوموا على فعل القبيح، والذنوب.

﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾: أنهم قد أذنبوا وخالفوا ما أمر الله به، ويعلمون أن لهم رباً يغفر الذنوب، ويقبل التوبة عن عباده.

[١٣٦] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: اسم إشارة، واللام للبعد؛ للدلالة على علو منزلتهم.

﴿جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾: الجزاء: فيه معنى المقابلة شيء بشيء جزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلها، وفيه معنى المماثلة، والجزاء إما العقاب، وإما الثواب، والجزاء أعم من الأجر فيه الصالح والطالح، وأما إذا أراد النفع يستخدم الأجر.

أي: جزاؤهم مغفرة من ربهم: أي: يمحو عنهم ذنوبهم، ولن يعاقبهم، ولهم ثواب آخر هو:

﴿وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: قيل: تنبع من تحتها الأنهار.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾: الخلود: اللزوم المستمر؛ أي: البقاء المستمر من وقد مبتدأ هو دخولهم الجنة.

﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾: الأجر: هو جزاء العمل، سواء كان دنيوياً، أم أخروياً؛ أي: الأجر مقابل العمل، ويأتي دائماً بالنفع. أما الجزاء فقد يأتي بالنفع، أو الضرر. نِعْمَ: فعل ماض لإنشاء المدح، نعم هذا الأجر وهو الجنة، أو نعم أجر العالمين الجنة.

لنقارن ثلاث آيات وردت فيها نعم أجر العاملين:

١ - آل عمران (١٣٦): ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾: زيادة الواو.

٢ - العنكبوت (٥٨): ﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾: بدون الواو.

٣ - الزمر (٧٤): ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾: بالفاء.

الواو: أوسع من الفاء، وتفيد مطلق الجمع، وتدل على السعة في الاختيار، وأرحب زمناً، ولا تفيد الترتيب، والتعقيب.

١ - في آل عمران: زاد الواو، فقال: ونعم أجر، الواو: تفيد التعدد، والتفخيم؛ لأنه ذكر المتقين الذين ينفقون، الكاظمين الغيظ، العافين عن الناس، والذين إذا فعلوا فاحشة ولم يصروا والمحسنين جزاؤهم مغفرة، وجنات كلها أوصاف معطوفة ناسبها: ونعم أجر العاملين.

٢ - بينما في العنكبوت: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾: (لم يذكر لهم أوصافاً)، وهؤلاء لا يزالون في الدنيا، وهم آمنوا وعملوا الصالحات فدرجتهم: ﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾.

٣ - أما في آية الزمر: جاءت في سياق هؤلاء الذين دخلوا الجنة، وسلمت عليهم الملائكة وهم يتبوَّءُون من الجنة حيث يشاؤون، فهؤلاء يناسبهم فنعم أجر العاملين.

إذن الفاء أقوىٰ، أو أعلىٰ درجة من الواو، والواو أعلىٰ درجة من غير الواو.

فالموصوفون في آية الزمر أعظم درجة من الموصوفين في آية آل عمران، والموصوفون في آية آل عمران أعظم درجة من الموصوفين في آية العنكبوت.

ارجع إلىٰ الآية (٧٤) من سورة الزمر، والآية (٥٨) من العنكبوت للمقارنة، ولمزيد من البيان.

[١٣٧] ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾:

﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق؛ أي: الواقع المذكور في هذه الآية قد حدث.

﴿خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ﴾: مضت؛ أي: حصلت في أزمان سبقت هذا الكلام.

﴿سُنَنٌ﴾: جمع سنة، وهي الطرق التي يصرف الله بها كونه بما يحقق مصلحة ذلك الكون، وسنن الله في خلقه وقوانينه، من هذه السنن: أن الله لا يغير ما بقوم حتىٰ يغيروا ما بأنفسهم.

سنة التولية: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام:١٢٩].

سنة التدافع: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة:٢٥١].

سنة التداول: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران:١٤٠].

سـنة الابتـلاء: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت:٢]، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [إبراهيم:٤٢].

سـنة التسـخير: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف:٣٢].

﴿فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾: الفـاء: للتعقيـب والمباشـرة؛ أي: سافروا للسـياحة سـفر للعبرة غايته الاتعاظ، والاطلاع على آثار وديار الهالكين من القرون الأولى، السـير: يعني السـفر، فانظروا: فاعتبروا بالوقـوف على ديار الهالكين المكذبين، وما حـل بهم من دمار، مثل: قوم نوح، وعاد، وثمود، ولوط.

ولنقـارن هذه الآية بآية (١١) من سـورة الأنعام: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾.

اسـتعمل فيها (ثم) بدلاً من (الفاء)، ثم: فيها تراخٍ، ومهلة؛ أي: سيروا في الأرض لطلب العلم مثلاً، أو للتجارة، أو الرزق، وخلال أو بعد ذلك قوموا بزيارة ديار الهالكين، والمكذبين، والآثار التي تركوها.

أما سـيروا فانظروا: الفاء: تعني السـفر الذي غايته الأساسـية: السياحة والعبرة، ورؤية ديار الهالكين، والمكذبين مباشرة بعد الخروج.

[١٣٨] ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾:

﴿هَٰذَا﴾: الهاء: للتنبيه، ذا: اسم إشارة؛ للقرب تشير إلى القرآن الكريم.

﴿بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾: البيان: هو القول الحق، الذي يُبيِّن المطلوب منكم، ويبيِّن لكم الحق من الباطل، والحلال من الحرام، وافعلوا، ولا تفعلوا.

للناس: اللام: لام الاختصاص، للناس: عامة الإنس، والجن (الثقلين).

﴿وَهُدًى﴾: مصدر للهداية، أو الهادي إلىٰ الصراط المستقيم، والرشد. ارجع إلىٰ الآية (٢) من سورة البقرة.

﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾: أي: وصية، ونصيحة، وتحذير بفعل الخير، والبعد عن الشر. ارجع إلىٰ سورة النحل آية (١٢٥).

﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾: إذن القرآن بيان للناس عامة، وهدىٰ، وموعظة للمتقين. اللام: لام الاختصاص، للمتقين فقط، أو خاصة.

[١٣٩] ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾:

﴿وَلَا﴾: الواو: استئنافية، لا: الناهية، ﴿تَهِنُوا﴾: من الوهن: وهو الضعف، وهو أن يفعل الإنسان المعافىٰ في بدنه وعقله فعل الضعيف. وقيل: الوهن الجبن، وتعني كذلك: ولا تقعدوا عن الجهاد في سبيل الله بعد معركة أُحد.

﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾: الواو: استئنافية، لا: الناهية.

تحزنوا: من الحُزْن، بضم الزاي يكون علىٰ شيء مضىٰ، وهو ضيق مؤقت محدود، وينتهي عاجلاً أو آجلاً.

أما الحَزَن: بفتح الزاي، فلا ينتهي أبداً، ويستمر، ويموت مع الإنسان.

وسبب الحُزن: هو قتل (٧٠) من الأنصار و(٥) من المهاجرين يوم أحد، ومنهم حمزة، ولما أصاب رسول الله ﷺ من شج وكسر، وما أصاب المسلمين من هزيمة، والغنائم التي فاتتهم. ارجع إلىٰ سورة الأنعام آية (٣٣).

﴿وَأَنتُمُ﴾: الواو: حالية للتوكيد، أنتم: ضمير منفصل يفيد التوكيد.

﴿الْأَعْلَوْنَ﴾: الغالبون في نهاية الأمر؛ بشرط أن تكونوا من المؤمنين،

وتطيعوا الرسول ﷺ فيما يأمركم به، وينهاكم عنه، الغالبون في الآخرة: ﴿فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

[١٤٠] ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾:

﴿إِن﴾: شرطية جازمة تدل على احتمال الحدوث، أو ندرته.

﴿يَمْسَسْكُمْ﴾: من المس، وهو الإصابة الخفيفة، والمس هو مجرد اللمس.

﴿قَرْحٌ﴾: نكرة؛ أيُّ قرحٍ، والقرح: الجرح في البدن نتيجة أثر السلاح، وأدوات الحرب كما حدث في أُحد.

﴿فَقَدْ﴾: الفاء: للتوكيد، قد: للتحقيق.

﴿مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾: فقد أصاب القوم (قريش، أو الكفار) قرحٌ مثله (يوم بدر). انظر كيف استخدم يمسسكم (فعل مضارع) لما حدث يوم أحد، أو لقرب يوم أحد من زمن نزول الآية، واستخدم مس (فعل ماض) لما حدث يوم بدر.

﴿وَتِلْكَ﴾: الواو: استئنافية، تلك: اسم إشارة، واللام: للبعد، والكاف: للخطاب.

﴿ٱلْأَيَّامُ﴾: أيام الغلبة، والنصرة، والفوز، والظفر.

﴿نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾: من المداولة، وهي دوال الشيء؛ أي: نقل الشيء

من واحد إلى آخر؛ أي: نصرّفها يومٌ لك ويومٌ عليك، أو تارةً لهؤلاء، وتارةً لهؤلاء.

ولم يقل الحق: نداولها بين المؤمنين، والكافرين؛ لأن ما حدث في أُحد هو مخالفة لأوامر رسول الله ﷺ، وعصيان، وخروج عن المنهج، وعندما فعلوا ذلك أصبحوا مجرد ناس عاديين مثل غيرهم؛ لأنهم خسروا ميزة الإيمان، وميزة الطاعة، وعندها فإن النصر يكون لكم يوماً، ولهم يوماً؛ لأنكم متساوون معهم في عدم الإيمان، وطلب الدنيا.

وأما لو ظلوا مؤمنين، ولم يعصوا رسول الله ﷺ لما انتقل النصر إلى غيرهم من الكفار، والدليل على ذلك أنهم كانوا منتصرين في بداية معركة أُحد.

والمقصود بالأيام: ليس الليل والنهار، أو (٢٤) ساعة، بل أيام النصر أوقات الغلبة؛ لأن الله سبحانه قد وعد المؤمنين بأن لن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً.

ومن هذه الآية نعلم: أن المسلمين إذا تخلوا عن نهج الله ودينه، وعصوا رسوله صاروا مجرد بشر كغيرهم من البشر، فإذا اشتركوا في أي معركة، وهم مجرد بشر، والإيمان ليس ميزةً لهم، فالنصر يكون لمن فاق عدده، وعدته؛ لأنهم أصبحوا سواسية (الكل بدون إيمان).

أي: تلك الأيام نداولها بينكم، وبين عدوكم.

﴿وَلِيَعْلَمَ﴾: الواو: عاطفة.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: ليُري الله الذين آمنوا صدقهم في إيمانهم، أم ادعاءهم، وكذبهم؛ ليقيم عليهم الحجة؛ لأن الله سبحانه يعلم ما هم عليه من إيمان، وإخلاص، ويعلم نواياهم منذ الأزل، ومن هو الفائز، والمنتصر قبل أن تبدأ المعركة.

والغاية من هذا الابتلاء كـي يُبيِّن للذي آمن مدىٰ صدقه حتىٰ لا يدعي أنه كان سـيفعل كذا، وكذا، أو يجاهد ولم تتسـنَّ له الفرصة، أو أنه لو دُعي للجهاد لجاهـد، وصمد، وقاتل في سـبيل الله، ولكن ما إن يبتليـه الله تعالىٰ وتحدث المعركة ينسحب ويفر.

﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾: يوم أُحد أو غيره من الأيام؛ أي: ليكرم أناساً منكم بالشـهادة؛ لصدق إيمانهم، والشهداء جمع شـهيد، وهو من يُقتل في سبيل الله تعالىٰ.

ويجـب الانتباه إلـىٰ قوله: (وليعلـم) و(يتخذ): أضاف الـلام في كلمة (ليعلم)، ولم يضفها في (يتخذ)، ولم يقل: وليتخذ منكم شهداء.

لأن الأهمية في كلمة (ليعلم) أشـد، وأهم من كلمة (يتخذ منكم شهداء)؛ أي: إقامة الحجة، وابتلاء الذين آمنوا عند الله أهم من اتخاذ الشهداء.

وإذا كان الأمـران متسـاويين في الأهميـة، كما في آية (١٢) من سـورة الإسراء: ﴿لِتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾: الأهمية كما في لتبتغوا، ولتعلموا متساوية، جاء باللام في كلا الأمرين.

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: أي: المنافقين الذين انصرفوا راجعين يوم أحد مع ابن أُبي ابن سلول.

أو هؤلاء الذين عصوا رسـول الله ﷺ، ولم يثبتوا فـي مقاعد القتال، بل غرَّتهم الغنائم والدنيا؛ مما أدَّىٰ إلىٰ الهزيمة، والفشل.

❖ ❖ ❖

وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ
حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟
مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن
قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ
إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ
ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ
ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ
لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ
ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ
مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ
رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟
وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ
إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ
أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ
ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

سورة آل عمران [الآيات ١٤١ - ١٤٨]

[١٤١] ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾:

﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾: الواو: عاطفة، واللام: للتوكيد.

﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾: يمحص: مشتقة من المحص، يقال: محص الذهب: أي: أزال عنه ما يشوبه من الخَبث، والعناصر غير المرغوب بها؛ أي: طهره ويكون ذلك باستعمال النار.

﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: أي: يطهرهم كما يُطهر الذهب، ويخلصهم من ذنوبهم، وذلك بالابتلاء، والاختبار، كما حدث في يوم أُحد، أو بالجهاد، أو غيره.

﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: المحق: هو النقص، ومحو الشيء، ويكون ذلك شيئاً فشيئاً؛ حتىٰ يفنىٰ، ويزول؛ أي: يستأصل الكافرين بالقتل وغيرها فينقص عددهم

إذن مداولة الأيام: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾: للتمحيص والاختبار والتطهير من الذنوب، والتصفية للمؤمنين، وفي نفس الوقت هو استئصال للكافرين، ومحو لآثارهم.

وأضيفت اللام في ليمحص، ولم تضف إلىٰ كلمة يمحق؛ لأن المهم والتأكيد هو التمحيص في عملية المداولة، وأما محق الكافرين فليس له نفس أهمية التمحيص.

[١٤٢] ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾:

الخطاب في هذه الآية إلىٰ صحابة رسول الله ﷺ خاصة الذين عصوا أمره يوم أُحد، ولم يثبتوا في مواقعهم علىٰ جبل أحد، والمؤمنين بشكل عام في كل زمان ومكان.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا﴾: ارجع إلىٰ الآية (٢١٤) من سورة البقرة؛ للبيان.

﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ﴾: لما: للنفي المستمر إلىٰ زمن الحال، أو التكلم، وهي بمعنىٰ: لم، وفيها معنىٰ التوقُّع.

﴿الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ﴾: أي: الذين جاهدوا منكم حقيقة، وقتلوا في سبيل الله، والذين لم يجاهدوا وتركوا مواقعهم علىٰ جبل أحد طمعاً في الغنيمة فهؤلاء نفىٰ عنهم الجهاد يوم أحد، مع توقُّع الجهاد منكم في المستقبل؛ أي: لم تجاهدوا حقيقة يوم أحد.

﴿وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾: بل حسبتم أن تدخلوا الجنة يوم أُحد، وتنالوا الرضا والقرب من الله، وأنتم لم تجاهدوا في سبيل الله جهاد المخلصين، بل عصيتم رسول الله ﷺ، وما ظهر، أو بدا منكم خيراً يوم أحد؛ حتىٰ يعلمه الله، ولم تجاهدوا، ولم تصبروا، كما كان مطلوباً منكم؛ لكي تستحقوا الجنة. ارجع إلىٰ سورة البقرة آية (٢١٤) لمقارنة الآيات المتشابه في سورة البقرة وسورة التوبة آية (١٦).

[١٤٣] ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾:

سبب النزول: عن ابن عباس ﷺ: أن رجالاً من الصحابة كانوا يقولون:

ليتنا نقتل كما قتل أصحاب بدر، أو ليت لنا يوماً كيوم بدر بعد أن أخبرهم رسول الله ﷺ بما حصل للشهداء من كرامة يوم بدر، فتمنوا أن يستشهدوا، ويلحقوا بإخوانهم، فأراهم الله يوم أُحد، فلم يلبثوا إلا عصوا رسول الله ﷺ، وانهزموا؛ إلا من شاء الله منهم فنزلت هذه الآية.

﴿وَلَقَدْ﴾: قد: للتحقيق، اللام: للتوكيد.

﴿كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ﴾: أي: الجهاد، والشهادة في سبيل الله مع النصر على الأعداء. والسؤال لما عدل عن ذكر الشهادة أو في سبيل الله فذكر الموت كالقول: ولقد كنتم تتمنون الشهادة أو الموت في سبيل الله قد يكون السبب؛ لأنهم خالفوا أوامر رسول الله ﷺ في معركة أحد، أو لأنهم لم يبقوا في المدينة كما أشار رسول الله، وخرجوا إلى أحد تمنون الموت: ولم يقل: تتمنون الموت، حذف إحدى التاءَين قد يعني تمني الموت الذي يقصد به القتل (الشهادة) مع النصر، أو القتل (الشهادة) ولو كان مع الهزيمة، وحذف أحد التاءَين؛ لأنه تحقق القتل (الشهادة) فقط بدون النصر وما حدث الشهادة مع الهزيمة، ولو حدثت الشهادة في سبيل الله مع النصر؛ لقال: تتمنون الموت، والله أعلم.

﴿مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ﴾: من قبل أن تشاهدوا الموت، وتعرفوا شدته، وويلاته.

﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾: الرؤية أنواع قد تكون:

١ - بمعنى العلم.

٢ - وقد تعني الظن.

٣ - والرؤيا بالعين.

وهنا كانت رؤية باليقين رؤية يقينية.

فقد: الفاء: للتوكيد، وقد: كذلك للتوكيد.

فقد رأيتموه: أي: الموت، وأنتم تنظرون: جاءت لتحدِّد وتؤكد نوع الرؤيا، فهي رؤيا حقيقية بأم العين (عين اليقين).

والموت بذاته لا يُرىٰ، ولكن آثار الموت هي التي تُرىٰ.

[١٤٤] ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾:

﴿وَمَا﴾: الواو: استئنافية. ما: النافية.

﴿مُحَمَّدٌ﴾: رسول الله ﷺ.

ورد اسمه ﷺ (محمد) في القرآن في أربع آيات فقط هي:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران:١٤٤].

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب:٤٠].

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [الفتح:٢٩].

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد:٢].

وورد اسمه ﷺ أحمد مرة واحدة في سورة الصف، آية (٦).

وخوطب بـ(يا أيها النبي) و(يا أيها الرسول) في بقية الآيات. ارجع إلىٰ سورة المائدة، آية (٤١)؛ للبيان.

وكلمة محمد، أو أحمد من مشتقات الحمد؛ أي: فعل حمد.

فقالوا: أحمد وقع الحمد منه لغيره، فأحمد هو أحمدُ خلقِ اللهِ للهِ، أو أحمدُ البشرِ للهِ، وأكثر حمداً مما لو قال اسمه حامد مثلاً.

ومحمد: ذات يقع عليها الحمد من غيرها؛ أي: يحمده الكثير من الخلق، أكثر مما لو قال اسمه محمود مثلاً.

ولرسول الله ﷺ أسماء أخرىٰ بالإضافة إلىٰ محمد وأحمد؛ الحاشر، والمُقَفَّىٰ، والماحي، ونبي الرحمة وطه.

﴿إِلَّا﴾: أداة حصر.

﴿رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾: كل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً، إذن: رسول يعني: نبي كذلك. قد: للتحقيق والتوكيد.

وما: للنفي، محمد إلا: للحصر، رسولٌ: حتىٰ لا يظن أحدٌ أن رسول الله ﷺ لا يموت، ولا يُقتل، أو يصبه ما يُصيب غيره من الجراح.

﴿خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾: أي: مضت من قبله الرسل.

﴿أَفَإِيْن مَّاتَ﴾: قيل: نزلت هذه الآية يوم أُحد حين قال قوم من المنافقين: قتل محمد، فالحقوا بدينكم الأول. وقال آخرون: لو كان نبياً ما قُتل.

﴿أَفَإِيْن﴾: الهمزة استفهام فيها معنىٰ التحذير من الانقلاب علىٰ الأعقاب، وكلمة ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ﴾ وردت في موت الرسول ﷺ فقط، فالله خصه بهذه الكلمة؛ ليلفت النظر إلىٰ أن رسول الله ﷺ بشر وسيموت، كما مات سائر الرسل من قبله؛ أي: سيخلو كما خلوا؛ لأنهم اعتقدوا أنه ليس كسائر الرسل ولن يخلو كما خلوا، وهذا في اللغة يسمىٰ فن القصر، قصر قلبي.

﴿مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾: كلاهما يؤدِّي إلىٰ فقدان الحياة.

ولكن الموت، والذهاب بالحياة في القتل يكون بنقض البنية؛ أي: البدن الذي يصبح غير ملائم لسكن الروح؛ مما يؤدِّي إلىٰ خروج الروح؛ فالقتل: هو إرغام الروح علىٰ الخروج من البدن الذي تغيَّر.

وأما في الموت الطبيعي هو الذهاب بالروح أولاً؛ أي: خروج الروح أولاً، والبدن سليم حين خروجها، وبعد خروجها يموت البدن.

ففي الموت العادي: فالروح تخرج أولاً؛ مما يؤدِّي إلىٰ موت البدن. وأما في القتل: البدن يموت أولاً، أو يتغير (يصبح غير صالح كسكن للروح) مما يرغم الروح علىٰ الخروج.

كان موته ﷺ يوم الإثنين، وهو كذلك يوم دخوله ﷺ المدينة.

﴿ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾: الانقلاب: العودة، أو الرجوع إلىٰ حالة غير الحالة التي كانوا عليها سابقاً. ولو عادوا إلىٰ ما كانوا عليه من قبل؛ لقال: رجعتم فالانقلاب هو غير الرجوع.

فالانقلاب: هو الرجوع، ولكن إلىٰ غير الحالة السابقة التي كانوا عليها. مثال: انقلب الطين خزفاً، ولا تقل رجع الطين خزفاً؛ لأنه لم يكن قبل ذلك خزفاً. وشبه سبحانه من ارتد عن دينه بالرجوع علىٰ الأعقاب (جمع عقب: وهو مؤخَّر القدم)، وهذا يسمىٰ استعارة في علوم الجمال اللغوي.

أعقابكم: جمع عقب: وهو مؤخَّر القدم.

انقلبتم علىٰ أعقابكم؛ أي: رجعتم كفاراً بعد الردة (ارتددتم إلىٰ الكفر)، وكذلك قد تعني: رجعة القهقرىٰ من أرض المعركة؛ أي: فررتم من أرض المعركة خوفاً من القتل، أو فررتم من أرض المعركة؛ لكونكم سمعتم أن محمداً ﷺ قُتل.

﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾: ومن: الواو: استئنافية، من: شرطية، ينقلب

على عقبيه؛ أي: يرتد عن دينه، أو يترك أرض المعركة، وينقلب إلى المدينة، فلن يضر الله شيئاً.

﴿فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾: شيئاً بكل تأكيد، وشيئاً: نكرة؛ أي: لن يضر الله تعالى شيئاً قليلاً، أو كثيراً، والشيء هو أقل القليل، وإنما ضره يعود على نفسه.

﴿فَلَن﴾: الفاء: للتوكيد، ولن: حرف نفي للمستقبل القريب، أو البعيد؛ لأن الله سبحانه أزلاً، وقبل أن يخلق شيئاً له صفات الكمال، فخلق الخلق، وعبادتهم أو عدمه لا يُغيِّر في صفات كماله سبحانه.

﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾: الواو: استئنافية، والسين: للمستقبل القريب. الشاكرين: هم الذين لم ينقلبوا (بالإدبار من أرض المعركة، أو الارتداد عن الإسلام، أو استشهدوا في سبيل الله يوم أحد). وإذا نظرنا إلى الآية التالية (١٤٥) وهي قوله تعالى وسنجزي الشاكرين: نجد أن الآية (١٤٤) صرح بالفاعل، والآية (١٤٥) أخفى الفاعل؛ لأنه تقدم ذكره في الآية السابقة (١١٤).

وسماهم شاكرين: لأنه اعتبر ثباتهم شكراً لله، وكذلك قتلهم في سبيل الله تعالى شكراً، والثبات والصبر في أرض المعركة، أو الاستشهاد يستوجب الجزاء؛ أي: الثواب من الله تعالى بأعظم الأجور، وأحسن المثوبات في الدنيا والآخرة.

[١٤٥] ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾:

﴿وَمَا﴾: الواو: عاطفة، ما: النافية؛ لنفي الحال، والمستقبل، والماضي، والحاضر (كل الأزمنة).

﴿كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ﴾: أي: ما تستطيع، أو تقدر؛ أي: نفس أن تموت؛ إلا بإذن الله بأمر من الله؛ حتى وإن حاولت الانتحار المرات العديدة، بأخذ مادة

سـامة أو غيرها من الوسـائل وإن تظن أنها قادرة فهي غير قادرة إلا إذا شاء الله سبحانه؛ لأن الموت بيد الله تعالىٰ وحده.

لنفس: اللام: لام الاستحقاق. أن: للتوكيد.

﴿تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: بأمر من الله تعالىٰ إلىٰ ملك الموت الموكل بقبض الروح.

﴿كِتَٰبًا﴾: أي: كتب الله لكل نفس أجلاً، وتقديره: كتب كتاباً.

﴿مُّؤَجَّلًا﴾: كتابـاً ذا أجل لا يتقدَّم ولا يتأخَّـر، والأجل: المدة المضروبة لانقضاء الشيء، وأجل الإنسان هو الوقت لانقضاء عمره.

وفي هذه الآية حثٌّ وتحريض علىٰ الجهاد في سبيل الله، ولن يموت أحدٌ قبل أجله، ولو بثانية واحدة سواء جاهد أو مات علىٰ فراشه.

﴿وَمَن يُرِدْ﴾: من: الشـرطية، يُرد: أي: بعملـه؛ أي: يطلب بعمله ثواباً. وإذا قارنا يـرد، وأراد: يرد فيها تجدد وتكرار؛ لأنهـا بصيغة المضارع؛ أي: يرد مرات عديدة، وإرادة الثواب يتجدد ويتكرر؛ ارجع إلىٰ سورة الإسراء آية (١٩)، وآية (١٨) للمقارنة والبيان.

﴿ثَوَابَ﴾: في اللغة هو الجزاء علىٰ العمل، ويكون في الخير والشر، وعادة يشمل الأعمال الصالحة والعقائد.

﴿ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾: مثل النصر، والغنيمة، والعزة، والشهرة، والمال، والرزق، وفيه تعريض، أو إشارة بالذين شغلتهم الغنائم يوم أُحد.

﴿ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾: هو نعيم الجنة عادة، وفيه إشارة لمن ثبت يوم أُحد.

﴿نُؤْتِهِۦ﴾: أصلها نؤأته حذف فيه الهمزة، أو نؤتيه؛ أي: ما نشـاء؛ أي: ما قدر له، وليس ما يشاء العبد.

أو من قصد بجهاده، أو بعمله الدنيا أُعطي منها، ومن قصد بجهاده، وبعمله الآخرة أُعطي منها، ومن الدنيا معاً.

﴿وَسَنَجْزِي ٱلشَّٰكِرِينَ﴾: فيه إعادة، وتكرار للتأكيد علىٰ الشاكرين حيث قال سبحانه في الآية (١٤٤): وسيجزي الله الشاكرين.

وإذا انتبهنا إلىٰ الآية نجد هناك مؤتي ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾، وهناك مجزي ﴿سَنَجْزِي﴾.

والمؤتي: هو الله سبحانه، والمجزي: هو الله سبحانه، إذن المؤتي والمجزي واحد، وهو الله سبحانه وتعالىٰ.

لنقارن هذه الآية مع الآية (٢٠) من سورة الشورىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾.

في آية آل عمران: من يريد ثواب الدنيا نؤته منها، وفي آية الشورىٰ: من كان يريد حرث الدنيا نؤته منها بلا زيادة، (وما له في الآخرة من خلاق)، فالحرث يعني: الزرع، والنتيجة هي الثواب.

فمن يحرث ويسعىٰ للدنيا، ويرجو ثوابها؛ نؤته منها؛ من مال، ومتاع، وشهرة، أو غير ذلك من حظوظ الدنيا.

ومن يحرث للآخرة، ويسعىٰ لها، ويرجو ثوابها؛ نضاعف له ذلك الحسنة بعشر أمثالها، أو أكثر، ويؤت الدنيا والآخرة معاً.

[١٤٦] ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾:

المناسبة: هذه الآية فيها تذكير لصحابة رسول الله ﷺ الذين قاتلوا يوم

أُحد، لماذا لا يكونوا كهؤلاء الربيين الذين قاتلوا مع أنبيائهم في السابق، أو في غيرها من المعارك والغزوات.

﴿وَكَأَيِّن﴾: مركبة من كأن التشبيه، وأي المنونة، فصارت كلمة واحدة: كأين عند أكثر النحاة، وهناك من قال اسم غير مركب، ووردت في القرآن في (٧) آيات هي: آل عمران (١٤٦)، يوسف (١٠٥)، الحج، (٤٥، ٤٩)، العنكبوت (٦٠)، محمد (١٣) الطلاق (٨)، ولم ترد في القرآن إلا مقرونة مع (من)، ومعناها بمعنىٰ كم الخبرية التي تفيد التكثير وتفيد التفخيم وربما الاستفهام، ولمقارنة كأين، ويكأن: ارجع إلىٰ سورة الحج، آية (٤٥).

﴿مِّن﴾: ابتدائية.

﴿نَّبِيٍّ﴾: أي: كثير من الأنبياء، ﴿قَـٰتَلَ مَعَهُۥ﴾: ربيون؛ أي: جاهدوا معهم، ونصروهم في الدنيا.

﴿رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾: أي: ناس ذو خبرة عسكرية قتالية، وسياسية بالمفهوم الحديث، أو بالمعنىٰ القديم (يفهمون سبل الحرب)، وهم عادة أتقياء، وعباد صالحون مؤمنون برسالة أنبيائهم. كثير: (جماعة كثيرة).

وما هو الفرق بين (ربيون، وربانيون) كما ورد في قوله تعالىٰ في آية (٧٩) من سورة آل عمران: ﴿وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾.

الربانيون: تطلق علىٰ العلماء الراسخين في علوم الدِّين، والفقه، الأتقياء الصالحين. ارجع إلىٰ الآية (٧٩) من آل عمران؛ لمزيد من البيان.

ربيون: خبراء، أو ذوي خبرة في علوم الدنيا، ومنها الخبرة العسكرية، والقتالية، الأتقياء الصالحين، كما قلنا سابقاً.

﴿فَمَا﴾: الفاء: للتوكيد، ما: نافية.

﴿وَهَنُوا﴾: من الوهن، وهو الجبن، وخور القوىٰ مع كون الجسم قوياً، ولا علة فيه، ومحله القلب، ومنه الخوف الشديد الذي يصيب الإنسان؛ فيؤدِّي إلىٰ عدم الرغبة في الجهاد في سبيل الله، أو للقعود عن الجهاد.

﴿لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: أي: ما: بمعنىٰ الذي، وما أعم وأشمل من الذي أصابهم في سبيل الله من الجراحات والقتل والأسر وغيرها لم يؤدِّ بهم إلىٰ الوهن، ولا الضعف، ولا إلىٰ الاستكانة.

﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾: تكرار (ما) يفيد زيادة التوكيد. وفصلَ كلاً علىٰ حدة، الوهن والضعف، ولا كلاهما.

والضعف: بفتح الضاد يكون في الجسم والرأي، أو العقل.

والضُّعف: بضم الضاد يكون فقط في الجسم (مرض عضوي).

﴿وَمَا ٱسْتَكَانُوا﴾: ما: النافية. الاستكانة: من السكون: وهو عدم الحركة؛ لأن الذي يحارب يحتاج إلىٰ فرٍّ وكرٍّ، وتعني هنا: استسلموا، وخضعوا، وذلوا لأعدائهم.

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾: أي: هؤلاء الربيون يجب عليهم الصبر في سبيل الله، والثبات في أرض المعركة؛ لأن الله يحب الصابرين.

[١٤٧] ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾:

﴿وَمَا﴾: الواو: عاطفة، ما: النافية.

﴿كَانَ قَوْلَهُمْ﴾: دعاءَهم.

﴿إِلَّآ﴾: أداة حصر.

﴿أَن﴾: للتوكيد.

﴿قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾: أي: هم الوحيدون الذين قالوا مثل هذا القول: (ربنا اغفر لنا ذنوبنا...) فيها مدح للقائل.

وهناك من قرأ هذه الآية بضم اللام؛ أي: وما كان قولُهم إلا أن قالوا؛ أي: هم لم يقولوا غير هذا القول (ربنا اغفر لنا ذنوبنا...)؛ أي: فقط قالوا هذا القول، ولم يقولوا غيره من الكلام في أثناء المعركة، والقتال، وفيها مدح للمقول.

فصار لها معنيان: هم الوحيدون الذين قالوا هذا القول، وتلك المقولة كانت المقولة الوحيدة التي قالوها أثناء الحرب والقتال، إذن نِعم القائل ونعم المقولة.

﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾: وهم في أرض المعركة يذكرون الله تعالىٰ، ويتوبون إليه، ويسألونه أن يستر ويعفو عن ذنوبهم السابقة، وقد يستشهدون في سبيل الله بعد ثوان، أو دقائق، أو ساعات.

﴿وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا﴾: الإسراف: مجاوزة الحد؛ أي: إذا ارتكبنا كبيرة قالوا ذلك خشية وتقرباً إلىٰ الله.

﴿وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا﴾: في مواطن القتال، وأرض المعارك، وثبت أقدامنا علىٰ دينك، ولا تزغ قلوبنا.

﴿وَٱنصُرۡنَا﴾: أي: حقق فوزنا.

﴿عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾: لأن النصر لا يكون إلا من عندك أيها العزيز الحكيم.

[١٤٨] ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾:

﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ﴾: الفاء: تدل على المباشرة، والتعقيب؛ أي: استجاب لهم ربهم بسرعة مجرد أن دعوا.

آتاهم: من الإيتاء، وهم أعم من العطاء، ويشمل النواحي المادية والمعنوية (الجنة والرضوان والمغفرة). ارجع إل الآية (٢٥١) من سورة البقرة؛ لمزيد من البيان.

﴿ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾: من نصر، وفوز، وغنيمة.

﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾: وانتبه إلى قوله: وحسن ثواب الآخرة، ولم يقل ذلك عن الدنيا (حسن ثواب الدنيا)؛ لأن الدنيا متاع الغرور، وزائلة، وثوابها زائل، وليس جديراً أن يوصف بالحسن، وأما ثواب الآخرة الذي يتضمن الجنة، وأعظم من ذلك درجاتها، وأعظم منها رضوان الله تعالى، وأعظم من ذلك رؤية وجهه الكريم، فيا له من ثواب يدل على كرمه، وفضله، وإحسانه.

والثواب مشتقة من الثوب. ارجع إلى سورة البقرة، آية (١٠٣)؛ للبيان.

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: فهؤلاء الربيون، وهؤلاء الذين قاتلوا مع رسلهم؛ لإعلاء كلمة الله، وأحسنوا في دنياهم إحسان الكم والكيف هم مع المحسنين الذين يحبهم الله تعالى. ارجع إلى سورة البقرة، آية (١١٢)؛ لمزيد من البيان.

❖ ❖ ❖

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾
بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى
فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ
مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ
مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ
وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ
وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم
مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم
مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ
وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ
﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ
وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ
غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ
وَلَا مَآ أَصَابَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾

ثلاثة أرباع الحزب ٧

سورة آل عمران [الآيات ١٤٩ - ١٥٣]

[١٤٩] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾: نداء إلىٰ الذين آمنوا بتكليف جديد، أو أمرٍ جديد، أو تحذير.

﴿إِن تُطِيعُواْ﴾: إن: شرطية، تستعمل للحالات النادرة الحدوث، أو حالات الاحتمال، والشك.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: سواء كانوا من أهل الكتاب، أو غيرهم من أهل الملل الأخرىٰ تطيعوهم في أمور الدِّين.

﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾: أي: يرجعوكم إلىٰ الكفر بعد الإيمان، والردُّ يختلف عن الرجوع. ارجع إلىٰ الآية (٧) من سورة القصص.

﴿فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾: الانقلاب هو الرجوع إلىٰ غير الحالة التي كانوا عليها؛ أي: تنقلبوا كفاراً بعد إذ أنتم مؤمنون.

خاسرين: تنقلبوا خاسرين لأنفسكم، وربما أهليكم يوم القيامة.

قال علي ﷺ: نزلت هذه الآية في بعض المنافقين، أو الكفار الذين قالوا لبعض المؤمنين بعد هزيمة أحد، وحين شاع أن رسول الله ﷺ قد قُتل: ارجعوا إلىٰ دينكم، أو قالوا: لو كان محمد نبياً لما قُتل، ومنهم من قال: نذهب إلىٰ ابن أُبيٍّ، ونطلب منه أن يتوسط لنا عند أبي سفيان؛ ليأخذ لنا الأمان.

فنزلت هذه الآية بتحذير المؤمنين من طاعة هؤلاء الكفار، وعدم الظن أن

أبا سفيان، أو غيره هو الناصر والمعين؛ لأن الله سبحانه وحده هو المولىٰ، وهو النصير.

[١٥٠] ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾:

﴿بَلِ﴾: حرف إضراب إبطالي تفيد التقرير والتعيين (أي: لا تطيعوا الذين كفروا)، بل أطيعوا الله ﴿ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾: أي: المتولي أموركم؛ أي: المعين، والناصر الحقيقي الذي يوصلكم إلىٰ غايتكم.

﴿وَهُوَ﴾: ضمير منفصل يفيد الحصر والتوكيد.

﴿خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾: جمع ناصر؛ أي: فقد ينصركم أحد من البشر نصراً مهما كان نوعه مؤقتاً وزائفاً، ولكن الناصر الحقيقي هو الله وحده، ولا يأتي النصر الحقيقي إلا من عند العزيز الحكيم؛ ناصرين: جملة اسمية تدل علىٰ ثبات الصفة؛ ارجع إلىٰ الآية (٩١) في نفس السورة لبيان الفرق بين ناصرين وأنصار.

[١٥١] ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

سبب النزول: كما قال السدي بعد معركة أحد ارتحل أبو سفيان، ومعه المشركون من معركة أحد متوجِّهين إلىٰ مكة، وبعد أن ساروا عائدين قالوا: بئس ما صنعنا، قتلناهم حتىٰ إذا لم يبق إلا الشرذمة تركناهم، ارجعوا فاستأصلوهم، فلما عزموا علىٰ ذلك ألقىٰ الله سبحانه الرعب في قلوبهم، وعدلوا عن ذلك حيث شاع بينهم أن محمداً قادمٌ بجيش قوي جداً من المدينة؛ حيث انضم إليه مقاتلون جدد، وهو قادم في حمراء الأسد.

﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: السين: للاستقبال القريب. سنلقي: من الإلقاء لا يكون إلا للأمور المادية، فكأنه حول الرعب الذي هو أمر معنوي نفسي إلىٰ أمر مادي وأفرغه في قلوب الذين كفروا؛ حتىٰ تمكن الرعب في قلوبهم، ولم يجرؤوا علىٰ الرجوع إلىٰ قتال المؤمنين ورسوله ﷺ بعد أحد.

ولم يقل: سـألقي، بل قال سـبحانه: سنلقي اسـتخدم نون العظمة (نون الجمع)؛ التي تجمـع كل صفات الكمال، والقدرة، والقـوة، والقهر، والمنعة، وتعني: أن الإلقاء سيشـمل ويعم كل هذه القلوب الكافرة، وسبب هذا الإلقاء: هو لأنهم أشـركوا، وكل قلب به كفر سيلقي الله فيه الرعب، فالإشراك جاء لهم بالرعب؛ لأنهم لا مولىٰ لهم.

﴿بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾: الباء: للإلصاق، والتمسك، أو السببية، أو التعليل. ما: نكرة لغير العاقل، والعاقل.

بما أشركوا به: أي بسبب إشراكهم.

﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾: من آلهة، وأصنام.

سـلطاناً: أي: حُجَّة، أو برهان، أو دليل علىٰ الشرك بالله يقهرهم علىٰ فعل ذلك، أو أي دليل وبرهان يبيح لهم ذلك.

والسلطان: هو الحجة القوية التي لا تدحض لقوة دلالتها، مأخوذة من مادة السين، واللام، والطاء: سلط.

والسـلطان نوعان: سـلطان القوة، والقهر؛ أي: قـوة تقهرهم علىٰ فعل المعصية (أو الشرك).

أو سلطان البرهان والدليل القادر علىٰ إقناعهم بفعل الشرك، أو المعصية.

﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾: المأوىٰ: اسـم المـكان الذي يأوي إليـه؛ للإقامة والاستقرار. يجب أن نفرق بين المأوىٰ والمثوىٰ:

المأوىٰ: هو المسكن، أو مكان الاستقرار، وجاءت مأوىٰ في وصف الجنة والنار كقوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات:٣٩]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات:٤١]. والمأوىٰ قد يكون حسـناً أو سـيئاً، وإذا كان سيئاً يعني مثـوىٰ، ولذلك قـال تعالـىٰ: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾،

والمأوىٰ بالنسبة لأصحاب النار قد يعني السخرية منهم يظنون مكانهم إلىٰ الجنة، ثم يفاجؤون بأنه إلىٰ النار، والمأوىٰ لا يصل إليه أو يحل به إلا بعد سعي وتخطيط وتدبير.

﴿وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: بئس: فعل ذم، مثوىٰ الظالمين: مثوىٰ: اسم مكان من الثواء؛ أي: الإقامة، والمثوىٰ: المستقر، وكلمة مثوىٰ استعملها القرآن فقط لأهل النار، وأما مشتقات المثوىٰ كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ [يوسف:٢٣]، وقوله: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ [يوسف:٢١]، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ [محمد:١٩]، وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ [القصص:٤٥]، هذه المشتقات تشير إلىٰ أن المثوىٰ فيها كان حسناً. إذن: يجب أن نفرق بين مثوىٰ، والتي تعني المكان السيء والضيق والمقيد لا يسمح بالحركة وأسوء من السجن والدائم. وكلمة ثاوياً، مثواكم، مثواه، مثواي: كلها تشير إلىٰ المثوىٰ الحسن والجيد، والمثوىٰ ومشتقات الثوىٰ؛ أي: المكان الذي حل به أو وصل إليه بدون تخطيط أو تدبير.

﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: الكافرين المشركين.

[١٥٢] ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

﴿وَلَقَدْ﴾: الواو: استئنافية، لقد: اللام: للتوكيد بصدق الوعد، وقد: حرف تحقيق وتوكيد.

﴿صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾: في بداية المعركة (معركة أحد)، ولقد صدقكم الله وعده بالنصر، قيل: كان جواباً علىٰ ما قاله بعض أصحاب رسول الله ﷺ بعد رجوعهم من أُحد، فقد قال قوم منهم: من أين أصابنا هذا،

وقد وعدنا الله بالنصر؛ فنزلت هذه الآية، والنصر دام أو استمر حتىٰ خالفوا أمر النبي ﷺ، وترك معظم الرماة مواقعهم علىٰ جبل أُحد قبل انتهاء المعركة طمعاً في الغنائم.

﴿إِذْ﴾: ظرف زماني للماضي.

﴿تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾: الحس هنا: هو القتل، يقال: حسه؛ أي: قتله، بإذنه: بإرادته، وأمره تعالىٰ، وتحسونهم: تعني تقتلونهم قتلاً ذريعاً، وهذا ما حدث في بداية المعركة؛ حيث قُتل أحد عشر رجلاً من حملة لواء المشركين، ولم يبق منهم أحد يحمله حتىٰ أصبح حمل لواء المشركين شؤماً عليهم ما يدنو منه أحد إلا قُتل؛ فتركوه علىٰ الأرض، واستبسل المسلمون في القتال.

وقُتل عدد قليل من المسلمين في بداية المعركة، ومنهم حمزة رضي الله عنه، وظل المسلمون مسيطرين علىٰ أرض المعركة، وبدأ المشركون ينهزمون من أرضها أمام المسلمون، ورأىٰ الرماة هزيمة المشركين، ورأوا أصحابهم يظفرون بغنائم العدو عندها ترك الرماة أماكنهم إلا عشرة منهم فقد ثبتوا في أماكنهم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾: حتىٰ: حرف غاية، وجر، وتحمل معنىٰ إلىٰ نهاية الغاية.

فتكون الآية: ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه إلىٰ أن فشلتم وتنازعتم في الأمر.

﴿إِذَا﴾: ظرفية تحمل معنىٰ الشرط.

﴿فَشِلْتُمْ﴾: قال بعض المفسرين: هناك تقديم وتأخير في هذه الآية، وأصلها حتىٰ إذا تنازعتم في الأرض وفشلتم وعصيتم، وبعض المفسرين قالوا جاء ترتيبها كما حصلت وليس هناك تقديم أو تأخير أي حتىٰ إذا فشلتم: جبنتم، وضعفتم أمام عدوكم، والفشل يعني كذلك الخسارة، وتقديم النتيجة علىٰ ذكر

السبب وهو الاختلاف والعصيان الذي حدث أولاً لكي يشعرهم بعظمة الذنب الذي ارتكبوه.

﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾: التنازع: يعني الاختلاف في الرأي الذي يؤدي إلىٰ الخصومة، والأمر هو أمر رسول الله ﷺ إياهم بعدم ترك مواقعهم مهما حدث، فالأكثرية قالوا: ننسحب ونذهب إلىٰ الغنائم، وجماعة قالوا: نثبت مكاننا، كما أمرنا رسول الله ﷺ، ولم يقل اختلفتم وإنما سمىٰ المخالفة عصياناً؛ لأن المقام مقام جهاد وليس اجتهاد فلا بد من الطاعة المطلقة للرسول دون تأويل.

﴿وَعَصَيْتُم﴾: أمر الرسول ﷺ بترك مكان الرمي في الجبل.

﴿مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾: من النصر في بداية المعركة.

﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾: منكم: الخطاب إلىٰ الصحابة الذين شاركوا في أحد وعصوا الرسول ﷺ؛ منكم من يريد الغنائم؛ فانسحب، وترك مكانه في الجبل عارياً، ونزل إلىٰ الميدان.

﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾: وبعضكم ثبت في مكانه، ولم ينسحب، ويركض وراء الغنائم، وهم أقل من (١٠) استشهدوا، ومنهم عبد الله بن جبير.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: والله ما كنت أعلم أن أحداً من صحابة رسول الله ﷺ يريد الدنيا حتىٰ نزلت فينا يوم أحد هذه الآية.

﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾: ثم: للترتيب العددي، وليس للتراخي.

﴿صَرَفَكُمْ﴾: الصرف: هو التحويل؛ أي: حفظكم من المشركين، وأبقاكم أحياء حتىٰ حين؛ ليبتليكم: أي: ليختبركم فيما بعد، واللام: للتعليل، أو صرفكم عنهم من بعد أن كنتم مشغولين بقتالهم، وقبل أن تنظروا إلىٰ الغنائم. وقيل: عفا عنكم: أي: لو شاء لسلط عليكم المشركين فقتلوكم أجمعين.

﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: لأنه عفا عنهم لتركهم مواقعهم في الجبل،

وركضهم وراء الغنيمة، وكذلك لم يستأصلوكم، ويقتلوكم جميعاً؛ لأنه سبحانه ذو فضل: صاحب الفضل، والجود على المؤمنين.

[١٥٣] ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَابَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾:

﴿إِذْ﴾: ظرف للزمن الماضي، أو: واذكروا إذ تُصعدون: تفرون هاربين.

﴿تُصْعِدُونَ﴾: لها ثلاثة تفسيرات:

١ - تُصعِدون: بضم التاء، وكسر العين: هذا ما قاله أكثر القراء، وتعني: ابتدأ السفر (أي: الانهزام من أرض المعركة) أصعدنا من بغداد إلى خراسان؛ أي: ابتدأنا المسير.

٢ - أو تُصعدون: من أصعد؛ أي: ذهب باتجاه الصعيد؛ أي: في الأرض المستوية حتى ينجو بسرعة، ويستطيع الهرب.

٣ - وتَصعَدون: بفتح التاء والعين من صعد؛ أي: سار من أسفل إلى أعلى؛ أي: صعد على الجبل، والمرجح أنهم هربوا إلى الأرض السهلة؛ للفرار.

﴿وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾: أي: لا تلتفتون إلى أحد، أو لا تلتفتون برؤوسكم يمنة ولا يسرة، ولا إلى خلفكم. من لوى: بمعنى عطف.

﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾: أي: والرسول ﷺ يناديكم من مؤخرتكم؛ أي: من خلفكم قائلاً: إليّ عباد الله. ارجعوا إليّ عباد الله.

﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ﴾: الباء في كلمة بغم: باء الإلصاق؛ أي: غم مع غم، غم بعد غم، غم على غم.

والغمُّ: هو ضيق في الصدر من أمر مكروه، أو حزن شديد، والغم، والنعاس جند من جنود الله.

فأثابكم غماً بغم: فعندنا في هذه الآية غمَّان، واحتمالات هذين الغمين:

الاحتمال الأول: الغم الأول: غم الهزيمة والقتل.

الغم الثاني: قدوم خالد بن الوليد بخيل المشركين.

الاحتمال الثاني: الغم الأول: الفرار، والهزيمة، أو ما فاتهم من الغنيمة.

والغم الثاني: الغم حين سمعوا بقتل محمد ﷺ.

الاحتمال الثالث: إذا كانت الباء بمعنى الجزاء يصبح المعنى:

غماً: أي: ما حدث للصحابة من هزيمة، وقتل، وجراح، وقدوم خالد بن الوليد بخيل المشركين وإشاعة قتل الرسول ﷺ.

بغم: الباء: سببيه، أو بدلية.

بغم: جزاؤكم؛ لأنكم خالفتم أمر رسول الله ﷺ.

أي: حين خالفتم أمر رسول الله ﷺ سببتم للرسول الغم، فجازاكم الله بغم الهزيمة، والقتل.

وقوله تعالى: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ﴾: الفاء: للمباشرة والتعقيب.

وسمي ذلك ثواباً؛ أي: ما حدث لكم من قتل وهزيمة وفرار هو لإزالة ومحو خطأ معصية رسول الله ﷺ.

لكيلا: اللام للتوكيد. كي: للتعليل، وبيان الغرض الحقيقي من الغم، وهو لتجنب الحزن على ما فاتكم من النصر، والغنيمة.

﴿وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ﴾: من القتل، والهزيمة، والفرار، والرعب الذي حدث لكم عند سماعكم بمقتل رسول الله ﷺ.

﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾: من الغنيمة، والنصر؛ جاءت (لكيلا) في هذه موصولة، وفي الآية (٧) في سورة الحشر جاءت مفصولة

(كـــي+لا)، ويجوز كناية لكي لا موصولة أو مفصولـــة، وهذا يدل أولاً: على أن ما نقرأه في القرآن هو كما نـــزل على قلب محمد ﷺ بدون تحريف؛ ثانياً: لعدم فصل بين الحزن على ما فاتكم من الغنيمة وبين ما أصابكم من الجراح والهزيمة؛ لأن الأول هو سبب الثاني.

﴿وَلَا مَآ أَصَـٰبَكُمْ﴾: من الهزيمة، والقتل، أو الجراح، والرعب بمقتل رسول الله ﷺ.

أي: ما حدث لكم من غم، وهزيمة، وجراحات: هو جزاء لما حدث منكم من معصية، ومخالفة لأمر رســـول الله ﷺ؛ حيث تركتـــم مواقعكم ركضاً وراء الغنيمة، ومع ذلك سوف يثيبكم الله عليها، ويعفو عنكم، ويطهركم من ذنوبكم، ولتكون عبرة، وموعظة للأيام القادمة، ودرساً لعدم مخالفة رسول الله ﷺ فيما آتاكم، ونهاكم عنه.

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾: فاللـــه ســـبحانه خبيـــر؛ أي: عليـــم ببواطن أموركم، وبكل مـــا حصل من معصية، وتنازع، وفرار، وقتل، وترك النبي ﷺ في أرض المعركة وحدة، والله مطلع على نواياكم، وعقولكم، وما تخفي الصدور.

❖ ❖ ❖

ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً
مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ
ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ
قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ
يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ
فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ
وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ
وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ
يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا
كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا
ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا
قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ
وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ
أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾

سورة آل عمران [الآيات ١٥٤ - ١٥٧]

[١٥٤] ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾:

﴿ثُمَّ﴾: لتباين فضل النعاس على الغم.

﴿أَنزَلَ عَلَيْكُم﴾: كلمة أنزل عليكم تدل على أن النعاس عطاء علوي، ورحمة من الله، وآية من آياته؛ لأن صاحب الغم، والهم لا ينام أبداً، وهنا يُنزل الحق سبحانه فضله عليهم بالنوم من بعد الغم، من تعني: مباشرة من بعد الغم أمنة نعاساً.

وقال أمنة: ولم يقل الأمن، فما هو الفرق بينهما؟

الأمن: هو الطمأنينة مع زوال السبب، أو الأسباب؛ أي: زوال الخوف كاملاً.

الأمنة: الطمأنينة إلى حد ما؛ أي: عدم زوال الخوف كاملاً، فلا يزال هناك بعض الخوف مخيم على الناس، ولا يزال هناك بعض الخوف، لعدم زوال الأسباب كاملة، فالأمن أفضل من الأمنة.

﴿يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾: يغشى: يغطي ويستر، أو يلابس كالغشاء.

﴿طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾: وهم المؤمنون المخلصون الذين ثبتوا في أماكنهم، أو الذين أخطؤوا، وعصوا الرسول ﷺ بدون قصد ونية ومعرفة عاقبة أمرهم.

وتعريف الطائفة: جماعة تطوف حول فكرة واحدة، أو أفكار معينة؛ أي: لهم سياسة واحدة، أو عقائد واحدة.

﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾: هم المنافقون خرجوا فقط طمعاً في الغنيمة لم يصبْهم أي نعاس، وأهمهم خلاص أنفسهم، ونجاة أنفسهم.

﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾: يظنون بالله غير الحق: الباء: للإلصاق، والحق: هو الأمر الثابت الذي لا يتغيَّر.

ظن الجاهلية: الظن: هو التردد الراجح، وهو ظن السفه مثل:

١ - أن الله أخلف وعده لنا بالنصر، ونسوا أنهم عصوا رسول الله ﷺ.

٢ - لو كان محمد نبياً حقاً ما أصابنا هذا.

٣ - بأن محمداً غير نبي، وأمره باطل، وأن الله لن ينصره.

﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾: يقولون لأنفسهم سراً: هل لنا: هل: للاستفهام، وفيها معنى الجحود، والنفي.

لنا من الأمر: من: استغراقية. الأمر: النصر، أو الهزيمة، أو الغنيمة، أو الخروج إلى أحد لم يكن لنا فيه رأي.

من شيء: من نصيبٍ؛ أي: لم نُصِبْ لا نصراً، ولا غنيمة، ولا حظاً من خروجنا إلى غزوة أُحُدٍ.

أو: لـــو كان الأمر لنا مـــا خرجنا من المدينة إلىٰ أُحُـــدٍ (أصلاً كان رأينا ألا نخرج، وما أصابنا ما أصابنا)، وإنما خرجنا كرهاً.

﴿قُلْ إِنَّ﴾: أي: النصر، والظفر، والخروج، وسواء خرجتم أم لم تخرجوا، والدخول، والقدر، والقضاء، والموت، والقتل كله لله.

﴿يُخْفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾: يخفـــون في أنفســـهم مـــن الكفر، والعـــداوة، والحقد، أو النفـــاق، أو الندم علىٰ الخـــروج؛ أي: يبطنون الإنكار، والتكذيب، والنفاق.

﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾: أي: لـــو كان الأمر كما قال محمد أن الأمر كله لله ولأوليائه؛ لما غلبنا أيضاً قط، ولما قتل كثير من المسلمين في هذه المعركة.

لو كان لنا شيء من النصر، أو الظفر الذي وعدنا به محمد وأصحبه ما قتلنا هاهنا.

فهم يظنـــون أن خروجهم إلـــىٰ أرض المعركة هو ســـببٌ لموتهم فهم لا يؤمنون بأن الموت والحياة بيد الله.

﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾: هـــذا كان رداً علىٰ ســـؤالهم لو ما خرجنا ما أصابنا ما أصابنا، قل يا محمد لهم: لو تخلفتم، ولم تخرجوا؛ لخرج منكم من كتب عليه القتل، أو الموت، وظهر وانكشف أو بان بشدة (أي: برز)، وماتوا بدون جهاد، أو قتال بالمكان الذي حدد له. مضاجعهم: (مصارعهم)؛ أي: لو لم تخرجوا وبقيتم في المدينة لما نجا من القتل منكم أحدٌ.

فالجهاد ليس ســـبباً لقتلكـــم، فهناك من يجاهد، ولا يقتـــل، وهناك من لا يجاهد ويُقتل، ويموت، فالأمر بيد الله، وبإذن الله.

﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾: من الإخلاص، أو النفاق، والشك، والريبة، ووساوس الشيطان.

وليبتلي الله: اللام: للتوكيد؛ ليبتلي: من الابتلاء. ارجع إلى الآية (٣١) من سورة محمد؛ لمزيد من البيان.

﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾: يطهر، ويخلص قلوبكم من الذنوب، والتمحيص؛ يعني: التخلص من الذنوب، والسيئات، ويقال: محص الذهب بالنار؛ أي: أزال عنه ما يشوبه من الخبث. بالابتلاء؛ أي: أبان ما في قلوبكم من الاعتقاد، والشرك.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾: ارجع إلى الآية (١١٩) من نفس السورة؛ للبيان.

[١٥٥] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾:

﴿إِنَّ﴾: للتوكيد.

﴿ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ﴾: أي: انهزموا يوم أُحُدٍ منكم، وتولوا عن القتال، ولم يقاتلوا منكم يا معشر المسلمين.

﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾: يوم أُحُدٍ يوم التقى جمع المسلمين، وجمع الكافرين؛ فقد تولَّى أكثر المسلمين، ولم يبق مع النبي ﷺ إلا ثلاثة عشر رجلاً، كما ذكرت الروايات.

﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: إنما: كافة مكفوفة تفيد التوكيد. استزلهم: بمعنى أزلهم ولكن أكثر تأكيداً ومبالغة في الزل؛ فقد كانت أُحد أعظم الزلات.

استزلهم الشيطان: بالوسوسة، والتزيين، الألف والسين والتاء؛ تعني: الطلب؛ أي: طلب منهم الشيطان أن يزلُّوا؛ لأنه علم فيهم ضعف الإيمان، والشيطان لا يستزل إلا الضعيف، والزلل: هو العثرة، والهفوة، مثل انزلاق القدم، وسقوط صاحبها، والسقوط، أو الوقوع في الخطأ الذي قد يؤدي إلى ما هو أعظم غير متوقع، والإثم هو توليهم عن القتال، وانسحابهم من أرض المعركة، وترك مواقعهم في جبل أُحُدٍ، ومخالفة أمر رسول الله ﷺ.

الشيطان: ارجع إلى الآية (٣٦) من سورة البقرة؛ للبيان.

﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾: أوقعهم الشيطان ببعض الذنوب؛ كالطمع في الغنيمة، وكره القتال، أو الجهاد في سبيل الله، ومعصية الرسول ﷺ.

﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾: الواو: عاطفة، لقد: اللام: للتوكيد، قد: للتحقيق والتوكيد، عفا الله عنهم: لتوبتهم، واستغفارهم ربهم.

والعفو هو: ترك العقوبة على الذنب. ذنب معصية الرسول ﷺ.

﴿إِنَّ﴾: للتوكيد.

﴿غَفُورٌ﴾: صيغة مبالغة كثير الغفر مهما كثرت أو عظمت الذنوب؛ فالله يغفرها؛ إلا الشرك. صيغة مبالغة.

﴿حَلِيمٌ﴾: لا يعجل العقوبة لعباده؛ لعلهم يتوبون، وينيبون إليه ، ذو الصفح، والأناة، حليم لمن عصاه مع القدرة على العقوبة.

[١٥٦] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: نداء جديد للذين آمنوا، والهاء: للتنبيه، بتكليف جديد، أو تحذير، أو تنبيه.

﴿لَا﴾: الناهية، ﴿تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾: في الكفر، والنفاق.

﴿إِذَا﴾: ظرفية للماضي والاستمرار فهم قالوا في الماضي، وإذا تدل على شأنهم وللاستمرار في قولهم وأنه لن يتوقف.

﴿ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: خرجوا للتجارة، أو السفر في الأرض، وليس على الأرض؛ لأن الطبقة الغازية المحيطة بالأرض هي تابعة للأرض.

وأصل الضرب: إيقاع شيء على شيء، ويعني: ضرب الأرض بالأرجل، ويعني: السير عليها.

﴿أَوْ كَانُواْ غُزًّى﴾: أي: غزاة، جمع غازي، والغزو: هو الخروج لمحاربة العدو، وأصل الغزو: قصد الشيء، والمغزَى: أي: المقصد.

﴿لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾: لو كانوا عندنا: لو: شرطية.

كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا: أي: لو بقيتم عندنا، ولم تخرجوا للسفر، أو القتال (الغزو) لما مُتّم، ولما قتلتم.

وهو اعتقاد خاطئ؛ لأن الموت العادي، أو الموت بالقتل هو بأمر الله تعالى وقضائه.

هو كتابٌ مؤجلٌ سيقع سواء كنتم في سفر، أو في غزو، أو في قعر بيوتكم، أو بروج مشيدة، وليس السبب في موتكم، أو قتلكم هو الخروج، أو عدمه.

﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾: ليجعل: اللام: لام التعليل، أو الاختصاص.

الله ذلك: اسم إشارة، واللام: للبعد، والكاف: للخطاب. ذلك: يشير إلىٰ القول الذي قالوه: ﴿لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟﴾.

يجعل الله سبحانه قولهم حسرة في قلوبهم، والحسرة: تعني الحزن الشديد، والشعور بالندم، وظهور ذلك علىٰ الفرد؛ أي: يشعروا بأشد الندم، والأسف علىٰ ما قالوا.

انتبه: أسند الله الفعل إليه؛ أي: هذا الاعتقاد الفاسد في أذهانهم بالنسبة للموت، والقتل أن سببه الضرب في الأرض، أو الغزو سيكون لهم سبباً في زيادة الغم، والحسرة، وضيق الصدر إذا ماتوا، أو قتلوا حقيقة، وفي هذا تحذير للمؤمنين أن يفعلوا كما فعل الذين كفروا، ويتحسروا علىٰ من مات أو قتل بناءً علىٰ اعتقادهم الفاسد الخاطئ: أن موت هؤلاء، أو قتلهم ليس بسبب من الله، وإنما بسبب خروجهم.

﴿وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾: من يشاء ومتىٰ شاء، وأين شاء، وكيف شاء في السفر، أو الغزو، أو قعر بيوتكم، ولا يموت أحد إلا بأمره، وقدره.

ولا تستقدمون ساعة ولا تستأخرون.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: العمل يشمل القول، والفعل؛ أي: بصير بما تقولونه، أو تفعلونه، فلا تخفىٰ عليه خافية في الأرض، ولا في السماء.

حتىٰ أن اعتقادهم الفاسد بأن موتهم، أو قتلهم ليس بأمر من الله، وإنما

بسبب خروجهم للجهاد أصبح معلوماً، ولم يعد يخفى على أحد، فأصبح مكشوفاً للكل، ولذلك قال سبحانه: بما تعملون بصير، ولو أخفوه لقال تعالى: والله بما تعملون خبير.

[١٥٧] ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾:

﴿وَلَئِن﴾: الواو: استئنافية، واللام في لئن: للتوكيد، وإن: شرطية تفيد الاحتمال، وقلة الحدوث.

﴿قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: في الجهاد في سبيل الله.

﴿أَوْ مُتُّمْ﴾: في سفر، أو في إقامتكم.

انتبه إلى ضم الميم في كلمة مُتم. انظر في ملحق هذه الآية؛ لمعرفة الفرق بين مُتم، ومِتم.

﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾: لمغفرة من الله ورحمة: اللام في لمغفرة: جواب الشرط؛ أي: إن قتلتم في سبيل الله، أو متم في سبيل الله كلاهما وسيلة لنيل المغفرة من الله التي تمحو الذنب عنكم.

ورحمة: التي ترفع الدرجات، ورحمة: نكرة؛ أي: رحمة من الله مُرحب بها.

هذه المغفرة والرحمة خير وأفضل من البقاء في الدنيا، وجمع المال والعرض.

﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾: يجمع المنافقون من حطام الدنيا، والمال والمتاع، مما: (من وما): من البعضية، ما: اسم موصول، أو مصدرية.

وفي هذا حث على الجهاد في سبيل الله، والموت لنيل الرحمة والمغفرة.

ومن الناحية البيانية: لا بد من معرفة لماذا ضم الميم في مُتم في هذه الآية.

بينما في الآية (٣٥) من سورة المؤمنون كسر الميم، فقال: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾.

لأن حركة الضم هي أثقل الحركات المستعملة في اللغة العربية، والموت في سبيل الله بسبب الحروب والجهاد والشدة هو أثقل وأشد أنواع الموت، فجاء بأثقل الحركات؛ لتناسب أشـــد الأفعال (الموت في سبيل الله والقتل)، وبما أن حركة الكسر هي أخف الحركات المستعملة في اللغة العربية، والموت الطبيعي على فراش الموت أو العادي هو أخف من الموت في ســـبيل الله، فجاء بأخف الحركات؛ لتناسب أخف أنواع الموت شدة.

❖ ❖ ❖

وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ
ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ
فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ
فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ
فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ
بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن
يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ
نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ
ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ
﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾
لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ
يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ
وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾
أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ
قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾

سورة آل عمران [الآيات ١٥٨ - ١٦٥]

[١٥٨] ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾:

﴿وَلَئِن﴾: ارجع إلىٰ الآية السابقة.

وإن: شرطية، مُتم، أو قتلتم: تدل علىٰ احتمال الحدوث.

مُتم: الموت العادي، أو قتلتم في سبيل الله.

أي: سواء ﴿مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ﴾: بأي سبب مصيركم إلىٰ الله عزَّ وجلَّ وحده قطعاً وحصراً. ارجع إلىٰ الآية السابقة؛ لمزيد من البيان.

﴿تُحْشَرُونَ﴾: الحشر: هو الجمع + السوق؛ أي: تساقون إليه، وتُجمعون، ويكون يوم القيامة.

هناك فرق بين القتل، والموت:

الموت العادي: تخرج فيه الروح أولاً مما يؤدِّي إلىٰ موت البدن (نقض البنية) ثانياً.

أما القتل: يحدث فيه نقض البنية أولاً، فترغم الروح بالخروج، وترك البدن الذي لم يعد صالحاً لبقائها فيه.

وبالنسبة للتقديم والتأخير:

نرىٰ في الآية (١٥٦) تقديم الموت علىٰ القتل، فقال تعالىٰ: ﴿مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟﴾.

وفي الآية (١٥٧) تقديم القتل علىٰ الموت، فقال تعالىٰ: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ﴾.

وفي الآيــة (١٥٨) تقديم الموت على القتل، فقــال تعالى: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ﴾.

فما سبب التقديم تارة، والتأخير تارة أخرى؟

ففي الآية (١٥٦): قدَّم الموت على القتل؛ لأن الآية في سياق الضرب في الأرض، أو كانــوا غزى، قدَّم الأكثر، وهو الضرب في الأرض للســفر والتجارة وغيرها على الغزو (غزاً)؛ أي: الأقل.

أما في الآية (١٥٧): قدَّم القتل على الموت؛ لأن القتل أشرف من الموت، وأعظم درجة.

وفي الآية (١٥٨): قدَّم الموت على القتل؛ لأن الســياق عن يوم الحشــر، وعدد الموتى في يوم الحشــر أكثر وأعظم من عدد الشــهداء، فقدَّم الموت على القتل، والله أعلم.

[١٥٩] ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾:

﴿فَبِمَا﴾: الفاء: استئنافية، والميم: للتوكيد.

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾: أصلها برحمة من الله لنت لهم، أو لنت لهم برحمة من الله.

رحمة: هي جلب ما يســر، ودفع ما يضر، وتعنــي: الإنعام على المحتاج، ورحمة هنا: جاءت نكرة؛ للتعظيم.

﴿لِنتَ لَهُمْ﴾: الليــن: الرفــق، واللطف؛ أي: رفيقاً بهــم تعاملهم بالرفق، واللطــف. فبرحمة من الله تعالــى، وتوفيقه لك جعلك ليــن المعاملة، ورقيق المعاشرة لهم.

نزلت هذه الآية في أعقــاب أحداث أُحُدٍ، حيث لم يعنف ﷺ الذين تولوا

يوم أُحُدٍ من المسلمين، بل رفق بهم، فأخبر تعالىٰ أن ذلك كان بتوفيق منه عزَّ وجلَّ.

﴿وَلَوْ﴾: حرف امتناع لامتناع.

﴿كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾: قاسياً جافاً، قاسي القلب، غليظاً، خشن القول، صعب الخلق.

وأصل كلمة فظاً: هو ماء الكرش (الماء الموجود في الأمعاء الغليظة في الإبل).

فالإبل حين تشرب كميات كبيرة من الماء تخزنها في الأمعاء الغليظة، ثم لا تجد ماء تجتر من الماء المخزون، وهذا الماء كريه غير مستساغ الرائحة، وسموا خشونة القول: فظاظة، والفظ: القول الخشن.

﴿لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾: أي: تفرقوا عنك حتىٰ لا يبقىٰ حولك أحد.

﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾: فاعف عنهم أولاً، لما كان بينك وبينهم اعف عنهم لما فعلوه فيك يوم أُحُدٍ؛ حيث عصوا أمرك، وما أصابك من جراح، وبسبب طمعهم في الغنائم.

ثانياً: استغفر الله لهم؛ لأنهم أذنبوا، وعصوا الله ورسوله، فهذا يتطلب منك الاستغفار لهم.

ثالثاً: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾: بعد العفو عنهم، والاستغفار لهم، أصبحوا أهلاً للمشورة، فشاورهم في أمور السلم، والحرب؛ أي: شاور ذوي الرأي، والعلم منهم، والشورىٰ من قواعد الشريعة، وعزائم الأحكام.

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾: فإذا: الفاء: عاطفة، إذا: ظرف للزمن المستقبل.

﴿عَزَمْتَ﴾: العزم: هو الهم بالقيام، وهو القصد الإمضاء فيما جزم عقب المشاورة، أو عزمت ما تريد.

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾: استعن بالله بعد اتخاذ الأسباب الضرورية (التوكل عمل قلبي). ارجع إلىٰ سورة الأعراف، آية (٨٩)؛ لبيان معنىٰ التوكل.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾: إن: للتوكيد، يحب المتوكلين: جمع متوكل، وهو الذي يهيِّئ الأسباب، ثم يدعو الله لمساعدته، ويعتمد عليه سبحانه في شؤونه.

[١٦٠] ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾:

﴿إِن﴾: شرطية تفيد القلة، والاحتمال.

﴿يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾: كما نصركم يوم بدر، فلا أحد يغلبكم، فلا: الفاء: رابطة لجواب الشرط.

وفي آية أخرىٰ في سورة محمد ﷺ آية (٧): ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾.

ونصر الله يكون بإعلاء كلمته، وإعلاء دينه.

والله سبحانه لا يحتاج إلىٰ نصرة؛ فهو القوي العزيز.

﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾: كما خذلكم في أُحُدٍ، الخذل، أو الخذلان، لا يمدُّ لكم يد العون في النصر علىٰ أعدائكم.

﴿فَمَن ذَا﴾: من: للعاقل، استفهامية تفيد النفي؛ أي: لا ناصر لكم إلا الله، وذا: اسم إشارة للقريب.

﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾: الهاء: تعود علىٰ الله سبحانه، والجواب: لا أحد يستطيع نصركم إلا الله.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾: تقديم الجار والمجرور يفيد الحصر؛ أي: علىٰ الله وحده يتوكل المؤمنون.

﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: الفاء: للتوكيد، واللام: في ليتوكل: للتعليل، يتوكل المؤمنون: يعتمدون على ربهم في قضاء حوائجهم. ارجع إلى سورة الأعراف، آية (٨٩)؛ لمزيد من البيان.

[١٦١] ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾:

﴿وَمَا﴾: الواو: استئنافية، ما: النافية.

﴿كَانَ لِنَبِيٍّ﴾: اللام: لام الاختصاص؛ أي: ما يصح لنبي أن يغل.

﴿أَن﴾: للتوكيد، ﴿يَغُلَّ﴾: الغلول الأخذ بالخفاء بمعنى السرقة من الغنائم قبل قسمتها. شرعاً: هو الخيانة في الغنائم؛ كقوله تعالى في سورة المائدة، آية (٦٤): ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟﴾.

﴿وَمَن﴾: شرطية، ﴿يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: قيل: يأتي يوم القيامة حاملاً لما غَلَ أمام الناس، ويُفضح أمام الخلائق.

﴿ثُمَّ﴾: للترتيب والتراخي.

﴿تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾: من خير، أو شر، فينال الغال، وغيره جزاء فعله تاماً كاملاً يوم القيامة، وفي الآية (١١١) في سورة النحل قال تعالى: ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾؛ لأن الأعمال كسب فالعمل أعم من الكسب، ولأن السياق في أمر خاص هو الجهاد جاء بالكسب.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾: هم ضمير منفصل للتوكيد، لا: النافية، يُظلمون: بنقص حسنة واحدة، أو زيادة سيئة واحدة.

[١٦٢] ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾:

﴿أَفَمَنِ﴾: الهمزة همزة استفهام، وإنكار، ونفي؛ أي: (ليس من اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله). والفاء: استئنافية للتوكيد. من: اسم موصول.

﴿اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ﴾: أطاع الله عزَّ وجلَّ فيما أمر ونهى، ولم يغل في الغنيمة، ولم يخن في الأمانة، وأطاع رسول الله ﷺ، وخرج لجهاد العدو، ولم يعص رسوله ﷺ، وثبت في أرض المعركة.

﴿كَمَنْ﴾: الكاف: للتشبيه، من: اسم موصول؛ أي: كالذي.

﴿بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ﴾: باء: رجع واستحق غضب الله لمعصيته، وغلوله، وتخلف عن رسول الله ﷺ (كجماعة المنافقين) في الخروج للجهاد. السخط: الكراهية: عدم الرضا بما قدر الله، وقسم، وإظهار القبيح من القول والفعل، ويعني: التقبيح والسخط قد لا يكفي وحده، وفيما بعده جهنم وبئس المصير.

﴿وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ﴾: مكان استقراره جهنم. ارجع إلى الآية (١٢) من نفس السورة؛ للبيان، وسورة الرعد آية (١٨) لمزيد من البيان.

﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾: بئس: فعل ذم، وهنا يعني: الذم العام. المصير: المرجع والمنتهى؛ لأن إظهار السخط قد لا يؤثر في بعض الناس، ولا تنفع فيهم اللعنة، ولذلك جاء بقوله: ومأواه جهنم وبئس المصير.

[١٦٣] ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾:

﴿هُمْ﴾: ضمير منفصل يعود على الذين اتبعوا رضوان الله، والذين باؤوا بسخط الله.

أو تعود على الذين اتبعوا رضوان الله فقط، فهؤلاء يتفاوتون في درجاتهم بالنسبة للقرب من الله، أو في رضوانه عليهم في كون بعضهم أفضل من بعض، كما قال تعالى: ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ [الإسراء:٥٥].

﴿هُمْ دَرَجَاتٌ﴾: أي: بعضهم أفضل من بعض بالقرب من الله تعالى.

ولهم درجات: لهم درجات تعني: درجات الجنة التي قيل: إنها مئة درجة.

إذن هم درجات؛ أي: بعضهم أفضل من بعض بالنسبة للقرب من الله،

ولهم درجـات مختلفة؛ أي: درجات الجنة، كما فـي قوله تعالىٰ: ﴿لَهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنفال:٤].

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ﴾: يبصر كل شـيء، أحاط بصره بعباده، فهـو يرىٰ أفعالهم، ويسمع أقوالهم، ولا تخفىٰ عليه خافية.

﴿بِمَا﴾: الباء: للإلصاق، ما: اسم موصول، أو مصدرية .

﴿يَعْمَلُونَ﴾: العمـل يعني القول + الفعـل بما يعملـون؛ أي: أقوالهم وأفعالهم، وقدَّم بصير علىٰ يعملون؛ لأن الآيات في سياق الأعمال القلبية.

[١٦٤] ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾:

﴿لَقَدْ﴾: اللام: للتوكيد، قد: للتحقيق، والتوكيد.

﴿مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: مـنّ: أي: أنعم وتفضل (والمـن هو العطاء بلا مقابل).

وهناك المن المذموم: وهو الذي يتبع الصدقة المن، والأذىٰ.

﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: رغم أن رسـول الله ﷺ رحمة للعالمين، ورسولٌ إلىٰ الناس جميعاً، ولماذا المن علىٰ المؤمنين فقط؛ لأنهم هم الذين انتفعوا به خاصة من دون الناس؛ لأن بقية الناس لم يصدقوا به.

﴿إِذْ﴾: ظرف زماني، وتعني حين ، أي: حين بعث فيهم.

﴿بَعَثَ فِيهِمْ﴾: أي: أرسـل فيهم والبعث فيه قوة وحض ومشـقة أكثر من أرسل. ارجع إلىٰ الآية (١١٩) من سورة البقرة؛ للبيان.

﴿رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾: جاءت هذه الآية في سياق تعداد النعم علىٰ المؤمنين؛ أي: من المؤمنين، ومن أنفسهم؛ قد تعني: من قريش، بينما في آيات أخرىٰ يقول:

رسولاً منهم؛ أي: من عامة العرب، أو الناس، ومنهم: جاءت في سياق دعاء إبراهيم أثناء بناء البيت مع إسماعيل.

﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾: آيات القرآن، والهاء في آياته تعود إلىٰ الله سبحانه تشريفاً لهذه الآيات.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾: التزكية: هي التطهير، والنماء، تطهير من الشرك، والكفر، والأوثان.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾: الكتاب القرآن العظيم؛ أي: يعلمهم القراءة، والمعنىٰ، والأحكام؛ أي: يتلو عليهم أولاً، وبعد ذلك يزكيهم، وبعد ذلك يعلمهم ما جاء في القرآن من أحكام وشرائع.

﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾: أي: السنة النبوية.

﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾: وإن: الواو: للتوكيد، إن: المخففة؛ للتوكيد كذلك.

لفي: اللام للتوكيد، في: ظرفية زمانية قبل مجيء أو بعث محمد ﷺ رسولاً فيهم.

ضلال مبين: ضلال: بعد عن الحق. ضلال: نكرة تشمل كل أنواع الضلال.

ضلال مبين: ظاهر، واضح لكل إنسان، وبين أنه ضلال لا يُخفي نفسه. ارجع إلىٰ سورة البقرة، آية (١٩٨)؛ لمزيد من البيان.

[١٦٥] ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾:

﴿أَوَلَمَّآ﴾: الهمزة: استفهام للتعجب، والإنكار؛ لقولهم أنىٰ هذا. والواو: العاطفة، لما: ظرف بمعنىٰ حين تتضمن معنىٰ الشرط.

﴿أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾: أي: ما أصابكم يوم أُحُدٍ من هزيمة، وفاجعة، وقتل (٧٠) منكم.

﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾: قد: للتحقيق، والتوكيد، أصبتم مثليها: أي: يوم بدر فقد قتلتم (٧٠) من الكفار، وأسرتم (٧٠)؛ جعل المثلين في اليومين (يوم بدر ويوم أحد)، وجعل الأسر كالقتل.

﴿قُلْتُمْ﴾: متعجبين يوم أُحُدٍ.

﴿أَنَّىٰ﴾: للتعجب، والاستفهام تعجبتم وسألتم: كيف يحدث لنا هذا، ونحن مسلمون، أو من أين حدث لنا هذا الخذلان، ورسول الله ﷺ فينا، فكان من الأفضل ألا تسألوا هذا السؤال.

﴿قُلْ﴾: لهم يا محمد ﷺ:

﴿هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾: أي: السبب بين وواضح هو عصيانكم لرسول الله ﷺ، ومخالفة أوامره طمعاً في الغنيمة، وحب الدنيا، والفرار من أرض المعركة، وعدم الثبوت، والقتال مع رسول الله ﷺ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾: إن: للتوكيد، الله علىٰ كل شيء قدير: قدير علىٰ أن يخذلكم، ويهزمكم، وقدير علىٰ أن ينصركم، القادر علىٰ كل شيء، فلا يعجزه شيء في الأرض، ولا في السماء مهما كبر، أو صغر، كامل القدرة.

❖❖❖

وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ
(١٦٦) وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ
أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّا ٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ
يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ
فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ
وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ
ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ (١٦٨) وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ
بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟
بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠)
۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٧١) ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ
أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢)
ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ
فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ (١٧٣)

الحزب ٨

سورة آل عمران [الآيات ١٦٦ - ١٧٣]

[١٦٦] ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ﴾: الواو: استئنافية، ما: اسم موصول، أصابكم: حدث لكم وحل بكم.

﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾: يوم أُحُدٍ (يوم التقى جمع المؤمنين وجمع الكافرين).

﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: بعلم الله، وأمره، وبإرادته، وقضائه. الفاء: للتوكيد، والباء: للإلصاق.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: عاطفة. ليعلم: اللام: لام التوكيد (وقيل: التعليل).

هناك إشكال في فهم هذه الآية من قبل البعض.

فقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾: أي: ما حدث وجرىٰ يعلمه الله سبحانه منذ الأزل أنه سيحدث، وسيقتل منكم (٧٠)، ويعلم نتيجة المعركة قبل أن تحدث.

وما جرىٰ يوم أُحُدٍ من الأحداث؛ لكي يعلم المؤمنون أنفسهم، والذين نافقوا أنفسهم، وغيرهم بتلك الحوادث.

فلا يستطيعون إنكارها، وتقام عليهم الحجة، فكيف تقام عليهم الحجة، فقد يقول قائل: أنا مستحيل أن أعصي رسول الله ﷺ، أو أخالف أمره، ولن أترك

مقعدي على أحد هذا مجرد تصريح منه، فإذا اختبرناه وامتحناه فعلاً، وقام بذلك فقد أقام لنفسه الحجة، وفاز، وأما إذا خالف، وعصى، وترك مقعده راكضاً وراء الغنيمة، ثم انهزم من أرض المعركة عندها تقام عليه الحجة، فلا يستطيع إنكار ذلك، وتظهر له نتيجة عمله، فلا يستطيع إنكارها.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: ولم يقل: الذين آمنوا؛ لأن هناك فرقاً بين الذين آمنوا، والمؤمنين:

فأما المؤمنون: فهم الذين أصبحت صفة الإيمان ثابتة لهم، وصلوا إلى درجة الإيمان، ونالوا ذلك.

وأما الذين آمنوا: لا زالوا في طريقهم إلى الوصول إلى درجة الإيمان الثابت التي وصل إليها المؤمنون، فالذين آمنوا يتجدَّد، ويتكرَّر إيمانهم، أما المؤمنون إيمانهم ثابت، ومستمرٌّ لا يتغيَّر.

[١٦٧] ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾:

﴿وَلِيَعْلَمَ﴾: الواو: عاطفة، ليعلم: اللام: للتوكيد (لها نفس معنى: وليعلم المؤمنين).

﴿ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾: وهم جماعة عبد الله أُبي حيث خرجوا للقتال مع رسول الله ﷺ يوم أُحُدٍ، ولكن بعد مسيرهم بعض الطريق تخاذلوا رجعوا،

وكان عددهم ثلث المقاتلين، ولما اتخذ هؤلاء المنافقون القرار بالانسحاب، والرجوع، وعدم القتال قيل لهم:

﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: كما يقاتل المؤمنون. ﴿أَوِ ادْفَعُوا﴾: أي: دافعوا عن أموالكم، وأنفسكم، وأهليكم على الأقل إذا كنتم لا تريدون الجهاد في سبيل الله.

قال المنافقون للمؤمنين:

﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾: أي: ما خرجتم إليه يوم أُحُدٍ هو ليس قتالاً، ولا دفاعاً، بل هو إلقاء بأنفسكم إلى التهلكة (لأن رأي عبد الله بن أُبَيٍّ كان الإقامة في المدينة، وعدم الخروج والتصدي لقتال المشركين في المدينة، وليس في خارج المدينة)؛ حيث كان لهم سابق خبرة أن القتال خارج المدينة سيورث الهزيمة، والقتل؛ لذلك رفض هؤلاء المنافقون، واحتجوا بتلك الذريعة، وقالوا: لن نتبعكم؛ لأن هذا ليس قتالاً، وإنما هو انتحار.

﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾: أي: يوم تخاذلوا، ورجعوا، وقالوا: لن نتبعكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان؛ أي: ابتعدوا كثيراً عن الإيمان إلى الكفر.

﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾: ينطقون بالإيمان بألسنتهم فقط، وليس في قلوبهم إلا الكفر (النفاق)، أو يقولون: نحن أنصاركم، وأعوانكم، وهم أعداء يريدون السوء للمؤمنين.

﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ﴾: من النفاق، والعداوة. والكتمان: هو الإخفاء الذي يختص بالأمور المعنوية؛ كالإسرار، والإخبار.

[١٦٨] ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾:

﴿ٱلَّذِينَ﴾: تعود على المنافقين الذين قعدوا عن القتال.

﴿قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ﴾: الذين مضوا بالخروج إلى أُحُدٍ ولم يتراجعوا، ثم هُزموا، وقُتل منهم (٧٠) رجلاً.

﴿لَوۡ﴾: شرطية تفيد التمني.

﴿أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾: أي: أطاعونا بعدم الخروج إلى أُحُدٍ، ما: النافية، قُتلوا: ما أصابهم ما أصابهم يوم أُحُدٍ.

﴿قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ﴾: الدرء: هو الدفع بشدة. ادفعوا عن أنفسكم الموت إذا حضر؛ أي: إذا حضر أجلُكم، أو ارفضوا الموت إذا جاءكم بشكل مفاجئ أو شديد فيها معنى التحدي حتى ولو كان الموت شيء مرئي لا يمكن للإنسان حماية نفسه.

﴿إِن﴾: شرطية.

﴿كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾: أن الفرار من الموت، والحذر، أو القعود عن الجهاد يُنجي من الموت، وجواب إن محذوف؛ للتعظيم، والتهويل.

[١٦٩] ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ﴾: الواو: استئنافية، لا: الناهية، تحسبن: من الحسبان، أو الحساب، والنون في تحسبن: للتوكيد.

تحسبنَّ: من حسب؛ أي: اعتقد، حسبتم؛ أي: اعتقدتم اعتقاداً راجحاً، أو حسب تعني: الظن الراجح المبني على حساب حسي، وحساب قلبي قائم على النظر، والتجربة، والحساب.

﴿ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: سواء شهداء بدر، أو شهداء أُحُدٍ، أو غيرهم من الذين استشهدوا في سبيل الله، وهم يقاتلون لإعلاء كلمة الله تعالى ودينه.

﴿أَمْوَٰتًۢا﴾: جمع ميّت: بالتشديد؛ أي: خرجت روحه، وفقد عنصر الحياة، فهم ليسوا كذلك.

﴿بَلْ﴾: حرف إضراب إبطالي؛ أي: ليسوا بأموات كما يحسبهم الناس.

﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾: حياة برزخية حقيقية، لا يعلم حقيقتها إلا الله سبحانه وتعالى، ونؤمن بها كما أخبرنا عنها القرآن الكريم، ورسول الله ﷺ.

﴿يُرْزَقُونَ﴾: يتنعمون بطيب الرزق، ولذيذ العيش، ويرزقون تأكيد لكلمة أحياء.

﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾: هذه العندية عند ربهم لا تشبه العندية عندنا في الدنيا فهي عندية خاصة، عندية تكريم وتشريف.

وعندما نفتح القبر ونجدهم تراباً وعظاماً، ونحكم عليهم بأنهم تراب وعظام نحكم عليهم بقانون الدنيا، أو عنديتنا ، أما في قانون الله، وقانون الآخرة

فهم أحياء يرزقون، فهم في حياة جديدة، وعالم جديد، ونحن في عالم الدنيا، وحياتنا تختلف عن حياتهم، وليس لنا القدرة على سماعهم، ورؤيتهم، ويكفي أن رسول الله ﷺ قد سمع اللَّذَين يعذبان في قبرهما، وأنه خاطب قتلى بدر.

[١٧٠] ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾:

﴿فَرِحِينَ﴾: الفرح في القرآن أنواع: الفرح المحمود، والفرح المذموم، والفرح المباح، وسياق الآيات يحدد نوع الفرح المطلق والمقيد، وأنواع الفرح: المحمود، والمذموم، والمباح، والفرح: انفعال طبيعي يتمثل بانشراح الصدر بلذة عاجلة، وقد يتمثل بالبطر والفرح المطلق، والفرح النسبي لشكر الله، وزخارف الدنيا، وأكثر ما ورد في الذم، وأما الفرح المحمود: فهو المقيد بأمور الدين والآخرة والخير؛ سواء أكان حسياً أم معنوياً، والفرح في هذه الآية من الفرح المحمود، ويعود على الذين قتلوا في سبيل الله، بما: الباء: للإلصاق، ما: اسم موصول، أو مصدرية.

﴿ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾: بما آتاهم من نعيم ورزق وكرامة.

من فضله: من: ابتدائية، فضله: الفضل هو الزيادة عن الاستحقاق، أو الأجر. والفضل ليس بواجب على أحد.

﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ﴾: من البشرى: وهي الخبر السار الذي يصل لأول مرة، والبشر والبشارة، فالبشارة تؤدِّي إلى تغير لون الوجه؛ ليصبح الوجه متلألئاً، وله بريق ولمعان من السرور.

﴿بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾: أي: يسرون بإخوانهم الذين تركوهم

يجاهدون على الأرض، وأنهم سيأتون من بعدهم بالشهادة في سبيل الله؛ ليشاركوهم في النعيم الدائم، ولنعلم أن دخول الجنة لا يكون إلا برحمة من الله، وفضل حتى الشهداء.

﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: ألا: أصلها أن + لا. أن: المخففة، ولا: النافية. وأن: تفيد التوكيد. ارجع إلى الآية (٣٨) من سورة البقرة؛ للبيان.

[١٧١] ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾:

﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾: من البشارة، كما ورد في الآية السابقة. فهذه البشارة لهم أنفسهم، أما البشارة السابقة فكانت لإخوانهم الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم، وجاء بصيغة المضارع؛ ليدل على تجدد استبشارهم واستمراره.

﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾: هي الجنة.

﴿وَفَضْلٍ﴾: وكل شيء يمنحونه في الجنة هو فضل من الله، والفضل: هو كل زيادة على أجرهم، ورضوان الله سبحانه، ورؤية وجهه الكريم أكبر فضل.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾: أن: للتوكيد.

﴿لَا﴾: النافية.

﴿يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

[١٧٢] ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾:

أجابوا دعوة الرسول ﷺ، فقد رُوي عن رسول الله ﷺ أنه بلغه أن أبا سفيان من بعد غزوة أُحُدٍ وهزيمة المسلمين يريد الرجوع بقريش إلى المدينة؛

ليستأصلوا مَنْ بقي مِن أصحاب رسول الله ﷺ؛ حيث قال أبو سفيان بعد رجوعهم إلىٰ مكة: لا محمد قتلتم، ولا الكواكب أردفتم، شرٌّ ما صنعتم، فحين علم رسول الله ﷺ دعا رسول الله ﷺ أصحابه للخروج طلباً لأبي سفيان إرهاباً له، وأنه ﷺ لا يزال عنده جيش وقوة، فخرج ﷺ مع عدد من أصحابه، وهم لا يزالون في جروحهم فخرج معهم إلىٰ حمراء الأسد، وبقوا هناك ثلاثة أيام، ثم صرف الله سبحانه أبا سفيان، ومن معه، ورجع رسول الله ﷺ إلىٰ المدينة.

﴿ٱلَّذِينَ﴾: تعود علىٰ المؤمنين صحابة رسول الله ﷺ.

﴿ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾: أجابوا دعوة رسول الله ﷺ بالخروج لقتال، أو ملاحقة أبي سفيان، وجيش قريش بعد رجوعهم من أُحُدٍ. استجابوا وهم مرهقون متألمون، ومثخنون بالجراح.

﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾: من: ابتدائية؛ تعني: مباشرة بدون فاصل زمني.

أصابهم القرح: الجراح، والألم في غزوة أُحُدٍ.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾: للذين: اللام: لام الاستحقاق، أحسنوا: طاعة الرسول، والاستجابة له ﷺ، وأحسنوا من الإحسان كمّاً وكيفاً.

﴿مِنْهُمْ﴾: قدَّم الجار والمجرور خاصَّة، وليس من غيرهم؛ (أي: حصراً وقصراً).

﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾: مخالفة الله ورسوله، وأطاعوا أوامر الله تعالىٰ، وتجنَّبوا محارمه.

﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾: هو الجنة، ومن أعظم الأجور.

[١٧٣] ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾:

﴿ٱلَّذِينَ﴾: تعود على الرسول وصحابته.

﴿قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾: وهم نفر من عبد القيس مرُّوا بأبي سفيان، وهو عازم على العودة إلى المدينة بعد غزوة أُحُدٍ؛ لتصفية المؤمنين، فقال له أبو سفيان أخبر محمداً ﷺ وأصحابه أن أبا سفيان قادم بجيشه، فلما بلغ رسول الله ﷺ ذلك زادهم إيماناً، وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل.

﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾: إن: للتوكيد، الناس قد جمعوا لكم: أبو سفيان، وأصحابه قد جمعوا لكم ليقاتلوكم.

﴿فَٱخْشَوْهُمْ﴾: لا تأتوهم، أو خافوهم، واهربوا منهم، ولا تحاربوهم.

﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾: تصديقاً بالله، ويقيناً بنصر الله لرسوله، وعباده المؤمنين.

﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾: يكفينا الله أمرهم وشرهم.

ونعم الوكيل: نعم من أفعال المدح، نعم المتولي أمورنا، والمدبِّر أحوالنا؛ أي: نفوِّض أمرنا إلى الله الحفيظ.

❖ ❖ ❖

فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ
رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ
يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ ۖ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾
وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ
شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ
عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ
ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ
أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ
وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ
أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ
عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ
وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا
يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا
لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ
وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾

سورة آل عمران [الآيات ١٧٤ - ١٨٠]

[١٧٤] ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾:

﴿فَٱنقَلَبُواْ﴾: الفاء: للمباشرة والتعقيب. انقلبوا: أي: رجع النبي ﷺ وأصحابه من حمراء الأسد بعد عودة أبي سفيان بجيشه إلىٰ مكة، والانقلاب هو الرجوع إلىٰ غير الحالة السابقة التي كانوا عليها، رجعوا مطمئنين سالمين لم يمسسهم سوء بعد أن كانوا خائفين غير آمنين من عدوهم.

﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: الباء: للإلصاق، نعمة من الله: النعمة ما يهبه الله لعبده من خير يجلب له المسرة، ويدفع عنه المضرة.

ولوحظ في القرآن أن نعمة تكتب بالتاء المربوطة أو بالتاء المفتوحة (نعمت).

إجمالاً يمكن القول : وردت بالتاء المربوطة (٢٥) مرة، و(١١) مرة بالتاء المفتوحة.

١ - نعمة: بالتاء المربوطة: غالباً تأتي في سياق نعم الله الظاهرة للعيان، أو سياق النعم العامة، وتعني نعمة واحدة.

٢ - نعمت: بالتاء المفتوحة: تأتي في سياق النعم الخاصة بالمؤمنين، وهي نِعم كثيرة جداً.

وفضل: الفضل: الزيادة علىٰ الأجر، فرغم أنهم لم يقاتلوا أبا سفيان أثابهم ثواب غزوة في سبيل الله.

﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾: لم: نافية، يمسسهم سوء: من قتل، أو أذىٰ حين خرجوا إلىٰ حمراء الأسد.

﴿وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾: بالاستجابة لما دعاهم رسول الله ﷺ، وهو الخروج أو التصدي لأبي سفيان وجيشه بعد معركة أُحُدٍ.

﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾: والله صاحب الفضل المطلق علىٰ المؤمنين بما فضل عليهم، أو بما منّ عليهم بدفع المشركين عنهم، ولمعرفة معنىٰ (ذو): ارجع إلىٰ سورة الأنبياء، آية (٨٧)، وغافر، آية (٣)، وإذا قارنا هذه الآية مع الآية (٧٤) في نفس السورة وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ التعريف بأل التعريف يأتي في سياق الأمور العامة والأكثر شمولاً والأهم.

[١٧٥] ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾:

﴿إِنَّمَا﴾: كافة ومكفوفة؛ للحصر والتوكيد.

﴿ذَٰلِكُمُ﴾: ذا: اسم إشارة، واللام: للبعد، والكاف: للخطاب، وتشير إلىٰ الشيطان.

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: ارجع إلىٰ الآية (٣٦) من سورة البقرة؛ للبيان لمعرفة معنىٰ الشيطان.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: قيل: هو إبليس، أو قيل: هو نعيم بن مسعود الأشجعي، أو كلاهما، وذلكم: اسم إشارة يدل علىٰ وأُحُدٍ بعينه، والغالب: هو نعيم بن مسعود الأشجعي.

فإذا كان هو إبليس فكيف نفسر يخوف أولياءَه، وإذا كان غير إبليس؛ أي: نعيم بن مسعود الأشجعي كيف نفسِّر يخوف أولياءَه؟

أولاً: الشيطان (إبليس) قيل: يخوف أولياءَه تقديره: يخوفكم بأوليائه، أو يخوفكم من أوليائه.

يخوفكم: أنتم المؤمنين حتىٰ لا تخرجوا إلىٰ ملاقاة أبي سفيان وجيشه عند حمراء الأسد، أو يخوفكم من أوليائه: وأولياؤه هم أبو سفيان وجماعته، أو كفار قريش، أو المنافقون.

ثانياً: الشيطان (هو نعيم بن مسعود الأشجعي): وهو يعتبر من شياطين الإنس.

يخوف أولياءَه: لنفهم معنىٰ أوليائه يجب أن نعلم بعد رجوع أبي سفيان منتصراً إلىٰ مكة ألقىٰ الله سبحانه الرعب في قلبه حتىٰ لا يرجع إلىٰ مكة؛ ليستأصل محمداً وصحابته، كما كان ينوي.

يخوف أولياءَه: أي: الأشجعي يخوف أولياءَه حتىٰ لا يخرجوا مع رسول الله ﷺ إلىٰ حمراء الأسد، حين طلب منهم رسول الله ﷺ الجهاد، وملاقاة أبي سفيان وجنودِه.

فالذين يستمعون له ويستجيبون له من الناس هم (أولياؤه)، فلا تخافوهم، وخافونِ (الله).

علاقة أبي سفيان بالأشجعي: التقىٰ أبو سفيان بنعيم الأشجعي حين قدِم مكةَ معتمراً، فقال له: ارجع إلىٰ المدينة فثبِّط محمداً وأصحابه بعدم الخروج للقتال.

فرجع فقال لرسول الله ﷺ وصحابته: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم؛ أي: فلا تخرجوا لقتال أبي سفيان وقريش، ورغم التحذير خرج رسول الله ﷺ مع صحابته إلىٰ حمراء الأسد.

مَنِ استمع إلىٰ قول نعيم الأشجعي، واستجاب له يعدُّ من أوليائه (أولياء الشيطان نعيم الأشجعي).

﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾: لا: الناهية، والخطاب لرسول الله ﷺ والمؤمنين: أي: لا

تخافوا من أولياء الشيطان أبي سفيان وجماعته، أو غيره من المشركين. اخرجوا إليهم، ولا تخافوهم.

﴿وَخَافُونِ﴾: إن قعدتم ولم تخرجوا إليهم لقتالهم، أو التصدِّي لهم.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: إن: شرطية، كنتم مؤمنين: لأن الإيمان يقتضي أن تؤثروا خوف الله على خوف الناس، وكذلك إن الله ناصر عباده المؤمنين.

والعبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب.

فالشيطان سواء كان إبليس أو غيره (من شياطين الجن)، أو من شياطين الإنس أمثال نعيم بن مسعود الأشجعي.

يخوف أولياءَه: أولياؤه هو الذين يستجيبون لوساوس الشيطان، ويخافون أن يخرجوا للجهاد.

وكما بيَّن الله سبحانه وتعالى ذلك في سورة الأنعام، آية (١٢١) فقال: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾، يوحون بالوحي، والوحي في اللغة: هو الإعلام الخفي بالوسوسة، والإغراء، والتزيين؛ يحثُّ بعضهم بعضاً، سواء كانوا من الجن، أو الإنس، فبعد أن يكفروا أو يشركوا، ويعصوا الله ورسوله يطلق عليهم أولياء الشيطان، أو حزب الشيطان.

[١٧٦] ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ۗ يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾:

﴿وَلَا﴾: الواو: استئنافية، لا: الناهية.

﴿يَحْزُنكَ﴾: من الحزن، وهو غم يصب النفس لرؤية، أو سماع ما يسوءُه ويكرهه، وهناك فرق بين الحزُن بضم الزاي، والحزَن بفتح الزاي. ارجع إلى سورة الأنعام، آية (٣٣)؛ للبيان.

فقد كان رسول الله ﷺ يحزن فعلاً حين يرى بعض الناس يسارعون في

الكفر، وكان ﷺ يحرص على إيمان كل إنسان، وهذا الحرص هو الذي دفعه إلى الحزن، ولا غريب في ذلك؛ لأنه رحمةٌ للعالمين.

﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ﴾: ولم يقل: يسارعون إلى الكفر؛ لأنهم أصلاً، أو سابقاً كانوا منغمسين في الكفر، ولم يكونوا مؤمنين، أو كانوا غير كافرين، وهم يسارعون إلى الكفر الآن، وقيل: هم المنافقون، وكفار قريش، وأبو سفيان، أو اليهود يسارعون في الكفر، أو يسارعون في الكفر؛ أي: يزدادون كفراً؛ بارتكاب أنواع جديدة من المحرمات، أو المعاصي والفساد. ويسارعون فيها معنى شدة الحرص على المسارعة وكثرتها وتكرارها بدلاً من يسرعون.

أو كانوا يخفون كفرهم، وهم الآن يظهرون كفرهم على العلن، وليس مسارعتهم في الكفر تقصيراً منك يا محمد ﷺ في إبلاغهم، أو دعوتهم.

﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾: إنهم: للتوكيد، لن: حرف نفي تنفي المستقبل القريب، والمستقبل البعيد.

يضروا الله شيئاً: شيئاً: نكرة؛ أيَّ شيء مهما كان نوعه صغيراً، أو كبيراً، لا في ذاته، ولا ملكه، ولا رسوله، والتنكير يدل على قلة وحقارة ما يفعلونه من الإسراع، أو محاولة الضرر.

انتبه إلى قوله: لن يضروا الله شيئاً: المفروض أن يقول: لن يضروك شيئاً، أو: لن يضروكم شيئاً؛ لأن المعركة هي بين الذين كفروا ورسول الله ﷺ، والمؤمنين، ولكن الله سبحانه وضع ذاته طرفاً في المعركة بدلاً من رسول الله ﷺ والمؤمنين؛ لأن عِداءَ الرسول والمؤمنين هو عداءٌ لله تعالى عزَّ وجلَّ.

فكأن المعركة هي معركة بين الله سبحانه القوي العزيز، وبين الكافرين، فلا يهمكم أمرهم، ولا تحزنوا عليهم.

فهم لا يضرون إلا أنفسهم وسيذوقون وبال أمرهم.

ثم بيَّن الله سبحانه كذلك ما ينتظرهم من جزاء.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا﴾: أصلها أن + لا، أن: للتوكيد، لا: للنفي؛ أي: توكيد النفي.

﴿يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾: الحظ هو النصيب؛ أي: نصيباً من الثواب؛ أي: الأجر في الآخرة، والحظ: يأتي في سياق الخير فقط (في القرآن)، والنصيب: يأتي في سياق الخير والشر، وتدل الآية أن لا: ليس هناك أملٌ، ولا رجاءٌ في أي حظ (ثواب) في الآخرة.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾: اللام في لهم للاختصاص، عذاب عظيم: في ألمه، وكميته، وقدره، ومدته، ونوعه؛ فهو أعظم أنواع العذاب، وأشد من العذاب المهين والأليم.

[١٧٧] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟﴾: إن: للتوكيد، اشتروا: الاشتراء عملية تبادل الثمن هو الإيمان، والمشترىٰ هو الكفر إذن هم اشتروا (أخذوا) الكفر، ودفعوا إيمانهم ثمناً له.

والسؤال هنا: هل كان عندهم إيمان ليدفعوه كثمن؟

والجواب قد يكون ذلك إيمان الفطرة.

﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾: ارجع إلىٰ الآية السابقة؛ لتبيان ذلك.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: شديد الإيلام، لا يطاق.

وقال بعض المفسرين: إن هذه الآية جاءت في سياق الذين ارتدوا عن دينهم.

[١٧٨] ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾:

﴿وَلَا﴾: الواو: استئنافية، لا: الناهية.

﴿يَحْسَبَنَّ﴾: ارجع إلىٰ الآية (١٦٩)؛ لمزيد من البيان.

﴿يَحْسَبَنَّ﴾: من الحساب، أو الحسبان وهو الاعتقاد الراجح المبني علىٰ حساب قلبي، أو عقلي، المبني علىٰ حساب حسي سابق (ناتج عن مراقبة وخبرة).

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا﴾: أنما: أصلها أنَّ: (حرف مشبه بالفعل)، وما: اسم موصول، أو مصدرية.

﴿نُمْلِى لَهُمْ﴾: الإملاء: هو إطالة الوقت؛ يعني: نطيل لهم في العمر، ورغد العيش، وبما يصبوا إليه من نصر وظفر ورزق وغيره.

لهم: اللام: لام الاختصاص، لهم خاصة، وليس لغيرهم.

﴿خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾: الخير هو الشيء الحسن النافع؛ أي: الإملاء: هو ليس شيئاً حسناً، ونافعاً لهم، بل هو شرٌّ لهم.

﴿إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ﴾: كافة مكفوفة للحصر؛ أي: فقط نملي لهم؛ ليزدادوا إثماً.

﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾: اللام: للتوكيد. ليزدادوا إثماً: أي: ذنوباً، وأشد المعاصي.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾: الواو: عاطفة، لهم: اللام: لام الاستحقاق.

عذاب: نكرة؛ أيْ: أشد ما تتصوَّره العقول.

مهين: لا يكفي كونه أليماً وعظيماً، بل مهيناً؛ أي: أمام الناس، وعلىٰ مرأىٰ منهم وفضيحة لهم.

[١٧٩] ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ

﴿ٱللَّهُ لِيَطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾:

﴿مَّا﴾: النافية للحال.

﴿كَانَ ٱللَّهُ﴾: ما كان الله في الماضي، والحاضر، والمستقبل.

﴿لِيَذَرَ﴾: اللام: لام التوكيد، توكيد النفي السابق، ليذر: ليترك، أو يدع.

﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ﴾: أي: من اختلاط المنافقين بالمؤمنين، وعدم معرفة المنافقين من المؤمنين.

﴿حَتَّىٰ﴾: حرف غاية (نهاية الغاية).

﴿يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾: يميز: يظهر ويفرق بين الخبيث (المنافق المشرك، أو العاصي الفاجر) من الطيب (المؤمن الطاهر المخلص).

أي: أنه سبحانه لا بد من أن يمتحن ويبتلي الناس بشيء من المحنة، أو الشدة، ولن يترك الناس على حالتهم حتى يظهر المؤمن الطيب من المنافق الخبيث الفاجر.

وكما قال سبحانه: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [محمد:٣١]. ارجع إلى تلك الآية لمزيد من البيان.

وما حدث في أُحُدٍ كان اختباراً للمؤمنين، وفَضَحَ فيه المنافقين، والذين تخلفوا عن الخروج، ومَن خالف أمر رسول الله ﷺ، ومَن انهزم في المعركة.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ﴾: التكرار يفيد النفي.

﴿لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ﴾: فتعرفوا المنافق من غيره، أو ينزل عليكم الوحي ويطلعكم على ما في قلوب العباد من تقوى، أو كفر. يطلعكم على الغيب (من الإطْلاع)، أما قوله: فلا يظهر على غيبه أحداً (من الإظهار)، فما هو الفرق بين الإطْلاع، والإظهار:

الإطْلاع: يكون مرة، أو مرتين (عدد قليل).

الإظهار: يعني: مرات كثيرة، أو يظهره على كثير من الغيب.

فليس من شأنه سبحانه أن يطلع الناس على الغيب، ولكن خلق لهم عقولاً، وفطرة، وهداهم، وترك لهم أن يميزوا بأنفسهم المؤمن من الكافر بما هو ظاهر لهم من الأسباب.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾: لكن: حرف استدراك.

ومع ذلك لا ننسى أن الله يجتبي يختار ويصطفي من رسله من يشاء، ويطلعه على بعض الغيب، كما قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن:٢٦-٢٧].

أي: يطلع رسوله على من هو منافق، ومن هو مخلص.

﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾: الفاء: للتوكيد، فعليكم الإيمان بالله، ورسله، ومنهم محمد ﷺ.

﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟﴾: إن: شرطية، تؤمنوا: تستمروا، وتحافظوا على إيمانكم، وتستقيموا عليه، وتطيعوا الله سبحانه ورسوله فيما أمر، وتؤمنوا بما جاء به الرسل من أخبار الغيب.

﴿فَلَكُمْ﴾: الفاء: للتوكيد، لكم: اللام: لام الاستحقاق.

﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾: ثواب عظيم، وهو الجنة، لا يفوقه أجر، ولا يعلمه، ولا يحدده أحد إلا الله.

[١٨٠] ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾: ارجع إلى الآية (١٧٨).

﴿يَبْخَلُونَ﴾: يمنعون الحق الواجب عليهم من زكاة، أو صدقة، أو إطعام جائع، أو ستر عارٍ.

﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾: الباء في بما: للإلصاق، الإيتاء: هو الإعطاء مع إمكانية أخذه منه مرة أخرىٰ، الإيتاء: أعم من الإعطاء، ويشمل الأمور المادية والمعنوية. ارجع إلىٰ الآية (٢٥١) من سورة البقرة.

وآتاهم الله من فضله: هنا يعني: المال، والعلم، وغيره، ولا ينفقون منه الواجب.

الذين يبخلون: بصيغة المضارع؛ لتفيد التجدد، والاستمرار.

﴿هُوَ خَيْرًا لَّهُم﴾: هو: إشارة إلىٰ البخل، هو: ضمير فصل يفيد الحصر والتوكيد.

﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾: حرف إضراب إبطالي؛ أي: ليس بخلهم خيراً لهم، بل هو شرٌّ لهم.

والخير كما قلنا: الشيء الحسن النافع.

والشر: هو الشيء الضار، وضده الخير، وتكرار هو: يفيد الحصر، والتأكيد.

﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾: السين: للاستقبال القريب.

﴿مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ﴾: اسم موصول يعني: الذي. سيكلفون ويحملون إثم الذي بخلوا به: إثم عدم دفع زكاة أموالهم، أو سيلزمون إثم ما بخلوا به إلزام الطوق للعنق، وقيل: طوق من النار.

﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: يوم يقوم الناس لرب العالمين للحساب والجزاء.

روىٰ البخاري عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «من آتاه الله مالاً فلم يؤدِّ زكاته مثِّل له شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة، ثم يقول: أنا مالك أنا كنزك».

﴿وَلِلَّهِ﴾: تقديم الجار والمجرور هنا يفيد الحصر؛ أي: لله وحده ميراث السموات والأرض.

﴿مِيرَاثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: الله سبحانه وتعالىٰ له ما في السموات، وما في الأرض، وهو مالك الملك الحقيقي وحده لا شريك له من الأزل إلىٰ الأبد، وكل ما في الكون في السماء والأرض هو ملكه وحده، وما يملكه أي إنسان فقط مستخلف فيه، وبعد نفخه الصعق (النفخة الأولىٰ)، وموت الخلائق جميعاً تبقىٰ أموالهم، وأملاكهم لا أحد يُطالب بها، ويدَّعي أنها ملكه ولا قيمة لها.

والله سبحانه يستردُّ من الخلائق ما جعلهم مستخلفين فيه، وهو ليس في الحقيقة وراثة؛ لأن الوارث يرث شيئاً لم يكن ملكه من قبل، والله سبحانه له ما في السموات، وما في الأرض، وما بينهما من قبل أن يخلقهم.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾: خبير أحاط علمه ببواطن الأمور وظواهرها. وقدَّم بما تعملون علىٰ خبير؛ لأن سياق الآيات جاء في أعمال الكافرين، والمنافقين.

والانتقال من صيغة المخاطب (كقوله: سيطوقون) إلىٰ صيغة (المخاطب) مباشرة (بما تعملون) بدلاً من قوله: بما يعملون؛ للمبالغة في الوعيد، وشدة الإثم.

❖ ❖ ❖

لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ
سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ
ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ
وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ
ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ
تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ
وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾
فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ
وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ
وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ
عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ
إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ
وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ
مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ۚ
وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾

ربع الحزب ٨

سورة آل عمران [الآيات ١٨١ - ١٨٦]

[١٨١] ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾:

أسباب النزول: عن ابن عباس ﷺ قال: دخل أبو بكر بيت المِدْراس فوجد يهوداً قد اجتمعوا إلىٰ رجل منهم يقال له منخاص، فقال له أبو بكر: اتق الله، وأسلم فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله، فقال منخاص: والله يا أبا بكر ما بنا إلىٰ الله من فقر، وإنه إلينا الفقير، ولو كان غنياً ما استقرض منا فغضب أبو بكر فضرب وجه منخاص، وقال: والله لولا العهد الذي بيننا لضربت عنقك، فذهب منخاص إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا محمد! انظر ما صنع صاحبك بي، وأخبره بما قال منخاص فجحد؛ أي: أنكر ما قاله لأبي بكر رضي الله عنه؛ فنزلت هذه الآية.

وقيل عن ابن عباس ﷺ كذلك: أن اليهود أتت رسول الله ﷺ بعد نزول الآية: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، فقالوا: يا محمد! أفتقر ربك يسأل عباده القرض، فأنزل الله هذه الآية: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾.

﴿لَّقَدْ﴾: اللام: للتوكيد، قد: للتحقيق والتوكيد.

﴿سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾: إن: للتوكيد؛ أي: أكد اليهود نسبة الفقر إلىٰ الله علىٰ سبيل المبالغة.

ونحن أغنياء: وصفوا أنفسهم بالأغنياء، وأن الغنىٰ صفة ثابتة لهم، ونسوا أن الله هو الذي جعلهم أغنياء، وأنه هو المنعم عليهم.

﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾: الله سبحانه لا يكتب، وإنما يأمر الملائكة الموكلين بالإنسان أن يكتبوا من الكفر والافتراء علىٰ الله والاستخفاف بالرسول والقرآن، وكتابة كل ما يقال.

وأسند الكتابة إليه سبحانه؛ لبشاعة هذا الافتراء علىٰ الله بأنه فقير، وهم أغنياء، وفي الآية تهديد ووعيد.

﴿وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾: أي: وسنكتب قتلهم الأنبياء بغير حق. ارجع إلىٰ سورة البقرة، آية (٦١)؛ لبيان الآيات المشابهة مثل: قتلهم النبيين بغير حق، أو قتلهم النبيين بغير الحق.

﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾: أي: سنعاقبهم علىٰ قولهم: إن الله فقير، ونحن أغنياء، وعلىٰ قتلهم الأنبياء بغير حق، ونقول ذوقوا: أصل الذوق باللسان، ثم استعمل في عذاب الحريق، وعذاب الحريق: المحرق المؤلم، عذاب بالنار الملتهبة.

[١٨٢] ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾:

﴿ذَٰلِكَ﴾: اسم إشارة، واللام للبعد، والكاف: للخطاب يشير إلىٰ عذاب الحريق.

﴿بِمَا﴾: الباء: للإلصاق، أو السببية، أو التعليلية.

﴿قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾: بسبب ما قدمت أيديكم من أعمال، وذكر الأيدي بالذات؛ لكثرة تداول الأعمال، والمعاصي بالأيدي من قبيل المجاز.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾: ظلام: صيغة مبالغة من الظلم، تقول: فلان ظالم، وإذا أردت المبالغة تقول: ظلَّام؛ أي: كثير الظلم، وعندما نقول: فلان ظلَّام؛ يعني: أنه ظالم أيضاً.

ولكن عندما تقول: فلان ليس ظلَّاماً (ليس كثيرَ الظلم)، فقد يكون ظالماً فقط، إذن تنفي عنه ظلَّاماً، ولا تنفي عنه كونه ظالماً، فالله سبحانه في هذه الآية نفى عن نفسه ظلَّاماً، فهل يعني ذلك أنه ظالمٌ؟ حاشا لله أن يكون ظالماً، ولكي ينفي عنه كونه ظالماً، قوله في سورة النساء، آية (٤٠): ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾، وفي سورة يونس، آية (٤٤): ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾، فبذلك نفى عن ذاته الظلم بكل أشكاله، وموازينه؛ لأنه سبحانه بيَّن للناس الحلال والحرام، والواجب والمباح، والمكروه، وكل ما يحتاجونه في دنياهم. ارجع إلى سورة البقرة آية (١٨٦)، وسورة الزمر آية (١٦) لبيان معنى عبيد عبادي عباد.

[١٨٣] ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾:

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ﴾: هم جماعة من اليهود، وقيل: منهم كعب بن الأشرف، ومالك بن الصيف، وغيره.

قالوا لرسول الله ﷺ:

﴿إِنَّ﴾: للتوكيد.

﴿ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ﴾: أي: أعلمنا، وأوصانا في التوراة.

﴿أَلَّا نُؤْمِنَ﴾: أصلها: أن: للتوكيد، ولا: النافية؛ لتوكيد النفي.

﴿نُؤْمِنَ﴾: نصدِّق. لرسول: يزعم أنه رسول ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف غاية نهاية الغاية.

﴿يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾: القربان: هو ما يتقرَّب به إلىٰ الله تعالىٰ من ذبح أو غيره.

أي: إياكم أن تؤمنوا برسول حتىٰ يأتيكم بمعجزة ترونها بأم أعينكم، وهي أن يقدِّم الرسول نفسه قرباناً فتنزل نار من السماء فتأكله؛ لأن هذا كان من سنن الأنبياء السابقين أن تنزل نارٌ فتأخذ القربان، وقبول القربان هو سرٌّ من أسرار الله، وذلك بعد أن يدعو ذلك النبي، ويناجي ربه حتىٰ يتقبله، ورسول الله ﷺ جاء بمعجزات محسوسة كثيرة، ومنها القرآن، إذن هم طلبوا من رسول الله ﷺ أن يقوم بذلك العمل، فنزلت هذه الآية ردّاً عليهم.

وتأكله النار: النار لا تأكل، فهذا نوع من الاستعارة اللغوية، والذي يأكل هو الإنسان، أو الحيوان.

﴿قُلْ قَدْ﴾: قل لهم يا محمد: قد: حرف تحقيق وتوكيد.

﴿جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: بالمعجزات، والباء: للتوكيد، والإلصاق. وقوله تعالىٰ: (جاءكم رسل) بالتذكير بدلاً من (جاءتكم رسل) بالتأنيث يدل علىٰ القلة كما في الآية (١٤) في سورة فصلت وهي قوله تعالىٰ: ﴿جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ﴾؛ لأن التأنيث في القرآن يدل علىٰ الكثرة، والتذكير يدل علىٰ القلة.

﴿وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ﴾: الذي سألتم من القربان، أو القرابين، والباء: للتوكيد.

﴿فَلِمَ﴾: الفاء: للتعقيب، والمباشرة، لم: استفهام فيه معنىٰ الاستنكار، والتعجب.

﴿قَتَلْتُمُوهُمْ﴾: بدلاً من تصديقهم، فالإتيان بالقربان، وإن تأكله النار هذا مجرَّد كذب وافتراء، ولو كان كلامكم صحيحاً لآمنتم بالرسل الذين جاؤوكم بالقرابين.

﴿إِن﴾: شرطية.

﴿كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾: في طلبكم هذا.

[١٨٤] ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾:

﴿فَإِن﴾: الفاء: عاطفة، إن: شرطية تدل على قلة الحدوث، أو ندرته.

﴿كَذَّبُوكَ﴾: بعد مجيئهم بكل هذه البينات والمعجزات والآيات.

﴿فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾: هذا نوع من التخفيف عن رسول الله ﷺ.

كذبوك: فعل ماضٍ، ولم يقل: فإن يكذبوك بالمضارع التي تدل على الاستمرار، والتجدد، أو تعدد حالات التكذيب. كذبوك في الماضي في حادثة ما وانتهى الأمر.

فقد: الفاء: رابطة لجواب الشرط، قد: للتحقيق والتوكيد.

كُذب رسل من قبلك؛ أي: جاؤوا من قبلك وكذبهم أقوامهم.

﴿جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: المعجزات، والدلائل، والبراهين على نبوتهم وصدقهم.

﴿وَٱلزُّبُرِ﴾: جمع زبور، وهو كل كتاب ذو حكمة، وسمي زبوراً؛ لأنه يزبر؛ أي: يزجر عن الباطل، يدعو إلى الحق (الزبر: الزجر). ارجع إلى سورة النساء، آية (١٦٣)؛ لمزيد من البيان.

﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾: الواضح الجلي بالأحكام والشرائع مثل التوراة، والإنجيل، والقرآن.

١ - لنقارن هذه الآية من سورة آل عمران: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ مع الآية (٣٣) من سورة الأنعام قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾، أو كيف نجمع بين الآيتين؛ فإن كذبوك، فإنهم لا يكذبونك؟

فإن كذبوك: بصيغة الماضي تدل علىٰ المشركين كذبوا رسول الله في حادثة ما، وانتهىٰ الأمر. أو كذبوا بآية من آيات الله تعالىٰ.

فإن كذبوك في الظاهر والعلن أمام الناس ليصدوا الناس عن اتباعك والدخول في الإسلام.

فإنهم لا يكذبونك: أي: في باطن أنفسهم (لا يكذبونك لأنك في أعينهم الصادق الأمين) أما في العلن، وأمام الناس؛ فإنهم يكذبونك.

وإن تكذيبهم لك في العلن، وأمام الناس سوف يتجدَّد، ويتكرَّر، ولن ينتهيَ، ولذلك جاء بصيغة المضارع، وفي نفس الوقت سوف يتجدَّد ويتكرَّر شعورهم بأنك الصادق الأمين.

٢ - لنقارن هذه الآية من سورة آل عمران، مع آية (٢٥) من سورة فاطر:

آية آل عمران: ﴿جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾.

آية فاطر: ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾.

في آية فاطر جاء بـ(٣) باءات في آل عمران بباء واحدة.

تكرار الباء يفيد التوكيد؛ فهو أكد ثلاث مرات في فاطر؛ لأن المقام، أو السياق في فاطر هو في مقام الإنذار، والتبليغ، والدعوة، واستمرار تكذيبهم،

(كما رأينا في قوله: يكذبوك)، وعظم الإنذار بينما السياق في آل عمران جاء في سياق اليهود الذين يمارون في الباطل، ويطلبون من الرسول أن يأتيهم بقربان تأكله النار، فالمقام أقل شدة.

٣ - لنقارن هذه الآية من آل عمران بالآية (٤٢) من سورة الحج:

آية آل عمران: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾.

آية الحج: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ﴾.

في آل عمران: فقد كذب رسل من قبلك؛ أي: واحداً واحداً كل رسول في زمانه كُذِّب، أو ناس كذبوا به، وناس لم يكذبوا.

أما آية سورة الحج: فقوم نوح، أو عاد، أو ثمود؛ فإنهم كذبوا مجموعة من الرسل الذين جاؤوا قبلهم دفعة واحدة كذبوا بجميع الرسل.

٤ - ما هو الفرق بين كُذب وكذبت:

كُذب: تدل على القلة.

كذبت: تدل على الكثرة؛ أي: كثرة الرسل الذين كُذِّبوا.

[١٨٥] ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾:

المناسبة: في الآية السابقة قال سبحانه: فإن كذبوك بسبب عنادهم، ولم يؤمنوا بك، فاعلم أن كل نفس ذائقة الموت، وهذا تهديد للمكذبين بالرسل، والبينات، والكتب.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾: الذوق: هو إدراك الطعم، والذوق في القرآن قد يأتي في سياق العذاب والرحمة؛ أي: الخير والشر. هذا إخبار عام من الله

سبحانه إلىٰ جميع الخلائق بما فيها الجن، والإنس والملائكة، كل نفس، ونفس نكرة تشمل كل نفس ستذوق الموت، والسؤال هنا: هل الموت يذاق كالطعام، أو الشراب، والجواب: لا، وإنما استعمله في هذه الآية من باب المجاز.

أي: كما أن حقيقة الأكل للإنسان، والحيوان؛ أي: لا بد من الأكل، وكذلك حقيقة الموت.

وللموت سكرات، وهذه السكرات لا بد أن يشعر بها كل إنسان قبل موته.

﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: الواو: عاطفة، إنما: كافة مكفوفة تفيد التوكيد، توفون: من التوفية كل إنسان يأخذ أجره كاملاً، أو يوفيه أجره يعطيه أجره كاملاً، وكمال الأجر يكون يوم القيامة، وهذا يعني أنكم ستوفون بعض أجوركم في الدنيا، وفي القبر، وكمال، أو إتمام الأجر يكون يوم القيامة.

الأجر: هو الجزاء علىٰ العمل سواء كان دنيوياً، أو أخروياً؛ أي: هو مقابل العمل.

وقد ذُكرت هذه الآية ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ ثلاث مرات في القرآن الكريم في هذه الآية من سورة آل عمران، وفي سورة الأنبياء، آية (٣٥): ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾، وفي سورة العنكبوت، آية (٥٧): ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾.

يوم القيامة: سمي بذلك الاسم؛ لأنه يوم يقوم فيه الناس لرب العالمين يقومون من قبورهم للحساب والجزاء.

﴿فَمَن﴾: الفاء: عاطفة، من: شرطية.

﴿زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ﴾: أي: أُبعد عن النار، ونجا منها، والزحزحة: هي الإبعاد والتنحية.

وزُحزح: فعل ماض مبني للمجهول؛ فالذي زحزحه هو الله سبحانه بكرمه وفضله.

عن: تفيد المجاورة؛ أي: الابتعاد.

﴿وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ﴾: برحمة الله وفضله، وليس بعمله، دخول خلود.

﴿فَقَدْ فَازَ﴾: الفاء: تفيد التعقيب والمباشرة. وقد: للتحقيق والتوكيد (توكيد الفوز).

والفوز: هو النجاة من الكرب، والحصول على الغاية ما تحب، والفوز أعم وأهم من النجاة يشمل النجاة، أما النجاة فتعني النجاة فقط؛ أي: الخلاص من المكروه، أو الكرب. ارجع إلى سورة النساء آية (٧٣) لمزيد من البيان وأنواع الفوز ودرجاته والمقارنة.

﴿وَمَا﴾: الواو: استئنافية، ما: النافية.

﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا﴾: أداة حصر.

﴿مَتَٰعُ﴾: هو كل ما ينتفع به، ويرغب في اقتنائه، أو يتمتع به كالطعام، وأثاث البيت، والسلعة، والأداة، والمال، ويطلق على القليل والكثير، ويجمع على أمتعة.

﴿ٱلْغُرُورِ﴾: بضم الغين: ما يُغتر به، وهو خلاف ما هو الحقيقة؛ أي: الخداع؛ لكونه متاعاً زائلاً، باطلاً، وفانياً بعكس متاع الآخرة الدائم الباقي.

أما الغَرور: بفتح العين فهي تعني الشيطان (اسمه الغَرور).

والغرور مصدر أضيف إليه المتاع، وكونه للغرور زاد في التحذير منه.

أي: الحياة الدنيا تشبه المتاع الخادع الغار لصاحبه؛ لأنه سيضمحل، ويزول والدنيا متاع متروك، أو متاع زائل مهما كان جميلاً ومبهراً.

[١٨٦] ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾:

﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾: اللام: لام التوكيد، والنون الثقيلة في تبلونَّ تفيد التوكيد؛ أي: زيادة التوكيد في الابتلاء.

تبلون: من الابتلاء، وهو الاختبار، ولكن لا يكون ابتلاءً إلا بتحمل المكاره والمشقة، ويكون بالخير، والشر، والبلاء يكون في الأموال (بالإنفاق، أو النقص بسبب الآفات أو غيرها)، أو الأنفس بالقتل، والجهاد، والجراح، والألم، والمخاوف، والمصائب، والعبادات، والأمراض، وفقد الأحبة.

وقد يكون الاختبار بالخير؛ أي: بالإنعام على الفرد، ولا يقال: يُبتلى الإنسان بالنعمة.

﴿فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾: وقدَّم في أموالكم؛ لأنها الأكثر ابتلاءً على أنفسكم.

﴿وَلَتَسْمَعُنَّ﴾: الواو: عاطفة، واللام للتوكيد، والنون في لتسمعنَّ: لزيادة التوكيد على السماع ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ (اليهود والنصارى)، ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟﴾ (مشركي العرب).

﴿أَذًى كَثِيرًا﴾: الأذى هو الحدث الذي يؤلم لفترة ما، ثم ينتهي أما الضرر فيكون له آثار طويلة بعد وقوعه.

والأذىٰ مثل الطعن في دينكم، وصد الناس عن الدخول في الإسلام، والاتهامات الباطلة، وغيرها.

﴿وَإِن﴾: الواو: استئنافية، إن: شرطية.

﴿تَصْبِرُوا﴾: جاءت بصيغة المضارع؛ لتدل علىٰ التجدد والاستمرار.

وإن تصبروا علىٰ الابتلاء في المال، وفي النفس، وغيرها، وتصبروا علىٰ أذىٰ الذين أوتوا الكتاب، وأذىٰ الذين أشركوا.

﴿وَتَتَّقُوا﴾: تستقيموا علىٰ تقواكم، وتستمروا بامتثال أوامر الله وتجنب نواهيه.

﴿فَإِنَّ﴾: الفاء: رابطة لجواب الشرط، وتفيد التوكيد.

﴿ذَٰلِكَ﴾: اسم إشارة، واللام: للبعد، والكاف، للخطاب، ذلك الصبر، والتقوىٰ، وهو من باب الندب.

﴿مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾: العزم: هو القوة، والقدرة علىٰ إنجاز الفعل، ويعين علىٰ القيام به أن تجمع له القوة، والصبر، والتقوىٰ، وهذه الأمور بحد ذاتها؛ أي: التقوىٰ، والصبر، والقوة من الأمور التي تحتاج إلىٰ عزم.

❖ ❖ ❖

وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ
وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا
قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ
بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم
بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى
خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ
لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا
وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾
رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ
أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ
ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا
سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا
عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾

سورة آل عمران [الآيات ١٨٧ - ١٩٤]

[١٨٧] ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾:

﴿وَإِذْ﴾: واذكر، أو : واذكر حين.

﴿أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ﴾: الميثاق هو العهد المؤكد باليمين. ارجع إلىٰ الآية (٦٣) من سورة البقرة؛ لمزيد من البيان.

﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾: أي: المقصود هو علماؤهم من اليهود والنصارىٰ.

﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾: لتبيننه؛ أي: لتبينن أمر محمد ﷺ، كما هو موجود عندكم بدون تغيير، وتحريف لتبيين أوصافه ونعوته... أو لتبينن ما جاء في التوراة، والإنجيل في صفات ونعت رسول الله ﷺ.

للناس: اللام: لام الاختصاص، والناس: تعني: الثقلين الإنس والجن.

﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾: والكتمان: هو ما جاء في الكتاب في نعوت النبي ﷺ، وأن يؤمنوا به، وبالإسلام والكتمان: هو كتم الشيء ظاهر الوضوح؛ للعيان، ولكن صاحبه يحاول كتمه وغالباً ما يكون شيئاً معنوياً، والكتمان غير الإخفاء. ارجع إلىٰ الآية (١٥٩) من سورة البقرة؛ لمزيد من البيان.

أما الإخفاء: هو ما يدور في الخواطر، ويخفيه الإنسان، ومع مرور الزمن لا بد أن يُعلم، ويشمل الأشياء الحسية، والمعنوية (مثل النفاق).

﴿فَنَبَذُوهُ﴾: الهاء: تعود على الكتاب، أو الميثاق.

الفاء: تدل على التعقيب، أو الترتيب، والنبذ: هو الطرح مع الكراهية، ويعني طرح الشيء بقوة، وذلك دليل على كراهيته، والنبذ له جهات يمين شمال أمام وراء، فهم نبذوه: ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾: ويعني ذلك دليل على الكراهية، فهم لا يريدون رؤيته، أو تذكره، فلو رماه أمامه، أو على يمينه، أو شماله، فقد يراه في المستقبل، أو يتذكره فهم نبذوه، ولم يكترثوا بما جاء في نعت النبي والإيمان به.

﴿وَٱشْتَرَوْا بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: أي: استبدلوا متاع الدنيا بما كتموا:

١ - أي: أخفوا وكتموا وتركوا ما أمروا به، وأخذوا بدله شيئاً تافهاً حقيراً من حطام الدنيا من المال، أو السلطة والجاه.

٢ - بما جاء في الكتاب من أحكام ونعوت النبي وصفاته.

﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾: بئس: من أفعال الذم، وما: مصدرية؛ أي: بئس شراء كهذا الشراء، أو موصولة بئس الذين يشترون. ارجع إلى الآية (٧٧) من نفس السورة؛ لمزيد من البيان.

[١٨٨] ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾: لا: الناهية، تحسبن: ارجع إلى الآية (١٧٨) من نفس السورة.

﴿ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾: ارجع إلى الآية

(١٧٠) في نفس السورة لبيان معنىٰ الفرح؛ هذه الآية لها معانٍ كثيرة مختلفة نذكر منها:

١ - تخلَّفوا عن الخروج إلىٰ غزوة أُحُدٍ، ورجعوا بعد أن ساروا مسافة، ثم فرحوا بعدم خروجهم حيث لم تنلهم هزيمة، أو قتل، ويحسبون أنهم يحمدون علىٰ ما فعلوه؛ لكونهم أشاروا علىٰ النبي والمسلمين بعدم الخروج خارج المدينة؛ لقتال المشركين.

٢ - قد تعني من أتىٰ المعصية أياً كانت، ثم يفرح ويجاهر بها، ثم يُحب أن يُحمد علىٰ فعلها.

٣ - يفرحون بما أوتوا من علم التوراة، أو يفرحون بما كتموه من صفات، ونعت النبي، ويحبون أن يحمدوا علىٰ ذلك الكتمان، أو بما لم يفعلوا من اتباع دين إبراهيم والإسلام، وهذا الفرح من الفرح المذموم. ارجع إلىٰ الآية (١٧٠) من نفس السورة لبيان معنىٰ الفرح وأنواعه.

٤ - وروىٰ البخاري: أن رجالاً من المنافقين في زمن الرسول كانوا إذا خرج إلىٰ الغزو تخلَّفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم خلافه؛ فإذا رجع رسول الله ﷺ إليهم اعتذروا منه، وأن المصلحة كانت في التخلف، وأحبوا أن يحمدوا علىٰ ذلك.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم﴾: تكرار فلا تحسبنَّهم تفيد التوكيد.

﴿بِمَفَازَةٍ﴾: أي: بمنجاة من العذاب، ولهم عذاب أليم.

والمفازة: هي المكان الذي يظن الإنسان أن فيه نجاته.

والمفازة: هي الصحراء، وهي مهلكة، ويطلق عليها مفازة تفاؤلاً بأن الذي يسلكها يفوز.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: لهم: اللام: لام الاستحقاق، عذاب أليم: شديد الإيلام، ودائم. ارجع إلى الآية (٦١) من سورة الزمر؛ لمزيد من البيان.

[١٨٩] ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾:

بعد ذكر فلا تحسبنَّهم بمفازة من العذاب جاء ليبيِّن أنه هو الحاكم وحده، وله ملك السموات والأرض.

﴿وَلِلَّهِ﴾: جار ومجرور تدل على الحصر والقصر.

﴿مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: حكمُ ومُلكُ السموات والأرض، وما بينهنَّ تكذيباً لمن قال: إن الله فقير، ونحن أغنياء.

﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: أي: لا يعجزه شيء في الأرض، ولا في السماء مهما كان، فهو كامل القدرة.

يغفر لمن يشاء، ويعذِّب من يشاء يعجل، أو يؤخِّر العقوبة لمن يشاء، ويعزُّ ويذلُّ، يحيي ويميت، وبكلمة كن فيكون.

[١٩٠] ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾:

﴿إِنَّ﴾: للتوكيد.

﴿فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: الخلق: هو الإيجاد ابتداءً، وأصل الخلق التقدير؛ أي: خلق السموات، والأرض، بهذا التقدير الذي أوجبته حكمته.

﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾: الدال على كروية الأرض، ودورانها حول نفسها، وحول الشمس، والذي ينتج عنه الليل والنهار من أعظم الآيات الدالة على قدرة الخالق. ارجع إلى سورة البقرة آية (١٦٤) للبيان المفصل.

﴿لَأَيَٰتٍ﴾: اللام: للتوكيد، آيات: دلائل واضحة على وجوده سبحانه، وقدرته، وعلمه، وحكمته، ورحمته، ووحدانيته.

﴿لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: اللام: لام الاختصاص، أولي: ذوي الألباب الذين وصفهم في الآيات التالية (١٩١-١٩٤).

السؤال هنا: ما الفرق بين: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، وقوله: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾؟

الاختلاف بعضه مذموم، وبعضه غير مذموم، أما التفاوت فكله مذموم، والاختلاف يدل على علم فاعله، والتفاوت يدل على جهل فاعله.

[١٩١] ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾:

﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول.

﴿يَذْكُرُونَ﴾: الذكر هنا يعني: الصلاة، أو الذكر العادي، والشكر وغيره.

﴿قِيَٰمًا﴾: أي: يصلون قياماً في حالة العافية، وقدم القيام على غيره؛ لأنه هو الأساس في الصلاة.

﴿وَقُعُودًا﴾: أي: يصلون وهم قعود، والقعود: هو الانتقال من العلو إلى الأسفل؛ أي: يكون واقفاً، ثم يقعد (إذا لم يستطع القيام).

﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾: أي: يصلون وهم على جنوبهم؛ أي: في حالة الاضطجاع (إذا كان مريضاً، أو به ضرٌّ، ولا يستطيع القيام، أو القعود).

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: في رفع السموات والمجرات، والأجرام، والنجوم، ومواقعها، والكواكب، والنشأة، والقوانين التي تحكم النظام الكوني، والسماء كسقف محفوظ، والأرض قراراً، والشمس، والقمر، والجبال، والغازات المحيطة بالأرض، والرياح، والسحب، والفلك، والليل، والنهار، وغيرها من الآيات الكثيرة.

﴿رَبَّنَا﴾: نداء يدل على القرب بحذف أداة النداء الياء.

﴿مَا﴾: النافية.

﴿خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾: عبثاً، وبدون حكمة، وغاية، وقدرة، وعلم، وتقدير.

﴿سُبْحَٰنَكَ﴾: أي: يا رب أصفك بكل كمال، وأنزِّهك عن كل ما لا يليق بك من نقص، أو سوء، أو شرك، أو عجز، أو مكروه. ارجع إلى سورة الإسراء، آية (١)؛ لمزيد من البيان.

﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾: الفاء: تدل على الترتيب، والمباشرة، والتوكيد، اجعل بيننا وبين النار وقاية؛ أي: حاجزاً، وابعدنا عنها، وجنبنا عذابها.

[١٩٢] ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾:

﴿رَبَّنَآ﴾: نداء يدل على القرب بحذف أداة النداء الياء (بدلاً من قوله: يا ربنا).

﴿مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ﴾: من: استغراقية، تدخل النار: ولو ثوانيَ فقط.

﴿فَقَدْ﴾: الفاء: للتعقيب، والمباشرة، قد: حرف تحقيق، وتوكيد.

﴿أَخْزَيْتَهُۥ﴾: من الخزي، وهو الفضيحة أمام الخلائق، والخزي فيه معنىٰ: الذل، والعار.

﴿وَمَا﴾: الواو: استئنافية، ما: النافية.

﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾: اللام: لام الاستحقاق، الظالمين: جمع ظالم مشرك، أو ظالم لنفسه، أو غيره. واستعمل الظالمين بدلاً من وما للداخلين من أنصار؛ لأن الداخلين جزء من الظالمين.

﴿مِنْ أَنصَارٍ﴾: جمع نصير معين، أو مساعد، أو شفيع يمنع عنهم العذاب، أو يخففه. ارجع إلىٰ سورة الروم آية (٢٩) لمقارنة ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ مع قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [الحج:٧١]. وارجع إلىٰ الآية (٥٦) في نفس السورة لبيان الفرق بين: وما للظالمين من أنصار، وقوله تعالىٰ: وما لهم من ناصرين.

[١٩٣] ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾:

﴿رَّبَّنَآ﴾: مثل الآية السابقة.

﴿إِنَّنَا﴾: إضافة النون للتوكيد.

﴿سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ﴾: أي: محمداً ﷺ، كما قال أكثر المفسرين، وقيل: هو القرآن، أو كلاهما.

﴿أَنْ﴾: حرف مصدري يفيد التوكيد.

﴿ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ﴾: صدقوا بربكم، والباء: للإلصاق، وأطيعوا أوامره، وتجنَّبوا نواهيه، واستقيموا على صراطه.

﴿فَـَٔامَنَّا﴾: أي: صدَّقنا، وأطعنا.

﴿فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾: الذنوب قيل: هي الكبائر تحتاج إلى توبة تليها مغفرة؛ أي: المحو (استرها وامحُها) من فضلك.

﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾: السيئات قيل: هي الصغائر، واللمم، والتكفير هو الستر؛ أي: استر سيئاتنا، وامحُها أيضاً، والتكفير يكون بفعل الحسنات اللاتي يذهبن السيئات.

﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾: الأبرار: تأتي في سياق وصف البشر، وهي جمع قلة، والأبرار: جمع بار، وبرّ، قيل: هم الأنبياء، والصالحون، والمطيعون المستمسكون بدين الله تعالى؛ أما بررة: تأتي في سياق وصف الملائكة الكرام، والبررة: جمع كثرة؛ ارجع إلى سورة عبس آية (١٦) لمزيد من البيان، وارجع إلى سورة الإنسان، آية (٥)؛ لمزيد من البيان.

[١٩٤] ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾:

﴿وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾: على ألسنة رسلك من الرحمة، والفضل، والفوز بالجنة، والنجاة من النار، والنصر، والغلبة في الحياة الدنيا، والتمكين في الأرض، والاستخلاف.

﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾: لا: الناهية، لا تفضحنا، ولا تهنّا يوم القيامة، يوم يقوم الناس لرب العالمين.

﴿إِنَّكَ﴾: للتوكيد.

﴿لَا﴾: النافية.

﴿تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾: إنك صادق الوعد ومنجزه، الميعاد: الوعد بالبعث، والجزاء، والثواب، والميعاد يشمل الزمان، والمكان (زمن التواعد، ومكان التواعد).

أما المعاد: يراد به المكان (فقط) الذي تعود إليه بعد مغادرته، معاد تعني: مكة في آية (٨٥) من سورة القصص: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾. ارجع إلى الآية (٩) في نفس السورة لمعرفة الاختلاف بين هذه الآية، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾.

انتبه إلى تكرار كلمة ربنا خمس مرات: مبالغة في التضرع، ويسمى هذا في بديع اللغة الإطناب.

❖ ❖ ❖

فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن
ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟
مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ
عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾
لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ
ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟
رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا
نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ
أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ
أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا
قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ
سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟
وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

سُورَةُ النِّسَاءِ

نزلت بمكة ٤ — آياتها ١٧٦

سورة آل عمران [الآيات ١٩٥ - ٢٠٠]

[١٩٥] ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾:

﴿فَٱسْتَجَابَ﴾: الفاء: للترتيب، والمباشرة، ومعنى ذلك: أجابهم ربهم مباشرة.

﴿لَهُمْ﴾: اللام: لام الاختصاص؛ أي: لأولي الألباب الذين دعوا ربهم بتلك الأدعية السابقة.

﴿رَبُّهُمْ﴾: هو المربي؛ أي: الخالق الرازق المدبر وشرفهم بإضافتهم إليه بقوله: ربهم.

﴿أَنِّي﴾: أن: للتوكيد، والياء: ياء المتكلم.

﴿لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم﴾: لا: النافية؛ أي: لا أضيع، ولا أنسى ثواب أي عمل من الأعمال الحسنة التي عملتموها.

﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾: أي: عامل منكم ذكراً كان أم أنثى في المجازاة، أو تضييعها.

﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾: كل واحد منكم من الآخر؛ أي: من أصله؛ أي:

الذكور من الإناث، والإناث من الذكور، فكل الجنسين من أصل واحد هو آدم وحواء، وذكوركم مثل إناثكم في الطاعة، فلا تفرقة.

﴿فَٱلَّذِينَ﴾: الفاء: للتفصيل.

﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾: إلىٰ الحبشة، أو إلىٰ المدينة، أو إلىٰ غيرها.

هاجروا استجابة لله تعالىٰ، ولرسوله ﷺ هاجروا في سبيل الله من ذكر، أو أنثىٰ.

﴿وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾: بغير حقٍّ مرغمين، أخرجهم المشركون من مكة، أو غيرها.

﴿وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي﴾: بالعذاب، وخسران أموالهم، وديارهم، والاضطهاد، أو القهر، والكبت، والتشريد، وأوذوا بسبب إسلامهم، وأن يقولوا: ربنا الله.

﴿وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ﴾: قاتلوا الكفار والمشركين أعداء الدِّين، واستشهدوا.

﴿لَأُكَفِّرَنَّ﴾: اللام: لام التوكيد، وكذلك النون في أكفرنَّ؛ لزيادة التوكيد في التكفير.

﴿عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾: التكفير يعني: الستر، والمحو، والسيئات سواء كانت الكبائر، أو الصغائر.

﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ﴾: الواو: عاطفة، واللام: للتوكيد، وكذلك النون في أدخلنَّهم لزيادة التوكيد.

﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: قيل: تنبع من تحتها.

﴿ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾: الثواب: هو الجزاء علىٰ العمل الصالح قد يكون في

الدنيا، أو في الآخرة، وقد يأتي في الخير أو الشـــر، ولا يكون إلا من الله تعالىٰ. ارجع إلىٰ الآية (١٠٣) من سورة البقرة؛ لمعرفة اشتقاق الكلمة.

﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾: وهو الجنة، ونعيمها.

[١٩٦] ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾:

﴿لَا﴾: الناهية.

﴿يَغُرَّنَّكَ﴾: الخطاب موجَّه إلىٰ رسول الله ﷺ، وإلىٰ كل مسلم ومؤمن.

يغرنك: مشـــتقة من الغُرور: بضم الغين: وهو الخداع، ونون النســـوة في يغرنـــك: للتوكيد، ولم يقـــل: لا يغررك تقلب الذين كفـــروا؛ أي: لا يخدعنك. والغرور: إظهار الأمر الضار في صورة النافع؛ أي: الخداع.

﴿تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾: تجارة، وصناعة، ومكاســـب الذين كفروا في البـــلاد، وما هم عليه من الرخاء، والســـعة، والبســـط. والتقلُّب في الأصل: الخـــروج من أرض إلىٰ أرض طلباً للتجارة، والرزق، واســـتعير التقلب بدلاً عن الضرب في الأرض؛ لأن تقلُّبهم في البلاد ليس له خَلاقٌ في الآخرة، إنما خَلاقُه منحصر في الدنيا، والدنيا كلها متاع الغُرور.

وإذا قارنا هـــذه الآية من آل عمـــران: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، مع الآية (٤) من ســـورة غافر: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾:

فـــي آل عمران: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ﴾: أكد الاغترار بنون النســـوة الثقيلة، بينما في غافر لم يؤكد فلا يغررك؛ لأن السياق في آل عمران جاء في الابتلاء في الأموال، والأنفس، والإيذاء في ســـبيل الله والهجرة، بينما في سورة غافر: جاء في سياق الجدال في آيات الله.

فتقلُّب الذين كفروا: هو الأشـــد مقارنة بتقلب الذيـــن يجادلون في آيات الله، ولكونه الأشـــد أكد بقوله: لا يغرنك، وأما في تقلب الذين يجادلون، قال: لا يغررك؛ لم يؤكد.

[١٩٧] ﴿ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴾:

﴿ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ﴾: أي: ذلك التقلُّب، والكســـب، والربح، والأموال، والسعة: متاع زائل، قليل، مضمحل.

ومعنىٰ متاع: ارجع إلىٰ الآية (١٨٥) من نفس السورة؛ للبيان.

قال رســـول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليم، فلينظر بم يرجع» أخرجه مسلم.

﴿ثُمَّ﴾: للترتيب، والتراخي في الزمن.

﴿مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ﴾: في الآخرة مأواهم جهنم؛ أي: مستقرهم المكان الذي يأوون إليه هو جهنم. ارجع إلىٰ الآية (١٢) من نفس السورة؛ لبيان معنىٰ جهنم.

﴿وَبِئۡسَ﴾: فعل ذم؛ أي: ساء وقبُح.

﴿ٱلۡمِهَادُ﴾: مشتقة من مهد الطفل، أو فراشه المريح الذي أُعد له، وسمِّيت مهاد: للتهكُّم، والتوبيخ.

في هذه الآية (١٩٧) قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾، وفي ســـورة الرعد، آية (١٨): ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾، وسورة التوبة، آية (٧٣)، وآية (٩٥)، والتحريم، آية (٩)، وغيرها.

الفـــرق بين الآيتين: هو (ثم) في آل عمران: الواو في ســـورة الرعد، وبقية

السور؛ لأن آية آل عمران جاءت في سياق الذين كفروا، وتقلبهم في البلاد، فهم في الدنيا الآن، وجهنم في الآخرة؛ فناسب (ثم): للتراخي في الزمن.

أما آية الرعد، وبقية السور: جاءت في سياق الآخرة؛ أي: هم الآن في الآخرة وجهنم في الآخرة، فناسب ذكر (و)، ومأواهم العطف بالواو.

[١٩٨] ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾:

بعد ذكر الذين كفروا وتقلُّبهم في البلاد، ومأواهم جهنم وبئس المهاد، يذكر بالمقابل الذين اتقوا ربهم.

﴿لَٰكِنِ﴾: حرف استدراك، وتوكيد.

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾: أطاعوا أوامره، وتجنبوا نواهيه.

﴿لَهُمْ﴾: اللام: لام الاختصاص والاستحقاق.

﴿جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: تنبع من تحتها الأنهار، أنهار الجنة.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾: الخلود يعني: استمرار البقاء من وقت مبتدأ؛ أي: الخلود له بداية، وهو يوم دخولهم الجنة، وليس له نهاية.

﴿نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾: النزل: ما يهيأ ويعد لإكرام الضيف من مأكل، ومشرب، ومبيت؛ أي: إكراماً من عند الله.

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾: وما هيأ الله سبحانه، وأعد لضيوفه المتقين هو خير للأبرار.

ولم يبيِّن في هذه الآية ما نوع ما عند الله للأبرار، ولكن بيَّنه في آيات أخرىٰ، مثل قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ

ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴾، وكذلك اللحم، والفواكه، والحور العين، والسرر، والذهب، والفضة، وما عند الله خير للأبرار مقارنة بما يكسبه هؤلاء الكفار في تقلُّبهم في البلاد من تجارة، وسعة، ورغد العيش فقط في الدنيا، وليس لهم في الآخرة من خَلاق.

وإذا قارنا هذه الآية (١٩٨)، مع الآية (١٩٥) من نفس السورة:

فالآية (١٩٥): ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾.

والآية (١٩٨): ﴿ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾.

نجد أولاً: أن الذين هاجروا، وأخرجوا هم جزء من المتقين المذكورين في الآية (١٩٨)، فالآية (١٩٨): أعم وأشمل من الآية (١٩٥).

ثانياً: الآية (١٩٨) قال تعالى: ﴿لَهُمْ جَنَّـٰتٌ ﴾: فيها تمليك اللام: لام الاختصاص، والتمليك مقارنة بالإدخال: ﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ ﴾ في الآية (١٩٥).

وخالدين فيها، ولم يذكر خالدين فيها في الآية (١٩٥).

ونزلاً من عند الله، أفضل من ثواباً من الله، كما في الآية (١٩٥).

فالأبرار المذكورون في الآية (١٩٨) أعلى درجة ومكانة من المذكورين في الآية (١٩٥).

[١٩٩] ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾:

اختلف المفسرون فيمن نزلت هذه الآية، بعضهم قال: في النجاشي، وأصحابه، وبعضهم قال: في مؤمني أهل الكتاب؛ أمثال: عبد الله بن سلام، وبعضهم ذكر غير هؤلاء.

﴿ وَإِنَّ ﴾: الواو: استئنافية، إنَّ: للتوكيد.

﴿مِنْ﴾: ابتدائية (للتبعيض).

﴿أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾: قوله تعالىٰ: أهل الكتاب: فيها مدح لهم مقارنة بالذين أوتوا الكتاب، أو أوتوا نصيباً من الكتاب، وهم: اليهود، والنصارىٰ.

﴿لَمَن ﴾: اللام: للتوكيد، مَنْ: ابتدائية.

﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ﴾: بوحدانيته، وصفاته، وأسمائه، ويؤمن بملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقضاء خيره وشره.

﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ ﴾: ما: اسم مصول؛ أي: الذي أنزل إليكم، وهو القرآن المنزل علىٰ محمد ﷺ.

﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ ﴾: أنزل إليهم؛ أي: دفعة واحدة مثل التوراة، والإنجيل، ولم يقل نزل إليهم (يعني منجماً علىٰ دفعات).

﴿خَٰشِعِينَ لِلَّهِ ﴾: خاضعين لله، وتعني طائعين.

﴿لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾: لا: النافية، يشترون بآيات الله: الباء:

بدلية، ثمناً قليلاً، ولا كثيراً، لا يشترون بالآيات التي فيها البشارة بمحمد ﷺ، ونعته، وصفته، ثمناً قليلاً. ارجع إلىٰ الآية (٧٧) من نفس السورة؛ للبيان.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: اسم إشارة، واللام: للبعد، والكاف: للخطاب، تفيد التعظيم، والعلو، والشرف.

﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾: اللام: لام الاختصاص، والاستحقاق، لهم أجرهم: ثوابهم عند ربهم.

﴿إِنَّ﴾: للتوكيد.

﴿ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾: إشارة إلىٰ كمال علمه بأعمال عباده، أو ما عملت كل نفس، وما يستحقون من الأجر والجزاء، أو الثواب، ولإزالة الظن أن كثرة الخلق تعني: طول الانتظار، وسيعجل لهم أجرهم؛ أي: حسابهم فليطمئنوا أن الله قادر علىٰ أن يحاسب الناس إذا شاء سبحانه بما تقتضيه الحكمة الربانية بوقت قصير؛ أي: ساعات قليلة، أو بكن فيكون.

[٢٠٠] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: نداء جديد إلىٰ المؤمنين بالالتزام بأنواع مختلفة من الصبر والتقوىٰ. ﴿ٱصْبِرُواْ﴾: من الصبر، الصبر العادي.

﴿وَصَابِرُواْ﴾: أبلغ من اصبروا؛ أي: كونوا أكثر صبراً؛ أعداء الله؛ أي: غالبوهم في الصبر علىٰ شدائد الحرب، ولا تكونوا أقل صبراً منهم وثباتاً؛ أي: صبراً أكثر؛ أي: اسبقوا الكفار في الصبر علىٰ شدائد الحرب، أو غيرها من الأمور.

﴿وَرَابِطُواْ﴾: أي: أقيموا في الثغور، وعلىٰ الحدود مترصِّدين لعدو الله وعدوكم.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: ختم الآية بالتقوىٰ، وهي امتثال أوامر الله، وطاعته، وتجنب ما نهىٰ الله عنه، وأخر ما أمرهم به التقوىٰ؛ أي: اصبر، وصابر، ورابط، واتق الله؛ لعلك تفلح.

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: أي: لتفلحوا في دنياكم وآخرتكم.

﴿لَعَلَّكُمْ﴾: تعني: الرجاء، أو التعليل.

﴿تُفْلِحُونَ﴾: في الدنيا والآخرة وتدركون كل ما تأملون؛ ارجع إلىٰ الآية (٥) من سورة البقرة؛ لمزيد من البيان.

واعلم: أن مراتب الصبر خمسٌ:

١ - صابر.

٢ - ومصطبر (أي: مليء بالصبر).

٣ - متصبر (متكلِّف بالصبر؛ أي: حامل نفسه علىٰ الصبر).

٤ - صبور (عظيم الصبر في الوصف والكيف).

٥ - صبَّار (أصبح الصبر صفة له)، وقيل: كثير الصبر في العدد، والكم.

❖ ❖ ❖

نصف الحزب ٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا
زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ
بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ۖ
وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ۚ إِنَّهُ
كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا
مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا
فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ وَآتُوا
النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ
هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴿٤﴾ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ
قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَابْتَلُوا
الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا
إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ۚ وَمَن كَانَ
غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا
دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾

سورة النساء [الآيات ١ - ٦]

ترتيبها في القرآن السورة (٤)، وترتيبها في النزول (٩٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[١] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾: نداء إلىٰ الناس كافة، وكلمة الناس: مشتقة من النوس؛ أي: الحركة، وهذا ما يوصف به الناس؛ لكثرة حركتهم، وكلمة الناس تشمل الإنس والجن (الثقلين)، وكلمة الناس: لا تدل علىٰ عدد مُعين، وكلمة الناس: أوسع من الإنس.

﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾: اتقوا عذابه، أو عقابه؛ بإطاعة أوامره، واجتناب نواهيه؛ من الوقاية: وهي أن تجعل بينك وبين عقابه مانعاً ووقاية، أو سخطه وغضبه.

ولم يقل: اتقوا الله؛ لأن المقام مقام خلق، والرب هو الخالق، والمربي، والرازق، وفي مقام العبادة، والتشريع يأتي بكلمة الله، سبحانه، أو إلهكم.

﴿الَّذِي خَلَقَكُم﴾: الذي: اسم موصول، والخلق: بالنسبة إلىٰ الله سبحانه هو الإيجاد من العدم، والخلق لغة: هو التقدير، والتسوية؛ أيْ: كافة البشر بما فيهم آدم وحواء، وكل إنسان خلق من نفس الجنس البشري، أو من أصل واحد، من نفس واحدة خُلقت منها كل النفوس، وأما الجعل كقوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف:١٨٩]؛ الجعل: يكون أو يتم بعد الخلق؛ أي: الخلق أولاً كمرحلة ابتدائية ثم الجعل مرحلة ثانية بعد الخلق.

وخلق منها زوجها: تشير إلىٰ أن النفوس في الأصل من طبيعة متشابهة، أو متجانسة في الخلق؛ أيْ: كل نفس زوج (مثيل) للأخرىٰ.

فالخلاصة: كل النفوس خلقت من نفس واحدة، وكلها متشابهة في الأصل أو متماثلة في الخَلْق، وليس في الخُلق. ارجع إلىٰ سورة الأعراف، آية (١٨٩)؛ لمزيد من البيان، والمقارنة، وارجع إلىٰ سورة الزمر، آية (٤٢).

﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾.

﴿وَبَثَّ﴾: الواو: عاطفة.

والبث: قيل: النشر، وهو التكاثر بالتناسل والتوالد.

﴿مِنْهُمَا﴾: من الرجال والنساء (الذكور والإناث).

﴿رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾: لم يقل: ونساءً كثيرات، بل اقتصر قوله: ﴿رِجَالًا كَثِيرًا﴾؛ لأن المفروض إذا كان هناك رجال كثير أن يكون هناك نساءٌ كثيرات؛ حتىٰ يتم الزواج، أو أكثر من كثيرات؛ وهذه من سنن الله سبحانه أن يكون عدد النساء أكثر من عدد الذكور.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: أطيعوا الله فيما أمر به، وتجنبوا فيما نهىٰ عنه، أو تجنبوا سخطه وغضبه.

﴿تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾: أصلها تتساءلون به؛ حذفت التاء للتخفيف.

﴿تَسَاءَلُونَ﴾: أي: يسأل بعضكم بعضاً بالله؛ أيْ: تحلفون به الأيمان، مثل القول: أسألك بالله، أو اتقوا الله الذي تحلفون به الأيمان؛ أيْ: احفظوا أيمانكم، وإذا حلفتم عليكم بالبر بها، والوفاء.

﴿وَٱلْأَرْحَامَ﴾: أيْ: اتقوا أرحامكم؛ أيْ: صلوا أرحامكم، ولا تقطعوها، فسوف تسألون عنها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾: إن للتوكيد. ﴿كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾: كان، وما زال، وسيظل عليكم رقيباً؛ أيْ: لا يحدُّه زمان، ولا مكان، فهو خالق الزمان، والمكان.

المراقب لأحوالكم، الحافظ لأفعالكم، وأقوالكم.

والرقيب: هو البصير الذي يرصد كل قول، وكل فعل تقومون به، ويحفظه لكم.

[٢] ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾:

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ﴾: آتوا: هي من الإيتاء، والإيتاء أعم من العطاء فهو يشمل العطاء وغيره؛ ارجع إلى سورة البقرة آية (٢٥١) لمزيد من البيان والفرق بين الإيتاء والعطاء.

بعد أن أوصى الله سبحانه بصلة الأرحام، وحرم قطعها، وبعد أن تكلَّم سبحانه عن بثٍّ منهما رجالاً ونساءً؛ مضى ليقول: إن هذا المبثوث؛ أي: الخلق، قسم اكتملت قوته، ولا يحتاج إلى مساعدة، وقسم ضعيف: وهو ما يسمَّى اليتيم، أو اليتامى، ويحتاج إلى مساعدة.

ـ واليتيم تعريفه: هو الإنسان الذي فقد أباه، ولم يبلغ الحُلم، ذكراً أو أنثى.

ـ فها هو ذا يوصي أوصياء اليتامى أن يعطوهم أموالهم؛ فقال: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ كاملة.

ومتى يكون ذلك؟ متى بلغوا النكاح، وآنستم منهم رشداً.

ولا: الواو عاطفة.

لا: الناهية.

﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾: ﴿وَلَا﴾: الواو: عاطفة؛ لا: الناهية.

﴿تَتَبَدَّلُوا﴾: من بدل الشيء بغيره؛ أي: أخذ غيره أو مكانه، والخبيث: هو الحرام، أو السيِّئ الرديء؛ كأن يأخذ الوصي الثمين الجيد، ويعطي اليتيم الرديء الرخيص، ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا﴾: ولم يقل: ولا تبدلوا.

تتبدلوا: الخطاب موجَّه إلى الكثير من الناس، وليس فئة، أو فرداً واحداً، ومهما طال الزمن.

أما تبدلوا: فالخطاب موجَّه إلى قلة عدد قليل من الناس، وزمن التبادل قصير محدد، كما ورد حين خاطب الله سبحانه رسوله ﷺ في سورة الأحزاب الآية (٥٢): ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾: نهى الله سبحانه عن أخذ أموال اليتامى بالقول لا تأكلوا أموالهم؛ لأن الأكل أشد دلالة وأقوى من الأخذ، ولأن الأخذ قد يعاد إلى صاحبه، أما الأكل فقد تم أكله وهضم؛ شبه الأموال بالطعام الذي يؤكل؛ ليفيد المبالغة في النهي، والأكل يعني: أيْ: لا تنفقوها، أو: ولا تضموا أموالهم إلى أموالكم وتخلطوها معاً، فتأكلوا هذه مع تلك، بل فرِّقوا بين أكل أموالكم، والحفاظ على أموالهم؛ لأن ذلك يعد حُوباً كبيراً.

﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾: إن: للتوكيد، والهاء: تعود إلى أكل أموال اليتامى.

﴿كَانَ﴾: تشمل كل الأزمنة؛ أيْ: في الماضي، والحاضر، والمستقبل.

﴿حُوبًا﴾: إثماً، وذنباً عظيماً، والحوب: هو الهلاك والبلاء، والحوب أصله في العربية: الزجر.

[٣] ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾:

﴿وَإِنْ﴾: الواو استئنافية.

إن: شرطية تفيد الاحتمال، أو الشك، أو الندرة.

﴿خِفْتُمْ﴾: من الخوف، وهو توقُّع الضرر المشكوك في وقوعه.

﴿أَلَّا﴾: أصلها: أن: المصدرية، لا: النافية. إن: المصدرية تفيد التعليل.

﴿تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾: القِسط: بكسر القاف: هو عدم الظلم، والجور؛ والقسط: يعني النصيب والحصة، فالقسط هو الحصة العادلة مأخوذة من: أَقسط: أزال الظلم والجور؛ أي: عدل، والقسط: اسم للعدل في القسمة، وتعني: العدل في الميزان.

أما قَسَط: بفتح القاف فمعناها ظلم وجَارَ.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾: وإن خفتم: أن تميلوا عن العدل إلى الجور، والظلم.

والقسط: هو العدل مع التنفيذ؛ أيْ: إن خفتم ألا تقسطوا إلى اليتيمة، وتعطوها ما تستحق من المهر، ومالها؛ اتركوها، واذهبوا وتزوجوا بغيرها من النساء.

معنى الآية: إن كان الرجل يكفل اليتيمة، ويكون وصياً عليها، ويريد أن يتزوجها لمالها، أو جمالها، أو غيره من الأسباب، وكان لا يقسط لها في مهرها، فلا يعطيها ما تستحق من المهر، فيظلمها. فجاءت الآية تطلب من الوصي، أو الكفيل: أن يعدل، ويزيل عن اليتيمة الظلم، والجور، ولا يأكل أموالها، ويدعها وشأنها، ويتزوج بغيرها. مثنى وثلاث ورباع.

إذن المبدأ هو العدل في معاملة اليتيمات.

﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾:

﴿فَٱنكِحُواْ﴾: الفاء: جواب الشرط. ﴿فَٱنكِحُواْ﴾: تزوجوا.

﴿مَا﴾: اسم موصول، وما: للعاقل، وغير العاقل، واستعملت ما بدلاً من؛ لأنها تشير إلى النوع الذي طاب لكم.

﴿مَا طَابَ لَكُم﴾: ما استحسنتم من النساء من هُنَّ حلٌّ لكم من غير يتيماتكم.

﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾: والواو: للتخيير. والسؤال هنا: لو قال: فانكحوا ما طاب لكم من النساء اثنين بدلاً من مثنى (أي: اثنين اثنين)؟ لا يصح؛ لأنه يعني: الكل يشترك في نكاح أو الزواج باثنتين كالقول كلوا رغيفين من الخبز تعني: الكل يشارك ويأكل من هذين الرغيفين، أما حين يقال كلوا ثلاثة ثلاثة يعني: كل واحد يأكل ثلاثة أرغفة؛ أي: مثنى تعني: اثنين اثنين، ومعناها واحد يمكن أن ينكح اثنتين، وثلاث معناها: ثلاث ثلاث؛ أي: وآخر يمكن أن ينكح ثلاث نساء، ورباع معناه أربع أربع، وليس معناها أربعة؛ أي: وثالث يمكن أن ينكح أربع نساء.

ولا يصح القول فانكحوا ما طاب لكم من النساء اثنتين وثلاثة وأربعة، فأقصى حد هو أربعة نساء وليس تسعة (٢+٣+٤=٩).

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾:

﴿فَإِنْ﴾: الفاء: عاطفة، شرطية تدل على الاحتمال، والشك، أو الندرة.

﴿خِفْتُمْ أَلَّا﴾: خفتم: من الخوف: وهو توقع الضرر المشكوك في وقوعه؛ أن لا، أن: المصدرية للتعليل. لا: النافية.

﴿تَعْدِلُواْ﴾: بين الزوجات؛ لسبب من الأسباب مثل: الضعف الجنسي، أو غيره في الأمور المتعارف عليها، فتزوجوا واحدة فقط.

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾: لم يعد هناك مصدر لملك اليمين في هذا الزمن.

﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾:

﴿ذَٰلِكَ﴾: اسم إشارة، واللام: للبعد، إشارة الزواج بواحدة فقط.

﴿أَدْنَىٰ﴾: أقرب، ﴿أَلَّا﴾: أن: المصدرية تفيد التعليل. لا: النافية.

﴿أَلَّا تَعُولُوا﴾: لهما معانٍ عدة:

١ - ألا تجوروا، تميلوا عن العدل إلى الجور والظلم (خوفاً من الجور والظلم). من عال يعول؛ أيْ: جار.

٢ - عال، يعول؛ يعني: افتقر ذلك أدنى أن تفتقروا؛ أيْ: تصبحوا فقراء بالزواج بأكثر من واحدة.

٣ - عال يعول؛ يعني: كثرت عياله، ألا تكثر عيالكم؛ أيْ: خوفاً من كثرة العيال (الأولاد).

إذن أدنى ألا تعولوا: ألا تجوروا، وتظلموا، وألا تفتقروا، وألا يكثر عدد عيالكم؛ فالواحدة تكفي.

[٤] ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾:

﴿وَآتُوا النِّسَاءَ﴾: الواو: عاطفة؛ عطف آتوا النساء على آتوا اليتامى، وآتوا: من الإيتاء، ويعني: العطاء وغيره؛ ارجع إلى سورة البقرة آية (٢٥١) للمزيد في معنى الإيتاء والعطاء والفرق بينهما.

أي: وأعطوا النساء: الأزواج بعد أن تم عقد القران.

﴿صَدُقَاتِهِنَّ﴾: المخاطب هم الأزواج (الناكحين) حيث كان الرجل يتزوج بلا مهر فيقول أرثك وترثني، ثم تقول المرأة: نعم فنزلت هذه الآية، وقيل:

المخاطب أيضاً الأولياء؛ مهورهنَّ فريضة من الله تعالىٰ فرضها علىٰ الرجل؛ فلا يحل له، ولا لولي الأمر أن يأخذ من المهر شيئاً إلا برضا الزوجة، وعطف آتوا النساء صدقتهن علىٰ آتوا اليتامىٰ أموالهم ذلك لأن حق المرأة وحق اليتيم يجب الإيفاء بهما؛ لأن المرأة واليتيم مستضعفان من المجتمع.

﴿نِحْلَةً﴾: أيْ: العطية، أو ما يعطيه الإنسان عن طيب نفس، ورضاً بلا مقابل، أو عوض.

﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾: فإن: الفاء: استئنافية. إن: شرطية تفيد الاحتمال، أو الندرة.

﴿طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ﴾: أي: تنازلت المرأة عن شيء من المهر، أو حقها وبدون إكراه أو ضغط؛ فكلوه: ولم يقل فخذوه، وإنما قال تعالىٰ ﴿فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾.

والشرع يقول: مهر الزوجة لها، وفي هذه الآية فتح لها باباً للفضل؛ فإن تنازلت الزوجة عن شيء من المهر إلىٰ الأب، أو الأقارب، أو الزوج، وهو المقصود في هذه الآية، فلا مانع؛ علىٰ شرط أن يكون طيب نفس.

فما معنىٰ (هنيئاً مريئاً) ؟

الهنيء: هو الذي تجد فيه لذة حين أكله، أو شربه (تقول: الطعام طيب).

المريء: سهل الهضم، لا يسبب متاعب هضمية مثل حرقة، أو تخمة، أو مغص؛ أيْ: ألم؛ لأنك قد تجد شيئاً تأكله، وتستلذ به، ثم يسبب لك متاعب هضمية، فهو هنيء، ولكن غير مريء. فكل طعام قد يكون هنيئاً، ولكن غير مريء، أو بالعكس.

فهو شبّه أخذ شيءٍ من مهر الزوجة بالأكل الذي يجب أن يكون هنيئاً مريئاً

عـــن طيب نفس من دون ضـــرر لها، أو كره، أو خديعة، أو ظلـــم، أو مداهنة، أو بسبب حياء، أو غيره.

[٥] ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾:

﴿وَلَا﴾: الواو: عاطفة. لا: الناهية.

﴿تُؤْتُوا﴾: أيْ: تعطـــوا: من الإيتاء: وهو أعم من العطاء؛ ارجع إلىٰ ســـورة البقرة آية (٢٥١) للمزيد من البيان، والفرق بين الإيتاء والعطاء.

﴿السُّفَهَاءَ﴾: جمع سفيه: هو المصاب بقصور عقلي، والسفيه: من لا يحسن التصرف بماله بحكمة مما يؤدِّي إلىٰ ضياع ماله، كأن يكون مبذراً، أو ينفق أمواله علىٰ الحرام وغيرها، والســـفيه قد يكون ذكراً، أو أنثىٰ، وحين يكون المرء سفيهاً يجب الحجر علىٰ هذا السفيه (من قواعد الفقه)، فتنتقل إدارة أمواله، أو الملكية إلىٰ أحد أقاربه مثل عمه؛ ليصبح وصياً عليه، فيعطيه كل شهر ما يحتاجه. ولذلك قال سبحانه: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾، وفي الحقيقة هي أموال السفهاء.

وقولـــه: ﴿أَمْوَالَكُمُ﴾: ليهتم كل وصي بالمحافظة علـــىٰ مال وصيه؛ وكأن المال ماله (وهو في الحقيقة مال اليتامىٰ، والسفهاء، والمحجور عليهم).

وقالوا: إن الله جعل مال الفرد مالاً للمجتمع كله، فهو يمتلكه، ولكن ينتفع به الفقير، والتاجر، والمجتمع.

﴿الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾: أي: الأموال قوام الحياة، وســـبب إصلاح الأمور؛ لأنهم إذا ضيعوها بالإســـراف؛ أصبحـــوا عالة علىٰ غيرهـــم، وعلىٰ المجتمع، ولذلك يقتضي تثميرها، وتنميتها، وإدارتها بحكمة.

﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾: ولم يقل: منها.

أيْ: على الوصي أن يشتغل ويُتاجر بأموال السفيه، ولا يتركها على حالها، ويعطي السفيه من الأرباح، وهذا معنى: ﴿وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا﴾، ولو قال: منها؛ أيْ: من رأس المال، وليس من الأرباح؛ أيْ: من عين المال في كل مرة من دون استثمارها لوجدناها نفذت، ولم يبقَ له شيءٌ، وهذا يدل على الموصي أن ينمي أموال السفيه بالوسائل المباحة، وفي التجارة، وغيرها من المشاريع المباحة.

﴿وَٱكۡسُوهُمۡ﴾: الكسوة هي: اللباس؛ أيْ: من أرباحها، وثمرتها، لا من أصل المال.

﴿وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾: القول الطيب اللين اللطيف.

كأن يقولوا لهم: حين ترشدون سندفع لكم أموالكم كاملة؛ أيْ: في سن الرشد، أو اعذرونا، أو سامحونا؛ لكون المبلغ قليلاً، وإن شاء الله سيكون أكثر في المستقبل، وهكذا.

[٦] ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا﴾:

﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾: وابتلوا: من الابتلاء، وهو أشد من الاختبار، ويكون بالخير أو الشر لاستخراج ما عند المبتلى من الطاعة أو المعصية؛ أي: اختبروا عقولهم، هل يستطيعون أن يقوموا بمصالحهم، ويحسنون التصرف بأموالهم، ودربوهم على ذلك، واختبروا أخلاقهم، وحسن تصرفهم بأن يدفع إليه شيءٌ من المال، ويطلب منه أن يتصرف به، ثم يسأله كيف أنفقه، ومقدار ما أنفق على كل سبب، وهذا الابتلاء يكون قبل سن البلوغ، فإذا بلغ سن النكاح يكون جاهزاً لاستلام أمواله.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ﴾:

﴿حَتَّىٰٓ﴾: حـــرف غاية؛ أيْ: نهاية الغاية النكاح (ســـن البلوغ)، أو النكاح؛ أيْ: حين يصبح الذكر قادراً على الإنجاب، والأنثى قادرة على الحمل والحيض.

﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾:

﴿فَإِنْ﴾: الفاء: عاطفة، إن: شرطية تفيد الاحتمال والندرة.

﴿ءَانَسْتُم﴾: رأيتم وشـــعرتم رُشداً منهم بســـلامة العقل، وحسن التصرف في المال والقدرة على الاستثمار والصلاح، وعدم التبذير وغيرها، ويعرف ذلك بالاختبار كما قلنا سابقاً.

﴿رُشْدًا﴾: انتبه إلى الفرق بين الرُّشد: بضم الراء، والرَّشد: بفتح الراء.

فالرُّشد: هو الصلاح، والاستقامة في أمور الدنيا والدِّين في الأمور الدنيوية والأخروية، والقدرة علـــى الاهتداء إلى الأفضل والأصلـــح؛ أي: زيادة الوعي والعقل وصلاح الدين.

وأما الرَّشد: فخاصَّة بأمور الدِّين، مثل: اتباع الحق، والاستقامة، والتقوى، والتوفيق؛ فالرُّشد أعم من الرَّشد، والرَّشاد: هو الصلاح بشكل عام.

وأما ســـن الرُّشد: من الفقهاء من قال هو سن البلوغ، وقيل: بلغ أشده؛ أيْ: بلغ القدرة على الإنجاب، والقدرة على اختيار الأفضل في الخير. وقيل الرُّشد: ســـن التكليف؛ فقد اتفق الفقهاء على أن البالغ يصبح مكلفـــاً بجميع التكاليف الشرعية، وأما سن الرُّشد ليس له سن معينة عند جمهور الفقهاء، فالرُّشد قد يأتي مع البلوغ أو يتأخر عنه قليلاً أو كثيراً، وعكس الرُّشد: السفه.

﴿فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾: الفاء: رابطة لجواب الشرط، فإذا بلغوا سن النكاح، وبعد إيناس الرشد منهم؛ ادفعوا إليهم أموالهم.

﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا﴾:

﴿وَلَا﴾: الواو: عاطفة، لا: الناهية.

﴿تَأْكُلُوهَآ﴾: الأكل يعني: الأخذ؛ ارجع إلى الآية (٢) من نفس السورة لبيان معنى الأكل؛ أيْ: لا يصح أن يأخذ الوصي مال اليتيم إسرافاً وبدراً، والإسراف: هو الزيادة عن الحد؛ لأنه ليس ماله، وإنما مال اليتيم.

﴿وَبِدَارًا﴾: أي: المبادرة، والمسارعة قبل البلوغ والرشد تسليمه المال قبل أن يبلغ الرشد وهو حسن التصرف.

وهذا الإسراف والبدار (المبادرة) الذي يتم قبل مرحلة الرُّشد، فحين ينفق الولي بإسراف شيئاً فشيئاً من مال اليتيم قبل أن يكبر ويرشد؛ مما يؤدِّي إلى إنفاق كل مال اليتيم قبل مرحلة الرشد، وعندها لا يجد اليتيم شيئاً عند كبره ورشده؛ فقد سمي ذلك أكلاً رغم أن وصي اليتيم لم يأكل وإنما أنفق على اليتيم.

والإسراف: قد يعني: أن ينفق على اليتيم ببذخ، وإسراف يعطيه أكثر مما يحتاج إليه، مثلاً: أخذ ألفين بدلاً من ألف، ويقول له: خذ وأنفق، وهو بذلك يشجع اليتيم على الإسراف من جهة، ويهلك مال اليتيم.

أو يسلم له ماله مبكراً؛ مما يؤدِّي كذلك إلى هلاك ماله، ويعتبر ذلك كله أكلاً لمال اليتيم، وهذا التصرف من وصي اليتيم لا يراه إلا الله سبحانه، واعتبره أكلاً، وحذر منه في الآية (١٠) من نفس السورة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾.

﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾:

﴿وَمَن﴾: شرطية. ومن: للعاقل المفرد والمثنى والجمع.

﴿وَمَن كَانَ﴾: أيْ: إن كان الوصي غنياً فليستعفف؛ أيْ: لا يأخذ أجراً على

وصايته على مال اليتيم، ويجعل عمله احتساباً لوجه الله تعالى، وأجرهُ على الله سبحانه.

﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ﴾:

﴿فَإِذَا﴾: الفاء: استئنافية، إذا: شرطية تفيد حتمية الحدوث.

أنهم قبضوها منكم؛ لدفع التهم عنكم، وتأمنوا عاقبة الدعاوى الصادرة منهم.

﴿فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ﴾: الفاء: للتوكيد. ﴿فَأَشْهِدُوا﴾: عليهم شهيد، أو شهيدين عليهم، ولم يقل: فاستشهدوا عليهم؛ استشهدوا: الألف والسين والتاء تعني: الطلب، وتفيد المبالغة في الشهادة، وفيها تحديد بالعدد عدد الشهداء، أما اشهدوا: ليس فيها تحديد، ونوع الشهداء.

﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾: وكفى: أيْ: يكفي، ﴿حَسِيبًا﴾: أي: الكافي عباده بفضله، أو الكافي لعبده؛ كقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر:٣٦].

وحسيباً: قد تعني المحاسب لعباده على أعمالهم؛ فهو الكافي لعباده في جميع أمورهم وحوائجهم في الدنيا والآخرة؛ أيْ: يحفظ أعمال عباده من خير وشر، ويحاسبهم عليها.

﴿بِاللَّهِ﴾: الباء: للتوكيد. ﴿وَكَفَىٰ﴾: تفيد الدوام، والاستمرار على كونه حسيباً.

❖ ❖ ❖

لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ
مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا
مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ
وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا
﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا
خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى
بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ
فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً
فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا
ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن
كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ
فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى
بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ
نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾

سورة النساء [الآيات ٧ - ١١]

[٧] ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾:

﴿لِّلرِّجَالِ﴾: اللام: لام الاستحقاق؛ يعني: الأولاد، والأقرباء، كباراً، أو صغاراً.

﴿نَصِيبٌ﴾: هو القسم المنصوب المعين؛ الذي أوجبه الله للورثة، والنصيب يكون في المحبوب، والمكروه، ويختلف عن الحظ الذي لا يكون إلا في الخير؛ أي: لا يأتي إلا في سياق الخير، والنصيب قد يكون عادلاً أو جائراً؛ أي: زائداً أو ناقصاً عما يستحقه العبد، وهو الفرض، وسيأتي تفصيله في الآيات (١١-١٢) القادمة.

﴿مِّمَّا﴾: من: بعضية، ما: اسم موصول؛ أي: الذي ترك الوالدان: الوالد، والوالدة بعد الوفاة. وما: أوسع شمولاً من الذي.

﴿وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾: جمع قريب، المتوفون.

﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾: اللام: لام الاستحقاق (الاختصاص). النساء: تشمل الإناث صغاراً كانوا أو كباراً. لو نظرنا إلى شطر هذه الآية نجده نفس الشطر السابق، وكان بالإمكان تبديل كلمة الرجال والنساء بقول واحد، وهو للمؤمنين نصيب مما ترك الوالدان والأقربون، وانتهى الأمر.

ولعلَّ الحكمة من وراء ذكر النساء خاصَّة؛ وتشمل: (البنات)؛ لأنهم كانوا

في الجاهلية يحرمون المرأة من الميراث، فدرءاً لهذه الشبهة جاءت هذه الآية موضحة أن ذلك قد انتهى، ومؤكدة نصيبهن.

﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾: أيْ: من الميراث، سواء أكان قليلاً، أم كثيراً.

فلكل من الذكور، والإناث نصيب من الميراث، ومهما كان المقدار.

﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾: قدراً مفروضاً فرضه الله، كما نرى في الآيات القادمة، والمفروض الذي فرضه الله هو أهم من الواجب.

[٨] ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾:

الخطاب للوارثين ﴿وَإِذَا حَضَرَ﴾: إذا: ظرفية شرطية تفيد الحتمية: الحدوث والكثرة.

﴿الْقِسْمَةَ﴾: قسمة الميراث بعد موت المورث، أو تعني: وصية الميت قبل موته، والقسمة مفعول به، و﴿أُولُوا الْقُرْبَىٰ﴾: فاعل، فقدَّم هنا المفعول به، وهو القسمة؛ لأنها هي الأهم، ولولا القسمة لما حضر أولو القربى، واليتامى، والمساكين.

إذا حضرها أولو القربى: أي: المحجوبون الذين لا يرثون من الأقارب.

﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾: جمع يتيم، من لا أب له، و﴿وَالْمَسَاكِينُ﴾: جمع مسكين الذي له مال لا يكفيه.

﴿فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾: أيْ: أعطوهم منه؛ أيْ: مما ترك الوالدان والأقربون.

واختلف العلماء في هذه الآية، في إعطاء هؤلاء هل هو واجب، أو غير

واجب، أو منـــدوب، فالمال هو للورثة أصلاً، وليس لأولـــي القربىٰ، واليتامىٰ، والمساكين، وإعطاؤهم هو من باب الفضل حين توزيع الإرث.

ولعـــلَّ الحكمة هي تجنب الحســـد، والحقد، للـــوارث، أو الضغن علىٰ المورث؛ حتىٰ تشيع الألفة والمحبة بين الجميع.

﴿وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾: يحذِّر الله ســـبحانه في هـــذه الآية من دفع، أو صدٍّ؛ أيْ: منع الفقير، أو اليتيم، أو إيذائه بالمن والأذىٰ.

والقول المعـــروف يعني: اختيار الكلام الطيب الرقيق، والإحســـان؛ مثل القول: اعذرنا، أو لا تؤاخذنا، وهذا ما يسره الله، بارك الله لك.

[٩] ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾:

هـــذه الآية هي وعظ للأوصياء علىٰ اليتامىٰ بـــأن يرعوا ويتواصوا باليتامىٰ الذين في جحورهم، كما لو كان هـــؤلاء اليتامىٰ هم أولادهم، ويخافون عليهم، كما يخافون علىٰ أولادهم.

ويتصـــورون أنهم لو كانوا أولادهم من خلفهـــم، ويعاملونهم بالمعروف، والإحسان، كما يحبون أن يعامل أولادهم من بعد موتهم؛ لكونهم فقدوا آباءهم فهم ضعفاء.

﴿وَلْيَخْشَ﴾: اللام: لام الأمر، أو الندب.

والخشـــية: هي الخوف مع التعظيم، والعلم بالذي تخشـــاه؛ أي: ليخشوا الجور في الوصية.

﴿لَوْ﴾: شرطية.

﴿تَرَكُوا﴾: أيْ: شارفوا، أو قاربوا على أن يتركوا خلفهم ذرية ضعافاً.

﴿مِنْ خَلْفِهِمْ﴾: أي: من بعدهم (بعد موتهم).

﴿ذُرِّيَّةً ضِعَافًا﴾: من ذكور وإناث؛ ضِعافاً: بكسر الضاد، وأما ضُعفاء: بضم الضاد كما قال تعالى في الآية (٢٦٦) في سورة البقرة: ﴿ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ﴾، وإذا قارنا الآيتين نجد أن ضِعافاً بكسر الضاد تعني: الضعف المادي؛ أي: محتاجين إلى المال، وأما الضُّعفاء في آية البقرة هم ضُعفاء ضعف معنوي بدليل أن أباهم ترك لهم جنة فيها من كل الثمرات فهم بحاجة من يرعاهم ويقوم بأمرهم حتى يكبروا، وكلا الضُّعف والضَّعف يشتركان في ضعاف البنية؛ أي: أطفال صغار منهم من يحتاج إلى المال، ومنهم من يحتاج إلى رعاية فقط وعندهم مال.

﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ﴾: في أمر اليتامى. اللام: للتوكيد؛ أيْ: يتبعوا ما أمر الله، ونهى عنه وأن يخافوا معصية الله سبحانه.

﴿وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾: اللام: للتوكيد، يقولوا قولاً موافقاً للدِّين؛ هذا حرام، هذا حلال، هذا مستحب، أو مكروه، كلام ليس فيه مجاملة؛ أيْ: قولاً عدلاً، وهناك فرق بين القول السديد والقول الصواب؛ القول السديد: قد يعتريه بعض الخطأ بدون تعمد، أما القول الصواب: لا يعتريه أي خطأ.

[١٠] ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾:

﴿إِنَّ﴾: للتوكيد.

﴿يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾: أيْ: يأخذونها ظلماً، والظلم: هو أخذ حق الغير من دون قهر، أو تعسف، وأما إذا أخذ حق الغير بقهر وقوة وتعسف؛

فإن ذلك يسمَّى البغي، ويشبه أخذ أموال اليتامى بالذي يأكل النار، وكأن أموال اليتامى ستنقلب في الآخرة إلى نار تُصهر بها بطونهم وأحشاؤهم.

وقال سبحانه: ﴿يَأْكُلُونَ﴾: بصيغة المضارع بدلاً من أكلوا بالماضي (حكاية الحال)؛ لبشاعة أخذهم أموال اليتامى، فجاء به بصيغة المضارع؛ لتراه أمام عينيك، وكأنه يحدث الآن، وترى بشاعته. ارجع إلى الآية (٢) في نفس السورة لمزيد من البيان.

والمضارع يدل على استمرار أكلهم، وتجدده كذلك.

﴿إِنَّمَا﴾: كافة ومكفوفة تفيد التوكيد، والحصر.

﴿يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾: وكأنهم يأكلون النار في بطونهم. وكيف يأكلون النار وهم ما زالوا في الدنيا؛ أي: تصيبهم المصائب أو الأمراض سواء في الأرض أو في أنفسهم.

﴿وَسَيَصْلَوْنَ﴾: السين للاستقبال القريب والتوكيد.

﴿وَسَيَصْلَوْنَ﴾: سيحرقون في تلك النار المستعرة.

﴿سَعِيرًا﴾: ناراً مستعرة مشتعلة، وسعر النار؛ أيْ: أوقدها.

وفي هذه الآية تهديد ووعيد لمن يأكل أموال اليتامى ظلماً، أو يتلف أموالهم، أو يسرفها، ولا يعطيهم حقهم، وهذا يسمَّى: النهي بلفظ الوعيد. لمقارنة هذه الآية مع الآية (٣٠) من نفس السورة ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ ارجع إلى الآية (٣٠).

[١١] ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ

مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾:

﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ ﴾: يعهد إليكم ـ يلزمكم ـ يأمركم، وقيل: الوصية من الله فيها معنىٰ الفرض والإلزام، وفيها معنىٰ الإشفاق للموصىٰ لهم واهتمام به. يُوصيكُم: من أوصىٰ، وهناك فرق بين أوصىٰ وكلمة وصَّىٰ، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ﴾ [البقرة:١٣٢]، فالقرآن يستعمل وصَّىٰ للأمور المعنوية، وأمور الدين، ولما هو أبلغ وأهم من أوصىٰ التي إذا أطلقت تعني الأمور المادية، وإذا قيدت قد تعني المادية والمعنوية.

﴿ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ﴾: الولد يقع علىٰ الذكر والأنثىٰ، والمولود فعلاً، والجنين في بطن أمه، والولد يقتضي الولادة، والابن لا يقتضي.

﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ﴾: ولم يقل: بأولادكم (كما قال تعالىٰ في كثير من الآيات: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ ﴾).

هناك فرق بين استعمال كلمة في، والباء، والباء: تفيد التوكيد.

فحينما يوصي الله الآباء بالأولاد يقول: في أولادكم؛ لأن الآباء ليسوا بحاجة إلىٰ من يؤكد لهم العناية ورعاية أولادهم، ولأن هذه الوصية بتوزيع الميراث هي عبارة عن استمرار لرعاية الأولاد، والخوف عليهم من الحاجة والفقر، قبل الموت وبعد الموت، فليس الآباء بحاجة إلىٰ تأكيد باستعمال الباء.

وحينما يوصي الأولاد بالآباء يقول: بوالديه، يستعمل الباء، والباء: للإلصاق، والتأكيد؛ لأن من الأولاد من هم بحاجة إلىٰ تذكير وتوكيد برعاية الآباء، والعناية بهم.

أولاً: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾: اللام: لام الاستحقاق أو الاختصاص، والحظ: يعني القسم المعين، والحظ في القرآن قد يأتي في سياق الخير، وأما النصيب قد يأتي في سياق الخير أو الشر؛ لماذا لم يقل: للأنثيين مثل حظ الذكر، أو للأنثىٰ نصف حظ الذكر؟

السبب: ربما هو أنه سبحانه أراد أن يكون المقياس، أو المكيال هو حظ الأنثىٰ، ويكون حظ الذكر منسوباً، ولكنه فضل الأنثىٰ؛ أيْ: حقها، أو نصيبها يعطىٰ، أو يوفىٰ قبل حق أو نصيب الذكر؛ أي: حقها مقدم علىٰ حق الذكر وهو الأهم؛ لأن حق المرأة مغبون عادة، ولذلك جعل حظها هو المقياس.

ثانياً: لماذا للذكر مثل حظ الأنثيين؛ أيْ: لماذا فرض الله للأنثىٰ نصف نصيب الذكر؟ أليس هذا ظلماً للأنثىٰ، كما يرىٰ البعض؟

الجواب: لأن الأُنثىٰ مسؤوليتها علىٰ والدها حتىٰ تتزوج؛ أي: الإنفاق عليها في كل ما تحتاجه يقع علىٰ والدها؛ فإذا تزوَّجت؛ فزوجها مطلوب منه أن ينفق عليها شرعاً، ونصفها الذي أخذته من الميراث يبقىٰ لها، وليس عليها أن تنفقه، أو تعطيه إلىٰ زوجها؛ إلا إذا أرادت، ورغبت؛ أيْ: هو نصف خالصٌ لها.

وإذا لم تتزوج ومات أبوها عنها، فالنصف يكفي لها؛ لأنها من دون أولاد وعائلة.

وأما الذَّكر: فقلما يبقىٰ من دون زواج وأولاد، فهو مسؤول عن نفسه، وعن عائلته، وبغض النظر عن المبررات، والحكمة لماذا فرض الله ذلك، فيكفي أنه أمر من الله سبحانه، والله لا يُسأل عما يفعل، أو يأمر به.

﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾:

﴿فَإِن﴾: الفاء: عاطفة، أو استئنافية، إن: شرطية تفيد الاحتمال.

﴿كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ﴾: أيْ: مات المورث، ولم ينجب ذكراً، وإنما أنجب ثلاث بنات، أو أكثر.

﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾: والثلث الباقي يوزع على الآخرين المستحقين من الورثة.

﴿وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾:

﴿وَإِن﴾: الواو: عاطفة.

﴿وَإِن﴾: شرطية تفيد الاحتمال.

﴿كَانَتْ وَٰحِدَةً﴾: أيْ: مات المورث، وترك بنتاً واحدة، ولم ينجب غيرها فلها نصف ما ترك، والنصف الآخر يوزع على الآخرين المستحقين من الورثة.

وأهم نقطة هنا يجب أن نقف عند النصف. انتهت الوصية لهذه البنت.

وأما قوله: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾: فهذه وصية جديدة؛ أيْ: إن مات المورث، وترك ولداً ذكراً، أو أنثى، وله أبوان أحياء يأخذ كل أب منهما السدس، ويوزع الباقي على الأولاد.

ولم يذكر الحق سبحانه: فيما إذا ترك المورث الذي مات بنتين فقط، أجمع العلماء على أنَّ لهنَّ ثلثي ما ترك؛ كل واحدة تأخذ الثلث مما ترك، والباقي يوزع على الآخرين من المستحقِّين من الورثة.

إذن نُعيد الشرح، ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد.

﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾: أيْ: أبوي الميت؛ أيْ: إذا كان الميت قد ترك أولاداً ذكوراً،

أو إناثاً، وترك أبويه (تطلق على الأب والأم)، يأخذ الأب السدس، والأم تأخذ السدس، والباقي يوزع على الأولاد.

والسبب في تساوي نصيب الوالدين (السدس) مع وجود الأولاد: هو توقيرهما، واحترامهما على السواء.

وأما كون نصيب الوالدين أقل من الأولاد؛ فلكبرهما، وعدم حاجتهما، والله أعلم.

﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾:

﴿فَإِن﴾: الفاء: عاطفة، إن: شرطية احتمالية. مات الميت وترك مالاً، ولم يكن له ولد (ذكراً، أو أنثى)، وورثه أبواه؛ فلأمه الثلث، والثلثان الباقيان للأب والزوجة، ولو لم يقل: لأمه الثلث فقد يظن ظانٌّ أن المال يوزع منهما؛ أي: الأم نصف والأب نصف، فلما خصَّها بالثلث؛ دلَّ على أن الأب له ما تبقى.

﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾:

أيْ: مات الميت وليس له ولد، وله إخوة وأم.

وجود الإخوة (ذكور وإناث) مع الأم يحجب الأم من الثلث إلى السدس؛ أيْ: تعطى الأم السدس، والباقي من التركة يوزع على المستحقين من الورثة: الزوجة، والأب إذا كان حياً، والإخوة (ذكوراً وإناثاً).

﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾:

أيْ: تكون قسمة التركة بعد قضاء دَين الميت، وإخراج ما وصى به المورث الميت (الثلث، أو أقل من الثلث).

ولماذا قدَّم الوصية على الدَّين مع أن الدَّين حق عليه، والوصية حق له،

والدَّيـــن واجب، والوصية تطـــوع؟ فقد تكون الحكمة حثاً علـــى تنفيذ الوصية، والاهتمام والترغيب في فعلها، والدَّين معلوم يجب ســـداداه، وليست هي أفضل من الدَّين، وكي لا يتغافل عنها الناس في ساعة سدادهم للدَّين.

وقولـــه: ﴿يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾: أو: هنـــا لا تعنـــي الترتيب، وإنمـــا تدل على الاختيـــار، ويجب ملاحظة أن الوصية قُدِّمت في التـــلاوة (القراءة)، بينما الدَّيْن يقدَّم عليها في الأداء.

﴿ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾: آباؤكم: تعني الأب، والأم؛ أما الوالدان: هم الوالد والوالدة.

﴿لَا تَدۡرُونَ﴾: لا: النافية.

﴿أَيُّهُمۡ﴾: أيُّ الاستفهامية.

﴿أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗا﴾: فـــي الدنيا والآخـــرة؛ أيْ: لأنكـــم ﴿لَا تَدۡرُونَ﴾: أيْ: تعلمون من الدراية من درىٰ. قيل: بمعنىٰ علم، وهل هناك فرق بين درىٰ، وعلم؟

قيل: الدراية: أخص من العلم، وعلم: أعم، وتكون بمنزلة الإخبار.

وقيل: إن درىٰ: يكون فيما سبقه شك، والدراية: تكون بعد الجهل بالشيء.

أيْ: لكونكـــم لا تدرون آباءكـــم وأبناءكم أيهم أقرب لكـــم نفعاً في الدنيا والآخرة، فعليكـــم أن تنفذوا هذه الوصيـــة المفروضة، كمـــا علمكم الله، ولا تفضلوا أحداً على أحد؛ لأنكم لا تدرون، فالله هو المشـــرع وحده، وتشـــريعه بعلم وحكمة، ولا يعلم الغيب إلا هو، فلا تتلاعبوا، ولا تقسموا الميراث حسب أهوائكم، فتعطي زوجتك التي تحبها أكثر مما فُرض لها، أو تعطي هذا الابن أكثر من ذلك، أو تحرم هذا، وتعطي ذاك، وهكذا.

﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾: أيْ: فرض الله ذلك فرضاً عليكم فريضة، وليست على سبيل الاستحباب.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾:

﴿إِنَّ﴾: للتوكيد.

﴿كَانَ﴾: تشمل كل الأزمنة: الماضي، والحاضر، والمستقبل. كان عليماً حكيماً. قبل أن يشرع لكم أي شرع أو حكم وكذلك كان عليماً بأنكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً.

﴿عَلِيمًا﴾: بمصالح خلقه منذ الأزل، ويعلم الأمر قبل وقوعه، ويعلم حقيقة البشر كلهم جميعاً في أيِّ زمانٍ ومكانٍ.

﴿حَكِيمًا﴾: في كل ما فرض وقسم من المواريث. حكيم في تدبير شؤون خلقه وكونه؛ فهو أحكم الحاكمين سبحانه، وهو أحكم الحكماء.

❖❖❖

وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن
لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا
تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۚ
وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ
فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ
مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ
رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ
وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ
فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ
أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ
﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ
يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ
خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾
وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ
نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾

سورة النساء [الآيات ١٢ - ١٤]

[١٢] ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾:

﴿وَلَكُمْ﴾: الواو: استئنافية.

﴿وَلَكُمْ﴾: اللام: لام الاختصاص، والاستحقاق.

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾: من الميراث.

﴿إِن﴾: شرطية، ﴿لَّمْ﴾: نافية.

﴿لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾: منكم، أو من غيركم ولد ذكر أو أنثى (ابن، أو بنت).

﴿فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾:

﴿فَإِن﴾: الفاء: عاطفة، إن: شرطية.

﴿كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾: منكم، أو من غيركم.

﴿فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾:

من بعد سداد الدَّين، ومن بعد إخراج الوصية التي تعادل الثلث، أو أقل إن كان لها وصية.

﴿وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ﴾ لهنَّ الربع من الميراث.

إن: شرطية، لم يكن لكم ولد سواء من الزوجة الوارثة، أو غيرها من الزوجات.

ويشترك في هذا الربع الزوجة الواحدة، أو أكثر من زوجة، وبقية الميراث يوزع على الأولاد، والأب، والأم، كما ورد في الفروض.

﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾:

انظر إلى الآيات السابقة؛ للبيان.

﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾:

﴿وَإِن﴾: شرطية تفيد الاحتمال.

﴿رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ﴾:

الكلالة: اتفق المفسرون على تعريف الكلالة: الميت الذي لا ولد له (ذكر أو أنثى)، ولا والد (أب أو أم)، واشتقت كلمة الكلالة من الكلال، أو الإكليل؛ أي: التاج، والكلالة صفة للمورث، أو اسمٌ للقرابة.

صفة للمورث: الكلال: فهو ذهاب القوة من الإعياء والضعف والتعب؛ لأن من لا ولد له (ذكر أو أنثى)، وليس له أب أو أم؛ كأنه ضعيف من دون هؤلاء الذين عادة هم يرعونه، ويعينونه حين كبره، فهو من دونهم مرهق متعب ضعيف.

اسمٌ للقرابة: تشبه الإكليل: وهو التاج الذي يُحيط بالرأس من كل الجوانب، والمقصود بالإكليل: الأقارب المحيطون بالإنسان، وليس لهم به صلة كصلة الأبناء والآباء.

فهم يتكللون الميت من جوانبه ووسط الرأس خال (من الأولاد والآباء)، فإذا لم يكن للميت (ولد ولا بنت) (أب أو أم).

﴿أَوِ ٱمْرَأَةٌ﴾ ارجع إلىٰ سورة آل عمران آية (٣٥) لمعرفة الفرق بين امرأت بالتاء المفتوحة، وامرأة بالتاء المربوطة.

عندها يرثه أخوه، أو أخته، أو إخوته، وأخواته، وأقاربه.

وفي هـذه الآية اتفق العلماء أن معنىٰ ﴿وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾: أيْ: لـه أخ، أو أخـت من نفس الأم؛ (أيْ: يرثـه إخوته، أو أخواته لأمه)، فلكل واحد منهما السدس.

فهذه الآيـة خاصَّة بالإخوة والأخوات من نفس الأم فقط، وليس من نفس الأم والأب، فهذا ما تبيِّنه الآية (١٧٦) من نفس السورة، أو من الأب فقط.

﴿فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ﴾: وإذا قارنـا كيف كتبـت ﴿شُرَكَآءُ﴾ في هذه الآية وكيف كتبت ﴿شُرَكَٰٓؤُا۟﴾ في سـورة الأنعام؛ فهذا الاختلاف كما تبين أنه راجع إلىٰ أن شركاء في آية النساء تمثل شراكة حقيقة وليسـت وهمية، والشراكة في آية الأنعام شـراكة وهمية غير حقيقية من زعمهم الباطلة؛ أي: شراكة باطلة..

﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾: يسـدد الدَّيـن، وتُدفـع الوصيـة، وما تبقىٰ هو الميراث؛ أيْ: غير ضرر بأحد من الورثة، أو الموصي لهم بأن يزيد، أو ينقص عما شـرعه الله لهم. غير مضـار: بأن يوصي أكثر من الثلث مثلاً، أو يدعي عليه دَين، وليس عليه دَين، أو يحرم أحداً من الورثة؛ لكونه مبغضاً له، أو لا يحبه؛ فإن تبيَّن ذلك فلا تنفذ الوصية الباطلة، ولا يسـدد الدَّين الباطل، وتقسم التركة علىٰ الوجه السديد الموافق للشريعة، كما أمر الله سبحانه.

﴿وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾: أيْ: ألا تضـروا أحداً بأي وجه من الوجوه؛ لأنها توصية من الله، والوصية فيها معنىٰ إلزام وعهد، وتحمل معنىٰ الفرض عند بعض المفسرين.

وكلمة الوصية فيها معنىٰ: أن الموصِي يحبُّ الموصَىٰ، ولذلك يوصيه.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾: بمَن جار، وظلم، أو عدل في وصيته، عليم بنواياكم وما تكنه صدوركم، وعليم بما وصىٰ به خلقه.

﴿حَلِيمٌ﴾: غير جائر؛ لأنه لا يعاجل المذنب، أو العاصي بالعذاب؛ لعلَّه يتوب، وينيب إلىٰ الله تعالىٰ؛ أي: الصبور الذي يمهل، ولا يهمل، ويستر الذنوب، ويؤخر العقوبة، ويرزق العاصي، كما يرزق المطيع، ذو الصفح والأناة.

[١٣] ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾:

إشارة إلىٰ الأحكام التي تقدَّمت في شأن اليتامىٰ والمواريث. ويسميها سبحانه حدوداً، وحين يضع حدوداً؛ فعلينا ألا نتعداها إذا كانت في الأوامر، أو نقرب منها إذا كانت في النواهي.

أيْ: يستعمل ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾: في الأوامر، مثل: الزواج، والطلاق، واليتامىٰ، والمواريث.

ويستعمل: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾: في النواهي، مثل: الخمر، والميسر، والأنصاب.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾:

﴿وَمَن﴾: تدل علىٰ الواحد، أو المثنىٰ، أو الجمع. من: الاستغراقية.

﴿يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾: في الأحكام، والأوامر، والنواهي، والمواريث وغيرها.

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: ولم يقل: تحتها، وإنما من تحتها الأنهار؛ أيْ: تنبع من تحتها الأنهار؛ أنهار الجنة.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾: ولم يقل: خالداً فيها؟ لأن الوحدة فيها وحشة، وعذاب، وغير مستحبة للنفس.

وقيل: إن الإنسان يأنس بأهله في الجنة، ولذلك يذكر: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾: بصيغة الجمع حين يذكر الجنة في غالب الأحوال، وخالداً فيها حين يذكر النار؛ لأن الوحدة والعزلة أشد وأقسىٰ علىٰ العبد.

﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾: صيغة مبالغة، والأعظم أشد مبالغة من العظيم، والواو في ذلك تفيد التوكيد. ارجع إلىٰ الآية (٧٣) من نفس السورة للبيان في معنىٰ الفوز وأنواعه.

[١٤] ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾:

﴿وَمَن يَعْصِ﴾: من: للابتداء، وشرطية.

﴿ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾: فيما أمرا به، أو نهيا عنه.

﴿وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ﴾: تهديد ووعيد لمن يتعدىٰ حدود الله تعالىٰ بتغيير الأحكام بزيادة، أو نقص، أو ترك العمل بها.

﴿يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا﴾: ولم يقل: خالدين فيها؛ لأن الإفراد والعزلة لأهل النار فيه نوع من العذاب، والوحشة بالإضافة إلىٰ النار نفسها.

﴿وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾: فيه خزي وإذلال، وألم؛ أيْ: يجمع الألم والإهانة، والإهانة تعني: العذاب علىٰ مرأىٰ الناس، والفضيحة بأن تذكر سيئاته وما كان يفعله.

❖ ❖ ❖

لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ
مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا
مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ
وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا
﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا
خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى
بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ
فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً
فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا
ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن
كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ
فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى
بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ
نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾

سورة النساء [الآيات ١٥ - ١٩]

[١٥] ﴿وَٱلَّٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾:

المناسبة: بعد أن ذكر الله سبحانه وتعالىٰ الحدود في اليتامىٰ والميراث، وحذَّرنا من تعدي تلك الحدود، يخبرنا عن الحدود الأخرىٰ، ومنها: حد الفاحشة (الزِّنىٰ)، فقال:

﴿وَٱلَّٰتِي﴾: الواو: استئنافية. اللاتي: اسم موصول للجمع المؤنث.

﴿يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾: يفعلن الفاحشة؛ (أي: الزِّنىٰ).

و﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾: هي ما عظم قُبحه من الأقوال والأفعال. وغالباً تعني: الزِّنىٰ واللواطة.

﴿مِن نِّسَآئِكُمْ﴾: من أزواجكم.

﴿فَٱسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾: ولم يقل: فأشهدوا، وإنما زاد السين والتاء، ويعني ذلك: الطلب؛ أي: اطلبوا إحضار أربعة شهداء. واستشهدوا: أقوىٰ وأبلغ من فأشهدوا.

﴿مِّنكُمْ﴾: من المسلمين العدول، ولماذا أربعة؟ لأن هناك زانياً وزانية، فكل منهما يحتاج إلىٰ شهيدين؛ فالمجموع أربعة.

وتغليظاً علىٰ المدَّعي، ولحماية الأعراض، والتأكد من جريمة الزِّنىٰ.

ويبيِّن الله سبحانه في سورة النور، آية (٤) عقوبة الذي لا يأتي بأربعة شهداء بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾.

﴿فَإِن﴾: إن: شرطية.

﴿شَهِدُواْ﴾: بأنهم رأوا عملية الزِّنىٰ؛ الزاني والزانية معاً في الفراش، ورأوا الفرج في الفرج.

﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي ٱلْبُيُوتِ﴾: فأمسكوهنَّ في البيوت؛ أي: احبسوهنَّ في البيوت؛ امنعوهنَّ من مخالطة الناس إلىٰ أن يتوفاهنَّ الموت؛ وكان ذلك في بداية الإسلام، ثم نسخ الحكم بحكم آخر، وهو حد الزِّنىٰ الرجم، أو الجلد.

﴿أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾: أيْ: مخرجاً من هذه العقوبة، وقد جعل الله لهنَّ سبيلاً عندما شرع حد الزِّنىٰ.

وكان ذلك هو الحكم في بداية الإسلام إذا زنت المرأة، وثبت زناها بالشهود الأربعة، حبست في بيتها حتىٰ تموت، وظل ذلك الحكم سارياً حتىٰ نسخه الله سبحانه، كما قال بعض المفسرين بالجلد مئة جلدة للأبكار، والرجم للمحصنين والمحصنات.

[١٦] ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾:

﴿وَٱلَّذَانِ﴾: اسم موصول للمثنىٰ المذكر (اللذان لم يُحصنا) بالزواج.

﴿يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ﴾: يفعلان الفاحشة. منكم: (من المسلمين). (قيل: هي الزِّنىٰ، وقال بعضهم أيضاً: اللواطة).

فإذا كانت الفاحشة هي الزِّنىٰ تعني الزاني والزانية لم يُحصنا.

﴿فَـَٔاذُوهُمَا﴾: الفاء: للتوكيد، آذوهما: قيل: بالكلام، والضرب بالنعال والجلد.

﴿فَإِن﴾: الفاء: استئنافية. إن: شرطية.

﴿تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾: تابا من الفاحشة، وأصلحا؛ أيْ: قاما بالعمل الصالح.

﴿فَأَعْرِضُوا﴾: الفاء: رابطة لجواب الشر تفيد التوكيد.

﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾: أيْ: عن إيذائهما؛ وقيل: كان هذا كله قبل نزول آية الحد، حد الزِّنى.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا﴾: إن: للتوكيد، وكان تشمل كل الأزمنة، كان ولا زال وإلى الأبد، تواباً: صيغة مبالغة كثير التوب؛ أيْ: قبول التوبة كماً ونوعاً، ومهما كثرت، وتعددت، ويغفر الذنوب جميعاً إلا الشرك، والكفر إذا لم يتب العبد قبل موته.

﴿رَحِيمًا﴾: لأنه لا يَردُّ توبة التائب، ولا يعجِّل لكم العقوبة.

[١٧] ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾:

﴿إِنَّمَا﴾: كافة ومكفوفة تفيد الحصر والتوكيد.

﴿التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ﴾: أيْ: قبول التوبة مترتب على فضل الله؛ أيْ: إذا تابوا يقبل توبتهم بفضله، وليس وجوباً عليه أن يقبل التوبة.

﴿لِلَّذِينَ﴾: اللام: لام الاختصاص، والاستحقاق.

﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾: يعملون: بصيغة المضارع التي تدل حكاية الحال، أو على التجدُّد، والتكرار، ولم يقل: عملوا السوء.

﴿السُّوءَ﴾: الإثم، والذنب، والمعاصي، وسُمِّيَ سوءاً لسوء عاقبته.

﴿بِجَهَالَةٍ﴾: قيل ولم يقل بجهل، وإنما بجهالة: وهي عدم الرؤية؛ الجهالة: السفه، والطيش، وعدم التدبر في النتائج عن ثورة الشهوة، أو لم يقدِّر قيمة ما سيلحقه من إثم، ويفوته من ثواب.

والجهالة: هي حمق يصيب الشخص ساعة الشهوة، وقد تكون مرة واحدة، أو أكثر، ولم يقل: بجهل؛ لأن الجهل هو عدم العلم بالعقوبة، أو عاقبة المعصية.

إذن: جهلهم ليس ناتجاً عن عدم العلم، وإنما ناتج عن الجهالة، وهي السفه، والطيش، والحماقة.

﴿ثُمَّ﴾: ليست للتراخي في الزمن؛ لأنه قال بعدها: يتوبون من قريب، وإنما هي تعني: التباين بين عمل السوء، والتوبة من قريب (بالدرجة والفضل).

﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾: يتوبون بعد وقوع المعصية، أو الذنب، ولا ينتظرون الزمن الطويل، والسؤال: لو أخَّر التوبة ألا تقبل منه؟ نعم تقبل منه، ولكن ماذا يحدث إذا مات؛ لأنه لا يدري أجله، ولا يضمن أن يعيش ثواني قليلة.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: الفاء: للتوكيد. أولئك: اسم إشارة، واللام: للبعد.

﴿يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾: أيْ: يقبل الله توبتهم.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾: كان تشمل كل الأزمنة: الماضي، والمضارع، والحاضر، والمستقبل.

﴿عَلِيمًا﴾: بأحوالهم، وأقوالهم، وأفعالهم، وتوبتهم.

﴿حَكِيمًا﴾: في تدبير شؤون خلقه وكونه، وفي أوامره ونواهيه.

إذن شروط التوبة في هذه الآية:

أولاً: فعل الذنب بجهالة.

ثانياً: التوبة من قريب.

والتوبة وردت بصيغ مختلفة، منها: التوبة من الله، التوبة على الله، التوبة إلى الله، التوبة عن عباده؛ فما هي أوجه الاختلاف؟

التوبة من الله؛ كقوله: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾.

فآدم سأل ربه كيف أتوب؛ فعلمه جل جلاله كيف يتوب.

إذن التوبة من الله؛ تعني: تشريعاً؛ لأنه هو الذي شرع التوبة.

وانتبه إلىٰ أنه لم يأتِ، أو يُذكر في القرآن كله؛ أيُّ آيةٍ تقول: يقبل التوبة من عباده، وإنما فقط ورد التوبة من الله.

﴿ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾: قبولاً بفضله؛ أيْ: يقبل التوبة، وليس وجوباً عليه أن يقبل التوبة.

﴿ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾: كما ورد في سورة الشورىٰ، آية (٢٥)؛ لأنه سبحانه علّم آدم التوبة، وهداه إليها، ثم قبلها منه، فيقال: التوبة عن عباده؛ يقصد بها التوبة نفسها (السياق في التوبة).

والتوبة من عباده: لم يأتِ في القرآن مثل هذه، وتعني: الجهة الصادرة منها التوبة.

[١٨] ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾:

فأركان التوبة هي:

١ - الإقلاع عن الذنب، والمعصية، وعدم العودة إليها.

٢ - الندم علىٰ فعلها.

٣ - إرجاع الحقوق إلىٰ أهلها.

٤ - الإكثار من النوافل، والأعمال الصالحة، مثل: الصلاة، والصدقات.

وليست (للنفي نفي الحال)، التوبة للذين (اللام لام الاختصاص).

﴿يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: أيْ: مستمرون، ومصرون علىٰ عمل السيئات،

والعودة على ارتكابها، أو مستمرون على الشرك، والكفر، والنفاق حتى يحضرهم الموت، وعندها يحاولون التوبة، فلا تقبل منهم.

﴿حَتَّىٰٓ﴾: حرف غاية نهاية الغاية.

﴿إِذَا﴾: شرطية تفيد حتمية الحدوث، حضر أحدكم الموت، ولم يقل: جاء؛ لأن جاء فيها معنى الفجأة، والشدة، وقبض الروح، وحضر فيها معنى التأني حيث يدخل العبد في مرحلة الوفاة التي تسبق المجيء، ولم تقبض روحه بعد.

﴿حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾: قدَّم المفعول على الفاعل؛ للاهتمام. ارجع إلى سورة البقرة، آية (١٣٣)؛ للبيان. وحضر تختلف عن جاء أحدَهُمُ الموت؛ حضر: تعني في المستقبل، وتستعمل في الوصايا والأحكام التي تخص الموت، أما المجيء تأتي في سياق الكلام عن الموت، وأحوال الناس حين يدركهم الموت.

﴿قَالَ إِنِّى﴾: للتوكيد.

﴿تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾: بحيث يعلم أنه ميت لا محالة، ولم يبق له في الحياة رجاء، فيحاول التوبة؛ لينقذ نفسه كما حدث لفرعون حين أدركه الغرق قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٩٠].

﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾:

﴿وَلَا﴾: الواو: عاطفة، لا: النافية.

﴿ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾: فهؤلاء لا توبة لهم أيضاً بعد موتهم، ولو تابوا قبل موتهم، ربما يقبل الله تعالى توبتهم.

﴿وَهُمْ كُفَّارٌ﴾: وهم: ضمير فصل يدل على التوكيد.

﴿كُفَّارٌ﴾: جمع كافر، تشير إلى الحدث أكثر منها إلى عملهم الكفر، وصيغة مبالغة، وتشمل عموم الغافرين (بما فيهم المشركون مثلاً).

﴿أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾:

﴿أُولَٰئِكَ﴾: اسم إشارة، اللام: لام البعد.

﴿أَعْتَدْنَا﴾: هيَّأنا وجهَّزنا لهم عذاب النار، وأعددنا: أعم وأشمل من أعتدنا؛ أعددنا: تعني أشياء كثيرة، وأعتدنا: قد تكون شيئاً واحداً وهو عذاب النار.

﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾: هو عذاب جهنم، شديد الإيلام، والدوام.

[١٩] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾:

نداء إلى الذين آمنوا بأمر جدير هو: لا يحل لكم أن ترثوا النساء؛ أيْ: تتوارثوهنَّ كما يتوارث المال، تأخذوهنَّ كالإرث، والخطاب موجَّه خاصَّة لأقارب الميت، وكان هذا من أفعال الجاهلية، فكان عندما يموت الميت؛ وله زوجة، كان أقرباؤه يرثونها عنه، فإن شاؤوا تزوجوها بلا صداق، وإن شاؤوا زوَّجوها لغيرهم، وأخذوا صداقهنَّ. وكانوا يفعلون ذلك قهراً وجبراً من دون حرمة.

﴿أَن﴾: مصدرية تفيد التوكيد.

﴿تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾: بفتح الكاف؛ تعني: الإجبار والقسر، والكَره، وردت: ﴿كَرْهًا﴾: في خمس آيات:

كَرْهاً:

١ - ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت:١١].

٢ - ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران:٨٣].

٣ - ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم﴾ [الرعد:١٥].

٤ - ﴿أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ [التوبة:٥٣].

٥ - ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾ [النساء:١٩].

أما ﴿كُرْهًا﴾: بضم الكاف فوردت في ثلاث آيات، وتشير إلى الكره المستحب؛ أي: الناتج عن تعب، أو مشقة مرغوب فيها، أو محب لها رغم كونها مؤلمة.

ـ مثل: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا﴾ [الأحقاف:١٥]؛ أي: الحمل والولادة.

ـ ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦]؛ أي: الجهاد في سبيل الله. ارجع إلى سورة البقرة آية (٢١٦)، وسورة الأحقاف آية (١٥) لمزيد من البيان، والفرق بين كَرهاً وكُرهاً.

﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ﴾:

﴿وَلَا﴾: الواو: عاطفة، لا: الناهية.

﴿تَعْضُلُوهُنَّ﴾: من العضل: هو المنع، أو الحبس، أو التضييق، والعضل مأخوذ من عضلت المرأة بولدها؛ أيْ: تعسرت في الولادة، وانقبضت عضلاتها، ولم تبسط حتى يخرج الوليد.

﴿تَعْضُلُوهُنَّ﴾: الخطاب موجَّه للأزواج، كان الزوج إذا كره صحبة امرأته، ولها عليه مهر يحبسها، ويضربها؛ لتفتدي به، أو كانوا في الجاهلية بعد الطلاق يعضلون المطلقات بقصد الإضرار بهنَّ حتى تفتدي بمهرها، أو مالها، أو الخطاب موجَّه إلى الأولياء، كانوا يمنعون النساء من الزواج؛ ليرثوهنَّ، أو كانوا يمنعون النساء من الزواج إلا بإذنهم حتى يأخذوا صدقاتهنَّ.

﴿إِلَّا﴾: أداة حصر.

﴿يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ﴾: يفعلن فاحشة (كالزِّنى).

﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾: واضحة من دون شك، ولا شهود، أو لا تنكرها هي، أو إذا أظهرن نشوزاً وسوء معاملة للعيان؛ عندها يجوز خلعها، ويقبل منها أن تفتدي.

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: الباء: للإلصاق، والاستمرار.

عاشروهنَّ: بما يقره الشرع والعرف، وتألفه الطباع السليمة.

عاشروهنَّ بالمعروف: في القول، والنفقة، والمعاملة السمحة، والصبر.

﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾: فإن: الفاء: استئنافية. إن: شرطية، وتفيد الاحتمال، والندرة في الوقوع، ولم يستعمل (إذا)؛ لأن (إذا): تدل على حتمية الحدوث به.

﴿كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾: لأسباب حقيقية، أو عيب خُلقي، أو تقصير في المعاشرة، أو نشوز.

﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾:

﴿فَعَسَىٰٓ﴾: الفاء: للتعقيب والمباشرة، عسى: من أفعال الرجال أن تستقيم الأمور.

﴿أَن﴾: شرطية، ﴿تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا﴾: نكرة؛ أيُّ شيءٍ، ﴿شَيْـًٔا﴾: مهما كان نوعه.

﴿وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾: أي: اصبروا، ولا تتعجَّلوا بالطلاق، أو الخلع؛ عسى اللهُ أن يصلح أحوالهنَّ، وتستقيم الأمور، ولا تتمزق الأسرة، ويصاب الأولاد بأمراض نفسية؛ نتيجة الطلاق، والكراهية بين الزوج والزوجة.

❖ ❖ ❖

وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ
إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ
بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ
بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا
غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ
ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا
وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ
وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ
ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ
وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ
وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ
ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ
مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ
إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾

سورة النساء [الآيات ٢٠ - ٢٣]

[٢٠] ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْـًٔا أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾:

﴿وَإِنْ﴾: الواو: استئنافية. إن: شرطية تفيد الاحتمال، أو ندرة الحدوث.

﴿ٱسْتِبْدَالَ﴾: الألف والسين والتاء: للطلب. استبدال: الاستبدال هنا يعني: الطلاق؛ أيْ: طلقتموهنَّ، وأردتم الزواج بزوجة أخرىٰ بداعي الشهوة والرغبة.

﴿زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾: تعني: الزواج بزوجة أخرىٰ، ولم يكن هناك سببٌ هي قامت به، مثل: الفاحشة، أو النشوز.

﴿وَءَاتَيْتُمْ﴾: أعطيتم، وأتيتم: أعطيتم: ﴿إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾: من المهر (ولو كان قنطاراً) من المال الكثير؛ كصداق، أو مهر أو نحلة. وقيل: القنطار: مئة رطل من الذهب؛ لأن المهر إذا كان قنطاراً أو كثيراً قد تسول للإنسان نفسه فلا يحق لكم أن تأخذوا منه شيئاً.

﴿فَلَا﴾: الفاء: رابطة لجواب الشرط.

﴿تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْـًٔا﴾: لا: الناهية، فلا تأخذوا منه (الصداق، أو المهر) شيئاً مهما قل أو كثر.

﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾: الهمزة: للاستفهام الإنكاري التوبيخي. أتأخذونه بالبهتان: البهتان: الكذب المتعمد الذي يبهت سامعه، ويدهشه؛ لشناعة الكذب، وأنواع الكذب تشمل: الإفك، والبهتان، والافتراء، والخرص، وغيرها، والإثم: يعني القبيح، ويعني الصغائر والكبائر.

﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾: حراماً وظلماً واضحاً، والمبين: هو الظاهر الواضح، ومظهر لنفسه ظاهر للعيان إنه إثم غير مستور، وكل من يعلمه يعتبره إثماً.

[٢١] ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾:

﴿وَكَيْفَ﴾: الواو: استئنافية، كيف: اسم استفهام، فيه معنىٰ النفي، وهو استفهام إنكاري، وسبقه الهمزة: أتأخذونه وكيف تأخذونه إنكار بعد إنكار، وفيه كذلك تعجب.

﴿وَقَدْ﴾: حرف تحقيق وتوكيد.

﴿أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾: أفضىٰ من الإفضاء: كناية عن الجماع والخلوة. قيل: من الفضاء المكان الواسع الذي لا حدود له؛ أيْ: دخلت في فضائها، ودخلت في فضائك؛ أيْ: دخولاً واسعاً حين حدث كشف العورة، ولا يوجد إفضاء أكبر من ذلك، ودخلتا معاً في الأنفاس، والمعاشرة، والملامسة.

يعني: دخلتم معاً أوسع المداخل، وقمة المداخل، وهي أن يرىٰ كل منكم عورة الآخر، عورتها التي تسترها من كل مخلوق حتىٰ أمها وأختها، وتراها أنت، فلا يوجد فضاء أكثر من ذلك.

﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾:

﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم﴾: من الزوج والزوجة، أو (ولي أمرها) ميثاقاً، الميثاق: هو العهد الموثق بأدلة مثل: الشهود، والعقد، ويوقع عليه الزوج، والزوجة، وعاقد النكاح، والسلطة المختصة من الدولة، ويجب احترامه.

﴿مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾: أيْ: عهد موثق غليظ عظيم لا ينحل بسهولة.

وذكر الميثاق الغليظ في القرآن في ثلاث آيات فقط:

الأول: في هذه الآية (٢١) من سورة النساء، وهو ميثاق الزواج.

الثاني: في الآية (١٥٤) من سورة النساء، وهو ميثاق بني إسرائيل.

الثالث: في الآية (٧) من سورة الأحزاب، وهو ميثاق النبيين.

[٢٢] ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾:

﴿وَلَا﴾: الواو: استئنافية. لا: الناهية، النهي للحاضر، والمستقبل.

﴿تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾: حيث كانوا في الجاهلية يتزوجون بزوجات آبائهم بعد طلاقهنَّ، أو موت الآباء، فجاءت هذه الآية تنهاهم عن ذلك وتحرمه.

﴿مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾: ما هنا: للعاقل؛ أيْ: زوجات الآباء.

إلا: أداة حصر.

﴿مَا قَدْ﴾: ما: اسم موصول بمعنىٰ: الذي. قد: للتحقيق والتوكيد.

﴿سَلَفَ﴾:بمعنىٰ: مضىٰ (للماضي).

﴿إِنَّهُۥ﴾: للتوكيد. ﴿كَانَ فَٰحِشَةً﴾: قبيحاً (زنىٰ من أقبح الزِّنىٰ، وهو أن ينكح ما نكح الأب).

﴿وَمَقْتًا﴾: المقت: هو أشد البغض بغض الممقوت، ولكل ذي فطرة سليمة.

﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾: ساء طريقاً أن يسلك.

[٢٣] ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ

أَبْنَآؤُكُمْ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾:

يذكر الحق في هذه الآية محرمات النكاح من النسب والرضاع والمصاهرة.

فذكر سابقاً تحريم نكاح امرأة الأب، ثم حرم في هذه الآية الأمهات؛ أي: الوالدات، والأم تعني: الوالدة والمرضعة، وتستعمل كلمة الوالدة في سياق الأحكام الشرعية، والبنات، والأخوات، والعمات، والخالات، وبنات الأخ، وبنات الأخت (سبعة محرمات من النسب). فقال (حرمت عليكم)؛ أي: هذا التحريم كان مقرراً سابقاً، وجاء القرآن ليؤكده فقال (حرمت عليكم)، ولم يقل ولا تنكحوا، كما ورد في الآية السابقة (٢٢)؛ حيث كان سابقاً نكاح زوجات الأب شائعاً عند العرب، ثم حرمه الإسلام، وكذلك الجمع بين الأختين، ولذلك قال تعالىٰ: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ﴾.

﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ ﴾: (أي: المحرمات بالرضاعة). قيل: خمس رضعات، وقيل: أقل من ذلك، وهو في سن الحولين، وقال الإمام مالك: «ولو مصة واحدة»، مع أن الرسول قال: «لا تحرم المصة ولا المصتان» [رواه مسلم]؛ ارجع إلىٰ كتب الأحكام الشرعية والمذاهب الأربعة لمزيد من البيان.

ويلحق بالتحريم بأمهات الرضاعة بناتها وأخواتها، وغيرها. ارجع إلىٰ كتب الفقه.

﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾: من المصاهرة، فأم زوجته محرَّمة عليه بمجرد أن يعقد علىٰ بنتها؛ أيْ: لا يحل له أن يتزوج الأم.

﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ﴾: جمع ربيبة؛ أي: الأنثىٰ بنت الزوجة من غيره، إذا حصل الدخول بالزوجة ﴿ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ ﴾: كناية عن الجماع.

﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾: فلا: الفاء:

للتوكيد؛ لا: النافية؛ جناح عليكم: لا إثم عليكم من جنح؛ أي: مال عن القصد، والإثم؛ أي: الميل عن الحق؛ ارجع إلى سورة البقرة آية (١٥٨) لمزيد من البيان، والفرق بين: لا جناح عليكم، وليس عليكم جناح.

﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾: وحلائل: جمع حليلة، وهي زوجة الابن من الصلب؛ أيْ: أولادكم (الذكور)، وليس زوجة الابن من التبني، فهذا أصبح حلاً بعد ظهور الإسلام.

﴿وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَ﴾: وأن: حرف مصدري يفيد التوكيد.

يحرم زواج الأختين معاً؛ لأن الجمع بين الأختين قد يؤدِّي إلى انقطاع صلة الرحم بين الأختين، والله سبحانه أمر بصلة الرحم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾:

﴿إِنَّ﴾: للتوكيد.

﴿كَانَ﴾: تشمل كل الأزمنة: الماضي، والحاضر، والمستقبل.

﴿كَانَ غَفُورٗا﴾: لما سلف منكم، ولمن تاب وأصلح.

﴿رَّحِيمٗا﴾: لا يعاقبكم على سيئاتكم إذا تبتم، وأصلحتم، وتعني: كثير المغفرة والرحمة.

❖ ❖ ❖

وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ
كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟
بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ
مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ
فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا
حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ
ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن
فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ
بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ
بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ
أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ
مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ
ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿٢٥﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ
مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾

سورة النساء [الآيات ٢٤ - ٢٦]

[٢٤] ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾:

﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ﴾: معطوفة على أمهاتكم؛ أيْ: حرمت عليكم أمهاتكم، والمحصنات من النساء.

﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ﴾: الواو: عاطفة. المحصنات: جمع محصنة، والمحصنة المراد بها المتزوجة العفيفة.

والإحصان: أصله الحصن، وهو المكان المنيع، وهو العفة، ويعني: تحصين النفس من الوقوع في الزِّنى، والبنت: إذا تزوجت أحصنها زوجها (أيْ: أعفها زوجها فهي محصن).

والمرأة إذا أعفت فهي حاصن.

والإحصان في القرآن له معانٍ أربع:

١ - الزواج: يقال: أحصن الرجل؛ أيْ: إذا تزوج.

٢ - العفة: يقال: أحصن؛ أيْ: أعف.

٣ - الإسلام: أحصن الرجل؛ أيْ: أسلم.

٤ - الحرية: أحصن صار حراً.

﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾: إلا: أداة استثناء. ما: للعاقل، وغير العاقل، اسم موصول تعني: التي.

﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾: بالأسر والسبي من أرض المعركة؛ لأنه لا يجوز قتال النساء إلا إذا حاربت مع الكفار، هذه الآية حكمها معطل في وقتنا الحاضر، ولا بُدَّ من إسلام المشركة، واستبراء الرحم، ولا تريد المكاتبة أو الزواج، واختلف الفقهاء في شروط ما ملكت اليمين؛ يجب الرجوع إليها لمزيد من البيان.

﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾: أيْ: هذا ما فرضه الله عليكم، أو حرمه عليكم، ولا ننسىٰ أن هناك تحريمات أقرها رسول الله ﷺ مثل: زواج المرأة علىٰ عمتها، أو خالتها.

فقد روىٰ البخاري ومسلم عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ: «نهىٰ أن يجمع الرجل بين المرأة وعمتها، وبين المرأة خالتها».

﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ﴾: أيْ: أحل ما سوىٰ المحرمات المذكورات في الآيات السابقة.

﴿أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾:

﴿أَن﴾: حرف مصدري يفيد التعليل.

﴿تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم﴾: أيْ: أبيح لكم أن تتزوَّجوا (تطلبوا الزواج).

﴿بِأَمْوَالِكُم﴾: الباء: للإلصاق (السببية)؛ أيْ: بدفع الصداق، أو المهر، والأموال هنا تعني: المهور.

﴿مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾:

﴿مُّحْصِنِينَ﴾: من الإحصان: هو الزواج، والعفة؛ أيْ: متزوِّجين متعفِّفين.

﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾: غير تفيد المغايرة بالذات، أو الصفة، وهنا المغايرة بالصفة.

﴿مُسَٰفِحِينَ﴾: السفاح قيل: هو الزنى، ومشتقة من السفح، وهو هطول الماء وسيلانه من سفح الجبل، ولم يذكر ولا متخذي أخدان؛ لأن هذه الآية جاءت في سياق المسلمين فلا داعي؛ لأنهم حرم عليهم أن يقربوا من الزنى.

وسُمِّي به الزِّنى؛ لأن الزاني يصب نطفته فقط من دون إرادة النسل في فروج الكثير من النساء.

أما تعريف الزِّنى، والسفاح، والبغاء فهو التالي:

الزِّنى: الجماع من غير عقد شرعي، أو الوطء من غير عقد شرعي.

السفاح: هو تكرار فعل الزِّنى، مع الإقامة والعيش معاً من غير زواج شرعي، وهو أشد من الزِّنى والفجور.

والفجور: هو البغاء، والبغاء وصف للمرأة إذا فجرت وزنت عدة مرات.

﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾:

﴿فَمَا﴾: الفاء: استئنافية. ما: شرطية.

﴿ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ﴾: الاستمتاع المباح الذي يحصل بالزواج الشرعي المستوفي شروطه، أو الاستمتاع المباح الذي يحصل بعد العقد، أو الخطبة وقبل الدخول، فلا بُدَّ من دفع المهر كاملاً حين طلب الزواج، أو دفع نصف ما فرضتم إذا لم يتم.

﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾: فيه استعارة: استعار لفظ الأجور للمهور، والأجر يكون بعد العمل، ولا يأتي في القرآن إلا في سياق الخير.

﴿فَرِيضَةً﴾: فرض من الله تعالىٰ عليكم بدفع المهور.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ﴾:

﴿وَلَا﴾: لا: النافية، لا جناح؛ أيْ: لا إثم. ارجع إلىٰ الآية (١٥٨) من سورة البقرة؛ لمزيد من البيان.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِۦ﴾: من بعد الفريضة من زيادة، أو نقضان في المهر إذا اتفقتم أنتم وهنَّ علىٰ ذلك، أو حدث فسخ لعقد القران، أو فرقة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾:

﴿إِنَّ﴾: للتوكيد.

﴿كَانَ﴾: تشمل كل الأزمنة: الماضي، والحاضر، والمستقبل؛ أيْ: كان، ولا زال، وسيظل عليماً حكيماً.

﴿عَلِيمًا﴾: بأقوالكم، وأفعالكم، ونواياكم، وما يصلح أموركم.

﴿حَكِيمًا﴾: فيما يفرضه عليكم، ويوصيكم بـه؛ لتصلح أموركم، حكيماً فـي حكمه؛ فهو أحكم الحاكمين، وأحكم الحكماء. ارجع إلىٰ الآية (١٢٩) من سورة البقرة؛ لمزيد من البيان.

[٢٥] ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ

مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

﴿وَمَن﴾: الواو: استئنافية. من: شرطية.

﴿لَّمْ﴾: للنفي.

﴿يَسْتَطِعْ﴾: يقدر (القدرة المالية).

﴿مِنكُمْ طَوْلًا﴾: الطول: هو الغنىٰ والسعة؛ أيْ: ليس عنده القدرة (المالية علىٰ دفع المهر) للزواج بالمحصنات المؤمنات؛ أي: الحرائر المؤمنات (الإحصان هنا يعني: الحرية).

﴿فَمِن﴾: من: ابتدائية للعاقل، والفاء: رابطة لجواب الشرط.

﴿مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾: من فتياتكم المؤمنات؛ أي: الإماء، جمع أمة، وهي المملوكة الرقيقة، وكان ذلك في القديم حين كان الرِّقُّ قائماً.

وأطلق عليهنَّ اسم ﴿فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ (كلمة فتاة هنا تطلق علىٰ الأمة في القرآن) بدلاً من الإماء.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم﴾: أعلم بدرجة إيمانكم، ويعلم ما تخفي الصدور من العقائد والسرائر.

﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾: وكلكم ولد آدم، ومن نسل آدم وحواء، من أصل واحد، الذكور من الإناث، والإناث من المذكور، والناس سواسية إلا بالتقوىٰ. ارجع إلىٰ الآية (١٩٨) من سورة آل عمران.

﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾: أعطوهنَّ مهورهنَّ.

﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: بالمتعارف عليه بين الناس، وما يقرُّه العرف من مقدار المهر من دون نقص أو تلاعب، والباء: للإلصاق، والتوكيد.

﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾:

﴿مُحْصَنَٰتٍ﴾: عفائف. ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾: زانيات جهراً، ومقيمات مع أخدانهنَّ من دون زواج.

﴿وَلَا﴾: الناهية، ﴿مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾: ولا متخذات أخدان أصحاب يقمن معهم في مسكن واحد، والأخدان: جمع خدن: وهو الصاحب، ويطلق على الذكر والأنثى، المقيمات معاً من دون عقد زواج.

﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾:

﴿فَإِذَآ﴾: الفاء: استئنافية.

﴿فَإِذَآ﴾: شرطية تدل على حتمية الحدوث وكثرته.

﴿أُحْصِنَّ﴾: أسلمنَ، وتزوجنَ.

﴿فَإِنْ﴾: الفاء: رابطة لجواب الشرط؛ تدل على الندرة، واحتمال الحدوث.

﴿أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ﴾: بفاحشة الزِّنى.

﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾: العذاب لم يُبيَّن في هذه الآية، وإنما بيَّنه في سورة النور، آية (٢): ﴿فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾: إذن العذاب يساوي خمسين جلدة.

﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾:

﴿ذَٰلِكَ﴾: اسم إشارة، واللام: للبعد، وتشير إلى إباحة النكاح بالفتيات المؤمنات لمن لم يجد طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات؛ أي: القدرة المالية.

﴿لِمَنْ﴾: اللام: لام الاختصاص.

﴿خَشِيَ﴾: خاف من الوقوع في العنت؛ أي: المشقة، والجهد؛ أي: الزِّنى.

﴿ٱلْعَنَتَ﴾: وهو المشقة، والأمراض النفسية، وما يترتب عليها من عواقب.

﴿مِنكُمْ﴾: خاصَّة من المسلمين.

إذن كانت شروط الفقهاء لصحة نكاح الأمة هي:

أن تكون مسلمة، وأن يخاف الوقوع في الإثم والزِّنى، وعدم الاستطاعة (أي: القدرة المالية).

﴿وَأَن﴾: أن: مصدرية تفيد التوكيد.

﴿تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾: عن نكاح الإماء خير لكم.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾: يغفر الذنوب إذا تبتم مما قد يبدر منكم من الآثام والذنوب.

﴿رَّحِيمٌ﴾: لا يعجِّل لكم العقوبة، دائم الرحمة على صيغة مبالغة على وزن فعيل. رحيم بعباده المؤمنين في الدنيا والآخرة. ارجع إلى سورة الفاتحة، الآية (٢)؛ لمزيد من البيان.

[٢٦] ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾:

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾: اللام: للتوكيد.

﴿لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾: بإنزال هذه الآيات والتكاليف، والأحكام الشرعية، والحلال والحرام، والحسن والقبيح، والحق والباطل، وما يجب فعله، وما لا يجب فعله.

﴿وَيَهْدِيَكُمْ﴾: أيْ: يبيِّن لكم طريق الرشد؛ لتسلكوه، وتصلوا إلىٰ الغاية، ولم يقل: وليهديكم، كما قال: ﴿لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾: إضافة اللام في ﴿لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾: لتدل علىٰ التوكيد؛ يعني: أن البيان أهم من الهداية، فلو كانا بنفس الأهمية لأضاف اللام لكليهما؛ لأن البيان هو إظهار المعنىٰ للنفس بحيث لم يعد هناك شك، أو حُجَّة لها، ثم بعد البيان تصبح الهداية أسهل، وأهون علىٰ النفس، يهديها إلىٰ صراطها فتسير عليه إلىٰ الغاية.

﴿سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾: سنن جمع سُنَّة؛ أيْ: طريقة، فهناك السُّنن الكونية، وسُنن الله في خلقه، وسُنن الأنبياء والصالحين الذين جاؤوا من قبلكم؛ لتقتدوا بها، وتسلكوها. وإنما وضعت هذه السُّنن؛ لتحقق مصالح الإنسان، كما أرادها الله له. ارجع إلىٰ سورة آل عمران، آية (١٣٧)؛ لمزيد من البيان في معنىٰ السُّنن.

﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾: أيْ: يتقبل توبتكم بفضله إذا تبتم إليه من ذنوبكم، ورجعتم إليه، ولكي يسود الحق والثبات في الكون.

وأركان التوبة:

١ - الإقلاع عن الذنب، والمعصية، وعدم العودة إليها.

٢ - الندم علىٰ فعلها.

٣ - إرجاع الحقوق إلىٰ أهلها.

٤ - الإكثار من النوافل والأعمال الصالحة.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾: أحاط علمه بكل شيء بجمع خلقه، وكونه، والأشياء ظاهرها وباطنها، العليم بما شرع لكم، وما هي مصلحتكم، وما ينفعكم، وما يضركم، علم بما كان، وما هو كائن، وما سيكون، لا تخفىٰ عليه خافية، العليم بالغيب، ومفاتحه.

﴿حَكِيمٌ﴾: فيما شرعه لكم، وقدره، وأفعاله، وأقواله، وكونه، فهو أحكم الحاكمين.

﴿حَكِيمٌ﴾: مشتقة من الحكمة، وحكيم: بمعنىٰ الحاكم.

وانتبه إلىٰ هذا الترتيب: البيان ليبين لكم، ثم الهداية ويهديكم بالتوبة (ويتوب عليكم)، فالتوبة تكون لما حدث من التقصير في الاتِّباع، أو خلل في الهداية، وقدم العليم علىٰ الحكيم؛ لأن السياق في العلم (لبيان الهداية والتوبة) كلها تحتاج إلىٰ علم بينه العليم الحكيم.

❖ ❖ ❖

وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ
ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ
عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن
تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا
وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ
يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ
عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾
وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ
نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ
وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ
عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ
وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ
نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾

سورة النساء [الآيات ٢٧ - ٣٣]

[٢٧] ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾:

﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾: لكي نفهم هذه الآية يجب أن نعلم مراحل التوبة:

ـ التوبة شرعت أولاً من الله (مرحلة التشريع): فقد علَّمنا الله سبحانه على يدي آدم كيف نتوب من المعصية، كما قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة:٣٧].

ـ ثم تأتي مرحلة إقامة التوبة، أو الأداء؛ أيْ: كيف تتوب إلى الله كعبادة (نطبق أركان التوبة). الإقلاع عن الذنب، والكف عن المعصية، والرجوع إلى الله، والندم، والإكثار من العمل الصالح، والنوافل.

ـ ثم تأتي مرحلة القبول: وهي إما أن يتقبل الله سبحانه بفضله ورحمته توبة عبده، أو لا يقبل توبته.

﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾: قدَّم لفظ الجلالة على الفعل يريد للاهتمام والتوكيد والمبالغة في قبول الله تعالى توبة عبده، ويفيد الحصر، فإن التوبة مختصة بالله حصراً، فلا يتوب العبد إلا لله جل جلاله، ولا أحد يقبل التوبة إلا الله عزَّ وجلَّ.

﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾: وهم الفسقة، والمنهمكون في الآثام،

والفواحش، والمعاصي، والكفار، والمشركون، وغيرهم أن تتبعوا أهواءكم، ونزعاتكم، وتنحرفوا عن شرع الله، وتميلوا عن الحق إلى الباطل.

﴿أَن﴾: للتوكيد.

﴿تَمِيلُواْ﴾: تنحرفوا وتضلوا.

﴿مَيْلًا عَظِيمًا﴾: عن طاعة الله إلى المعصية، وطاعة الشيطان، فتكثروا من الذنوب والمعاصي، ولا يكفيهم أن تميلوا ميلاً خفيفاً، فهذا لا يُعجبهم، ولا يكفيهم، بل الميل العظيم فقط هو الذي يريدونه ويطمعون فيه.

[٢٨] ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾:

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾: يريد الله أن: حرف مصدري يفيد التوكيد.

﴿أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾: أيْ: يُيسر عليكم، ويسهل عليكم التكاليف، والأحكام، ولا يجعل عليكم من حرج.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾: بالتوبة، والتكاليف الشرعية.

﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾: ضعيفاً: من الضَّعف: بفتح الضاد: وهو الضعف المعنوي الذي يكون عادة في الرأي والعقل، بينما الضُّعف: بضم الضاد: هو الضعف المادي الذي يكون في الجسم بسبب المرض أو الجوع أو الهزال، ونقص الغذاء؛ فالله سبحانه لم يخلقه ضعيفاً من الأصل، كما يظن البعض، وإنما الإنسان نفسه حين أعطاه الله حرية الاختيار اختار الضعف، اختار شهواته العاجلة بدلاً من الفوز برضا الله وطاعته؛ فهو ضعيف لا يصبر، ولا يقاوم شهواته الجنسية، وحب المال، والنسل، والربا، وشرب الخمر، وكسب الحرام، ومن رحمة الله بهذا الإنسان أن شرع له التوبة، والتوبة نوع من التخفيف.

والتوبة: نوعان: توبة إنابة؛ توبة من المعصية، أو الذنب، وتوبة استجابة: توبة من دون معصية؛ للتقرب من الله، توبة حب، توبة خوف، فالله سبحانه يريد ليبين لكم، ويهديكم، ويتوب عليكم، ويغفر لكم، ويخفف عنكم، وييسر عليكم رحمةً بكم.

[٢٩] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾:

نداء إلىٰ الذين آمنوا جديد، والهاء: للتنبيه.

﴿لَا﴾: الناهية.

﴿لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾: تأخذوا، وعبر بالأكل عن الأخذ؛ لكثرة حدوث الأخذ، كما تكون الحاجة إلىٰ الأكل المتكرر في كل يوم. والأخذ قد يأخذه ثم يعيده إلىٰ صاحبه، أما الأكل فقد تم هضمه وقرر عدم إرجاعه إلىٰ أهله.

وقال: ﴿أَمْوَٰلَكُم﴾: ولم يقل: أموالهم كيف يأكل الإنسان ماله؟

إشارة إلىٰ أن مال الفرد فيه حق الزكاة، وفيه حقوق أخرىٰ للآخرين؛ كالصدقات، والضرائب، ولأن الكل عُرضة للأكل، فمرة يكون الإنسان آكلاً لمال غيره، ومرة أخرىٰ يكون غيره آكلاً لماله؛ أيْ: أنا آكل مال غيري، وغيري يأكل مالي.

﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾: الباء: للإلصاق. الباطل: الحرام؛ أيْ: تأخذ، أو تأكل مال الغير بغير حق، مثل: الربا، والغش، والسرقة، والرشوة، والميسر، واحتكار السلع وغيرها.

﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾: إلا: أداة استثناء.

﴿أَن تَكُونَ﴾: أن: للتوكيد.

﴿تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾: التجارة: هي البيع والشراء بقصد الاسترباح؛ أيْ: إعطاء شيء في مقابل شيء، والبيع: هو إخراج السلعة من ملك البائع، والشراء: هو إدخال السلعة في ملك المشتري مقابل ثمن متفق عليه.

﴿تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾: إذن التراضي هو: شرط، ولم يوجب الشرع لفظاً معيناً، والتراضي قد يقوم على الفعل، لا القول، مثل: بيع المعاطاة؛ أيْ: يعطي البائع السلعة للمشتري، والمشتري يعطي البائع الثمن من غير صيغة، وذكر التجارة خاصَّة للترغيب فيها.

وذكر الباطل: ليدل على أن كثيراً من التجارات مشتملة على التعامل بالباطل، ولذلك جاء التحذير من ذلك.

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾:

﴿وَلَا﴾: الواو: استئنافية. لا: الناهية.

﴿تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾: بعد التوصية، والنهي عن أكل المال بالباطل؛ جاءت التوصية الثانية بالحفاظ على النفس، فقد تؤدِّي بعض المعاملات المادية إلى الغضب، والقتل، والسرقة، والانتحار؛ بسبب الطمع، والجشع، وغيرها.

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾: أيْ: لا يقتل بعضكم بعضاً؛ لأن قتل النفس من دون حق، أو عدل: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾، ويدخل في الانتحار والتدخين، واستعمال المخدرات. وقيل: من يقتل أخاه كأنه قتل نفسه وذلك لأن المؤمنين كالجسد الواحد، وكذلك حكم على نفسه بالقتل قصاصاً.

﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:٣٢].

وكما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥]: بارتكاب المعاصي، والإدمان، والميسر، والجرائم الأخلاقية، والمخدرات، والتدخين وغيرها.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾: لأن المؤمنين إخوة، وأنهم نفس واحد، مبالغة في النهي والزجر.

﴿إِنَّ﴾: للتوكيد.

﴿اللَّهَ كَانَ﴾: تشمل كل الأزمنة: الماضي، والحاضر، والمستقبل.

﴿بِكُمْ﴾: الباء: للإلصاق.

﴿رَحِيمًا﴾: بأن منعكم، ونهاكم، وحذركم من فعل تلك الأفعال السيئة، ونهاكم عن قتل النفس، وأكل أموال الناس بالباطل.

[٣٠] ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾:

﴿وَمَن﴾: الواو: عاطفة. الخطاب للرسول، والمقصود به المؤمنين.

﴿وَمَن﴾: شرطية (ابتدائية)، من: للمفرد، والمثنىٰ، أو الجمع، ومن: للعاقل.

﴿يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾: اسم إشارة، واللام: للبعد.

﴿يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾: تعود إلىٰ قتل النفس، وأكل أموال الناس بالباطل.

﴿عُدْوَانًا﴾: بالتعدِّي علىٰ الغير عمداً، وظلماً بالقتل، أو أكل الأموال (والتعدِّي قد يكون من دون عمد ونسياناً).

﴿وَظُلْمًا﴾: الظلم: هو أخذ حق الغير عمداً، أو نقصان حقهم في الأجر،

أو الحقوق؛ فالظلم، والاعتداء على المال يورث العداوة، والعداوة قد تؤدِّي إلى القتل.

ومن يفعل ذلك متعدِّياً، وظالماً؛ فسوف نصليه ناراً.

﴿فَسَوْفَ﴾: الفاء: للتوكيد، سوف: للاستقبال البعيد، وفيها تهديد، وإنذار قوي أقوى من السين؛ كقوله: ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء:١٠]؛ فقد جاء بسوف، ونسب الإصلاء إلى نفسه فقال: ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ في عقوبة قتل النفس عدواناً وظلماً، بينما جاء بالسين: ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ في عقوبة أكل أموال اليتامى، ونسب الإصلاء إلى غيره (الملائكة).

﴿نُصْلِيهِ نَارًا﴾: ندخله ونحرقه بها.

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾: أي: الإدخال والإحراق هو هينٌ على الله سبحانه، وجاء بلفظ الجلالة سبحانه؛ لأنه كان يكفي أن يقول: وكان ذلك يسيراً. والمجيء بلفظ الجلالة؛ للدلالة على شدة الإنذار، والوعيد والعقوبة، وقدَّم كلمة الله للحصر، والقصر.

[٣١] ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾:

﴿إِن﴾: شرطية تفيد الاحتمال والندرة.

﴿تَجْتَنِبُوا۟﴾: الاجتناب: هو الميل عن الشيء المحرم جانباً، ومعناه: تركه والابتعاد عنه.

والاجتناب: أشد، وأبلغ من النهي والتحريم، وتعني: إياكم أن تكونوا مع المنهي عنه في مكان واحد، مثل: اجتناب الخمر، لا يعني فقط شربها، بل إياك أن تكون في مكان تُشرب فيه الخمر.

﴿كَبَآئِرَ﴾: جمع كبيرة، وقيل: الكبيرة كل معصية فيها حد في الدنيا، أو وعيد في الآخرة، وزاد بعضهم إلىٰ ذلك، ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية: حد، أو وعيد، أو لعن، أو تبـرُّؤ، أو ليس منا، أو نفي إيمان، غضب، أو تهديد، واختلفوا في عدد الكبائر، فمنهم من قال: سـبع، ومنهم من قال: أكثر من سبع، ومنهم من قال: إنها السبع الموبقات: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكلُ مال اليتيـم، وأكل الربا، والتولِّي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات.

﴿مَا﴾: ما: اسم موصول بمعنىٰ: الذي.

﴿تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾: أيْ: ما نهىٰ عنه الله سبحانه ورسوله في الكتاب والسنة.

﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾: نكِّفر: نستر، والكفر: وهو الستر؛ أيْ: نمحوها؛ أيْ: لا نعاقبكم عليها.

والسيئات، قيل: الصغائر، جمع سيئة؛ أيْ: تسوء إلىٰ صاحبها.

وندخلكم مُدخلاً كريماً: المُدخل الكريم: هو الجنة، أو الصدق.

﴿كَرِيمًا﴾: طيباً شريفاً مباركاً.

[٣٢] ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾:

سبب نزول هذه الآية: ثلاثة أقوال: أحدها: أن أم سلمة قالت: يا رسول الله: «يغزو الرجال، ولا نغزو، وإنما لنا نصـف الميراث» [رواه الحاكم والترمذي]، فنزلت هذه الآية.

الثاني: عن عكرمة: أن النساء قلن: وددنا أن الله جعل لنا الغزو، فنصيب من الأجر ما يصيب الرجال، فنزلت هذه الآية.

والثالث: قال قتادة والسدي: لما نزلت آية ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾: قال الرجال: إنا لنرجو أن نفضل على النساء بحسناتنا، كما فضلنا عليهنَّ في الميراث.

وقال النساء: إنا لنرجو أن يكون الوزر علينا نصف ما على الرجال، كما لنا الميراث على النصف من نصيبهم في الدنيا.

وقيل التمني: هو طلب الحصول على شيء أقرب ما يكون من المستحيل أو النادر ونهى الله عن مثل هذا التمني؛ كأن يتمنى الرجل مال غيره، أو تتمنى النساء أن يكنَّ رجالاً.

والتمني أنواع: أولاً: أن يتمنى الإنسان أن يحصل له مال غيره، ويزول عن الغير؛ فهذا هو الحسد.

ثانياً: أن يتمنى مثل ما لغيره، ولا يحب زوال المال عن الغير؛ فهذا هو الغبطة.

والحقيقة: أن الله يعلم ما يصلح العبد، وهو أعلم بمصالح عباده، فليرضَ كلٌّ بما قدَّر اللهُ له وقسم؛ فهو صادر عن حكمة وتدبر.

﴿وَلَا﴾: الواو: استئنافية، لا: الناهية.

﴿مَا﴾: ما: اسم موصول تعني الذي؛ أيْ: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا﴾: الذي فضل الله به بعضكم على بعض.

﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾: سواء أكان في الرزق، أو المال، أو

العافية، أو الجاه، أو الدِّين؛ لأن ذلك التفضيل قسمة من الله صادرة عن حكمة، وتدبر، وعلم بأحوال العباد، وبما يصلح العبد.

كمثال قوله: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الشورى:٢٧].

وكقوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾ [الزخرف:٣٢].

وفي ذلك نهي عن الحسد إلا في اثنتين، كما ورد في حديث البخاري: «لا حسد إلّا في اثنين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار».

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾:

﴿لِّلرِّجَالِ﴾: اللام: لام الاختصاص، أو الاستحقاق.

﴿نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ﴾: حظ، النصيب: يكون في الشيء المحبوب، أو المكروه. نصيب من النعيم، أو العذاب، ويمكن أن يكون عادلاً، أو جائراً، بينما الحظ يكون إجمالاً في سياق الخير.

﴿مِّمَّا ﴾: أصلها: من + ما، من: ابتدائية.

﴿مِّمَّا ﴾: اسم موصول، أو مصدرية.

﴿ٱكْتَسَبُوا۟ ﴾: تعني: الثواب والعقاب بحسب الطاعة والمعصية. وقيل: الميراث. واكتسبوا من الاكتساب على وزن افتعل، أي: اكتساب خالطه جهد ومشقة.

﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾: نفس تفسير للرجال نصيب.

﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾: التمني: نهى الله سبحانه عنه، وأباح الله

سبحانه السؤال أو الطلب من فضله؛ الفضل: الزيادة عما يستحق العبد من كرمه وإحسانه، سواء في الرزق، أو العلم، أو الفقه في أمور الدِّين والجنة، والدرجات العلىٰ.

واسألوا الله وحده، ولا تسألوا غيره، اسألوه ما تتمونه من النعم والأماني.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾: إن للتوكيد كان تشمل كل الأزمنة: الماضي، والحاضر، والمستقبل.

﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾: ارجع إلىٰ الآية (٢٦).

[٣٣] ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾:

﴿وَلِكُلٍّ﴾: ولكل إنسان متوفىٰ ورثه (موالٍ)، وموالٍ: جمع مولىٰ، وهم الورثة، أو يقصد بها التركة (الميراث)، ويكون التقدير: لكل تركة (ميراث) مما ترك الوالدان والأقربون، ومما ترك الوالدان والأقربون: هنا نحن أمام احتمالين:

الاحتمال الأول: الوالدان والأقربون: هم الورثة؛ الوالدان والأقارب هم الذين يرثون الإنسان المتوفىٰ؛ أي: الوارثون.

الاحتمال الثاني: الوالدان، والأقربون هم المورثون، هم الذين ماتوا.

﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾:

﴿عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾: أي: التوارث بالحلف، والمؤاخاة؛ حيث كان الرجل يحالف الرجل، فأيهما مات ورثه الآخر، أو كان المهاجر يرث الأنصاري

دون قرابة بينهما بعد أن آخىٰ بينهم رسول الله ﷺ، أو الرجل يورث تابعه الرجل، أو أبناء الذين يتبنونهم (التبني).

﴿فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾: من الوصية إذا كانوا من الذين لا حق لهم في الميراث.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: إن: للتوكيد.

﴿كَانَ﴾: تشمل كل الأزمنة: الماضي، والحاضر، والمستقبل.

﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾: مطلقاً، رقيباً، لا يخفىٰ عليه شيء، حفيظاً، فهو المطلع، والمحيط علمه بكل شيء من سرٍّ، ونجوىٰ، وجهر، وما تخفي الصدور، وما تقوله الألسن، ويعلم كل عمل من قول، أو فعل، ويعلم ما يجري في كونه، وما يقوم به خلقه.

﴿شَهِيدًا﴾: صيغة مبالغة من شاهد علىٰ أعمالكم، ونواياكم في الميراث.

والشهيد يعلم كل الخفايا الباطنة، ويعلم ظواهر الأمور المختصة بما يشهد. ارجع إلىٰ سورة البقرة، آية (١٣٣)؛ لمزيد من البيان في معنىٰ الشهيد.

❖ ❖ ❖

ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ
عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ
قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ
نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ
وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ
إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ
بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ ۚ إِن
يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا
﴿٣٥﴾ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ
إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ
ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ
وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن
كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ
ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ
مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾

ربع الحزب ٩

سورة النساء [الآيات ٣٤ - ٣٧]

[٣٤] ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾:

﴿ٱلرِّجَالُ﴾: ولم يقل: الأزواج؛ لأن الرجال تعني: الأزواج، وتعني الأب، والأخ؛ فالزوج قوَّام على زوجته، والأب قوَّام على بناته، والأخ قوَّام على أخواته، والنساء: تعني الزوجات، والبنات، والأمهات، والأخوات.

﴿قَوَّٰمُونَ﴾: مشتقة من القيام، وتعني: الرعاية، والحماية، والإصلاح.

والقوامة تحتاج إلى تعب، وجهد، وسعي، وهذه هي مهمة الرجل.

وقوَّام صيغة مبالغة للقيام؛ تعني: الكثرة، والتعب، فالقائم قد يؤدِّي مهمة لمرة واحدة، أو عدة مرات، أما القوّام؛ فتعني: الاستمرار، والديمومة على القيام، وليس القوامة كما يظنها البعض السيطرة، وكتم الأنفاس، والأفضلية، وهذه القوامة لها سببان، كما قال سبحانه وتعالى:

الأولى: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

انتبه إلى قوله سبحانه: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

وهذا يعني: أن الرجل له أوجه تفضل تفوق المرأة في الكدح، والجهد، والتعب، وتحمل المشقة والطاقة، فهو المكلف بالسعي، وكسب الرزق، والمرأة لها أوجه تفضل تفوق الرجل في الرعاية، والحنان، والأمومة، والتربية.

هذا التفضيل عائد إلىٰ المقومات الخلقية والجسدية، التي يختلف فيها بناء الرجل عن بناء المرأة.

والثاني: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾: مثل: إعطاء المهر، والنفقة عليهنَّ، وعلىٰ المسكن، والعيال. كل ذلك من واجبات الرجل للزوجة، والأب للبنت والأخت.

ثم بيَّن الله تعالىٰ: فالصالحات قانتات، حفظ الله، فالصالحات: جمع صالحة، وهي المؤدِّية لحقوق الله سبحانه وتعالىٰ، وحقوق زوجها وغيره.

قانتات: من القنوت: الطاعة، طائعات لله وأزواجهنَّ؛ أيْ: قائمات بواجبهنَّ تجاه الله تعالىٰ؛ أيْ: حقوق الله تعالىٰ، وحقوق أزواجهنَّ.

﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ﴾: حافظات لفروجهنَّ؛ أيْ: لغيب أزواجهنَّ؛ أيْ: صيانة أنفسهنَّ من الفاحشة، أو المنكر، وأموال أزواجهنَّ، وغيرها.

﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾: أيْ: بالمنهج الذي وضعه الله للحفظ، والالتزام به، ويشمل غض البصر، وعدم الخضوع بالقول، فيطمع الذي في قلبه مرض ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾، وعدم التبرّج، والإسراف، والتبذير.

كما قال سبحانه: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: ٣٠-٣١].

﴿وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾:

﴿وَٱلَّٰتِى﴾: اسم موصول.

﴿تَخَافُونَ﴾: أيْ: لا زلتم في مرحلة الخوف، فلا تتركوا المسألة حتىٰ يحدث النشوز، أو النشوز أمر متوقع.

﴿نُشُوزَهُنَّ﴾: يعني: التكبر علىٰ الزوج، والترفع عنه، وعدم طاعته، وعصيانه، والخروج متبرجة عارية مثلاً.

وأصل النشوز في اللغة: الارتفاع. النشز: المكان المرتفع.

واصطلاحاً: هــو الخروج عن طاعة الزوج، وقد يحدث كذلك من الرجل هو الذي ينشز.

﴿فَعِظُوهُنَّ﴾: من الوعظ: وهو التذكير بالخير، والنصيحة، والإرشــاد برفق، وحكمة باللســان، والتحذير من عواقب الأمور، والموعظة تكون بالقول والفعل.

﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ﴾: والهجــر في المضجع؛ يعني: ترك الجماع، أو ترك الكلام، أو فقط هجر الفراش، أو اســتعمال كل ذلك معاً، والهجر يكون عند ظهور النشوز، ولا يعني ذلك ترك منزل الزوج، والذهاب إلىٰ بيت أهلها.

﴿وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾: هذه هي المرحلة الثالثة، ويعني الضرب غير المبرح الذي لا يؤدِّي إلىٰ الإيذاء، والنفور، وزيادة العداوة، وتدخل الشرطة والأهل.

وبعض أهل العلــم قالوا: الوعظ عند خوف النشــوز، والهجر عند ظهور النشوز، والضرب عند تكرر النشوز والحاجة إليه.

﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ﴾: وتركن النشــوز؛ فإن: الفاء عاطفة. إن: الشــرطية، وفيها معنىٰ الاحتمال والشــك، أو القلة بعكس لو قال: فإذا أطعتكم التي تعني: الكثرة والحتمية؛ لأنه سبحانه يعلم أحوال عباده.

﴿فَلَا﴾: الفاء: رابطة لجواب الشرط.

﴿تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾: تبغــوا: مــن البغــي؛ عليهن: علىٰ تعنــي: العلو والمشقة؛ أي: بعد انتهاء النشوز، فلا تؤذيها وتتعالىٰ عليها بأي طريقة، أو سبيل، والبغي: هو الظلم باستعمال القهر، والقوة، والتعسف.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾: إن: للتوكيد، كان: تشمل كل الأزمنة.

العلي: هو الأعلــىٰ، لا يعلوه أحد بصفاته، وذاته عن مشــابهة خلقه، ولا

يحيط به وصف، علو الشأن، والقدر، والذات، والصفات، والمنزلة. اسم العلي ذكر في القرآن ثماني مرات: العلي العظيم، العلي الكبير، علي حكيم...

﴿كَبِيرًا﴾: العظيم الشأن، الجليل ذو الكبرياء في ذاته، وصفاته، وأفعاله. الكبير في عظمته، وكل شيء يصغر أمام عظمته، وأكبر وأعظم من خلقه، ومن كل شيء، الكبير الذي كل شيء دونه، وذكر اسمه الكبير خمس مرات في القرآن.

في هذه الآية تهديد من الله عزَّ وجلَّ للرجل بعدم التعالي على الزوجة، والتكبّر، والرأفة، والرحمة بها، وليعلم أن الله أعلى منه، وأكبر منه إذا بغى واعتدى.

[٣٥] ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾:

﴿وَإِنْ﴾: الواو: استئنافية. إن: شرطية تفيد الاحتمال، أو ندرة الحدوث.

﴿خِفْتُمْ﴾: خفتم: من الخوف: وهو توقع الضرر المحتمل وقوعه؛ أي: إن علمتم أن الشقاق على وشك الحدوث، أو حدث الشقاق فعلاً، والشقاق؛ أي: الخلاف، وكأن كلاً منهما في شق وجانب بعد أن التحما بالزواج، وصارا شيئاً واحداً.

﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾: تختار كل أسرة حكماً من أهل الزوج، وحكماً من أهل الزوجة، ويفوَّض إليهما الأمر؛ أمر الشقاق؛ للنظر فيه، والحكم، والمصالحة تنتقل إلى هذين الحكمين اللذين ليس في صدرهما أيُّ حكم مسبق؛ فإذا صدر منهما حكمٌ يجب أن ينفَّذ ويطبَّق من كلا الزوجين، سواء بالإصلاح، أو الطلاق.

﴿إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾: إن يريد الحكمان إصلاحاً بين الزوجين، يوفِّق الله بينهما؛ أيْ: بين الزوجين.

انتبه إلى كون الله سبحانه احتفظ لنفسه بالتوفيق، فهو له الحكم والأمر، والفعل، وليس للحكمين.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾:

﴿إِنَّ﴾: للتوكيد.

﴿ٱللَّهَ كَانَ﴾: تشمل كل الأزمنة؛ أيْ: كان، ولا يزال، وسيظل عليماً خبيراً.

﴿عَلِيمًا﴾: صيغة مبالغة من عالم: المحيط علمه بكل شيء، العليم بأحوال الزوجين، وما يحدث بينهما، وعليم بأحوال الحكام، وأفراد الأسرتين، وهو عليم بذوات الصدور، وما تخفي الأعين.

﴿خَبِيرًا﴾: وهو عليم ببواطن الأمور، ولا تخفى عليه خافية.

[٣٦] ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾:

﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾: والعبادة تشمل العبادات: العبادات الحسية كالصلاة والزكاة والصيام والحج، والعبادات القلبية: مثل الشكر، والذكر، والتفكر في خلق السموات والأرض وغيرها؛ التي هي أركان الإسلام من صلاة، وزكاة، وصيام، وحج.

وتشمل العبادة كلَّ عمل يؤدِّي إلى الإصلاح، وكذلك التفكُّر في خلق السموات والأرض، والمعاملات، والتوحيد.

والعبادة: هي طاعة العابد للمعبود، والخضوع له، والاستسلام له، والإخلاص له في كل حال وزمان، وفيما شرع.

﴿وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾: من ولد، أو شريك، أو ولي، أو صنم، أو ند، أو مثيل.

والشرك الخفي: هو الرياء، ويشمل: توحيد الإلوهية، والربوبية، والصفات، والأسماء.

﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَٰمَىٰ وَالْمَسَٰكِينِ﴾: أيْ: لا تشركوا بالله شيئاً، ولو كان مقدار ذرة من الشرك ﴿شَيْـًٔا﴾، الشيء: هو أقل القليل، و(شيئاً) نكرة تشمل كل شرك مهما كان نوعه وشكله.

﴿وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾: أي: البر بهما من خدمة، والإنفاق عليهما، وطاعتهما، وتنفيذ أوامرهما بلين ورحمة، وخفض جناح، وأصل الجملة (وأحسنوا إحساناً بالوالدين)، والإحسان قد يتعدىٰ بـ(إلىٰ)؛ أي: أحسن إلىٰ الوالدين أو بالباء وفي هـذه الآية وغيرها من الآيات تعدىٰ بالباء التـي تفيد الإلصاق؛ أي: الدوام علىٰ الإحسان، والإحسان يجب أن يكون مباشراً لذاتهما خاصاً بهما وليس كالإحسان العام إلىٰ الآخرين كما ورد في سورة القصص آية (٧٧) ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾، ولكن كالإحسان الذي ورد علىٰ لسان يوسف عليه السلام حين قال: ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ﴾ [يوسف:١٠٠]، وقرن الإحسـان بالوالدين بعبادته سبحانه، وجعله كأنه ميثاقاً. ارجع إلىٰ سـورة البقرة آية (١١٢) لمزيد من البيان في معنىٰ الإحسان، ويوسع الله سبحانه دائرة الإحسان؛ لتشمل ثمانية أصناف أخرىٰ هي:

﴿وَبِذِى الْقُرْبَىٰ﴾: أي: الإحسـان إلىٰ ذي القربىٰ إضافـة الباء: للتوكيد، والاهتمام بالقربىٰ.

وقيـل: إضافة الباء، وقوله بـذي القربىٰ، ولم يقـل: وذي القربىٰ كما في الآية (٨٣) في سـورة البقرة وبالوالدين إحساناً وذي القربىٰ وبذي القربىٰ تعني: الإحسـان إلىٰ أقرب الأقرباء؛ أيْ: ذريته؛ كالولد، والبنـت، والأخ، والأخت، والعم، والعمة، والخال، والخالة...

﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾: أي: الإحسان إلىٰ اليتامىٰ جمع يتيم: وهو من فقد أباه ولم يبلغ الحلم، وذلك بالكفالة، والملاطفة، والتواضع معهم.

﴿وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾: والإحسان إلىٰ المساكين جمع مسكين: وهو المحتاج الذي له مال لا يكفيه؛ بالعطاء، والقول المعروف، والإحسان إليه، والمسكين أحسن حالاً من الفقير.

﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾: وكذلك الإحسان للجار القريب، فله حق الجوار، وحق الإسلام، وحق الرحم.

﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾: الجار البعيد؛ فإذا كان مشركاً؛ فله حق الجوار، وإن كان مسلماً فله حق الجوار، وحق الإسلام.

﴿ٱلْجُنُبِ﴾: البعيد في النسب؛ أي: الذي لا قرابة بينه وبين جاره.

﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾: أي: المرافق، أو المرافقة، قالوا: هي الزوجة، أو رفيق السفر، أو التجارة، ويدخل في ذلك الخادم، وقد تعني: الصديق، أو كل أولئك.

﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: أيْ: ابن الطريق؛ أي: الغريب الذي انقطعت به الأسباب، ونسب إلىٰ كونه ابن الطريق؛ لأنه ليس له أب، ولا أم، ولا قبيلة حين تنقطع به السبل في بلاد غريبة، وقيل: هو الضيف. وقيل: من لا مأوىٰ له ويفترش الطرقات.

﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾: مثل: الأسرىٰ، والعبيد، والإماء، أو العمال، وفك أسرهم، أو السجناء المظلومين.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾:

﴿إِنَّ﴾: للتوكيد.

﴿لَا﴾: النافيـة. ﴿يُحِبُّ﴾: من كان ﴿مُخْتَالًا﴾: الخال: هو الكبر، مختال: متكبر.

﴿فَخُورًا﴾: هو الذي يتفاخر على الناس، ويعدد محاسـنه ومناقبه تعالياً، وسـمعة على الناس؛ أي: المعجب بنفسـه، أو ينكر ما كان عليه حاله قبل غناه مختال على أهله، وقومه، وعشيرته، وأهله.

﴿مَن كَانَ﴾: تعني: قليلون من يتصفون بذلك.

[٣٧] ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾:

بعد أن ذكر الإحسـان إلى الأقارب، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل، والتصدق عليهم؛ يذم الله سبحانه في هذه الآية الذين يبخلون، أو يأمرون الناس بالبخل، فالبخيل: هو الذي يضيق صدراً بالإعطاء، ويجد فيه مشـقة، وهو يبخل على نفسه أولاً قبل أن يبخل على الناس، والشح هو البخل مع الحرص.

وجاء بالفعل المضارع؛ ليدل على اسـتمرار البخل فيهم، ولم يقل: الذين بخلوا.

﴿وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾: كأن يقولوا للآخرين: لا تنفقوا، نخشـى عليكم الفقر، أو الدوائر، أو لا تنفقوا على من عند رسول الله؛ حتى ينفضوا عنه، أو يصدون الناس عن التبرعات بالصدقات بإثارة الشبهات والتحذير وغيرها من وسائل تثبيط عزائم الناس عن الإنفاق في سبيل الله وطرق الخير.

﴿وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾: الكتمـان: هو سـتر النعمة، وجحود النعمة، فلا يتصدق، ولا تظهـر عليه آثار نعم الله عليه في المأكل، والملبس، أو العطاء.

ما هو الفرق بين البخل، والشح؟

الشح: البخل مع الحرص، وهو أسوأ من البخل.

والبخل منع الحق: أيْ: لا يؤدِّي حقوق الله الواجبة.

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾:

بما أن البخل هو ستر النعمة، أو الجحود بها، فالبخل قد يجعل صاحبه كافراً؛ أيْ: ساتراً لنعم الله عليه، وبدل من أن يقول: وأعتدنا للذين يبخلون عذاباً مهيناً، قال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ﴾: أي: الذين يسترون نعم الله، أو يجحدونها هم من الكافرين.

﴿وَأَعْتَدْنَا﴾: أيْ: هيأنا، وأعددنا. وأعتدنا: حالة خاصة من أعددنا؛ أي: أعددنا عامة تشمل الكثير من طرق وسائل الإعداد، وأعتدنا تعني: طريقة أو وسيلة واحدة هي العذاب المهين.

﴿لِلْكَافِرِينَ﴾: اللام: لام الاختصاص، والاستحقاق.

﴿عَذَابًا مُّهِينًا﴾: العذاب المخزي الذي يتم بمرأىٰ من الناس، ويحمل في طياته الذل والإهانة، بالإضافة إلىٰ الألم، والديمومة، والخلد.

❖ ❖ ❖

وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ
بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ
قَرِينٗا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ
مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ
مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ
أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٤٠﴾ فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ
وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ﴿٤١﴾ يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ
ٱللَّهَ حَدِيثٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ
وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي
سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ
أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ
فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ
ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ
ٱلۡكِتَٰبِ يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾

سورة النساء [الآيات ٣٨ - ٤٤]

[٣٨] ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾:

بعد ذكر الذين يبخلون في الآية السابقة، يذكر بعدهم الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس؛ للمدح والسمعة، لا ابتغاء وجه الله، وينفقون المرات العديدة بتجدد وتكرار. وقيل: نزلت هذه الآية في المنافقين الذين لا يؤمنون بالله، ولا باليوم الآخر.

كما جاء في سورة التوبة، آية (٥٣-٥٤): ﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾.

﴿يُنفِقُونَ﴾: جاءت بصيغة المضارع؛ لتدل على تجدد، وتكرار إنفاقهم؛ للمراءاة، والخُيلاء، وليس لوجه الله تعالى.

﴿وَمَن﴾: الواو: استئنافية. من: شرطية.

﴿يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا﴾: القرين: الملازم للإنسان، ولا يقال له الصاحب؛ لأن الصحبة تعني: انتفاع الصاحبين كل بالآخر، أما القرين فتطلق على صاحب السوء.

ولكل إنسان قرين: وهو عادة قرين سوء، وقرين جمعها: قرناء.

﴿فَسَآءَ قَرِينًا﴾: ساء: من أفعال الذم؛ أيْ: بئس القرين، ساء قريناً؛ حيث حملهم على الرياء، أو البخل.

[٣٩] ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾:

﴿وَمَاذَا﴾: الواو: استئنافية، ما: اسم: استفهام إنكاري، وفيه توبيخ، وتعجب، وذم، وذا اسم موصول، أو ماذا كلمة واحدة استفهام.

﴿عَلَيْهِمْ﴾: على المنافقين، أو الكافرين، والمرائين.

﴿لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾: لو: مصدرية، ومعناها: وأي ضرر، أو أذى يلحقهم لو آمنوا بالله؛ أيْ: صدقوا بالله، ورسوله حقيقة، وأخلصوا إيمانهم، وأنفقوا مما (من + ما) من بعض ما رزقهم الله، أو من (اسم موصول)؛ أيْ: من الذي رزقهم الله تعالى، فالله يصفهم بالجهل، والغفلة بما ينفعهم.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾: بنياتهم، سواء كانت صالحة، أو فاسدة.

﴿عَلِيمًا﴾: بما يقولون، ويفعلون، وهذا تهديد لهم، إذا استمروا على ما هم عليه. ارجع إلى الآية (٣٥) من نفس السورة؛ كمزيد من البيان.

[٤٠] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: إن: للتوكيد.

﴿لَا﴾: النافية، نافية للجنس، وتنفي كل الأزمنة؛ أيْ: ما كان ظالماً في الماضي، والحاضر، أو المستقبل.

﴿لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾: الذرة: هي أصغر جزء من العنصر الكيميائي، وهي مركبة من الإلكترون، والبروتون، والنيوترون، والنيوترونات: تتكون بدورها من الكواركات التي تعد أصغر جزء من الذرة، فهناك ما هو أصغر من الذرة: (وهي الإلكترونات، والبروتونات، والنترونات).

وهناك ما هو أصغر من الذرة: وهي الكواركات (جمع الكوارك).

فالله سبحانه لا يظلم مثقال ذرة (وهي أصغر جزء متعارف عليه).

والله سبحانه ذكر الذرة، وذكر ما هو أصغر من الذرة في سورة سبأ، آية (٢٢) قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبأ:٢٢]. وقال: ﴿وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ:٣].

وقد وردت كلمة ذرة في ست آيات في القرآن.

﴿وَإِن﴾: شرطية. ﴿تَكُ﴾: أصلها تكون (أي: وإن تكون الحسنة بمقدار ذرة، وحذفت الواو من تكون)؛ لالتقاء الساكنين، فأصبحت (تكن)، ثم حذفت النون؛ للتخفيف، فأصبحت تك. وتك: إذن كلمة أصغر من تكن. وجاء بكلمة تك؛ لتناسب حجم الذرة التي هي أصغر جزء من المادة. ارجع إلى سورة البقرة، آية (٢٠١)؛ لبيان معنى الحسنة.

﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾: لم يُبيِّن الكم المضاعف، ولكن بيَّن ذلك في آيات أخرى، فقال في سورة الأنعام، آية (١٦٠): ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ

﴿أَمْثَالِهَا﴾: أو أكثر من ذلك قد تصل إلى (٧٠٠) ضعف، أو أكثر؛ كقوله: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة:٢٦١].

وانتبه إلى قوله: ﴿يُضَاعِفْهَا﴾؛ أيْ: أضعافاً كثيرة، ولم يقل: يضعفها بالتشديد؛ لكانت تعني: ضعفين.

﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾: أيْ: ثواباً عظيماً من فضله، وإحسانه.

﴿مِن لَّدُنْهُ﴾: من عنده، وتقديم من لدنه يدل على الحصر، ومن لدنه، ولم يقل: من عنده. من عنده: تدل على شيء عام، ومن لدنه تدل على إيتاء شيء خاص لنبي، أو عبد صالح، أو مُقرب إلى الله. والأجر يعطى مقابل، أو جزاء العمل.

وهناك ما هو أعظم من الأجر العظيم هو الفضل العظيم.

[٤١] ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾:

﴿فَكَيْفَ﴾: الفاء: استئنافية، كيف: اسم استفهام تحمل معنى التعجب والحال، وتقديره فكيف تكون حالهم (حال الكافرين والعصاة) في يوم الحساب.

إذا: ظرف للزمن المستقبل، وتحمل معنى الحتمية، والكثرة لحدوث ذلك الأمر؛ أي: المجيء من كل أمة بشهيد.

﴿جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾: أيْ: برسولها الذي بلغ ما أرسل به؛ ليشهد على أمته أنه بلغهم الرسالة.

﴿مِن﴾: تعني الشمولية، أو الاستغراق؛ كل الأمم.

﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾: وجئنا بك يا محمد على هؤلاء على أمة

محمد ﷺ شـــهيداً، على أقوالهم، وأفعالهم، شـــهادة حضور، ولم يقل: شاهداً، وإنما شهيد؛ صيغة مبالغة، وأبلغ من الشاهد.

انتبه إلى تقديم ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ على ﴿شَهِيدًا﴾، بينما في ســـورة النحل، آية (٨٩) قال سبحانه فيها: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾.

والســـبب في تقديم ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ في آية النساء؛ ليدل على مدى كفر هؤلاء وإجرامهم، بينما في ســـورة النحل، آية (٨٩) قدَّم ﴿شَهِيدًا﴾ على ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾: لبيان عظمة النبي ﷺ، ومكانته، وشفاعته يوم القيامة. ارجع إلى سورة البقرة، آية (١٣٣)؛ لبيان معنى الشهيد.

[٤٢] ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾:

﴿يَوْمَئِذٍ﴾: يومئـــذٍ: أصلها: يوم + إذ: ظرف أضيـــف إلى ظرف، إذ: هنا للاســـتقبال؛ إشـــارة إلى يوم القيامة يوم الحســـاب يوم يؤتى من كل أمة بشهيد، وجئنا بك على هؤلاء شـــهيداً، في ذلك اليوم يودُّ (يتمنَّى) الذين كفروا، وعصوا الرسول ﷺ في الدنيا. ارجع إلى سورة البقرة، آية (٦)؛ لمعرفة معنى الكفر.

﴿لَوْ﴾: حرف مصدري؛ للتمني، أو حرف امتناع لامتناع، وجوابه محذوف؛ أيْ: تصوره كما تشاء.

﴿تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾: تســـوى أصلها تتسوى بهم الأرض، أدغمت التاء في الســـين؛ لقرب مخارجهما؛ أيْ: ودوا لو كانوا هم والأرض سواء؛ أيْ: ودوا لو

جعلوا تراباً؛ فهم لا يتمنون الموت، بل أشد من ذلك تسوىٰ بهم الأرض مما يدل علىٰ شعورهم النفسي باليأس والحزن والخزي.

وهذا ما أشارت إليه الآية (٤٠) من سورة النبأ.

﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا﴾.

﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾.

الواو: عاطفة، ﴿وَلَا﴾: النافية. ﴿يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾: يكتمون من الكتمان: وهو السكوت عن ذكر شيء كأنه علىٰ وشك الخروج من الفم، فيحاول لجمه، وعدم الإخبار به، والكتمان يختصُّ بالمعاني والأسرار، أما الإخفاء فيهتمُّ بالأشياء المادية، فهم لا يستطيعون أن يكتموا، أو يخفوا؛ أيْ: حديث من الله، أو قولاً مما قالوه، أو أخفوه؛ لأن جوارحهم تشهد عليهم يوم القيامة بعد أن يختم علىٰ أفواههم، أو يودون أن لا يطلب منهم أن يتفَّوهوا بأي حديث، ويبقوا صامتين علىٰ الإطلاق.

﴿حَدِيثًا﴾: نكرة؛ تعني: أيَّ حديثٍ، أو قول مهما كان نوعه وزمنه: تشمل كل أنواع الحديث.

[٤٣] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾:

نداء جديد من الله سبحانه إلىٰ الذين آمنوا بعدم الاقتراب من الصلاة، أو

المجيء إلىٰ الصلاة، أو الإتيان إلىٰ المساجد، وهم في حالة السكر، سكارىٰ: جمع سكران، والسكران مَنْ شرب مسكراً فستر عقله وغطَّاه، ونزلت هذه الآية في مرحلة من مراحل التدرج في تحريم الخمر. ارجع إلىٰ سورة المائدة، آية (٩١)؛ للبيان.

﴿لَا﴾: الناهية.

﴿تَقْرَبُوا﴾: أيْ: لا تأتوا الصلاة، وأنتم سكارىٰ، عبر عن الصلاة كأنها مكان يقصد إليه، ولم يقل لا تصلوا للإشارة إلىٰ الابتعاد عن المسجد ناهيكم عن عدم جواز صلاتكم، أو لا تدخلوا في الصلاة.

﴿حَتَّىٰ﴾: حرف غاية نهاية الغاية، تعلموا ما تقولون، فلا تخطئوا في الترتيل.

﴿مَا﴾: إما اسم موصول؛ أيْ: حتىٰ تعلموا الذي تقولون. أو: مصدرية؛ أيْ: تعلموا ما قلتم.

﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾:

﴿وَلَا﴾: الواو: عاطفة. لا: الناهية.

﴿جُنُبًا﴾: معطوفة علىٰ جملة حتىٰ تعلموا؛ أيْ: لا تصلوا، وأنتم جنب، أو لا تأتوا إلىٰ الصلاة، وأنتم جنب، وكلمة جُنب لا تُثنىٰ، ولا تؤنث، ولا تجمع؛ فيقال: هو جنب، وهي جُنب، وهم جنب، وهنَّ جنب.

والجنب: من به جنابة، وللجنابة سببان: الجماع، أو الاحتلام.

﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء، أو حصر ﴿عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا﴾: ولا تقربوا الصلاة، أو مكان الصلاة، وهو المسجد، أو المساجد، وأنتم جنب.

إلا عابري سبيل؛ أيْ: مجتازين غير قاعدين في المسجد؛ أيْ: غير ماكثين فيه.

﴿حَتَّىٰ﴾: حرف غاية (نهاية الغاية).

﴿تَغْتَسِلُوا۟﴾: من الجنابة.

﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾:

﴿وَإِن كُنتُم﴾: إن شرطية تفيد الاحتمال، أو ندرة الحدوث.

﴿مَّرْضَىٰٓ﴾: غير قادرين على الحركة، أو الوصول إلى الماء، أو لا تستطيعون استعمال الماء بسبب الجروح.

﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾: ولم تجدوا الماء لبعده.

﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾: الحدث الأصغر.

﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾: كناية عن الجماع، كما قال ابن عباس، أو قيل: ملامسة فيها شهوة مثل التقبيل، عليكم بالوضوء أو التيمم لعدم وجود الماء.

﴿فَلَمْ﴾: الفاء: للتأكيد، لم نافية تنفي المضارع. ﴿تَجِدُوا۟﴾: ماءً للغسل، أو الوضوء.

﴿فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾: أيْ: امسحوا وجوهكم وأيديكم بالصعيد (وجه الأرض أيْ: تراب) ارجع إلى كتب الفقه لمعرفة آراء الفقهاء في التيمم. ارجع إلى سورة المائدة، آية (٦) لمعرفة الحكمة من التيمم بالتراب، كما ورد في الإعجاز العلمي.

﴿طَيِّبًا﴾: طاهراً، فالماء والتراب يجعل المرء صالحاً لاستقبال ربه، والطهارة تصلح بالماء والتراب.

﴿فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾:

﴿فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾: ولم يقل: منه، كما في المائدة، آية (٦) وهي قوله تعالىٰ: ﴿فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ حيث أضاف منه وحذفها في آية النساء؛ لأن آية المائدة آية عامة تشمل الوضوء والتيمم، وتشمل ذوي الأعذار والجنب وغيرهم، أما آية النساء جاءت في سياق ذوي الأعذار فقط، وشاربي الخمر، وجاءت في سياق مرحلة من مراحل تحريم الخمر؛ ارجع إلىٰ المائدة؛ لمزيد من البيان.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: إن للتوكيد.

﴿كَانَ﴾: تشمل كل الأزمنة، الماضي، والحاضر، والمستقبل؛ أيْ: بأن الله كان، ولا يزال، وسيظل عفواً غفوراً.

﴿عَفُوًّا﴾: يعفو عن الخطائين الذين شربوا الخمر قبل العلم بهذا الحكم، وعن الذين خالفوا إذا تابوا إليه، وأنابوا إليه بعد التبليغ.

﴿غَفُورًا﴾: ويغفر ذنوبهم غفوراً (صيغة مبالغة) يغفر لهم ذنوبهم مهما كثرت، أو عظمت. ارجع إلىٰ سورة المائدة؛ آية (٩١)؛ لبيان كيف تدرج، تحريم الخمر علىٰ أربع مراحل.

[٤٤] ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴾:

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾: الهمزة همزة استفهام، وإنكار، وتعجب، ألم تر: الرؤية هنا رؤية قلبية؛ أيْ: ألم ينته علمك إليهم، أو يصل خبرهم، أو قصتهم، أو العلم بهم، أو ألم تنظر إليهم.

﴿إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾: الذين أوتوا: من الإيتاء: وهو أعم من العطاء، والإيتاء يشمل الأشياء المادية والمعنوية، ويمكن استرداده، وليس فيه تملك بعكس العطاء الذي فيه تملك؛ ارجع إلىٰ سورة البقرة آية (٢٥١) للبيان المفصل والفرق بين الإيتاء والعطاء.

﴿نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾: ولم يقل: آتيناهم الكتاب، أو أهل الكتاب التي فيها معنىٰ المدح، أما الذين أوتوا نصيباً من الكتاب تدل علىٰ الذم؛ أيْ: حظاً، قسطاً من الكتاب، وهو التوراة، أو علم بنبوة محمد ﷺ، أو تعني التعجب والتوبيخ علىٰ قلة علمهم، أو علمهم المحدود، أو تعني قلة تأثير التوراة في أنفسهم والعمل به.

وهم جماعة من اليهود أعطوا حظاً من القراءة، فعرفوا صحة الدِّين الإسلامي وصدق النبي ﷺ. ارجع إلىٰ الآية، (٣٢) من نفس السورة لمزيد في معنىٰ نصيباً من الكتاب.

﴿يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ ﴾: يشترون الضلالة بالهدىٰ: وهي البقاء علىٰ اليهودية بعد وضوح الحُجَّة علىٰ نبوة محمد ﷺ.

ـ أو تعني: جحدوا بصفات محمد ﷺ، ونعوته في التوراة؛ للإبقاء على مركزهم بين قومهم ورياستهم.

ـ أو أعطوا رشاوى، وأموالاً كي يكذبوا بمحمد، وما جاءت به كتبهم بالإيمان به.

ـ كذبوا بالنبي ﷺ بعد ظهوره بإيمانهم به قبل ظهوره:

﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾: يريدون منكم أن تكفروا بما أنزل إليكم، ﴿أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾: أي: الصراط المستقيم، وهو الإسلام.

والضلال: يعني: الابتعاد، وعدم الاهتداء، كما ضلوا عنه أنفسهم، فآمنوا ببعض الكتاب، وكفروا ببعض، وحرفوا كتابهم، واشتروا به ثمناً قليلاً. ارجع إلى سورة البقرة، آية (١٩٨)؛ لمزيد من البيان.

﴿أَن تَضِلُّوا۟﴾: أن: حرف مصدري يفيد التوكيد.

وقوله: ﴿يَشْتَرُونَ﴾: أو يريدون أفعال جاءت بصيغة المضارع، ولم يقل: اشتروا، أو أرادوا، وانتهى الأمر، بل جاء بصيغة المضارع؛ للدلالة على التكرار، والتجدد، والاستمرار في أفعالهم هذه التي هي ناجمة عن حسدهم لكم من بعد ما تبيَّن لهم الحق، أو تدل على بشاعة أفعالهم؛ كأنها تحدث الآن (بصيغة المضارع)، وهذا ما يسمَّى حكاية الحال.

❖ ❖ ❖

وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا ﴿٤٥﴾
مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ
سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ
وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا
لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ
إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٤٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا
مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا
عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ وَكَانَ أَمۡرُ
ٱللَّهِ مَفۡعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ
ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا
﴿٤٨﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۡۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ
وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ
وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمٗا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا
مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ
لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾

سورة النساء [الآيات ٤٥ - ٥١]

[٤٥] ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾:

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ﴾: أي: اللـه أعلم منكم بأعدائكم، فهو العليم الخبير عالم الغيب، وها هو يخبركم بعداوة هؤلاء لكم، ويطلعكم على أحوالهم؛ فاحذروهم، ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ﴾: ولم يقل: عدوكم؛ لأن الأعداء عدة أعداء، وليس عدواً واحداً، أو لأن أسباب عداوتهم لكم أسباب عدة، ومختلفة، فلو كان عدوكم واحداً، أو أسباب العداء واحدة لقال: عدوكم، بدلاً من أعدائكم.

﴿وَكَفَىٰ﴾: أيْ: يكفيك وحسبك.

﴿بِٱللَّهِ﴾: الباء: للإلصاق، والتوكيد.

﴿وَلِيًّا﴾: الولي هو الذي يليك من الأقارب، ويرعاك ويُعينك، ويُكِنُّ لك المحبة، والمودة.

﴿نَصِيرًا﴾: النصير هو القادر على نصرتك بقوته وعدته.

وتكرار: ﴿وَكَفَىٰ﴾: مرتين: للتوكيد، وللتفريق بين الولاية والنصرة؛ فقد يكون هناك من يواليك، وليس له القدرة على نصرتك، أو بالعكس ينصرك، ولا يواليك، ولذلك فرق بين الأمرين، أو كليهما معاً.

[٤٦] ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾:

هـذه الآية: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾: إما متصلة بقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾: من الذين هادوا، وإما ابتدائية من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه:

﴿مِّنَ﴾: وليس كل الذين هادوا، ومن: للعاقل، وقد تكون للمفرد، والجمع.

﴿ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾: ارجع إلىٰ الآية (٦٢) من سورة البقرة.

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾: الكلم: هو كلام الله تعالىٰ للذكور فقط في التوراة. جمع: كلمة، وهو جمع كثرة مقارنة بكلمات الله كما في الآية (١٠٩) من سورة الكهف: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾، وكلمات: جمع قلة، والعلم: جمع كثرة، فالبحر ينفد، وكلمات الله لا تنفد، فما بالك بالكلم؟!

﴿يُحَرِّفُونَ﴾: التحريف: الميل بالكلام عن معناه الحقيقي إلىٰ معناه الباطل للتضليل، أو يبدلونه بكلام آخر، أو يضعون هذا مكان هذا، أو يعدلون عن النطق به والعمل به؛ بحمل الألفاظ علىٰ غير ما وصفت له مثل حطة؛ حنطة من أجل السخرية والاستهزاء، ولا بد من مقارنة هذه الآية مع الآية (٤١) في سورة المائدة وهي قوله تعالىٰ: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ نجد التحريف الأول كان بعد موت موسىٰ قام به اليهود الأوائل (يحرفون الكلم عن مواضعه)، وحدث تحريف ثانٍ في زمن الرسول ﷺ حين علموا به كرسول فقال تعالىٰ:

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ من: تدل على القرب؛ أي: حرفوه مباشرة بعد سماعهم برسول الله ﷺ؛ (بعد): تدل على الزمن بين التحريف الأول، والتحريف الثاني.

﴿عَن﴾: تفيد المجاوزة.

﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾: يقولون بأفواههم وألسنتهم سمعنا، أو قولاً مسموعاً، سماع الأذان، وعصينا، وفي أنفسهم نية العصيان، أو يضمرون العصيان.

﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾: اسمع لا سمعت، أو لا أسمعك الله.

﴿وَرَٰعِنَا﴾: وهي كلمة ظاهرها المراعاة، وباطنها الطعن في رسول الله ﷺ؛ إذ اليهود يعدونها من الرعونة، يقولونها لرسول الله سباً وشتماً، والرعونة تعني: الشر، والطيش، والحمق، وأصلها: أرقبنا وانتظرنا.

﴿لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾: ليّاً: فتلاً، وتحريفاً؛ كأن يقول: السأم عليكم بدلاً من السلام عليكم، وطعناً في الدِّين: ذمّاً بالإسلام، وتعني: الشتم.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾:

﴿وَلَوْ﴾: حرف امتناع لامتناع.

﴿أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾: قالوا: سمعنا قولك، وأطعنا أمرك. واسمع: ما نقول.

﴿وَٱنظُرْنَا﴾: بدلاً من قولهم راعنا، أو تمهل علينا حتى نفهم ما تقول، أو انتظرنا.

﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾: لكان أكثر أدباً وأصوب، لكان خيراً لهم مما قالوه، وأقوم، وأعدل.

﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾:

﴿وَلَٰكِن﴾: حرف استدراك.

واللعن: هو الطرد، والإبعاد عن رحمة الله تعالىٰ؛ بسبب كفرهم. الباء: باء السببية، أو البدلية.

﴿فَلَا﴾: الفاء: للتوكيد. لا: النافية.

﴿يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾: أيْ: لا يؤمن منهم إلا القليل؛ أي: العدد القليل، أو أكثرهم يؤمنون الإيمان الناقص.

[٤٧] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾:

﴿يَا أَيُّهَا﴾: نداء استعمل فيها يا النداء؛ للبعد. والهاء: للتنبيه.

﴿أُوتُوا الْكِتَابَ﴾: المقصود بهم اليهود هنا، وأوتوا الكتاب عادة هم اليهود والنصارىٰ، وناداهم بالذين أوتوا الكتاب للترغيب أو إثارة اهتمامهم أو همهم، ولم ينادهم بأهل الكتاب؛ لأن النداء بأهل الكتاب فيه تكريم أكثر من الذين أوتوا الكتاب، فهم لا يستحقون النداء بأهل الكتاب، وفيه تهديد وذم أيضاً لقوله تعالىٰ: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ۚ﴾.

﴿آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا﴾:

﴿آمِنُوا﴾: أيْ: صدقوا.

﴿بِمَا﴾: الباء: للإلصاق. ما: اسم موصول؛ تعني: الذي.

﴿نَزَّلْنَا﴾: وهو القرآن، نزلنا: تعني: منجماً على دفعات على زمن (٢٣) عاماً، ولم يقل: أنزلنا؛ التي تعني: جملة واحدة؛ أيْ: دفعة واحدة.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾: أي: القرآن مصدقاً للتوراة الذي أنزل عليكم، أو للتوراة والإنجيل.

﴿مُصَدِّقًا﴾: أيْ: موافقاً ومطابقاً. ﴿قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾: الطمس قد يعني: المحو التام، أو التحويل والتشويه.

﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾: لها معانٍ عدة؛ منها: نزيل العين والأنف، وحجاب العين، وهذا مسخ للوجه، أو نذهب الحدقة العينية، أو نغلق الأفواه، أو نجعل الوجه في الخلف بدلاً من الأمام، أو نطمس عليها ونردها؛ تعني: نصرفها عن الهدىٰ بعدما تبيَّن لها؛ أيْ: نردها على أدبارها في الضلال، كما كانت سابقاً. ارجع إلىٰ سورة ياسين آية (٦٦)؛ لمزيد من البيان.

﴿فَنَرُدَّهَا﴾: الفاء: في فنردها تفيد التعقيب والمباشرة؛ أيْ: بعد الطمس نقوم بالرد على الأدبار.

﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾:

﴿أَوْ﴾: للتخيير، ﴿نَلْعَنَهُمْ﴾: من اللعن، واللعن لغة: هو الطرد والإبعاد، ورجل لعين: منبوذ مطرود من قومه، واللعن قد يعني: الإهلاك، أو المسخ، ويعني: عامة الطرد، والإبعاد عن رحمة الله تعالىٰ، أو نمسخهم قردة وخنازير، أو

نهلكم كما فعلنا بأصحاب السبت. ارجع إلى سورة الأعراف، آية (١٦٣-١٦٦)؛ لمزيد من البيان في أصحاب السبت.

﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾: نافذ لا محالة، ولا راد لحكمه. انظر كيف تغيرت صيغة الكلام من صيغة المتكلم إلى صيغة الغائب حين قال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ بدلاً: وكان أمرنا مفعولاً؛ التغيير يحدث لإثارة التفات السامع، ويدل على الوحدانية بعد ذكر الآيات السابقة التي تدل على الجمع والتعظيم.

والله سبحانه يملك الزمن، والقدرة على الفعل والفاعل، وكل مقومات الحدث بكلمة: كن فيكون.

[٤٨] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾:

سبب النزول: قيل: لما نزلت هذه الآية: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٥٣] قام رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: والشرك بالله؟ فسكت رسول الله ﷺ، ثم أعاد الرجل سؤاله مرتين، أو ثلاثة، فنزلت هذه الآية، كما أخرج ابن المنذر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: إن: تفيد التوكيد بأن الله لا يغفر الشرك.

﴿لَا﴾: النافية؛ تنفي كل الأزمنة: الماضي، والحاضر، والمستقبل، وأوسع في النفي من (لن). لا: تفيد الإطلاق والعموم في النفي.

﴿يَغْفِرُ﴾: المغفرة: هو ستر الذنب؛ أيْ: محوه.

﴿أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾: أن: حرف مصدري. الشرك: هو الشرك في الألوهية:

يشـــركون معه غيره في العبـــادة، أو الربوبية، يشـــركون بأنه هـــو النافع الضار، والمعطـــي المانـــع، وأنه هـــو الخالق وحده، أو الصفات والأســـماء بالتشـــبيه والتعطيل، والتحريف والتكييف؛ أيْ: لا يغفر لمن أشرك وكفر ومات علىٰ كفره وشـــركه، ولم يتب منه، وأما من مات وهو غير كافر، أو مشرك فأمره إلىٰ الله؛ إما يغفر له، وإما أن يعذبه.

﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾: أيْ: ما دون الشرك، والكفر من سائر الذنوب.

﴿ذَٰلِكَ﴾: تشير إلىٰ الشرك، والكفر.

﴿لِمَن يَشَآءُ﴾: اللام: لام الاختصاص.

﴿وَمَن﴾: استغراقية: يشاء من عباده.

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾:

﴿وَمَن﴾: الواو: عاطفة. من: شرطية.

﴿يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾: في ألوهيته، وربوبيته، وأسمائه، وصفاته.

﴿بِٱللَّهِ﴾: الباء: للإلصـــاق: الأوثان، والأصنام، والجبـــت، والطاغوت، وعيسىٰ وعزير.

﴿فَقَدِ﴾: الفاء: رابطة لجواب الشرط. قد: للتحقيق، والتوكيد.

﴿ٱفْتَرَىٰٓ﴾: الافتـــراء: هو اختلاق الكذب المتعمد، وللكذاب أنواع؛ منها: الافتراء، والإفك، والبهتان، والظن، والخرص...

﴿إِثْمًا عَظِيمًا﴾: ذنباً عظيماً قبيحاً يُعد من الكبائر (والإثم قد يعني الصغائر والكبائر).

لنقارن هذه الآية (٤٨): ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾، مع الآية (١١٦) في سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾:

الآية (٤٨): جاءت في سياق الذين أوتوا الكتاب، الذين أشركوا بالله، وحرفوا الكتاب، وافتروا على الله الكذب، فهؤلاء عندهم علم، ورفضوا اتباع الحق، فقد افتروا إثماً عظيماً.

بينما الآية (١١٦): جاءت في سياق كفار قريش الغافلين الضالين، فهؤلاء ضلوا ضلالاً بعيداً عن اتباع الحق.

فهؤلاء إثمهم أقل من الذين افتروا إثماً عظيماً.

[٤٩] ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾:

﴿أَلَمْ﴾: الهمزة: استفهام إنكاري وتعجب، سؤال فيه إعلام.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾: رؤية قلبية؛ تعني: ألم ينته علمك إلى هؤلاء الذين يزكون أنفسهم، أو ألم تنظر إلى حال هؤلاء الذين يزكون أنفسهم.

﴿إِلَى ٱلَّذِينَ﴾: قيل: رجال من اليهود. وقيل: اليهود، والنصارى الذين قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة:١٨].

أو الذين قالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة:١١١]، أو: تعود على كل من يزكي نفسه؛ فيدخل في زمرة هؤلاء.

﴿يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾: من التزكية، وهي تبرئة النفس من الذنوب، والآثام، والعيوب، وادعاء الفضيلة، والصلاح، والطهارة من المعاصي.

﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾: بل إضراب إبطالي، إضراب عن تزكيتهم أنفسهم بأنه باطل.

﴿ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾: الله سبحانه وحده من يُطهر ويبرئ من الذنوب تزكية ناشئة عن علم ودراية، ومن الحمق أن يزكي الإنسان نفسه، فقد قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النجم:٣٢].

﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾: الفتيل: هنا يقصد به الخيط في شق نواة التمرة.

وأما النقرة: فهي في ظهر النواة. وأما القطمير: فهي القشرة تلف النواة. إذن ﴿وَلَا﴾: الواو: عاطفة. لا: النافية.

﴿يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾: ولن ينقص من أجورهم مقدار الفتيل (الخيط في شق نواة الثمرة)؛ أيْ: أقل القليل.

[٥٠] ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا﴾:

﴿ٱنظُرْ﴾: يا محمد ﷺ، وكل خطاب إلى الرسول ﷺ هو خطاب لأمته. انظر كيف، ولم يقل: اسمع؛ جعل الله سبحانه الافتراء والكذب الذي تسمعه الأذن كأنه أمر مرئي يراه الناس بأعينهم؛ للدلالة والتوكيد على ما سمعتهم أذانهم من الكذب والافتراء.

﴿كَيْفَ﴾: استفهام للتعجب، والاستنكار.

﴿يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾: الافتراء: هو الكذب المتعمد المختلق الذي لا أصل له.

﴿ٱلْكَذِبَ﴾: جاء معرف بأل التعريف، وهو قولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة:١٨].

أو: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة:١١١].

أو: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ [آل عمران:٢٤].

أو: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران:٧٥].

﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا﴾: وكفىٰ بالكذب والافتراء والتزكية إثماً، ذنباً ظاهراً من بين سائر آثامهم، مبيناً: أيْ: إثماً ظاهراً لكل إنسان، وإثماً: مظهر لنفسه لا يحتاج إلىٰ أحد ليظهره.

[٥١] ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾:

﴿أَلَمْ تَرَ﴾: ارجع إلىٰ الآية (٤٩)؛ للبيان لمعرفة ألم تر.

﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: اليهود والنصارىٰ الذي أعطوا نصيباً من الكتاب (وصف فيه معنىٰ الذم)؛ أي: الذين لم يأخذوا بكل الكتاب (التوراة، أو الإنجيل)؛ لأنهم نسوا حظاً مما ذكروا به، أو حرفوه، أو كتموه. والنصيب يعني: قسماً مُعيَّناً قد يكون في الخير أو الشر.

أو: لم يؤمنوا بكل الكتاب (نؤمن ببعض ونكفر ببعض).

أو: ليس عندهم العلم الكامل بالتوراة، والإنجيل.

﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ﴾: الجبت: الأصنام. وقيل: السحر.

﴿وَٱلطَّٰغُوتِ﴾: ارجع إلىٰ سورة البقرة، آية (٢٥٦) للبيان المفصل في معنىٰ الطاغوت.

﴿وَيَقُولُونَ﴾: أيْ: أحبار اليهود ورؤساؤهم الذين كفروا من مشركي قريش أمثال أبي سفيان وأصحابه؛ أيْ: يقول اليهود للذين كفروا (من قريش) هؤلاء: أبو سفيان وأصحابه أهدىٰ من الذين آمنوا (أتباع محمد ﷺ).

﴿سَبِيلًا﴾: أرشد، وأهدىٰ في الدِّين من المسلمين. سبيلاً: السبيل: الطريق المستقيم الواسع الموصل إلىٰ الغاية.

❖ ❖ ❖

أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾
أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ
يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا
آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾
فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا
﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا ۖ كُلَّمَا نَضِجَتْ
جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ۗ إِنَّ اللَّهَ
كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ
لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ ۞ إِنَّ
اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ
النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا
بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي
الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ
تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾

نصف الحزب ٩

سورة النساء [الآيات ٥٢ - ٥٩]

[٥٢] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: اسم إشارة، واللام: للبعد. وتشير إلىٰ كل من اليهود ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، ومشركي مكة، والكفار عامة.

﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد الذم.

﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾: أيْ: طردهم وأبعدهم من رحمته، ومنعهم من الخير، وتعني الهلاك أيضاً. ارجع إلىٰ الآية (٤٧) من نفس السورة؛ لمزيد من البيان.

﴿وَمَن﴾: الواو: عاطفة؛ من: شرطية للعاقل، وقد تعني: المفرد والمثنىٰ والجمع.

﴿يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن﴾: الفاء: للتوكيد (جواب الشرط). لن: لنفي المستقبل القريب والبعيد؛ أيْ: لن تجد له نصيراً في المستقبل القريب، أو البعيد؛ أيْ: في الدنيا والآخرة. ارجع إلىٰ سورة البقرة الآيات (١٥٩-١٦٢) لمقارنة آيات اللعن وأنواعه.

﴿تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾: من ينصره من عذاب الله، أو يمنع عنه العذاب، فقد جاء هؤلاء الذين لعنهم الله (اليهود) ليتآمروا مع قريش علىٰ رسول الله ﷺ.

[٥٣] ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾:

﴿أَمْ﴾: أم: للإضراب الانتقالي، والهمزة: للاستفهام، والإنكار، والنفي، والإنكار: أيْ: رغم أن لهم نصيب من الملك، ورغم كونهم أصحاب أموال

وبســـاتين وقصور مشـــيدة، ومع ذلك لا يؤتون الناس نقيراً؛ أيْ: بخلاء، فهم لا ينتفعون بملكهم، ومالهم؛ لكونهم لا يتصدقون، أو يزكون أموالهم.

﴿لَهُمْ﴾: اللام: للاختصاص، أو الاستحقاق.

إذن: حـــرف جواب، ولو كان لهم الملك لا يؤتـــون؛ أيْ: لا يعطون أحداً مقدار النقير؛ لفرط بخلهم، وشـــحهم. انظر إلىٰ الآية (٤٩) من نفس الســـورة؛ لمعرفة معنىٰ النقير.

[٥٤] ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾:

﴿أَمْ﴾: للإضراب الانتقالي، والهمزة: للاستفهام الإنكاري، والتعجب.

وقيل: ﴿أَمْ﴾: تعني: بل؛ أيْ: بل يحســـدون الناس علىٰ ما آتاهم الله من فضله.

﴿يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ﴾: مـــن الحســـد: هو تمنـــي زوال النعمة عـــن أحدٍ ما، والحصول عليها.

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ﴾: أي: النبي ﷺ، ﴿عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾: مثل النبوَّة، والعلم، والكرامة في الدِّين والدنيا.

﴿فَقَدْ﴾: الفاء: للتوكيد. قد: للتحقيق، والتوكيد.

﴿ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ﴾: التـــوراة، والإنجيل، والزبور، كل هذه الكتب كانت لآل إبراهيم.

﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾: أي: النبوَّة، أو الفقه في الأحكام، والدِّين.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾: مثل ملك سليمان، وداود، ويوسف.

فلماذا الحسد؟ أو هم يظنون أن فضل الله سبحانه ورحمته يجب أن يكون مقصوراً عليهم فقط؟

[٥٥] ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾:

﴿فَمِنْهُم﴾: الفاء عاطفة. منهم: قد تعود لليهود الذين كانوا في زمن النبي ﷺ، أو لآل إبراهيم.

﴿مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾: تعود إلىٰ إبراهيم، أو إلىٰ النبي ﷺ، أو كليهما، أو: به تعود إلىٰ الكتاب، أو الكل معاً.

﴿وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾: صد عنه: تركه وابتعد عنه، أو صرف غيره عنه، أو منعه، وتعني: كفر به، وأعرض عنه (عن النبي، أو إبراهيم، أو الكتاب)، أو الكل، وقدم الإيمان علىٰ الكفر (الصد)؛ لأن السياق في إبراهيم عليه السلام ومن آمن به.

الصد: هو المنع مع القصد، والنية؛ أي: الإعراض الشديد بقصد وتعمد.

﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾:

﴿وَكَفَىٰ﴾: أيْ: يكفي، وحسبهم جهنم.

﴿بِجَهَنَّمَ﴾: الباء للإلصاق والتوكيد. ارجع إلىٰ سورة الرعد آية (١٨) للبيان المفصل.

﴿سَعِيرًا﴾: نار مستعرة مشتعلة.

[٥٦] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾:

﴿إِنَّ﴾: للتوكيد.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾: جحدوا، ولم يؤمنوا بآياتنا (الآيات تشمل الآيات

القرآنية، أو ما جاء في الكتب المنزلة)، وكذلك الآيات الكونية، والمعجزات. وقوله سبحانه: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾: تدل على شرف هذه الآيات؛ حيث أضافها إليه سبحانه.

﴿سَوْفَ﴾: للاستقبال البعيد؛ (أيْ: فيها تراخٍ زمني)، وفيها معنى التوكيد.

﴿نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾: نصليهم: ندخلهم ناراً، ونحرقهم بها؛ مما يؤدي إلى حرق جلودهم؛ كلما: بدلاً من إذا؛ لأن كلما: تدل على التكرار والتجدد، وإذا: تدل على الحتمية بدون التكرار. تحرق جلودهم حتى تصل إلى الدرجة الثالثة؛ أي: تصبح متفحمة نبدلها بجلود جديدة حية فيها الأعصاب التي تؤدي إلى الشعور بالألم.

ولقد تبيَّن من الأبحاث العلمية: أن الألم الناتج عن الحروق هو نتيجة إصابة نهايات الأعصاب التي تحمل الإحساس بالألم، والتي تمتد إلى طبقات الجلد السطحية، وأن الحروق التي تمتد إلى الطبقات العميقة من الجلد لا تسبب أيَّ ألمٍ؛ لأنها لا تحتوي على نهايات الأعصاب، فالحروق من الدرجة الأولى، والثانية تسبب آلاماً شديدة لا تطاق، أما الحروق من الدرجة الثالثة فلا تسبب آلاماً؛ لأن الحرق أمات، أو قضى على النهايات العصبية كاملاً.

وفي هذه الآية شرح لآلية الألم الناتج عن الحروق التي سيعاني منها هؤلاء الكفرة في نار جهنم، وما إن تصل الحروق إلى الدرجة الثالثة من الجلد؛ تعني نضجت جلودهم، عندها تبدل هذه الجلود بجلود أخرى جديدة تحتوي على نهايات الأعصاب التي تسبب الآلام.

﴿لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾: اللام: للتوكيد.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾:

﴿إِنَّ﴾: للتوكيد.

﴿كَانَ﴾: تشمل كل الأزمنة: الماضي، والحاضر، والمستقبل.

﴿عَزِيزًا﴾: القوي الذي لا يُغلب، ولا يُقهر، والممتنع بعزة المنع على عباده لا يضره أحد.

﴿حَكِيمًا﴾: الحكيم في تدبير شأنه، وكونه، وخلقه، وشرعه، حكيماً مشتقة من الحكمة، فهو أحكم الحكماء، أو مشتقة من الحكم؛ فهو أحكم الحاكمين.

[٥٧] ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا﴾:

في مقابل الذين كفروا بآياتنا هناك الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

فهؤلاء: ﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ﴾: السين: للاستقبال، وتدل على القرب (الحدوث).

﴿جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾: أيْ: تنبع الأنهار من تحتها، أنهار الجنة.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا﴾: الخلود: استمرار البقاء من وقت مبتدأ (من بداية) إلى ما لا نهاية له.

﴿لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ﴾: ولم يقل: أزواج مطهرات؛ أيْ: كل واحدة لها صورتها وطهارتها التي تختلف عن الأخرى.

بل قال: ﴿أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ﴾: أيْ: كلهنَّ سيكنَّ أزواجاً على صورة واحدة من الطهر، مطهرة من البول، والغائط، ودم الحيض وغيره.

﴿وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا﴾: وندخلهم ظلاً ظليلاً؛ أي: الظل الظليل: الظل الكثيف الذي يقيهم الحر، والبرد، صيغة مبالغة، وتأكيد مثل ليل وأليل.

وفي آية أخرى: ﴿وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ﴾ [الواقعة: ٣٠].

وفي آية أخرى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥].

﴿ظِلًّا ظَلِيلًا﴾: أيْ: ممدود لقوله: وظل ممدود ليس ظلاً واحداً فحسب، بل ظلال؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾ [المرسلات:٤١].

إذن الظل الظليل: الممدود، والدائم، والعديد المتنوع.

أما ظل النار؛ فقد وصف بأنه ظل ذو ثلاث شعب: ﴿لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ [المرسلات:٣٠-٣١].

وفي آية أخرىٰ وصفه: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة:٤٣-٤٤].

ارجع إلىٰ سورة يس آية (٥٦) لمزيد من البيان في معنىٰ الظل.

[٥٨] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾:

سبب النزول: عن ابن عباس ﷺ قال: لما فتح رسول الله ﷺ مكة دعا عثمان بن أبي طلحة، وكان سادناً للكعبة (خادم للبيت)، فطلب منه مفتاح الكعبة، فدخل البيت فصلىٰ ركعتين، ثم خرج، فقال العباس ﷺ: أعطني المفتاح يا رسول الله؛ لنجمع بين السقاية والسدانة، فأنزل الله سبحانه هذه الآية إلىٰ رسوله، فقرأها، ثم دعا عثمان بن أبي طلحة، وأعطاه المفتاح، والعبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب.

﴿إِنَّ﴾: للتوكيد.

﴿ٱللَّهَ﴾: الاسم الدال علىٰ ذاته والجامع لجميع صفات الكمال الإلهية، والذي تفرد به سبحانه.

﴿يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾: يأمركم: لفظ دال علىٰ الإلزام والوجوب.

﴿إِنَّ﴾: حرف مصدري يفيد التوكيد.

﴿تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾: من التأدية؛ أيْ: إيصال الشيء إلىٰ صاحبه.

﴿ٱلْأَمَٰنَٰتِ﴾: جمع أمانة؛ أي: جميع الأمانات، والأمانة لغةً: هي ما يكون لغيرك عندك من مال، أو متاع، أو حق، أو وديعة إلىٰ أهلها، سواء كانوا مؤمنين، أو كفاراً من أيِّ ملَّةٍ.

﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ﴾: إذا: ظرفية شرطية تدل علىٰ الحكم بالعدل، وتشمل هذه الآية كل الناس مسلمين، أو غير مسلمين، وهذا يدل علىٰ عدالة الرب.

﴿بِٱلْعَدْلِ﴾: هو الإنصاف والقسط، وإعطاء كل ذي حق حقه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾:

﴿إِنَّ﴾: للتوكيد.

﴿نِعِمَّا﴾: من نِعْمَ فعل لإنشاء المدح أصلها نِعْمَ مَا أدغمت الميمان، فأصبحت ميماً مشددة، وما هنا قد تكون اسماً موصولاً؛ بمعنىٰ: الذي يعظكم به، وإما أن تكون معرفة تامة بمعنىٰ الشيء؛ أيْ: نِعْمَ الشيء يعظكم به، وإما أن تكون نكرة؛ تقديرها نِعْمَ شيئاً يعظكم به؛ أيْ: أن تؤدوا الأمانات إلىٰ أهلها.

﴿يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾: يعظكم من الوعظ؛ أي: الأمر والنهي بأسلوب الترغيب والترهيب، والوعظ: الكلام الذي تلين له القلوب، والوعظ يحمل معنىٰ التخويف، والترغيب، والتحذير، والنهي. والموعظة حين تسمعها إما أن تقوم بها، أو ترفضها. ارجع إلىٰ الآية (٣٤) من نفس السورة؛ لمزيد من البيان.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾: إن: للتوكيد.

﴿كَانَ﴾: تستغرق الماضي، والحاضر، والمستقبل.

﴿سَمِيعًۢا﴾: لمن حكم بالعدل، أو بغير العدل، فيحاسبكم ويجازيكم عليه.

﴿بَصِيرًا﴾: يبصر إذا أديتم الأمانات إلى أهلها، أم خنتم الأمانة. سميعاً لما تقولون، وبصيراً بما تعملون في الحكم بالعدل، وأداء الأمانات وغيرها.

[٥٩] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾:

بعد أن أمر الله بأداء الأمانات إلى أهلها وبالحكم بين الناس بالعدل يأمر الله سبحانه بطاعة الله سبحانه وطاعة رسوله ﷺ، فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾: نداء إلى الذين هم على درب الإيمان بأمر، أو حكم جديد، وهو: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾، والهاء: للتنبيه.

﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾: فيما أمر به، ونهى عنه، وفيما شرع لكم.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾: فيما أمر به ونهى عنه، وما فصل لكم من الأحكام والشرائع؛ فقد قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر:٧].

﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾: انتبه إلى قوله سبحانه: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾، ولم يقل: وأطيعوا أولي الأمر منكم، وإنما حذف كلمة وأطيعوا، وعطف طاعة أولي الأمر على طاعة الله وطاعة الرسول، فطاعة أولي الأمر ليست مستقلة، أو منفصلة عن طاعة الله، وطاعة الرسول، وما يأمركم به أولي الأمر منكم يجب أن لا يخالف ما أمركم الله ورسوله، أو نهاكم الله ورسوله؛ فإذا كان الأمر كذلك أطيعوا أولي الأمر منكم؛ مثل: القادة، والحكام، والمتولِّين أموركم، وإذا أمروكم بشيء مخالف لله، وللرسول فلا طاعة لهم أبداً؛ إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، إنما الطاعة في المعروف، حديث صحيح رواه البخاري. ارجع إلى الآية (٣٢) من سورة آل عمران؛ للمزيد.

﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾:

﴿فَإِن﴾: الفاء: استئنافية. إن: شرطية تدل على الاحتمال، أو الندرة.

﴿تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ﴾: أيْ: حدث خلاف بينكم في أمر من أمور الدِّين، أو الدنيا؛ فإن تنازعتم بعضكم مع بعض، أو مع ولاة الأمور، والتنازع يكون بين طرفين.

﴿فِي شَيۡءٖ﴾: في: ظرفية. شيء: نكرة؛ أيِّ شيءٍ سواء أكان حكماً، أم فتوى، أم سؤالاً.

﴿فَرُدُّوهُ﴾: الفاء: رابطة لجواب الشرط. ردوه: ارجعوه إلى الله تعالى ورسوله، وانظروا إلى ما جاء في الكتاب والسنة، وما قاله أولو العلم، والفقهاء، والصحابة، ومصادر التشريع، والفقه، والقياس، وغيرها.

﴿إِن﴾: شرطية تفيد الاحتمال والقلة.

﴿كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾: أيْ: إن كنتم تصدقون بالله، وبيوم القيامة، ومن يؤمن بالله واليوم الآخر يؤمن كذلك بالملائكة، والنبيين، والكتاب، وهذا وعيد لمن حاد عن طاعة الله ورسوله.

﴿ذَٰلِكَ﴾: اسم إشارة، واللام: للبعد، وتشير إلى طاعة الله ورسوله، والرد إليهما عند التنازع.

﴿خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾: مآلاً وعاقبة، أحسن: على وزن أفعل؛ أيْ: أفضل، والتأويل: ما يؤول إليه الشيء في آخر الأمر، ويقال: آل الأمر إلى كذا؛ أيْ: صار إليه، والتأويل: قد يعني التفسير والبيان.

❖ ❖ ❖

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ
وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ
وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ
ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ
ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ
صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا
قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ
إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا
فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ
أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا
لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ
جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ
لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ
حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟
فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾

سورة النساء [الآيات ٦٠ - ٦٥]

[٦٠] ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾:

﴿أَلَمْ﴾: الهمزة استفهام إنكاري، وفيه تعجب.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾: ألم ينته علمك إلىٰ الذين يزعمون.

﴿تَرَ﴾: هنا رؤية قلبية، وليس بصرية، وتعني: ألم تنظر إلىٰ حال هؤلاء الذين يزعمون.

﴿يَزْعُمُونَ﴾: من الزعم: وهو القول الأقرب إلىٰ الباطل؛ أي: ادعوا كذباً، والزعم: قد يكون حقاً أحياناً، ولكن كثر استعماله في الباطل، والكذب.

﴿أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾: أنهم للتوكيد. والباء: للإلصاق. ما: اسم موصول؛ بمعنىٰ الذي. أنزل إليك: أي: القرآن الكريم.

﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾: التوراة والإنجيل؛ أنزل: تعني جملة واحدة، أما نزل: تعني منجماً أو علىٰ دفعات.

﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾: الطاغوت: كلمة الطاغوت مشتقة من الطغيان، وتستعمل كلمة الطاغوت للمذكر والمؤنث، وللمفرد والجمع، وتطلق كلمة الطاغوت علىٰ كل معبود من دون الله وكل متعد، وكل من يصرف عن الحق، وسمي الساحر والكاهن والمارد من الجن طاغوتاً؛ ارجع إلىٰ سورة البقرة

آية (٢٥٦) لمزيد من البيان، والطاغوت في هذه هو كعب بن الأشرف، سماه الله طاغوتاً؛ لإفراطه في الطغيان، وعداوة رسول الله ﷺ.

أسباب النزول: عن ابن عباس ﷺ: نزلت هذه الآية في رجل من المنافقين كان بينه وبين يهودي خصومة، فقال اليهودي: انطلق بنا إلىٰ محمد، وقال المنافق: بل نأتي كعب بن الأشرف، وهو الذي سماه الله تعالىٰ الطاغوت، فأبىٰ اليهودي إلا أن يخاصمه إلىٰ رسول الله ﷺ، فلما رأىٰ المنافق ذلك، أتىٰ معه إلىٰ رسول الله ﷺ، فاختصما إليه، فقضىٰ رسول الله ﷺ لليهودي، فلما خرجا من عنده؛ لزمه المنافق، وقال: ننطلق إلىٰ عمر بن الخطاب، فأقبلا إلىٰ عمر، فقال اليهودي: اختصمنا أنا وهذا إلىٰ محمد، فقضىٰ عليه، فلم يرضَ بقضائه، وزعم أنه مخاصم إليك، وتعلَّق بي، فجئت إليك معه، فقال عمر للمنافق: أكذلك؟ قال: نعم، فقال لهما: رويداً حتىٰ أخرج إليكما، فدخل عمر وأخذ السيف فاشتمل عليه، ثم خرج إليهما، وضرب به المنافق حتىٰ برد (مات)، وقال: هكذا أقضي لمن لم يرضَ بقضاء الله وقضاء رسوله، وهرب اليهودي، ونزلت هذه الآية.

﴿وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ﴾: وقد: للتحقيق والتوكيد.

﴿أَن﴾: حرف مصدري؛ لزيادة التوكيد.

﴿أُمِرُوٓاْ﴾: في كتبهم السماوية؛ مثل: التوراة، أن يكفروا بكل طاغوت، وبكل من لا يحكم بما أنزل الله، وقد أمروا ذلك أيضاً في القرآن الكريم.

كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، فهم أرادوا أن يذهبوا إلىٰ كعب بن الأشرف، وجاءت الآية لتحذرهم من الذهاب؛ لأنهم لو ذهبوا وتحاكموا عنده لقضىٰ لهم بالباطل؛ مما يؤدِّي إلىٰ انتشار الظلم والفساد.

﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾: يريد الشيطان أن يغويهم، ويوسوس لهم حتىٰ يضلهم، ويبعدهم عن الحق.

وكان المفروض أن يقول: ويريد الشيطان أن يضلهم إضلالاً بعيداً، ولكن قال ضلالاً بدل إضلالاً؛ لأن مصدر أضل الإضلال، أما الضلال فهو مصدر ضل، فقد جمع بهذا القول الإضلال والضلال في آن واحد، والمعنىٰ: أن الشيطان يريد أن يضلهم، ثم يريد بعد ذلك أن يضلوا بأنفسهم، فهو يبدأ بالإضلال، ثم يريد منهم المشاركة في العملية، وإضلال الغير، ويصبحون أنفسهم شياطين، أو أولياء له، وهم يقومون بعمله، وعندها يصبح لا أمل في عودتهم إلىٰ الهدىٰ، وطريق الحق، أو تصبح العودة غير مرجوَّة.

[٦١] ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾:

﴿وَإِذَا﴾: ظرف زماني.

﴿قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟﴾: تعالوا إلىٰ ما أنزل الله إلىٰ الرسول، لهم خاصَّة: تعالوا مأخوذة من العلو؛ أي: ارتفعوا عن الشك والنفاق وعن معتقداتكم الباطلة، وتحكيم الطاغوت، تعالوا نتحاكم لما أنزل الله في القرآن، أو إلىٰ الرسول فيما شرع لكم، أو كليهما.

رأيت المنافقين معرضين عنك يا محمد، ويرغبون عن حكمك.

وهذه الآية تؤيد ما قبلها من لجوئهم إلىٰ التحاكم إلىٰ الطاغوت، والإعراض عن رسول الله ﷺ.

﴿يَصُدُّونَ﴾: يعرضون إعراضاً متعمَّداً، وقصداً، ويمنعون الناس عن القدوم إليك؛ لتحكم بينهم، ويهربون منك غير راضين بالتحاكم إليك.

[٦٢] ﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴾:

﴿ فَكَيْفَ ﴾: الفاء: عاطفة للتعقيب والسرعة.

﴿ فَكَيْفَ ﴾: للتعجب، فكيف يكون حالهم، وكيف يصنعون.

﴿إِذَآ﴾: ظرف زماني يدل على حتمية الوقوع وبكثرة.

﴿أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾: المصيبة: أيُّ أمرٍ طارئ يسبب الضرر لهم، أو عقوبة كفقر، أو وباء، أو صاعقة.

﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾: بسبب إعراضهم عنك، والذهاب إلى الطاغوت، والتحاكم إلى غيرك، واتهامهم لك بالحكم بالباطل، أو بسبب ذنوبهم.

والباء في بما: باء السببية.

﴿ثُمَّ﴾: تدل على التعقيب والتراخي في الزمن، وأخيراً سيأتون إليك، يحلفون بالله؛ لأنهم يعلمون ما يقولونه كذباً، فيريدون أن يؤكدوا قولهم فيحلفون بالله لك.

﴿إِنْ أَرَدْنَآ﴾: ما أردنا بتحاكمنا إلى غيرك.

﴿إِلَّآ﴾: إلا حصراً وقصراً.

﴿إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾: أيْ: ما أردنا بتحاكمنا إلى غيرك إلا الإحسان، لا الإساءة إليك، والتوفيق بين الخصمين، والصلح بينهم، وليس القصد مخالفة أمرك.

[٦٣] ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴾:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾: اسم إشارة، واللام: للبعد.

﴿ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ ﴾: ما: اسم موصول؛ بمعنىٰ: الذي في قلوبهم من النفاق من الكفر والزيغ والحقد.

﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ ﴾: لا تقبل اعتذارهم، واهجرهم هجراً جميلاً؛ أيْ: تجنبهم إلىٰ حدٍّ ما، ولكن اترك لهم نافذة تطل عليهم؛ كي تعظهم في المستقبل.

﴿وَعِظۡهُمۡ ﴾: في خلوة؛ لأن ذلك له أثر طيب، وذكرهم بالخير؛ لترقَّ قلوبهم، وحذِّرهم وانصحهم في الوقت المناسب، والمكان المناسب. ارجع إلىٰ الآية (٣٤) من نفس السورة؛ لمزيد من البيان.

﴿وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴾: أيْ: لا تفضحهم علىٰ مرأىٰ من الناس، بل بشكل سري، والقول البليغ: القول المؤثر في القلوب، فيحركها ويذهب عنها غفلتها.

[٦٤] ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴾:

﴿ وَمَآ ﴾: الواو: استئنافية، وما: نافية.

﴿أَرۡسَلۡنَا ﴾: بمعنىٰ الإرسال برسالة، وليس فيه مشقة وشدة، كما في البعث، وهناك فرق بين الإرسال والبعث، البعث: يكون لإحياء منهج ثانٍ كان موجوداً، ولم يعد يُذكر، فالله سبحانه يبعث رسولاً لإحياء من جاء قبله من

الرسل، ولا يأتي بشيء جديد، والبعث فيه إثارة وتهييج، وفيه مشقة وصعوبة. ارجع إلىٰ سورة البقرة، آية (١١٩)؛ لمعرفة الفرق بين الإرسال والبعث.

﴿مِن رَّسُولٍ﴾: من: الاستغراقية، والتقدير :وما أرسلنا رسولاً إلا ليطاع.

﴿مِن﴾: تستعمل للمفرد والجمع.

﴿إِلَّا﴾: أداة حصر.

﴿لِيُطَاعَ﴾: اللام: لام التعليل والتوكيد؛ لأن طاعة الرسول هي طاعة لله، ومعصية الرسول هي معصية لله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]، (ومن يعص الرسول فقد عصىٰ الله)، فالله سبحانه سيهيِّئ لهذا الرسول من يصدِّقه من البشر، ويتبعه، ولا يحدث ذلك إلا بإذن الله، بأمر من الله، والإذن: يبدأ، أو يُعلم بإنزال الوحي.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾:

﴿وَلَوْ﴾: الواو: عاطفة. لو: شرطية تحمل معنىٰ التمني.

﴿أَنَّهُمْ﴾: للتوكيد، وتشير إلىٰ المتحاكمين الذين سبق ذكرهما، أو تعني: كل من يظلم نفسه، وظلم النفس يأتي من اتباع الهوىٰ، والرغبة في الشهوة العاجلة.

﴿إِذ﴾: ظرف للزمن الماضي بمعنىٰ: حين.

﴿ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾: بالخروج عن المنهج الرباني.

١ - بالتحاكم إلىٰ الطاغوت، والإعراض عن التحاكم إلىٰ رسول الله ﷺ.

٢ - أو رفضهم لما قضىٰ الرسول ﷺ به وترك طاعتك.

٣ - أو اتباع الهوىٰ، وارتكاب المعاصي، أو الفاحشة، والرغبة في تحقيق الشهرة العاجلة، وظلم النفس من أشقىٰ أنواع الظلم.

﴿جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾:

﴿جَآءُوكَ﴾: (المرحلة الأولىٰ) كلمة ﴿جَآءُوكَ﴾: تحمل معنىٰ المشقة والصعوبة؛ لأنهم يرغمون أنفسهم علىٰ المجيء، لم يقل: أتوك؛ لأنها تحمل معنىٰ الارتياح للمجيء.

﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ﴾: (هذه هي المرحلة الثانية)، الفاء: تدل علىٰ السرعة والمباشرة، بأن يقولوا: اللهم اغفر لنا، أو نستغفر الله، والاستغفار يدل علىٰ وقوع الذنب ويطلب من الله أن يغفره، ويمحوه، فلا عقاب عليه؛ أيْ: يستغفرون الله عند رسول الله؛ أيْ: أمامه، ثم يسألون رسول الله ﷺ أن يستغفر لهم.

﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾: (هذه هي المرحلة الثالثة)، عندها تقبل توبتهم، والاستغفار يكون قبل التوبة، أو يسبق التوبة.

﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾: أيْ: لتاب الله عليهم.

﴿تَوَّابًا﴾: صيغة مبالغة، كثير التوبة؛ أيْ: يقبل التوبة عن عباده بشكل مستمر ودائم، ومهما كانت ذنوبهم، أو عددها، أو عدد المستغفرين.

﴿رَّحِيمًا﴾: لا يعذبهم ويعفو عنهم، أو يعجل بهم العذاب.

وهذه الآية تشير لمن عاصر رسول الله ﷺ، فما بال الذين لم يعاصروه، والرسول ﷺ جاء للناس جميعاً، فقد قال رسول الله ﷺ: «تُعرَض عليَّ أعمالُكم فإن رأَيْتُ خيراً حمِدْتُ اللهَ عليه، وإن رأَيْتُ من شرٍّ استغفَرْتُ اللهَ لكم» [الراوي عبد الله بن مسعود، المحدث: الهيثمي، المصدر: مجمع الزوائد: ٩/ ٢٧].

إذن: فاستغفار رسول الله ﷺ لنا الآن موجود، ودائم، فما علينا إلا أن نستغفر الله دائماً، وكيف نفسر كلمة جاؤوك لمن جاء من بعد موته ﷺ؟

هؤلاء يجيئون لسُنَّتك، والعمل بها، فإنها تعادل المجيء إلى رسول الله ﷺ آنذاك، وما علينا إلا أن نتقبَّل ما جاء به نبيُّنا محمد ﷺ، ونتَّبع هداه آنذاك.

[٦٥] ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾:

سبب النزول: قيل: نزلت هذه الآية في خصومة الزبير مع رجل من الأنصار في قضية السقي (سقي أرضهما)، فحين اختلفا أتيا رسول الله ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِلزُّبَيْرِ: «اسْقِ يا زُبَيْرُ، ثُمَّ أَرْسِلِ المَاءَ إلى جَارِكَ»، فَغَضِبَ الأَنْصَارِيُّ، فَقَالَ: أَرَاكَ تُحابِي ابْنَ عَمَّتِكَ، فَتَلَوَّنَ وَجْهُ نَبِيِّ اللهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: «يا زُبَيْرُ اسْقِ، ثُمَّ احْبِسِ المَاءَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَى الجَدْرِ» [الحديث في صحيح البخاري ومسلم].

﴿ فَلَا ﴾: الفاء: استئنافية. لا:

١ - نافية لكلام سبق تقديره، ليس الأمر كما يزعمون من أنهم آمنوا بما أنزل إليك، وأنزل من قبلك.

٢ - للتوكيد (تقديره: وربك لا يؤمنون).

٣ - تقدم لا على القسم. ارجع إلى الآية (١) من سورة القيامة.

﴿وَرَبِّكَ ﴾: الواو: واو القسم، يقسم الحق سبحانه برب رسول الله ﷺ؛ أيْ: يقسم بربوبيته لرسوله، وهذا من أعظم أنواع القسم.

﴿لَا ﴾: نافية: مطلقة تشمل كل الأزمنة.

﴿يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾: لا يؤمنون إيماناً كاملاً

حقاً، حتىٰ: تعني انتهـــاء الغاية؛ أيْ: حتىٰ يحققوا ثلاثة أمور، (أو ثلاث صفات) هي:

١ - ﴿يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ (من نزاع، أو خلاف، أو التباس)، وشجر مأخوذة من التداخل، والاختلاط، كما يحدث للشجر من اختلاط، وتداخل.

٢ - ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾: أيْ: لا يشعرون بأي ضيق، أو شكوىٰ لقضائك؛ أيْ: حكمك؛ أيْ: يرضون الرضا التام، والقبول المطلق من دون إضمار في أنفسهم خلاف ذلك.

﴿حَرَجًا﴾: ضيقاً، والحرج: قد يعني الشك والريبة.

﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾: ويسـلموا: من التسـليم: وهو الانقياد، والإذعان، والرضـا بحكم الله، ورد الأمر إلىٰ الله؛ أي: من دون معارضة، أو لا مخالفة في باطنهم، وظاهرهم.

﴿تَسْلِيمًا﴾: توكيد للتسليم.

وهذا الحكم ليس مخصوصاً بخصوص السـبب، فالحكـم باق إلىٰ يوم القيامة.

❖ ❖ ❖

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن
دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ
بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن
لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾
وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم
مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ
أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ
بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ
فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ
فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ
شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن
لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ
فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ۞ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ
يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَاتِلْ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾

ثلاثة أرباع الحزب ٩

سورة النساء [الآيات ٦٦ - ٧٤]

[٦٦] ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾:

﴿وَلَوْ﴾: الواو: عاطفة. لو: حرف امتناع لامتناع؛ إذ امتنع القتل لامتناع الكتب.

﴿كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾: فرضنا عليهم؛ أيْ: على قريش.

﴿أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾: كما كتبنا على بني إسرائيل.

أن اقتلوا أنفسكم، كما حدث حين قال موسى لقومه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:٥٤].

أن: تفيد التوكيد.

﴿أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم﴾: كما فعلنا بقوم موسى يوم أخرجوا، وذهبوا إلى التيه؛ فكانت محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض.

كان هذان الحكمان قد سبقا في قوم موسى، فجاء الحق سبحانه بهما هنا؛ ليُذَكِّر قريش أنه سبحانه لو فرض عليهم كما فرض على بني إسرائيل القتل، أو الإخراج من الديار، (وهما من أصعب، أو أشق التكاليف الربانية، والتي تسمى إصراً).

﴿مَّا فَعَلُوهُ﴾: ما: نافية للاستقبال (في المستقبل).

﴿إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾: إلا: أداة استثناء وحصر، لو كتبنا عليهم ذلك لم يفعله إلا قلة منهم، وهذا من لطف الله بهم، لم نكلفهم بذلك.

فالإسلام لم يأتِ بمثل هذه الشرائع الثقيلة التي حدثت زمن موسىٰ، كما تبيِّن هذه الآية: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة:٢٨٦].

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾:

﴿وَلَوْ﴾: الواو: عاطفة. لو: شرطية.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾: من الأوامر، والنواهي، أو اتباع الرسول ﷺ، والانقياد إلىٰ حكمه؛ لأنه لا ينطق عن الهوىٰ، وهي تكاليف لا تضاهي تكاليف بني إسرائيل.

﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾: في دنياهم وآخرتهم.

﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾: أشد تثبيتاً للإنسان في قلوبهم وتصديقاً.

[٦٧] ﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾:

﴿وَإِذًا﴾: حرف جواب.

الأجر العظيم: هو الجنة للذين استشهدوا، والذين آمنوا وعملوا الصالحات واتبعوا الرسول ﷺ وما أنزل إليهم من ربهم.

[٦٨] ﴿ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾:

﴿ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ ﴾: الواو: عاطفة. لهديناهم: اللام: للتأكيد، والاستحقاق.

﴿صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾: هو الإسلام الموصل إلى الغاية العظمى.

﴿ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ ﴾: انتبه! هم هنا؛ تعني: الذين لم يقتلوا، وإنما الذين أخرجوا من ديارهم؛ لأنهم ما زالوا على قيد الحياة، فأما الذين استشهدوا؛ فقد آتيناهم أجراً عظيماً.

[٦٩] ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾:

سبب النزول: روى ابن عباس، وذكره الواحدي في أسباب النزول، نزلت هذه الآية عندما سأل بعض الصحابة الذي يحبون رسول الله ﷺ حباً شديداً؛ ومنهم: ثوبان كيف سيرون رسول الله ﷺ في الآخرة؟ فنزلت هذه الآية، والتي هي: بشرى لكل مؤمن يحب الله ورسوله.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾:

﴿وَمَن ﴾: الواو: استئنافية. من: شرطية.

﴿يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾: فطاعة الرسول من طاعة الله، وطاعتهما واحدة، والطاعة تعني: العمل بما أمر الله سبحانه به ورسوله، وترك ما نهى الله عنه ورسوله ﷺ.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ﴾: الفاء: رابطة لجواب الشرط تفيد التوكيد.

أولئك: اسم إشارة للبعد تحمل معنى التعظيم والعلو.

﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾: من: ابتدائية.

الذين أنعم الله عليهم: من النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين.

﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾: جمع نبي.

﴿وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾: جمع صديق أمثال: أبي بكر ﷺ وغيره، وتعني: الذين آمنوا بالله ورسوله، وصدقوا بكل ما جاء به الوحي، والذين يقولون الصدق والحق رضي الله عنهم.

﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾: جمع شهيد؛ وهم الذين قتلوا في سبيل الله.

﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾: جمع صالح؛ وهو المؤهل لحمل الخلافة الإيمانية في الأرض، والإصلاح في الأرض. ارجع إلى سورة البقرة، آية (١٣٠)؛ لمزيد من البيان.

﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾: ثناء من الله سبحانه على هؤلاء الأصناف الأربعة، وحسن يعني: الحسن على وجه الدوام، والاستمرار الذي لا ينقطع.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: اسم إشارة، واللام: للبعد تدل على علو مكانتهم وتعظيمهم.

والرفيق: هو المرافق المصاحب لك، خاصَّة في السفر؛ ومأخوذة من الرفق، وهو اليُسر والأنس، فهم رفقاء في الجنة يزور بعضهم بعضاً، وإن اختلفت درجاتهم.

[٧٠] ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴾:

﴿ ذَٰلِكَ ﴾: اسم إشارة، واللام للبعد. ذلك: أيْ: يكون المطيع لله، ورسوله مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، هو من فضل الله وليست حسناته هي السبب، وتفسير ذلك:

الحقيقة الأولىٰ: هم درجات عند ربهم.

والحقيقة الثانية: لا تزر وازرة وزر أخرىٰ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعىٰ.

ولكن الفضل الإلهي: الحسنة بعشرة أمثالها، والسيئة تبقىٰ بمثلها.

فالعدل الإلهي: الحسنة بمثلها، والسيئة بمثلها، والفضل الزيادة التي تعطىٰ إليك من الله سبحانه زيادة علىٰ حقك أو أجرك.

الحقيقة الثالثة: فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين، هذا من الكرم الإلهي؛ حين يضاعف الحسنة بـ(٧٠، أو ٧٠٠) ضعف، أو أكثر ضعفاً.

والعدل الإلهي: أن أعمالنا مهما كانت لا توصلنا إلىٰ الجنة، ولكن الفضل الإلهي هو الذي يوصلنا إلىٰ ذلك، وطاعة المؤمن لله ورسوله لا يقابلها ربنا بالعدل فقط، بل بالفضل والإحسان.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴾: فهو يعلم من يستحق أو لا يستحق فضله، وهو أعلم بمن اتقىٰ، عليماً بالمقاصد والنيات، وعليماً: صيغة مبالغة عالم، وعليم يعلم الأمر قبل أن يقع.

[٧١] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ﴾:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾: نداء جديد للسائرين على درب الإيمان بالحذر من العدو.

﴿خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾: ولم يقل: احذروا، والحذر: هو اليقظة، والحذر من العدو: هو توقي الضرر، سواء كان المحذور منه؛ أي: الضرر ظناً (مظنوناً)، أم متيقن حدوثه، القول خذوا حذركم: يدل على شدة الحذر وملازمته، وعدم النسيان والغفلة.

﴿فَٱنفِرُواْ﴾: الفاء: للترتيب، والتعقيب بعد الحذر.

والنفر: الفزع؛ أي: الخروج إلى قتال العدو، أو الجهاد بسرعة، وشجاعة، وحماس. والسؤال: لماذا قال: بينكم وبينه مودة، ولم يقل عداوة؟ لأن المخاطب في هذه الآية المؤمنين، وليس المتخلفين عن الجهاد، فلا يصح أو يصلح أن تكون بين المؤمنين عداوة في أي وقت، ولا يعلم ما في القلوب إلا الله وحده.

﴿ثُبَاتٍ﴾: متفرقين واحدها ثُبَةٌ؛ وهي الجماعة؛ أي: اخرجوا جماعة تلو جماعة، أو سَرية بعد سَرية.

﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا﴾: كل السرايا، أو الجيش كاملاً.

[٧٢] ﴿ وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا ﴾:

﴿وَإِنَّ﴾: الواو: استئنافية. إن: للتوكيد.

﴿مِنكُمْ﴾: أي: من المنافقين، أو المسلمين من هو ضعيف الإيمان، أو منافق، أو لا يقدر على الخروج.

﴿لَمَن﴾: اللام: لام الاختصاص.

﴿لَيُبَطِّئَنَّ﴾: اللام: للتوكيد، يبطئن: من أبطأ؛ أيْ: يتأخر، ويتخاذل، يتثاقل لا يريد الخروج للجهاد في سبيل الله هو نفسه، أو يبطئن غيره، أو كلاهما.

﴿فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾:

﴿فَإِنْ﴾: الفاء: للتفصيل. إن: شرطية تحمل معنى الاحتمال.

﴿مُّصِيبَةٌ﴾: من قتل، أو هزيمة، أو جراحات يقول لنفسه، أو يحدث نفسه.

﴿قَدْ﴾: للتحقيق، والتوكيد.

﴿قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ﴾: بالقعود.

﴿إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾: أيْ: حاضراً معهم في تلك الغزوة، وشهيداً: لا يعني موت الشهادة في سبيل الله؛ لأنه لم يخرج في سبيل الله تعالى ليقاتل ونيته صادقة، إنما حاضراً معهم كما قلنا.

[٧٣] ﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾:

﴿وَلَئِنْ﴾: الواو: عاطفة، اللام: للتوكيد. إن: شرطية تفيد الاحتمال.

﴿أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ﴾: فتح، أو نصر، أو غنيمة.

﴿لَيَقُولَنَّ﴾: اللام: لام التوكيد، والنون في يقولَنَّ: لزيادة التوكيد.

﴿كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾:

يتمنى المنافق إذا انتصر المؤمنون لو كان معهم في القتال، ويأسف لتخلفه عنهم لا لمودة حقيقية؛ أي: حب حقيقي دائم للجهاد، والخروج في سبيل الله، وأنه تخلف هذه المرة، بل لمجرد حرمانه من حظه من الغنيمة.

﴿فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾: الفوز: هو الخلاص من المكروه، وقيل: المرغوب؛ أي: النجاة من النار، ونيل الجنة.

والفوز: أعم من النجاة (النجاة الخلاص من المكروه فقط).

والفوز في القرآن ثلاثة أنوع، أو درجات:

١ - الفوز العظيم: وهو أعلى درجات الفوز (الدرجة الأولى).

٢ - الفوز الكبير: وهو درجة أقل من الفوز العظيم (الدرجة الثانية).

٣ - الفوز المبين: الدرجة الثالثة.

وقد ورد الفوز الكبير في آية واحدة (سورة البروج آية:١١)، والفوز المبين في آيتين (سورة الأنعام آية:١٦، وسورة الجاثية آية:١٣٠)، وجاء الفوز العظيم في بقية الآيات.

٧٤ - ﴿۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾:

﴿۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: الفاء: استئنافية؛ ليقاتل: اللام: لام الأمر والتوكيد؛ يقاتل في سبيل الله (الجهاد أعم وأوسع من القتال)، فالجهاد له أكثر

من (١٣) مرتبة؛ منها واحدة تتعلق بقتال الكفار والمشركين؛ ارجع إلىٰ سورة العنكبوت آية (٦) لمزيد في معنىٰ الجهاد.

﴿ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ﴾: شرىٰ في القرآن تعني: باع، ويشتري تعني: الشراء الحقيقي يدفع الثمن مقابل السلعة.

﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾: أي: يبيعون الدنيا ليفوزوا بالآخرة، والباء: تدخل علىٰ الأهم.

﴿وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: من: شرطية، وتشمل المفرد والمثنىٰ والجمع؛ في سبيل الله: أي: مخلصاً لوجه الله، وطلب الآخرة.

﴿فَيُقْتَلْ﴾:: أي: يستشهد في سبيل الله.

﴿أَوْ يَغْلِبْ﴾: أي: ينتصر علىٰ العدو، أو بمعنىٰ التقسيم وليس التسوية.

﴿فَسَوْفَ﴾: الفاء: للتأكيد؛ سوف: للاستقبال البعيد، وأما السين: للاستقبال القريب.

﴿نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾: نؤتيه: من الإيتاء؛ أي: العطاء، والإيتاء: أعم من العطاء؛ ارجع إلىٰ سورة البقرة آية (٢٥١) لمعرفة الفرق بينهما؛ أجراً عظيماً: هو النجاة من النار، والفوز بالجنة؛ ونؤتيه: للتعظيم والوعد الصدق.

❖ ❖ ❖

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ
وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ
ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ
نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ
ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ
وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ
مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ
كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا
قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا
تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ
حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟
هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ
يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن
سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾

سورة النساء [الآيات ٧٥ - ٧٩]

[٧٥] ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾:

﴿وَمَا لَكُمْ﴾: الواو: عاطفة. ما: اسم استفهام إنكاري ينكر عليهم قعودهم عن الجهاد، ويحثهم عليه؛ لإنقاذ المستضعفين من الرجال، والولدان، والنساء من الكفر.

﴿لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: لا: النافية لنفي الأعذار على عدم القتال في سبيل الله، وإعلاء كلمة الله، وإنقاذ المستضعفين.

﴿مِنَ﴾: ابتدائية بعضية؛ تعني: بعض الرجال.

﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ﴾: الذين يعذَّبون من أجل دِينهم، ويُمنعُون من الهجرة، والحركة.

ولماذا وصفهم بالرجال المستضعفين، وقال: من الرجال؛ أيْ: بعض الرجال، وليس كل الرجال، والرجال مفروض فيهم القوة، ولكن وصفهم بالضعف؛ لأنهم في ظرف خاص (كونهم محاصرين، وقلة، وفقراء، ولا يسمح لهم بالهجرة)، أو الشيوخ.

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾: أيْ: يجأرون بالدعاء: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ

﴿أَهْلُهَا﴾: أيْ: لكونهم عاجزين عن الهجرة، وفقدوا الناصر والمعين، والذين يقولون من شدة العذاب والحصار: ربنا أخرجنا من هذه القرية (أيْ: مكة).

﴿ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾: أي: التي أشرك أهلها وظلموا العباد.

﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾: اجعل لنا من يتولىٰ أمورنا، ويقدم لنا المساعدة المادية والمعنوية، واجعل لنا من لدنك نصيراً؛ يحمينا وينصرنا علىٰ هؤلاء المشركين، وتكرار: ﴿وَٱجْعَل لَّنَا﴾: للتوكيد، وفصل الولاية عن النصرة، أو كليهما معاً.

وهذه الآية تشير إلىٰ وجوب تخليص الأسرىٰ من المؤمنين بالقتال، أو الفدية؛ أي: الفداء، والدفاع عنهم ونصرتهم.

[٧٦] ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾:

يخبر الله سبحانه المؤمنين: أن يستمروا في القتال في سبيل الله وحده، والله سبحانه سيبقىٰ وليهم وناصراً لهم، وأعداؤهم يقاتلون في سبيل الطاغوت (الشيطان، أو غيره من الجن والإنس الكفرة الظلمة في الأرض).

والطاغوت: كل ما عبد من دون الله، ويطلق علىٰ كل من دعا إلىٰ غير عبادة الله؛ كالشيطان، أو غيره من الجن والإنس؛ من الكفرة الظلمة المستكبرين في الأرض.

﴿فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾: تشمل قتال طاغوت الطائفة، والأحزاب، والباطل، أو الإفساد في الأرض، وتدمير البيوت، وترويع الأولاد والنساء. ارجع إلىٰ الآية (٢٥٧) من سورة البقرة؛ للبيان.

﴿فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾: أولياء: أتباع، وأعوان، وأنصار الشيطان، أولياء:

جمع ولـــي، والولي: هو الذي يليـــك أول ما تلجأ إليه عند الفزع؛ للمســـاعدة، والعون.

﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾:

﴿إِنَّ﴾: للتوكيد. والكيد: هو إيقاع المكروه، أو المشقة بالغير قهراً، سواء أعلم، أم لم يعلم، والكيد: أقوىٰ وأشـــد من المكر، وكيد الشيطان: يتم من خلال وساوسه، وتزيينه، وإغوائه.

وكيد الشـــيطان للمؤمنين مقارنة بكيد اللـــه للكافرين ضعيف، ولا يقارن، والشـــيطان نفســـه يقول يـــوم القيامـــة: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم:٢٢].

[٧٧] ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾:

﴿أَلَمْ تَرَ﴾: الهمزة: استفهام تعجبي.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾: أيْ: ألـــم تعلم وتنظر في أمر الذين قيل لهم: كفوا أيديكم، وهم جماعة من الصحابة كانوا من مكة، وفي بداية الإســـلام، والرؤية هنا: رؤية قلبية، فكرية.

﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾: أيْ: لا تقاتلوا، وكانوا يودون القتال في سبيل الله، وإعلاء كلمته، ولكنهم كانوا قلـــة وضعفاء، فأمرهم الله تعالىٰ بعـــدم القتال، والالتزام بالعبادات.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾: أدّوا الصلاة بأركانها وخشـــوعها، والزكاة؛

أي: انشغلوا بإقامة شعائر الدِّين أولاً، وتعلموا دِينكم والتزموا بالسلم، وعدم الحرب.

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾: الفاء: للتعقيب، والمباشرة، ولما: ظرفية زمانية (أيْ: بعد الهجرة إلى المدينة)، و﴿كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾: أيْ: فرض عليهم الجهاد، وكان ذلك في السنة الثانية من الهجرة.

﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾:

﴿إِذَا﴾: الفجائية.

﴿فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾: من: هنا ابتدائية (منهم: من المسلمين ضعاف الإيمان، والمنافقين). هذا يدلنا على أنهم كانوا فريقين: فريقاً يريد الجهاد في سبيل الله، وفريق أصابهم لخوف، والخور، والضعف. وقيل: هذا الفريق هو فريق المنافقين، أو ضعاف الإيمان، أو كلاهما.

﴿يَخْشَوْنَ النَّاسَ﴾: يخشون الكفار، والمشركين، ويعظمونهم، ويخافونهم (كفار مكة)، والخشية مركبة من ثلاث أمور: الخوف + التعظيم لمن تخشاه + العلم بالذي تخشاه؛ فهو ليس مجهول، أو ظني.

﴿كَخَشْيَةِ اللَّهِ﴾: الكاف: للتشبيه، (يخشون الكفار، ويخافونهم كما يخشون الله ويخافونه).

﴿أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾: أيْ: يخشون الناس أكثر مما يخشون الله، وهذا يدل على شركهم، وضعف إيمانهم.

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾:

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ﴾: اللام: حرف جر، وما: الاستفهامية التعجبية.

﴿كَتَبْتَ﴾: فرضت علينا القتال، أو ابتليتنا بالقتال.

﴿لَوْلَآ﴾: للطلب، والتمني.

﴿أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾: أيْ: زد في مدة الكف عن القتال، وأخِّر القتال عنا الآن.

لماذا طلبوا التمديد؟ لكي يعيشوا فترة أطول، ويستمتعوا بالحياة الدنيا، ويموتوا موت البعير، ولا يلقوا عدواً (خوراً، وخوفاً).

فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾: قل لهم يا محمد ﷺ: ﴿مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾: غير دائم، وزائل، وقيل: مهما كثر مقارنة بنعيم الآخرة.

والمتاع تعريفه: ارجع إلى الآية (١٩٧) من سورة آل عمران؛ للبيان.

﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾: الجنة خير. لمن: اللام: لام الاختصاص، والتوكيد. من: بمعنى الذي.

﴿ٱتَّقَىٰ﴾: أطاع الله سبحانه فيما أمر به ونهى عنه، خيرٌ من متاع الدنيا.

﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾: ولا: النافية، لا بنقص حسنة، ولا زيادة سيئة.

﴿فَتِيلًا﴾: الفتيل: هو الخيط في شق نواة التمرة.

هذه الآية تشمل زمنين:

الزمن الأول: الزمن المكي: (بداية الإسلام)؛ حيث أمر الله عزَّ وجلَّ الصحابة بالتزام السلم، وعدم القتال، حيث أراد بعض الصحابة القتال، فجاء الأمر الإلهي بالرفض.

الزمن الثاني: الزمن المدني بعد الهجرة إلى المدينة، وحين حان الزمن للتصدي للمشركين والكفار جاء الأمر الإلهي بالإذن لهم بالجهاد.

[٧٨] ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾:

﴿أَيْنَمَا﴾: مركبة من أين + ما، وأين: ظرف مكان مبهم، وإضافة ما: لتزيدها إبهاماً، وغموضاً، وشمولاً.

وأينما: أكثر إبهاماً، وغموضاً، وشمولاً من حيثما.

﴿تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ﴾: يدرككم الموت: يلحق بكم الموت؛ أيْ: كأن الموت يركض وراءكم ليدرككم، ومتى أدرككم الموت سلبت أرواحكم، وانتهى أجلكم.

﴿وَلَوْ﴾: شرطية.

﴿كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾: البروج: جمع برج، وقيل: هو الحصن، أو القلعة.

﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ﴾: ليس برجاً واحداً، بل عدد كبير من البروج، وكل برج داخل برج، حصن داخل حصن.

مشيدة: تم بناؤها بإحكام؛ أيْ: لو كنتم في بروج مشيدة تتوارون عن الموت، فالموت لا بُدَّ أن يخترق كل تلك البروج، ويصل إليكم، ولو كان عن طريق جرثومة، أو فيروس، أو بعوضة، وبسبب أو بلا سبب سيصل إليكم، فلِمَ الخوف من الجهاد في سبيل الله، والموت في سبيله بدلاً من الموت، كما يموت البعير.

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾:

﴿وَإِن﴾: الواو: استئنافية. إن: شرطية فيها معنىٰ الاحتمال.

﴿تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ﴾: أيْ: تصيب المنافقين، أو ضعاف الإيمان، أو غيرهم من اليهود.

الحسنة: النعمة، والحسنة؛ أيْ: غنيمة، أو خير، أو خصب، أو رزق.

والحسنة لغوياً: هي كل ما يسر النفس، ويستحسنه الإنسان. وشرعاً: الحسنة هي كل عمل من قول، أو فعل خير يورث ثواباً.

﴿يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ﴾: اسم إشارة للقريب، هذه الحسنة من عند الله، وليس من عندك يا محمد، لا يريدون أن ينسبوا إلىٰ رسول الله شيئاً من خير، أو بركة، أو فضل.

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾:

﴿تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾: من فقر، وهزيمة، أو مرض، أو بلاء، يقولوا: هذه المصيبة، أو السيئة.

﴿هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾: من عندك يا محمد ﷺ، فهم ينسبون ذلك إلىٰ محمد، أو أنت السبب، أما الحسنة، أو الخير فينسبونه إلىٰ الله تعالىٰ، وكل هذا بسبب التطيُّر والتشاؤم، واتهام رسول الله ﷺ بما يلحق بهم من شر، وهو بريء من ذلك؛ حتىٰ يفرِّقوا بين الله ورسوله ﷺ. والسيئة هنا لا تعني المعصية أو الإثم أو الذنب، وإنما المصيبة، وكما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾؛ إذن ما يصيب الإنسان من السوء أو الشر بسبب ذنوبه أو تقصير منه أو هو ابتلاء من الله تعالىٰ فما عليه إلا الصبر.

﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾:

﴿قُلْ﴾: لهم يا محمد ﷺ.

﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾: الحسنة، أو السيئة التي تصبكم كل من عند الله، وما يحدث من حسنة، أو سيئة هو بقضاء الله وقدره، وكل ما يصيب المؤمن من حسنة، أو سيئة هو خير، وهو ابتلاء من عند الله تعالىٰ أيصبر، أم يشكر.

﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾:

فما: الفاء: استئنافية، ما: اسم استفهام يراد به التعجب من فرط جهلهم.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾: الهاء: للتنبيه؛ تنبيه المستمع، أو الهاء: اسم إشارة.

﴿ٱلْقَوْمِ﴾: كفار مكة؛ أي: المشركون.

﴿لَا﴾: النافية المطلقة.

﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾: أيْ: ماذا أصاب هؤلاء القوم في عقولهم، فهم لا يكادون يفقهون حقيقة ما يقال لهم من حديث، أو كلام، أو قرآن.

لا يفقهون حديثاً: الفقه في اللغة: الفهم، والفقه اصطلاحاً أو في الشريعة: هو معرفة الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية، مثل العلم بأفعال المكلفين، وتشمل التحليل والتحريم والإباحة والصحة والفساد والإطلاق والنهي والإيجاب وغيرها، والقول لا يكاد يفقه حديثاً هو أسوأ من القول إنه لا يفهم، ولا هو قريب من الفهم.

والحديث قد يعني القرآن، فهم لا يفقهون معانيه، وآياته، ولا هم قريبون من فهمه، أو الأحكام الشرعية أو ليس عندهم أي علم.

[٧٩] ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾:

﴿مَّآ﴾: نكرة لغير العاقل وشرطية.

﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾:

أولاً: قال: ما أصابك، ولم يقل: ما أصبت.

﴿مَآ أَصَابَكَ﴾: أيْ: ما يأتي به الله لك من الابتلاء بالحسنات، ويوفقك على فعله، والصبر عليه، وشكره كله من فضل الله تعالى. ارجع إلى الآية السابقة (٧٨)؛ لمعرفة معنى الحسنة.

وما أصابك من الابتلاء بالسيئات: فهو من عند الله تعالى، وكذلك بسبب ما قدَّمت يداك، وهو كذلك خير إن صبرت واحتسبت لله، وتكرار ما أصابك مرتين للفصل بين الإصابة بالحسنات، والإصابة بالسيئات، أو كلاهما معاً.

فما يصيبنا من سيئة: قحط، أو مرض، أو مكروه، أو فقر، أو ألم، أو هزيمة؛ فذلك بما قدَّمت أيدينا، وهو بإذن من الله، وهو قضاء وقدر؛ ليرفع به درجاتنا في الآخرة، ويمحو عنا سيئاتنا، أو هو ابتلاء، واختبار؛ لرفع الدرجات.

﴿وَأَرْسَلْنَاكَ﴾: يا محمد للناس: اللام: لام الاختصاص.

﴿رَسُولًا﴾: أيْ: لتبلغهم رسالات ربك، وبشيراً، ونذيراً لهم.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾: يكفي بالله: الباء: للإلصاق والتوكيد؛ أن يكون شهيداً لك بأنك رسوله، وأن ما يصبهم من سيئة لست لك بها دخل، ولست أنت السبب، كما يظن بعضهم ظناً باطلاً، ولمعرفة معنى (شهيداً): ارجع إلى سورة البقرة، آية (١٣٣).

❖ ❖ ❖

مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ
عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٞۖ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ
عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ
مَا يُبَيِّتُونَۖ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا
﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ
فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ
أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي
ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ
ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٣﴾
فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ
عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا
وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ
نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً سَيِّئَةٗ يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ
وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ
بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾

سورة النساء [الآيات ٨٠ - ٨٦]

[٨٠] ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾:

﴿مَّن﴾: شرطية.

﴿يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾: لأنه ﷺ لا يأمر إلا بما أمر الله به، ولا ينهى إلا عما نهى الله عنه، والله سبحانه هو الآمر والناهي، والرسول ﷺ هو المبلغ عما أرسله به، فطاعة الرسول ﷺ هي امتثال لطاعة الله.

وقد: للتحقيق، والتوكيد، قد أطاع الله.

﴿وَمَن تَوَلَّىٰ﴾: ومن: شرطية؛ تولى؛ أي: ترك وابتعد، والتولي: أشد من الإعراض؛ أي: ورفض طاعة الرسول ﷺ، فدعه وأعرض عنه، ولا يهمُّك أمره.

﴿فَمَآ﴾: الفاء: رابطة لجواب الشرط، وما: النافية.

﴿أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾: فما أرسلناك لتحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها؛ إن أنت إلا نذير.

﴿حَفِيظًا﴾: تعني كذلك: وما أرسلناك لتمنعهم، وتعصمهم من التولِّي، ومن مكائد الشيطان، أو تصرف عنهم وتحفظهم من المكاره والشدائد، فلا يهلكوا.

[٨١] ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِى تَقُولُ ۖ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾:

﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ ﴾: أيْ: إذا كانوا عندك يقول المنافقون: سمعاً وطاعة، أو أمرك مطاع.

﴿ وَيَقُولُونَ ﴾: بصيغة المضارع؛ للدلالة على التجدد والتكرار، وحكاية الحال بدلاً من قالوا.

﴿فَإِذَا﴾: الفاء: للتعقيب والمباشـــرة؛ أيْ: مجرد خروجهم من عندك. إذا ظرفية زمانية تعني: وحين يخرجون.

﴿بَرَزُوا﴾: خرجوا من عندك، ويقال للمقاتل: برز للقتال؛ أيْ: خرج.

﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِى تَقُولُ﴾: الطائفة: جماعة من الناس تطوف على حول عقيدة، أو آراء حقَّة، أو باطلة.

قـــال: بيَّت بدل من بيتت طائفة، ذكر الفعل، ولـــم يؤنثه، ويجوز تذكير، أو تأنيث الفعل من الناحية اللغوية، وأما من الناحية البيانية: فالتذكير يدل على القلة؛ أي: الطائفة التي بيتت هي عدد قليل. وبيت: قيل مشتق من البيت، والبيتوتة ليلاً، ويعني: الاســـتخفاء عن أعين الناس. إذن بيت جمعـــت معنيين: هم قلة، وقاموا بذلك ليلاً.

قامـــوا بالتدبير ليلاً؛ أيْ: غيـــروا، وبدلوا ليلاً، وتشـــاوروا على العصيان، وغيروا الذي قالوه لك.

﴿طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾: من المنافقين الذين قالوا آمنا بأفواههم، ولم تؤمن قلوبهم؛ ليأمنوا على دمائهم وأموالهم، والمنافقون طائفتان: قسم بيت، وقسم لم يُبيت.

﴿وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾: والله يعلم ما يبيتون، ويتآمرون عليه، ويأمر حفظته الموكلين بالعباد بكتابة ما يقولون، وفي هذا تهديد ووعيد لهم بما يسرونه، ويتفقون عليه بالخفاء؛ لمخالفة الرسول ﷺ وعصيانه.

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾: دعهم وشأنهم، والإعراض يعني: ابتعد عنهم واتركهم، وهذا الإعراض ليس فيه معنى السوء.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾: فوِّض أمرك إلى الله؛ أي: اطلب منه العون، والنصر بعد أن اتخذت الأسباب؛ أي: أسباب الحيطة والحذر.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾: التوكل: يعني: رد الأمر إلى الله فهو حسبك، يكفيك مما يبيِّتونه من المنكر والشر، ولا تحتاج إلى أحد غيره سبحانه القوي العزيز. ارجع إلى سورة الأعراف، آية (٨٩)؛ لمزيد من البيان عن التوكل.

[٨٢] ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾:

﴿أَفَلَا﴾: الهمزة: همزة استفهام، وإنكار.

﴿يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾: يتدبرون من التدبر، وهو طول النظر في عاقبة الأمر، أو الأمور، والتدبر: هو التدبر العقلي والقلبي والفهم، والتفكر، والتأمل في المعاني، والآيات. ارجع إلى سورة محمد آية (٢٤) للمزيد من البيان ومعرفة الفرق بين يتدبرون ويدبروا.

﴿وَلَوْ﴾: لو: شرطية.

﴿كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ﴾: أيْ: لو افترضوا على سبيل الشك أن القرآن كان من عند غير الله سبحانه؛ لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً؛ أيْ: فيه الكثير من التناقض، والاختلاف، والشبهات في آياته، ونظمه، وأخباره، وعجزه.

وقد يظن القارئ، أو المستمع لهذه الآية الظن الباطل: أن في القرآن اختلافاً قليلاً مقارنة فيما إذا كان من عند غير الله تعالى؛ لوجد ما فيه اختلافاً كثيراً، والجواب على التساؤل: لا أصلاً، ولا حتى افتراضاً أن يكون هناك قرآن غير القرآن المنزل على محمد ﷺ.

ولا أصلاً، ولا حتى افتراضاً أن يكون في القرآن الكريم اختلافاً كثيراً، ولا حتى قليلاً، أو يسيراً.

[٨٣] ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾:

سبب النزول: كان المنافقون، وضعاف الإيمان في زمن رسول الله ﷺ إذا جاءهم خبر، أو نبأ أن النبي ﷺ سيخرج في سرية إلى مكان كذا، أو في زمن كذا، أو هناك من يريد أن ينظم إلى حلف النبي ﷺ، أو يأتيهم خبر صادق، أو كذب؛ كهزيمة، أو قتل أحد المسلمين، أو حتى ما يتعلق بما يحدث في بيت النبي ﷺ من شائعات يسارع هؤلاء الناس إلى إفشاء الخبر، وإشاعته من دون التريث، والصبر، والاطلاع على حقيقة الأمر، وترك الأمر إلى الرسول ﷺ، وأولي الأمر حتى يدرسوه، وينظروا فيه، ويتخذوا القرار الإعلامي المناسب الذي يحفظ

أسرار المؤمنين ووحدتهم، ويتجنب بذلك تسرب أخبار المسلمين إلىٰ أعدائهم، فنزلت هذه الآية تبيِّن لهم السبيل الأفضل لاتخاذ القرار.

﴿ وَإِذَا﴾: ظرف للزمان فيه معنىٰ حتمية الحدوث وكثرته.

جاءهم أي: المنافقون أو ضعاف المسلمين أو غيرهم.

﴿جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ﴾: خبر يتعلَّق بالأمن؛ الأمن يعني: الاستقرار والطمأنينة مثل خروج النبي والصحابة إلىٰ غزوة ما، ومكان كذا، أو أمر يعزم عليه النبي ﷺ، أو بنتيجة الغزوة، أو المعركة من نصر وغنيمة، وفتح، وما حدث من نكبة، وهزيمة، وجراح، أو أيُّ شيءٍ غيره.

﴿أَذَاعُواْ بِهِۦ﴾: أيْ: أفشوه، وأعلموا به الناس.

﴿وَلَوۡ رَدُّوهُ﴾: أيْ: ارجعوا الخبر إلىٰ الرسول، وأولي الأمر منهم، وانتظروا ولم يذيعوا الخبر حتىٰ يُعرض علىٰ الرسول، وأولياء الأمر منهم، والسلطة، ويدرسوه.

﴿إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ﴾: أيْ: لنظروا في الخبر ودرسوه، وعرفوا سرَّه، وما يترتب عليه؛ فإن كانت هناك فائدة في إذاعته قاموا بذلك، وإن كان ضاراً بهم وبمصلحتهم أخفوه، ولم يذيعوه.

﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾: اللام: لام الابتداء، وتفيد التوكيد، والاستنباط: من النبط؛ وهو ظهور الشيء بعد خفائه، وقيل: النبط هو الماء الذي يخرج من البئر أول ما تحفره. وقيل: الاستنباط: الاستخراج؛ أيْ: ما يستخرجه أولو الأمر والقادة للجيش والسرايا بفضل علمهم وتفكيرهم في الأمر، وخبرتهم،

والوصول إلى إصدار الحكم بإذاعة الخبر أم لا، حسب ما تقتضيه المصلحة العامة، والمفوض إليهم الأمر لكي يستنبطونه، وليس لكل فرد الحق في الإدلاء بدلوه.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾:

﴿وَلَوْلَا﴾: حرف امتناع لوجود شرط.

﴿فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾: وهو إرسال الرسول ﷺ، وأن هداكم للهدى، وهو الإسلام والإيمان.

﴿وَرَحْمَتُهُۥ﴾: القرآن: جاءت رحمته وفضله بصيغة النكرة؛ لتشمل كل فضل ورحمة؛ لأن رحمته لا تُعد، ولا تحصى.

﴿لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾: اللام: لام التوكيد؛ أي: اتبعتم الشيطان:

١ - في قبول تلك الإشاعات، ونشر الفساد والكذب.

٢ - وفيما يأمركم به من الفواحش إلا قليلاً منكم.

٣ - ولضللتم إلا قليلاً منكم.

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾: إلا: أداة استثناء، منكم: من ذوي العقول النيرة، وأولي الألباب الذين لم يذيعوا، ولم يفشوا تلك الأخبار، أو الأسرار، ولم يتبعوا الشيطان، ولم يضلوا بفضل الله ورحمته، ولم يتأثروا بالإشاعات، والدعايات الكاذبة.

[٨٤] ﴿فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾:

﴿فَقَٰتِلْ﴾: الفاء: للتوكيد، أو فاء السببية ما قبلها سبب ما بعدها:

١ - قيل: نزلت لما دعا رسول الله ﷺ الناس للخروج إلىٰ أبي سفيان إلىٰ بدر الصغرىٰ بعد غزوة أُحُدٍ، كما روىٰ ابن عباس.

٢ - أو متصلة بقوله سبحانه: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: فقاتل في سبيل الله.

٣ - أو: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾: فقاتل في سبيل الله.

﴿فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾: أيْ: لا يكلفك ربك إلا نفسك وحدها؛ فلا تهتم بتخلفهم عنك، وقاتل ولو وحدك، وابتغاء وجه الله وحده.

﴿إِلَّا نَفْسَكَ﴾: أداة حصر، وقصر.

﴿وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: أيْ: حثهم علىٰ الجهاد، ورغبهم في الثواب.

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾:

﴿عَسَى ٱللَّهُ﴾: فعل لرجاء حصول الفعل في المستقبل.

﴿أَن﴾: للدلالة علىٰ الاستقبال.

﴿يَكُفَّ﴾: يمنع أو يصد.

﴿بَأْسَ﴾: البأس هو: الشدة، والقوة في الحرب والمكيدة، ويطلق على العدة والسلاح أيضاً.

أن يكف بأس قتال الذين كفروا وشرهم وكيدهم.

﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾:

﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا﴾: قوة من قريش.

﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾: أشد عقوبة وعذاباً؛ ليكونوا عبرة لغيرهم.

والتنكيل: التعذيب بالنكل، وهو القيد، ثم استعمل في كل تعذيب، وجمعه أنكال.

[٨٥] ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾:

﴿مَّن﴾: شرطية للعاقل:

﴿يَشْفَعْ شَفَاعَةً﴾: الشفاعة: هي التوسط بالقول، أو الفعل (شفاعة إنسان لإنسان) في الوصول إلى منفعة دنيوية، أو أُخروية، أو إلى الخلاص من مضرة ومن دون أجر، أو عوض على القيام بالشفاعة، وسُمِّيَت شفاعة؛ لأن الشفيع يصير مع المشفوع له شفعاً؛ أيْ: زوجاً.

﴿شَفَاعَةً حَسَنَةً﴾: الوساطة في الخير، والإصلاح، والدعاء له، والحسنة: كل ما يسرُّ النفس، أو تستحسنه النفس. ارجع إلى الآية السابقة (٧٨)؛ لمزيد من البيان.

﴿يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾: يكون للشافع نصيبٌ (قسطٌ)، أو حظٌّ جيدٌ من الأجر والثواب.

﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾:

شفاعة سيئة وساطة في فعل الشر أو بأن يؤيد باطلاً، أو يترك معروفاً، أو تكن في معصية الله، أو ظلم وجور، أو الوقوع في حدٍّ من حدود الله.

﴿يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾: أيْ: أن يكون للشافع شفاعة سيئة كفلاً منها؛ أيْ: يكن له جزءٌ من جزء المشفع له على شفاعته السيئة.

ما هو الفرق بين النصيب والكفل؟

النصيب: هو الحظ الجيد من الأجر، ويستعمل النصيب مع الشفاعة الحسنة للترغيب، وهو يضاعف، بينما الكفل: لا يزيد، ولا ينقص، وإنما هو مساوٍ لها، والشفاعة الحسنة لا تكفيك للوصول إلى الغاية، فلا بُدَّ من القيام بنفسك بالأعمال الصالحة الأخرى بالإضافة إلى تلك الشفاعة الحسنة.

وهناك أنصبة (جمع نصيب) في العبادات القلبية، واللسانية، والبدنية، فكل عبادة تعطيك نصيب من الأجر.

الكفل: أكثر ما يستعمل في الشر، وقد يستعمل في الخير؛ كقوله: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الحديد:٢٨]، فإذا استعمل في الشر: كفل الشيء؛ أيْ: مثله تماماً، لا يزيد ولا ينقص، وجزاء السيئة سيئة مثلها، ولا نقول بعشر أمثالها مثلاً.

وهذه الشفاعة السيئة وحدها تكفي، وتكفل للشافع دخول جهنم، ولا يحتاج إلى شيء آخر، وهذا هو الفرق.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتًا﴾: كان تشمل كل الأزمنة، مقيتاً: مشتقة من قاته؛ أعطاه القوت، وهو الطعـــام، ولماذا أعطاه القوت؟ لكي يحافظ على حياته، إذن الله سبحانه يعطيهم ما يحفظ لهم حياتهم (فهو الحفيظ).

وإذا كان يعطي القوت؛ فهو (الرزاق)، والمطعم لمخلوقاته جميعاً.

إذن: مقيتاً قد تعني: الرزاق، والحفيظ.

[٨٦] ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا﴾:

﴿وَإِذَا﴾: الواو: استئنافية. إذا: شرطية تدل على حتمية الحدوث وبكثرة.

﴿حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ﴾: التحية: السلام؛ كأن يقول أحد لكم: السلام عليكم.

﴿فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ﴾: بأن تقولوا: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

﴿أَوۡ رُدُّوهَآ﴾: نفســـها؛ كأن تقولـــوا مثل الذي قال لكم: الســـلام عليكم، وعليكم السلام.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا﴾:

﴿إِنَّ﴾: للتوكيد.

﴿كُلِّ﴾: تشمل كل الأزمنة: الماضي، والحاضر، والمستقبل.

الحســـيب: الكافي للعباد، كان، ولا يزال، وسيظل من الأزل إلى أبد الأبد حســـيباً، الذي يحاســـب عباده على أعمالهم؛ أيْ: يجازيهم عليها، وهو ســـريع الحساب.

ولنعلم: أن ابتداء السلام (التحية) سنة؛ لقوله ﷺ: «أفشوا السلام بينكم» رواه مسلم، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، عن أبي هريرة.

وردُّ السلام فرض عين، ومنهم من قال: فرض كفاية بناءً على هذه الآية: وإذا حييتم بتحية...

❖ ❖ ❖

ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ
وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ
فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ
أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ
تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ
حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ
حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾
إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ
حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ
ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ
وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾
سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ ۖ كُلَّ
مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ
ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ
ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾

سورة النساء [الآيات ٨٧ - ٩١]

[٨٧] ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: ارجع إلىٰ سورة البقرة، آية (٢٥٥).

﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾: اللام: لام التوكيد، والنون في يجمعنَّكم للتوكيد.

الجمع: يجمع الأولين والآخرين، والجمع: في مكان واحد.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: إلىٰ: حرف غاية، تستعمل لعموم الغايات؛ أيْ: لكل الأوقات بدء الوقت، منتصفه، آخره.

﴿يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: سُمِّيَ بيوم القيامة لقيام الناس لرب العالمين، ولما يقوم فيه من أمور عظام، والتأنيث للمبالغة، مصدر قام.

﴿لَا رَيْبَ﴾: لا: النافية للجنس، الريب: الشك زائد التهمة.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: لا شك فيه، ولا اتهام.

﴿وَمَنْ﴾: الواو: استئنافية. من: ابتدائية استفهامية.

﴿أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾: الحديث: يعني هناك محدث ومستمع وجهاً لوجه (متكلم وسامع).

والحديث قد يعني الأخبار كما هو الحال هنا، فالله سبحانه يخبر عما سيحدث للناس يوم الجمع.

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾: الجواب محذوف، تقديره: لا أحد أصدق من الله سبحانه حديثاً، أما الفرق بين قوله: ومن أصدق من الله قيلاً، وقوله تعالىٰ: ومن أصدق من الله حديثاً الآية (١٢٢) من نفس السورة.

١ - فقد تقول شيئاً، ولا يوجد مستمع، أو يوجد مستمع، ولا يشترط عليه الإجابة، بينما الحديث هناك محدث ومستمع.

٢ - والقول أوسع وأعم من الحديث، والحديث أكثر من خبر واحد.

[٨٨] ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾:

سبب النزول: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ﴾: روىٰ الشيخان وغيرهما عن زيد بن ثابت ﷺ: أن رسول الله ﷺ خرج إلىٰ أُحُدٍ، فرجع ناس من المنافقين، خرجوا معه، فانقسم أصحاب رسول الله ﷺ إلىٰ فئتين: فئة تقول: نقاتلهم، وفرقة تقول: لا، فأنزل الله: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾.

وقيل: إنها نزلت في قوم أظهروا الإسلام، وكانوا يُعينون المشركين علىٰ المسلمين، فاختلف المسلمون في شأن قتالهم، أو عدمه، والمهم هو عموم اللفظ، وليس خصوص السبب.

فما: الفاء: استئنافية، ما: اسم استفهام، فيه معنىٰ الإنكار، والتوبيخ.

﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾: لماذا انقسمتم أيها المؤمنون في شأن أمر المنافقين إلىٰ فئتين، ولا داعي لهذا الانقسام، ولا مبرر له.

فئة تدعوا إلىٰ قتالهم ودفعَهم إلىٰ ذلك الشعور بحمية الإيمان.

وفئة تدعو إلىٰ عدم قتالهم ودفعَهُم إلىٰ ذلك قرابتهم وصلتهم العائلية.

﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم﴾: أيْ: ردَّهم، أو نكسهم.

الركس: هو قيء الطعام المختزن في المعدة بعد هضمه.

فالله يصف المنافقين الذين ارتدوا، أو رجعوا إلىٰ الكفر، أو لم يقاتلوا مع رسول الله ﷺ كالقيء الذي يخرج من المعدة، وارتدوا إلىٰ ما كانوا عليه من الكفر، ولم يجبرهم أحد علىٰ الدخول في الإسلام، وهم اختاروا ذلك.

﴿أَتُرِيدُونَ﴾: الهمزة: همزة استفهام إنكاري.

﴿أَن تَهْدُوا۟﴾: أن: للتوكيد، تهدوا من أضل الله: تهدوا هؤلاء الذين انحرفوا، وتركوا سبل الهداية، وضلوا، وارتدوا إلىٰ الكفر.

فالله لم يضلَّهم إلا من بعد ما أرادوا هم أنفسهم الضلال، واختاروه طريقاً لهم، فهؤلاء لن تهدوهم، أو حتىٰ تستطيعوا هدايتهم إلىٰ الإسلام مرة أخرىٰ.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾:

﴿وَمَن﴾: شرطية.

﴿يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾: ومن يريد أن يكون ضالاً عن طريق الحق، وبعيداً عنه، ولا يريد الهداية نفسه.

﴿فَلَن﴾: الفاء: للتوكيد.

لن: تفيد نفي المستقبل القريب والبعيد.

﴿تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾: طريقاً، أو وسيلة، فلن تجد أيَّ سبيلٍ لهدايته. سبيلاً: نكرة تعني؛ أيَّ وسيلةٍ، أو طريقة لهدايته.

[٨٩] ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾:

﴿وَدُّوا۟﴾: تمنوا لو تكفرون: ولم يقل: تكفروا، بل قال تكفرون جاء بنون التوكيد.

﴿لَوْ﴾: حرف مصدري للتمني، لو تكفرون كما كفروا، لو تضلون كما ضلوا. ارجع إلى سورة البقرة، آية (٦)؛ لبيان معنى الكفر.

﴿فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾: أيْ: متساوون معهم في الكفر، والضلال بسبب حسدهم وغيضهم، ولذلك فاحذروهم، فلا تتخذوا منهم أولياء.

﴿فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

﴿فَلَا﴾: الفاء للتوكيد.

لا: الناهية. ﴿تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾: جمع ولي، ونصير.

﴿حَتَّىٰ﴾: حرف غاية نهاية الغاية.

﴿يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: يهاجروا إلى المدينة، ويقطعوا صلتهم بالكفار،

وليس الأمر مجرد الهجرة، فلا بُدَّ من الإخلاص في إيمانهم، وهجرتهم، ولا يهاجروا لأغراض دنيوية.

والهجرة في سبيل الله تدل على صدق إيمانهم.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾:

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾: فإن أعرضوا عن الهجرة، أو هاجروا، ثم ارتدوا عن الإيمان إلى النفاق، والكفر، أو استمروا على كفرهم ونفاقهم.

﴿فَخُذُوهُمْ﴾: من الأخذ، ويعني: الأسر.

﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾: أينما وجدتموهم، سواء في الحرب أو غير الحرب، أو من حالة الأمن أو غير الأمن، أو السلم أو غير السلم؛ لأنكم قادرون عليهم، وأقوى منهم.

﴿حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾: أيْ: في أية فرصة تجدونهم فيها، وفي أيِّ مكانٍ وزمانٍ في الحل والحرم.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾: لا: الناهية؛ أيْ: لا تطلبوا من أيِّ واحدٍ منهم، (من هنا استغراقية)؛ أيْ: تشمل كل واحد أن يكون لكم ولي؛ أيْ: معين ومساعدٌ، ولا نصير. ولا تسألوا أياً منهم أن يقاتلوا معكم، أو ينصروكم بالقوة ما داموا على ذلك، ثم استثنى من أخذهم أسرى، وقتلهم بعض الأشخاص، كما ورد في الآية (٩٠).

[٩٠] ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن

يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾:

﴿إِلَّا ﴾: أداة استثناء؛ أيْ: لا تأسروا، ولا تقتلوا منهم: الذين يصلون إلىٰ قوم بينكم وبينهم ميثاق، أو الذين حصرت صدورهم.

الصنف الأول: الذين يصلون إلىٰ قوم بينكم وبينهم ميثاق: هو العهد الموثق بالأيمان، أو القسم، وهو أشد من العقد والعهد؛ ارجع إلىٰ سورة البقرة آية (٢٧) لمزيد من البيان، هم:

- الذين التحقوا، أو انضموا إلىٰ صف القوم الذين بينكم وبينهم ميثاق، أو عهد، أو صلح مثل صلح الحديبية، كما ورد في صحيح البخاري، فهؤلاء أصبحوا معهم علىٰ عهدهم، من أحب أن يدخل في صلح قريش وعهدهم دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في صلح محمد وأصحابه، وعهدهم دخل فيه بحكم استجارتهم بالقوم الذين بينكم وبينهم ميثاق وطلبهم الأمان منهم، فأمنوهم أنتم حتىٰ لا تنقضوا عهدكم معهم.

الصنف الثاني: ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ ﴾:

الصنف الثاني هم المحايدون الذي حصرت صدورهم؛ أيْ: ضاقت صدورهم، ولا يرغبون في قتالكم، ولا يرغبون أن يقاتلوا قومهم معكم، بل هم لا لكم، ولا عليكم.

فاصبروا عليهم، ولا تأسروهم، أو تقتلوهم.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ﴾: ولكن من رحمته ورأفته بكم أن

اعتزلوكم، وكيف بأس هذين الفريقين عنكم، ولذلك: ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾.

﴿فَإِنِ﴾: الفاء: عاطفة. إن: شرطية تفيد الاحتمال.

﴿وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾: أيْ: الصلح والهدنة، اعتزلوكم بمعنىٰ: كفوا أيديهم عنكم، ولم يتعرضوا لكم، ولم يقتلوكم، وألقوا إليكم السلم؛ أيْ: الصلح، والهدنة، ولمعرفة الفرق بين السِّلْم، والسَّلْم، والسَّلَم؛ ارجع إلىٰ سورة البقرة آية (٢٠٨) للبيان المفصل.

﴿فَمَا﴾: الفاء: للتعقيب والمباشرة، ما: النافية.

أيْ: ما ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾: أيْ: أن تأسروهم، أو تقتلوهم (كما شاء الله لم يسلطهم عليكم).

[٩١] ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾:

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ﴾: ستعثرون علىٰ قوم آخرين صنف ثالث من المنافقين والمشركين، كانوا يأتون إلىٰ المدينة المنورة، فإذا دخلوها أظهروا إسلامهم وولاءهم للمسلمين كي يأمنوا بطش المسلمين، وأذاهم، وأموالهم، وذراريهم (النساء والصبيان).

وإذا عادوا إلىٰ مكة أظهروا ولاءهم ومودتهم وشركهم للمشركين؛ كي يأمنوا شر المشركين، وبطشهم، كذلك كلما ردوا؛ أيْ: دعوا إلىٰ الفتنة، إلىٰ

الشرك والكفر؛ أيْ: عادوا إلىٰ مكة، فدخلوا في الشرك والكفر، وإذا كانوا معكم عبدوا الله، وإذا كانوا مع قومهم عبدوا الأصنام، فهؤلاء يعتبرون مع الكفار، فالحكم في هؤلاء هو كالتالي: إن لم يعتزلوكم؛ أيْ: يتركوا قتالكم، ولا يحالفوا عليكم، أو يلقوا إليكم السلم (الصلح والهدنة)؛ أيْ: الانقياد بالاستسلام.

﴿وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ﴾: ثقفتموهم من الثقف: ثقف الرجلُ؛ أيْ: تمكن منه وظفر به؛ أي: في سياق الحرب، وليس مجرد أن وجده حاول أسره، أو قتله، بل لا بُدَّ من أن تكون له قدرة واستطاعة علىٰ فعل ذلك؛ مثلاً: أن يصبر حتىٰ يعود إلىٰ المدينة، فلا يلاحقه في مكة، أو ينتظر الزمن، والمكان المناسب للقيام بذلك، وهناك فرق بين ثقفتموهم، ووجدتموهم كما سيلي.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ﴾: الواو: عاطفة. أولاء: اسم إشارة، والكف: للخطاب.

﴿جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ﴾: جعلنا لكم: اللام في لكم لام الاستحقاق، أو الاختصاص.

﴿سُلۡطَٰنًا﴾: السلطان نوعان: سلطان القوة القتالية، وسلطان الحُجَّة والمنطق والأداء الذي يقنع الآخرين.

﴿مُّبِينٗا﴾: سلطاناً واضحاً، وحجته علىٰ قتلهم وسبيهم.

ما هو الفرق بين: حيث وجدتموهم، وحيث ثقفتموهم.

﴿حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾: أيْ: أنتم في موقف القوة، والسلطة لكم، والحكم، فعندها خذوهم أينما وجدتموهم، واأْسروهم، واقتلوهم.

حيث ثقفتموهم: أيْ: إذا جاؤوا إليكم، وتمكنتم منهم في الحرب هذا هو الشرط؛ عندها خذوهم وأسروهم واقتلوهم.

وإذا وجدتموهم في أيِّ مكانٍ، أو زمـــانٍ، وأنتم غير قادرين، ليس عندكم القوة والعدة لأســـرهم، أو قتلهم؛ فلا تقتربوا منهم، وانتظروا الفرصة، ولو قال: حيـــث وجدتموهم بدلاً من حيث ثقفتموهم؛ لكان على المســـلمين أن يذهبوا، ويبحثوا عنهم في مكة، أو أينما كانوا، وهذا أمر صعب إذا لم يكن المسلمون في حالة القوة، ومن الصعب القيام بذلك، فلا يجوز تفسير: ثقفتموهم: وجدتموهم، كما في كثير من كتب التفسير.

❖ ❖ ❖

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ
مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ
أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ
وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ
مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ
إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ
فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ
ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا
مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ
ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟
لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ۚ تَبْتَغُونَ
عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ
كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ
فَتَبَيَّنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾

سورة النساء [الآيات ٩٢ - ٩٤]

[٩٢] ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾:

﴿وَمَا﴾: الواو: استئنافية، ما: النافية.

﴿لِمُؤْمِنٍ﴾: لمؤمن: لام الاختصاص، أو الاستحقاق.

﴿أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾: أن: حرف مصدري يفيد التعليل.

﴿إِلَّا﴾: أداة حصر.

﴿خَطَـًٔا﴾: الخطأ: هو الفعل غير الاختياري يكون بغير عمد، أو قصد.

﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾:

﴿وَمَن﴾: شرطية.

﴿قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا﴾: جاء بالفعل الماضي؛ لأن قتل الخطأ لا يتكرر يحصل مرة وانتهى، أم القتل العمد فقد يتكرر، ولذلك جاء بصيغة المضارع، حين قال:

﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا ﴾ [النساء:٩٣]، فكفارة القتل الخطأ: تحرير رقبة مؤمنة+ دية مسلّمة إلى أهله إلا أن يصَّدَّقوا.

﴿فَتَحْرِيرُ﴾: الفاء: رابطة لجواب الشرط.

لماذا تحرير رقبة مؤمنة، ولماذا الدية؟

قالوا: حين يُقتل مؤمنٌ خَطَأً يحدث اختلال في توازن المجتمع؛ لأن المجتمع خسر فرداً من أفراده، وأصبح اختلال في عائلة المقتول، وبالتالي في المجتمع؛ لأن المجتمع مكون من عائلات، فلكي نعيد التوازن الاجتماعي يجب تحرير رقبة مؤمنة تقوم مقام المؤمن الذي قُتل؛ أي: من تسبب في موت نفس مؤمنة عليه بإحياء نفس ميتة وأين يجد هذه النفس؟ يجدها بين النفوس الكثيرة المستعبدة فالرق والعبودية قتل للنفوس.

ولكي نعيد التوازن في عائلة المقتول لا بُدَّ من دفع دية مسلمة إلى أهله، جبراً لخاطرهم حتى لا تقع عداوة بعدها، إلا أن يعفو عنها ولي وأهل المقتول، وسمَّى الله تعالى العفو عن أخذ الدية تصدقاً، أو صدقة؛ للترغيب بالقيام بذلك، فقال: إلا أن يصَّدَّقوا، أو يمكن أخذ الدية والتصدُّق بها، وهذا أفضل.

ما هو الفرق بين تحرير رقبة، وفك رقبة؟

تحرير رقبة جاء في (٦) آيات، وفك رقبة ذكر في آية واحدة في سورة البلد، الآية (١٣).

تحرير رقبة: التحرير يكون من الرق، وهذا لم نعُد نراه في عصرنا هذا، والتحرير بالعتق، أو التخليص، ويقوم بها الذي عليه الكفارة.

فك رقبة: فكها من الأسر، وهذه باقية إلى يوم القيامة، أو فكها من السجن، وفك رقبة تعني أن تعين على تخليصها من الأسـر، أو السجن، وإما أن يقوم بها واحد، أو يشترك معه آخرون.

﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾:

﴿فَإِن﴾ الفاء: للتفصيل.

إن: شرطية تفيد الندرة، أو الاحتمال.

هو: ضمير منفصل يفدي الحصر والتوكيد.

فإن كان المقتول من قوم عـدو لكم، والمقتول هو مؤمن؛ أيْ: هو مؤمن، ولكن من قوم كفار، فالكفارة هنا تحرير رقبة مؤمنة فقط.

وليس عليه دية لأهل المقتول؛ لأنهم كفار. والدية غايتها جبر لخاطر أولياء المقتول، ولما كان هؤلاء كفار سقط هذا الحق.

وقال سبحانه: عدو لكم، ولم يقل: أعداء لكم: لأن عداوتهم متشابهة، فهي كعداوة الواحد، وليس لها أشـكال مختلفة عداوة لها سـبب واحد، وهو الدِّين، وعندما يتحد مصدر العداء، فهم عدو واحد.

﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾:

﴿وَإِن﴾: الواو: عاطفة.

إن: شرطية تفيد الاحتمال.

كان: المقتول مؤمناً من أهل الذِّمَّة، أو من قوم غير مسلمين، وبينكم وبينهم ميثاق على السلم، أو معاهدة: فكفارة قتله الدِّيَة، وتحرير رقبة مؤمنة؛ لأن هؤلاء لهم ما للمسلمين من حقوق، فلا بُدَّ من الوفاء بالميثاق.

والدِّيَة تؤخذ من مال القاتل الجاني، وإذا لم يكن له مال تؤخذ من العاقلة (عائلة الجاني).

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾:

﴿فَمَن﴾: الفاء: عاطفة. من: شرطية.

﴿لَّمْ يَجِدْ﴾: الرقبة، أو لم يتسع ماله لشرائها؛ أيْ: تحريرها، فصيام شهرين متتابعين بكل أيامها من دون فاصل؛ إلّا بعذر كالمرض، أو السفر، وبمجرد أن ينتهي المرض أو السفر؛ عليه استكمال ذلك، والتتابع هو شرط في هذه الحالة إلّا بعذر.

﴿تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ﴾: لماذا قال سبحانه: توبة من الله، ولم يقل: توبة من القاتل الجاني، توبة من الله؛ أيْ: تشريعاً من الله للعبد، توبة من الله تعني: توبة شرعها الله للقاتل غير العمد، والتوبة هي الدِّيَة، وتحرير رقبة توبة ماحية للذنب.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾: كان تشمل كل الأزمنة: الماضي، والحاضر، والمستقبل.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾: بما يصلح خلقه من تكاليف، وعليم بأعمالهم (أقوالهم وأفعالهم) ونواياهم.

﴿حَكِيمًا﴾: في تدبير خلقه، وفيما يقضي بينهم، أو يشرعه لهم من الأحكام، وحكيماً مشتقة من الحكمة، أو الحكم، أو كليهما معاً.

وهو أحكم الحاكمين، وأحكم الحكماء. ارجع إلى الآية (١٢٩) من سورة البقرة؛ لمزيد من البيان.

[٩٣] ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾:

﴿ وَمَن ﴾: الواو: عاطفة. من: شرطية.

﴿يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا ﴾: وقتل العمد يجب أن تتوافر فيه الشروط التالية:

١ - كون القاتل، أو الجاني عاقلاً غيرَ مجنون، بالغاً (سن البلوغ).

٢ - متعمداً قاصداً القتل مع سبق إصرار وتخطيط.

٣ - استعمل أداة القتل مما يقتل بها غالباً.

ويجب تفريق القتل العمد من شبه العمد؛ مثل: وكزه بيده؛ فقضى عليه، وعقوبة القتل العمد الدنيوية: أن يُقتل القاتل، ويسمَّى هذا القصاص، ولا يرث القاتل، لا هو، ولا ورثته من المقتول إذا كان قريباً له.

أما العقوبة الأخروية: فجزاؤه جهنم خالداً فيها، وغضب الله عليه ولعنه (طرد من رحمة الله وإبعاد)، وله عذاب عظيم مهيأ له، وينتظره.

هل للقاتل عمداً توبة؟ الجمهور قالوا: إن له توبةً إذا حدث القتل وانتهى، وأما من جاء يسأل عن فتوى، وهو يريد الإقدام على القتل؛ فقالوا: نقول له لا توبة له.

كما قال ابن عباس رضي الله عنهما، وجماعة من العلماء، والصحابة، والتابعين: أنه لا توبة له، والجمهور: يرى أن تقبل توبته إذا حدث القتل وانتهى وتاب؛ لقوله

سبحانه: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٥٣].

﴿فَجَزَآؤُهُۥ﴾: الجزاء مقابل العمل، ويعني: العقاب، أو الثواب، وفيه معنى المماثلة.

﴿جَهَنَّمُ﴾: ارجع إلى سورة الرعد آية (١٨) للبيان المفصل.

﴿خَٰلِدٗا فِيهَا﴾: البقاء الدائم المستمر يبدأ من زمن دخولها.

﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ﴾: الغضب يقتضي العقاب، ويعني: السخط، والغضب الذي توجبه الحكمة.

﴿وَلَعَنَهُۥ﴾: اللعن: الطرد من رحمة الله تعالى والإبعاد.

﴿وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾: هيأ له أشد أنواع العذاب؛ العذاب العظيم، وهو أشد من العذاب المهين، والعذاب الأليم، والعذاب الكبير.

[٩٤] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾:

سبب النزول: روى البزار، عن ابن عباس ﷺ قال: بعث رسول الله ﷺ سرية فيها المقداد بن الأسود، فلم أتوا القوم وجدوهم قد تفرقوا، وبقي رجل له مال كثير لم يبرح، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، فعمد إليه المقداد فقتله، فقال له رجل من أصحابه: أقتلت رجلاً شهد أن لا إله إلا الله؟ والله لأذكرنَّ ذلك للنبي ﷺ، فلما قدِموا على رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله: إن رجلاً شهد أن لا إله إلا الله؛ فقتله المقداد، فقال: ادعوا لي المقداد، فدعوه، فقال ﷺ: يا مقداد

أقتلت رجلاً يقول: لا إله إلا الله؟ فكيف لك بلا إله إلا الله غداً؟ قال: فأنزل الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾، و﴿أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ ﴾: يعني: جاءكم مستسلماً، أو قال الشهادة، أو كلمة التوحيد، فليس من حق أحد أن يلقي إليه الاتهام بعدم الإيمان، والإسلام، ويقول له: لست مؤمناً.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾: نداء إلىٰ الذين آمنوا؛ أيْ: الذين هم علىٰ درب الإيمان بأمر جديد، أو حكم، أو وصية، أو موعظة.

والهاء: للتنبيه.

﴿إِذَا﴾: شرطية، ظرفية للزمن المستقبل، وتدل علىٰ حتمية الحدوث.

ضربتم في سبيل الله: أيْ: خرجتم للجهاد، أو إعلاء كلمة الله، ونشر الدِّين، أما الضرب في الأرض، فيكون للتجارة، أو العلم، أو غيره.

﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾: الفاء: رابطة لجواب الشرط (إذا). تبيَّنوا: تثبتوا، وتحققوا، ولا تتسرعوا، والتبيُّن: هو التثبت، والتبيُّن يحتاج إلىٰ ذكاء وفطنة، تأكدوا من صحة الأمر بكل الوسائل.

﴿وَلَا﴾: الواو: عاطفة، لا: الناهية، تقولوا لمن ألقىٰ إليكم السلام لست مؤمناً.

﴿لِمَنْ﴾: اللام: لام الاختصاص.

﴿أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾: أيْ: قال: السلام عليكم، أو أسلم، وأعلن إسلامه، أو استسلم، أو نطق بالشهادة.

﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾: ترفضوا شهادته، أو تكذبونه بما في قلبه، ويكفيكم الظاهر، والله أعلم بما في القلوب.

﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾:

﴿عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: العرض: كل ما يعرض، ويزول، وليس له دوام، أو ثبات، من منفعة، أو لذة عاجلة، أو مال، أو جاه، وغيره.

ويسمىٰ متاع الدنيا عرضاً: لأنه عرض زائل، وقيل: العرَض بفتح الراء: هو المال، والعرْض بإسكان الراء: يدل علىٰ المتاع من أثاث، وما ينتفع به، ولذلك كل عرْض بإسكان الراء عرَض بفتحها، وهناك معنىٰ آخر: هو العرض علىٰ الله تعالىٰ.

أيْ: إياكم أن يكون سبب إيذائه، أو قتله هو ابتغاء أخذ الغنيمة منه، أو المال، أو الانتقام، أو الحمية، أو أيُّ عرضٍ من الأعراض الدنيوية الفانية، فلا بُدَّ من إخلاص النية والتبيُّن.

﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾: أرزاق، ونعم كثيرة لا تعد، ولا تحصىٰ تغنيكم عما في أيدي الناس.

﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾: هكذا كانت حالتكم قبل دخولكم الإسلام؛ إذ كنتم تخفون إسلامكم، وإيمانكم خوفاً من أذىٰ المشركين والقتل إلىٰ أن مَنَّ الله عليكم سبحانه، وأيدكم بنصره، فدخلتم الإسلام فصرتم آمنين، لا تخافون، وتظهرون إسلامكم، وتدعون الآخرين للدخول فيه، فتبيَّنوا أيها الدعاة، ويا من تحملون راية الإسلام، فتثبَّتوا، وتأكدوا

من استباحة دماء إخوانكم من المسلمين، أو ممن ألقوا إليكم السلام، وكفوا أيديهم عنكم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾:

﴿إِنَّ﴾: للتأكيد؛ أيْ: تأكدوا أن الله يعلم بواطن الأمور، ونياتكم، وذوات الصدور، وما تفعلون من صغيرة وكبيرة في الماضي، والحاضر، والمستقبل، ومن يعلم بواطن الأمور يعلم ظواهرها، ولا داعي لذكر ذلك.

كان سبحانه منذ الأزل، ولا يزال، وسيبقىٰ مطلعاً، ويدرك أحوالكم.

وقدَّم كلمة تعملون علىٰ خبير؛ لأن سياق الآيات في الجهاد، والقتل.

و﴿بِمَا﴾: الباء: فيها للإلصاق.

انتبه إلىٰ قوله جل جلاله: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾: ذكرت مرتين؛ للتوكيد علىٰ التثبت من صحة الأخبار، والأدلة، وعدم التسرع في الحكم، والإقدام علىٰ أيِّ فعلٍ من دون تمحيصه، والتأكد منه.

❖ ❖ ❖

لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ
فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ
وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ
ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً
وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ
قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ
جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ
وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾
فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾
۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً
وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ
فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ
فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ
أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾

ربع الحزب ١٠

سورة النساء [الآيات ٩٥ - ١٠١]

[٩٥] ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾:

﴿لَّا﴾: النافية المطلقة تنفي كل الأزمنة، وأوسع في النفي من (لن).

﴿يَسْتَوِي﴾: في المنزلة، والأجر عند الله في الدنيا والآخرة.

﴿الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾: القاعدون: جمع قاعد؛ أي: لم يخرج للجهاد، والقاعد: قد تجمع على قعود، فالقعود: تدل على الاسم، أو المعنى، والقاعدون: تدل على الحدث، والضرر: يعني: فيهم علة مزمنة؛ أي: مرض مزمن كالسكر، أو أمراض الكلاوي والكبد... وغيرها؛ أي: غير الأصحاء عن الجهاد مع المؤمنين، وهم قسمان:

القسم الأول: غير أولي الضرر، وهم الأصحاء غير المصابين بأي مرض، وليس لهم عذر، أو عجز للخروج للجهاد بأموالهم وبأنفسهم.

والقسم الثاني: أولو الضرر: وهم المرضى والمصابون بعلل مثل: العمى، والعرج، والأمراض المزمنة، مثل: السكري، وبعض الأمراض الدموية، وغيرها.

﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾:

هنا أضاف الله سبحانه القسم الثالث من المؤمنين: وهم المجاهدون بأموالهم، وأنفسهم، فأصبحت ثلاثة أقسام:

القسم الأول: المؤمنون القاعدون عن الجهاد من دون عذر، أو عجز.

القسم الثاني: المؤمنون القاعدون عن الجهاد بعذر، أو عجز؛ مثل: العمى، والعرج، أو مرض مزمن، هؤلاء هم أولو الضرر، هؤلاء أجرهم قد يكون كأجر المجاهدين.

القسم الثالث: المؤمنون المجاهدون بأموالهم وأنفسهم.

إذن فضَّل الله القسم الثالث، وهم المجاهدون (بأموالهم وأنفسهم) على القاعدين من المؤمنين غير أولي الضرر؛ أيْ: القسم الأول درجة في الفضل، والفضل: يعني الزيادة في الخير والأجر، وفضل: تعني رفع، وقدم الأعلى الأكثر درجة على الأدنى الأقل درجة.

﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾: وكلاً: تعني: المجاهدين بأموالهم وأنفسهم (القسم الثالث)، والقاعدين عن الجهاد بعذر، أو عجز (أولي الضرر)، والقسم الثاني، وقد تعني: المؤمنين بشكل عام (الأصناف الثلاثة)، ولكن درجاتهم في الجنة مختلفة، والحسنى: الجنة، والحسنى: اسم مشتق، مؤنث الأحسن.

﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾:

﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ﴾: بأموالهم وأنفسهم (القسم الثالث) على القاعدين من دون عذر، أو عجز (القسم الأول) أجراً عظيماً.

وما هو الأجر العظيم؟

فسـرته الآية (٩٦): ﴿ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾. الأجر العظيم: هو الدرجات العالية، والمنـازل الرفيعة في الجنان العالية؛ كالفردوس الأعلىٰ، والأجر يتضمن مغفرة الذنوب والسيئات، ورحمة، وتعريفها: هي جلب كل ما يسر، ودفع ما يضر، وتعني: الإنعام علىٰ المؤمن بشتىٰ أنواع النِّعم.

[٩٦] ﴿ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾:

أي: الدرجات العالية في الجنة، والجنة كما نعلم (١٠٠ درجة)، كل درجة وأخرىٰ كما بين السماء والأرض. والسـؤال هنا: كيف نفسر منزلة المجاهدين درجـات بعد أن ذكره اللـه تعالىٰ (درجة) في الآية السـابقة (٩٥) ذكر درجات ليبين معنىٰ درجة ليس درجة واحـدة، وإنما هي درجات حتىٰ لا يظن أحد أنهم كغيرهم، وهذا يسمىٰ التفصيل بعد الإجمال، وهناك تفسيرات أخرىٰ:

تفسير أول: أعطىٰ لأولي الضرر (القسم الثاني) درجة واحدة منزلة واحدة، وأعطىٰ الله المجاهدين في سـبيل الله بأموالهم، أو أنفسـهم (القسـم الثالث) درجات: منازل ومراتب في الآخرة.

تفسير ثانٍ: عندما قال سبحانه: درجة، فقد أجمل القول، ثم عاد وفسر ذلك بقوله: درجات منه ومغفرة.

تفسير ثالث: الدرجة تدل علىٰ درجة في الدنيا، وتعني: المدح، والتعظيم، والثناء، والذكر الحسن، ودرجات منه ومغفرة في الآخرة (تعني: درجات الجنة).

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾: كان تشـمل كل الأزمنة: الماضي، والحاضر، والمسـتقبل، كان، وما زال، وسيظل سبحانه.

﴿غَفُورًا﴾: صيغة مبالغة؛ أيْ: كثير المغفرة كمًّا، ونوعاً، وأصل المغفرة الستر، فهو يغفر الذنوب العظام، ويغفر الذنوب، ولا يعاقب عليها.

﴿رَّحِيمًا﴾: صيغة مبالغة رحيم كثير الرحمة لعباده المؤمنين في الدارين.

[٩٧] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾:

سبب النزول: كما روىٰ ابن عباس؛ قيل: نزلت هذه الآية في ناس من أهل مكة أسلموا ولم يهاجروا حين كانت الهجرة فريضة، وادعوا أنهم مستضعفون، عاجزون عن الهجرة، وعاجزون عن إقامة شعائر الدِّين، وإذا هاجروا تسلب أموالهم، وحين خرج المشركون إلىٰ بدر، خرج هؤلاء معهم، وقاتلوا مع المشركين، فقتلوا وهم كفار، فبذلك أصبحوا ظالمين لأنفسهم.

﴿إِنَّ﴾: للتوكيد.

﴿ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: أيْ: توفتهم الملائكة بعد أن قتلوا في بدر.

توفاهم الملائكة، وفي آيات أخرىٰ، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة:١١].

وفي آية أخرىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ [الزمر:٤٢]، فالوفاة قد تنسب إلىٰ الله، وإلىٰ ملك الموت، وإلىٰ الملائكة، فالأمر من الله ينزل إلىٰ ملك الموت، ثم ملك الموت يأمر الملائكة الموكلين بوفاة العبد بالحضور لاستلام روحه بعد أن يقبضها ملك الموت؛ كي يصعدوا بها إلىٰ عليين، أو سجين.

قال سبحانه: ﴿تَوَفَّىٰهُمُ﴾: الوفاة: قد تعني الموت؛ أي: خروج الروح من الجسم، وقد تعني: المرحلة التي تسبق نزع الروح من الجسم، ولم يقل: تتوفاهم الملائكة، كما ورد في سورة النحل، آية (٢٨): ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾.

توفاهم في سورة النساء؛ تعني: قسماً من الظالمين الذين ادعوا بأنهم مستضعفون؛ فلما كان عددهم قليل قال تعالىٰ: (توفاهم الملائكة).

أما تتوفاهم في سورة النحل تشمل كل الظالمين، وبما فيهم الظالمون المذكورون في سورة النساء.

فعدد الظالمين في آية النحل أكبر بكثير من عدد الظالمين في آية النساء، ولذلك زاد التاء التي تدل علىٰ الكثرة في آية النحل.

﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾: بسبب عدم الهجرة في سبيل الله رغم أنهم كانوا قادرين علىٰ الهجرة، وعدم طاعة الرسول ﷺ.

﴿قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ﴾: أيْ: سألتهم ملائكة الموت قبيل نزع أرواحهم فيما كنتم.

فيمَ: في ظرفية، وما: للاستفهام التوبيخي.

﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾: أيْ: في أيِّ الفريقين كنتم، أفي المسلمين، أم في المشركين، أو ما فعلتم بدينكم، وظلمتم أنفسكم بعدم الطاعة والهجرة.

﴿قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: كنا مستذلِّين، ومقهورين في مكة، أو عاجزين في الأرض، ولم نتمكن من إقامة الدِّين.

﴿قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟﴾:

﴿قَالُوٓاْ﴾: أيْ: الملائكة قالوا لهم.

﴿أَلَمۡ﴾: الهمزة همزة استفهام إنكاري، وتوبيخي.

﴿تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾: أيْ: ألم تكن أرض الله واسعة، وكنتم قادرين على الخروج من مكة إلى مكان آخر؛ مثل المدينة المنورة؛ لممارسة دِينكم.

﴿فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾: وليس عليها؛ لأن الأرض تشمل الطبقة الغازية المحيطة بالأرض.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾:

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: الفاء: للتوكيد.

أولئك: اسم إشارة، واللام: للبعد، وتفيد التحقير.

﴿مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ﴾: المأوى: اسم مكان، ويعني: منزلهم، أو المكان من آوى يأوي؛ أيْ: مكان إقامتهم واستقرارهم.

﴿جَهَنَّمُ﴾: مشتقة من الجهومة: الشيء المخوف، أو الكريه المنظر، والباعث على الكراهية، وجهنم تعني: بعيدة القعر. ارجع إلى سورة الرعد آية (١٨) للبيان.

﴿وَسَآءَتۡ﴾: من ساء؛ أيْ: قبح؛ أيْ: قبحت.

﴿مَصِيرًا﴾: المرجع، أو المآل، والمنتهى.

[٩٨] ﴿إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا﴾:

﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء للقعود عن الهجرة.

tafseer alquran althary aljami3 part 02.job

﴿ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾: بالعلل، والأمراض المزمنة، والعجز، والفقر، وغيرها من الأسباب.

﴿وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾: غير مكلفين، ولا يستطيعون حماية أنفسهم.

﴿وَٱلنِّسَآءِ﴾: لا تستطيع أن تحمي نفسها، وتحتاج إلى زوج، أو محرم.

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾: لا قوة لهم على الهجرة، ولا النفقة، أو حماية أنفسهم إذا هاجروا.

﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾: السبيل: هو الطريق الموصل إلى الغاية.

لا يعرفون طريقاً يسلكونه، أو السبل المؤدية إلى المدينة المنورة للهجرة، أو غيرها من المدن.

[٩٩] ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾:

﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾: اسم إشارة إلى من جاء ذكرهم في الآية السابقة من المستضعفين، أو الوالدين، والنساء.

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾: ولم يقل: فأولئك عفا الله عنهم؛ لأن عسى: تحمل معنى الترجي والطمع؛ أيْ: ليحثهم على الرجاء، والطمع في عفو الله سبحانه، ويدل كذلك على أن أمر الهجرة أمر لا توسعة فيه، ولا بُدَّ منه.

﴿أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾: أن: حرف مصدري يفيد التوكيد؛ أيْ: لا يؤاخذهم، ويغفر لهم ما قصروا فيه لضعفهم.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾: كان أزلاً وأبداً، كان: للماضي، والحاضر، والمستقبل.

العفو: ترك العقاب على الذنب ومحوه، وهو أبلغ من الستر، وقيل: هو إسقاط اللوم، والذم.

الغفران: يعبر عن الستر.

الغفور: من الغفر؛ أيْ: غفر الذنب ستره، وقيل: الغفران: إسقاط العقاب، وإيجاب الثواب. ارجع إلى الآية (٩٦) من نفس السورة.

[١٠٠] ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾:

﴿وَمَن﴾: الواو: استئنافية. من: شرطية.

﴿يُهَاجِرْ﴾: من الهجرة، وهي الانتقال من بلد إلى بلد.

﴿فِي﴾: ظرفية.

﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: أيْ: لإعلاء كلمة، أو دِين الله، أو لطلب العلم.

﴿يَجِدْ﴾: جواب للشرط.

﴿فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا﴾: أماكن للهجرة، أو أمكنة يُهاجَر إليها، وتسمى مهاجر.

وسُمِّيَت مراغم: من الرغام، وأصله: هو التراب.

أو سُمِّيَت مراغم؛ لأن المُهاجر الذي يفارق قومه الذين يعذبونه، ويضطهدونه، وهم يودون لو بقي تحت سيطرتهم، وعذابهم، ولم يهاجر؛ كأنه ألصق أنوفهم بالتراب وأذلهم حين تركهم، وهاجر، ولم يقدروا على منعه من الهجرة.

ويقال: راغمت الرجل: إذا فارقته؛ وهو كاره، وهو يكره مفارقتك؛ لمذلة تلحقه بعد تركك له.

ومراغم: اسم مفعول، وتعني: مكاناً متى ما وصلت إليه أرغمت أنف خصمك الذي كان يذلك؛ لكونك خرجت من تحت سيطرته، فكأنك جعلت أنفه ملتصق بالتراب.

﴿وَسَعَةً﴾: في الرزق، وسعة في التمكن من إظهار شعائر الدِّين من دون خوف، بالإضافة إلىٰ النجاة من الاضطهاد، والعذاب.

﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾:

أسباب النزول: كما روىٰ ابن عباس؛ قيل: نزلت هذه الآية في جندب بن ضمرة، فقد خرج مهاجراً من مكة إلىٰ المدينة، ومات وهو في طريقه، ولم يصل إلىٰ المدينة، وكان رجلاً مسناً، خرج لاحقاً برسول الله ﷺ، وقالوا: لو مات بالمدينة؛ لكان أتم أجراً، وقالوا: ما أدرك ما طلب! فنزلت هذه الآية رداً عليهم.

﴿وَمَن﴾: من: للعاقل، وقد تعني: الواحد، أو أكثر من الواحد، ومن: شرطية ابتدائية.

﴿يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا﴾: المهاجر: هو الذي أُرغم علىٰ الهجرة، وترك بيته لسبب من الأسباب؛ للفرار بدينه، أو لكسب لقمة العيش، أو اضطهاد وتعذيب، فقد يهاجر الإنسان بإرادته، ورغبته، ومن دون سبب، أو إرغام من أحد؛ لغرض شخصي؛ للمتعة، أو الزواج، أو غيره.

﴿مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾: هجرة للفرار بدينه من بلاد الكفر إلىٰ بلاد الإسلام وطاعة لله ورسوله، ومن التضييق، أو الموت، أو العذاب من قبل الكفار، أو المشركين، أو من أجل ابتغاء الرزق، أو طلب علم، أو جهاد في سبيل الله.

﴿ثُمَّ﴾: حرف تعقيب، وتراخٍ؛ أيْ: ولو بعد فترة.

﴿ثُمَّ يُدْرِكْهُ﴾: يلحق به الموت، أو يموت قبل أن يصل إلىٰ مكان هجرته، أو مراغمه.

﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾:

﴿فَقَدْ﴾: الفاء: للتوكيد، وقد: لزيادة التوكيد؛ أيْ: ثوابه على الله، كما في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

﴿وَقَعَ أَجْرُهُۥ﴾: وقع: من الوقوع: وهو من أعلى إلى أسفل وبسرعة، ووقع أجره؛ أي: ثبت أجره؛ أيْ: إذا مات، أو قتل، فجزاؤه الذي هو من عند الله تعالى ينزل عليه بسرعة، كأنه يقع عليه من السماء؛ كأنه يعرفه معرفة كاملة.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾: ارجع إلى سورة التحريم، آية (١)؛ للبيان.

[١٠١] ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾:

﴿وَإِذَا﴾: ظرف زمان للاستقبال، متضمن معنى الشرط، ويدل على حتمية الوقوع، وكثرته، الضرب في الأرض؛ أي: السفر.

﴿ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أيْ: سافرتم، والضرب في الأرض قيل: هو الإبعاد فيها سيراً (السفر البعيد).

والضرب: إيقاع شيء على شيء؛ أيْ: ضرب الأرض بالأرجل المشي بصلابة، وعزم، وقوة بعكس الانتشار، يكون من دون جهد، ومشقة.

﴿فَلَيْسَ﴾: الفاء: للتوكيد، وهي رابطة لجواب الشرط.

ليس: من أدوات النفي، تنفي الحال، والمستقبل أحياناً، وأقل قوة في النفي من (لا) النافية.

﴿عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾: جُناح من جنح؛ أيْ: مال عن القصد؛ أي: الإثم للميل عن الحق.

فما الفرق بين: لا جناح عليكم، وليس عليكم جناح.

لا جناح عليكم: جملة اسمية، وليس عليكم جملة فعلية.

والقاعدة اللغوية تقول: الجملة الاسمية أقوىٰ من الجملة الفعلية؛ حيث الجملة الاسمية تدل علىٰ الثبوت، والجملة الفعلية تدل علىٰ التجدد والتحول، فلا جناح عليكم أقوىٰ في النفي من: ليس عليكم جناح؛ لأن النفي درجات، ولذلك تستعمل: لا جناح في القضايا الهامة مثل العبادات، والحقوق الزوجية والعقيدة، وتستعمل ليس في القضايا الأقل أهمية ونادرة، مثل: آيات الأكل والشرب، ودخول البيوت، وصلاة الخوف (النادرة).

﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾: أيْ: ليس عليكم إثمٌ أن تقصروا من الصلاة بأن تصلوا الصلاة الرباعية ركعتين؛ علىٰ شرط: وهو الخوف من الذين كفروا.

﴿أَن يَفْتِنَكُمُ﴾: بالقتل، أو الهجوم، أو الاعتداء عليكم، والفتنة: هي الأذىٰ، أو القتل، والتعرض لكم، والكفر، والشرك، وغيرها، وقد وردت صلاة الخوف عند رسول الله ﷺ بعدة أوجه. ارجع إلىٰ صلاة الخوف في كتب الفقه.

﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾:

﴿إِنَّ﴾: للتوكيد.

﴿الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾: عدواً، ولم يقل: أعداء؛ لأن عداوتهم واحدة؛ أيْ: لها سبب واحد هو الدِّين، ولو كان لها أسباب كثيرة؛ لقال: كانوا لكم أعداء.

﴿مُّبِينًا﴾: عداوة واضحة، وظاهرة لكل إنسان، وعداوة ظاهرة بينة، لا تحتاج إلىٰ برهان، أو دليل.

❖ ❖ ❖

وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ
مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ ۖ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟
مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟
فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ
عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ
أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ
وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾
فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ
جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ
كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا۟
فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا
تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا
حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ
ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾

سورة النساء [الآيات ١٠٢- ١٠٥]

[١٠٢] ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾:

كيفيــة صلاة الخوف التي ذكرت في هذه الآية: هي أن يقســم الجيش إلىٰ طائفتين:

طائفة تصلي مع قائد الجيش، وطائفة تقف أمام العدو؛ لتمنعه من الهجوم، أو يتقدَّم نحوها، وهي صلاة قصر ركعتين، فيصلي القائد بالطائفة الأولىٰ ركعة، ثم إذا قام إلىٰ الثانية وقاموا معه نووا الانفراد، وأتموا لأنفســهم، والإمام لا يزال قائماً، ثم إذا أتموا الصلاة بأنفســهم الركعة الثانية؛ ذهبــوا ووقفوا مكان الطائفة الأولىٰ أمام العدو، وجــاءت الطائفة الثانية ودخلت مع الإمام في الركعة الثانية، وهو في هذه الحالة يطيل الركعة الثانيــة أكثر من الأولىٰ؛ لتدركه الطائفة الثانية، فيصلــون الركعة الثانية معاً، ثــم يجلس القائد، أو الإمام للتشــهد، عندها تقوم الطائفة من دون القائد، أو الإمام؛ فيصلون الركعة الثانية، ويجلســون للتشــهد، والإمام ينتظرهم، ثم يسلم الإمام، ويسلمون معه.

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ﴾: إذا: ظرفية شرطية.

﴿كُنتَ فِيهِمْ﴾: أيْ: معهم، وبينهم، ولا تعني: إذا لم يكن فينا رسول الله ﷺ لا نصلي صلاة الخوف، كما ظن البعض.

﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ﴾: أيْ: تقول: قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة، وصليت فيهم إماماً، يقسم الجنود إلىٰ طائفتين: طائفة أولىٰ، وطائفة ثانية.

﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾: الفاء: للمباشرة، والتعقيب؛ لتقم طائفة منهم معك؛ أي: الطائفة الأولىٰ تقف للصلاة مع الرسول ﷺ، أو الإمام.

﴿وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ﴾: اللام: للتوكيد؛ أيْ: تقف الطائفة الأولىٰ لتصلي مع الرسول، أو الإمام، وهم يحملون أسلحتهم معهم.

﴿فَإِذَا سَجَدُواْ﴾: أيْ: سجدت الطائفة الأولىٰ في الركعة الأولىٰ مع الإمام.

﴿فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ﴾: أي: الطائفة الثانية تقف من ورائهم تحرسهم؛ لأن المصلين لا يرون العدو حين السجود.

﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾: أيْ: تقف، أو يقف الإمام مع الطائفة الأولىٰ، فيتموا الصلاة بأنفسهم (أي: الركعة الثانية) من دونك، أو من دون الإمام؛ لأنك ستقف تنتظر في الركعة الثانية حتىٰ تنتهي الطائفة الأولىٰ.

ثم تأتي الطائفة الثانية، وتنضم إلىٰ الإمام الذي ينتظرها ليصلوا معاً، ثم تسجد الطائفة الثانية مع الإمام، ثم تقف لصلاة الركعة الثانية، أما الإمام فيبقىٰ ينتظر الطائفة الثانية؛ لتسجد سجود الركعة الثانية، ثم تلحق بالإمام، وهو ساجد ينتظرها، ثم يسلم الإمام، والطائفة الثانية معاً، وبهذا تنتهي الصلاة.

﴿وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾: أيْ: بعد انتهاء الطائفة الأولىٰ من الصلاة تقوم هذه الطائفة بنفس الدور الذي قامت به الطائفة الثانية التي بدأت تصلي مع الإمام.

﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾: لماذا أضاف حذرهم؛ لأن العدو قد يكون انتبه إلى أن الجيش قد انقسم قسمين، فيكون جيش العدو يريد أن ينقض في هذا الزمن، فلذلك أمر بالحذر، وحمل السلاح معاً، وهكذا تحظى الطائفة الأولى بتكبيرة الإحرام مع الإمام، والطائفة الثانية بالتسليم معه.

﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾:

ثم يبيِّن سبحانه وتعالى علّة حمل السلاح، والحذر في الصلاة؛ لكون العدو يودّ، أو يتمنى لو تغفلون.

﴿لَوْ﴾: حرف تمني.

﴿تَغْفُلُونَ﴾: ولم يقل: تغفلوا، وقال: تغفلون: أضاف نون التوكيد.

﴿عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾: بالانشغال بالصلاة؛ كي ينقضوا عليكم، ﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾: بالقتل والنهب.

ثم بيَّن الأعذار التي يشق معها حمل السلاح فقال:

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾:

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾: ولا إثم عليكم، ارجع إلى الآية (١٥٨) من سورة البقرة؛ لبيان معنى جُناح عليكم.

﴿إِنْ﴾: شرطية تفيد الاحتمال، أو الشك.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا

﴿أَسْلِحَتَكُمْ﴾: وصلوا من دونها، ولكن مع الحذر، ولا تغفلوا عن عدوكم، واستمروا راقبوه، وراقبوا تحركاته.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾:

﴿إِنَّ﴾: للتوكيد.

﴿أَعَدَّ﴾: هيأ، وجهز.

﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾: اللام: لام الاستحقاق.

﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾: الذين أصبحت صفة الكفر عندهم صفة ثابتة.

﴿عَذَابًا مُّهِينًا﴾: العذاب المهين الذي فيه إهانة وذل، وفضيحة أمام الناس، أو الخلائق، سواء في الدنيا، أو الآخرة إضافة إلى كونه شديداً، وأليماً، ودائماً.

[١٠٣] ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾:

﴿فَإِذَا﴾: الفاء: على التعقيب والمباشرة ومن دون تأخير. إذا: ظرفية شرطية تدل على حتمية الحدوث.

﴿قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: أديتم الصلاة؛ صلاة الخوف.

﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾: فبعد انتهاء صلاة الخوف، وعدتم إلى القتال، أو حالة الخوف، عليكم بالتكبير، والتحميد، والدعاء، وذكر الله.

ولا إله إلا الله، والدعاء، فذكر الله سبحانه يقوِّي القلب ويشد الهمة، ويعين على الصبر والنصر.

وهذا ما أشارت إليه آية أخرى من سورة الأنفال، آية (٤٥): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

﴿قِيَـٰمًا﴾: وقوفاً؛ أيْ: اذكروا الله وقوفاً.

﴿وَقُعُودًا﴾: واذكروه حين الجلوس.

﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾: وحين الاستراحة، والقيلولة، وأنتم منبطحون على الأرض، أو أيِّ حالٍ رجالاً، أو ركباناً، وجاء ذلك في سياق آية أخرى في سورة البقرة (٢٣٩).

﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا﴾:

﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: اطمأننتم: انتهت الحرب، فأقيموا الصلاة تامة بأركانها وشروطها، والفاء في إذا: تدل على عدم التأخير، وإذا: شرطية ظرفية تدل على حتمية الحدوث.

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا﴾:

﴿إِنَّ﴾: للتوكيد.

﴿كِتَـٰبًا﴾: فرضاً، موقوتاً، محدد بأوقات لا يجوز تجاوزها.

كان: تحمل معنى منذ القِدم، والمعنى في الحكم.

﴿كَانَتْ﴾: أيْ: فرضت عليهم منذ القِدم، ولا زالت كذلك (في الحال، والمستقبل)، فهي تشمل كل الأزمنة.

[١٠٤] ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾:

أسباب نزول هذه الآية: قيل: إنها نزلت في أعقاب غزوة أُحُدٍ؛ حيث طلب النبي ﷺ من أصحابه الخروج للقاء أبي سفيان وأعوانه.

﴿وَلَا﴾: الواو: استئنافية، لا: الناهية.

﴿تَهِنُوا۟﴾: من الوهن، والوهن: هو أن يفعل الإنسان فعل الضعيف، أو يخاف؛ أيْ: لا تفعلون أفعال الضعفاء، وأنتم أقوياء، أو تخافون.

والوهن: يشمل كذلك الجبن، والخوف، والضعف من دون سبب حقيقي.

﴿فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾: في طلب القوم؛ أي: الأعداء الذين يبغون قتالكم، وكلمة ابتغاء لا تعني فقط الدفاع، بل الردع والحذر.

﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ﴾: من الألم، بسبب الجراح، أو المشقة والألم: يشمل كل ما يُلحقُه بك غيرك، أما الوجع: فهو ما يلحقك من قبل نفسك، ومن قبل غيرك.

﴿فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾: أيْ: أنتم متساوون معهم في الألم، والمشقة، ولكن هناك أمر تمتازون به عليهم: وهو إيمانكم.

وإنكم ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾:

إنكم: إن: للتوكيد.

﴿وَتَرْجُونَ﴾: الرجاء: هو توقع الخير الذي يشاركه الخوف؛ أي: ترجون من الله مساعدتكم، وعونكم، ونصركم؛ لإعلاء كلمته ودينه.

وترجون: قد تعني إحدىٰ الحسنيين، أو ثواب الآخرة، والحسنيين: إما

النصر، وإما الشهادة في سبيل الله، وهم لا يرجون إلا الدنيا. كما جاء في الآية (٥٢) من سورة التوبة.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾: ارجع إلىٰ الآية (٩٢) من نفس السورة؛ للبيان.

[١٠٥] ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾:

سبب النزول: كما روىٰ ابن عباس؛ روي أن هذه الآيات نزلت في طعمة بن أبيرق؛ فقد سرق درعاً من دار جارٍ له، ووضعها في جراب من دقيق، ثم خبَّأها عند يهودي اسمه زيد بن السمين، فالتمسوا الدرع عند طعمة، فلم يجدوها، وأنكر أنه سرقها، وعندما وجدوها عند اليهودي أخبرهم أن طعمة قد أودعها عنده، ولكن طعمة أنكر ذلك، فجاؤوا إلىٰ الرسول ﷺ، وحلف قوم طعمة علىٰ براءته، فصدقهم رسول الله ﷺ، وراح رسول الله ﷺ يجادل عن طعمة، وهمَّ في معاقبة اليهودي، فنزلت هذه الآيات تفضح طعمة أنه هو السارق، فهرب طعمة إلىٰ مكة، وارتد، وعاد إلىٰ السرقة، فسقط عليه حائط فمات مرتداً كافراً.

﴿إِنَّآ﴾: يتكلم الله عن ذاته، فيستعمل صيغة التعظيم، والجمع: إنا.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾: أنزلنا تدل علىٰ الإنزال دفعة واحدة، وأما نزلنا فتدل علىٰ مراحل متعددة، ونزل أقوىٰ وأكد من أنزل. ارجع إلىٰ الآية (٤) من سورة البقرة؛ لمزيد من البيان.

أما بالنسبة إليك وأحياناً يقول: أنزلنا عليك، فعلىٰ، أو إلىٰ تفيدان إنزال الكتاب؛ أي: المنهج الذي نزل علىٰ رسول الله ﷺ، و(علىٰ) تفيد العلو، والسمو، فحين يستعملها يعني: الحديث موجَّه إلىٰ رسول الله ﷺ، وفيما يخصه بشكل عام.

وحين يستعمل (إليك): تأتي في سياق التبليغ والتكليف، وإيصال المنهج إلى الناس. ارجع إلى الآية (٤) من سورة البقرة؛ لمزيد من البيان.

﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: القرآن الكريم بالحق، والباء: للإلصاق.

﴿بِٱلْحَقِّ﴾: بالحق: (هو الشيء الثابت الذي لا يتغير)، سواء في خبره، وحكمه، وبيانه.

﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾: اللام: لام التعليل، والتوكيد.

﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾: الباء: للإلصاق والتوكيد. أراك الله: أيْ: بما أوحى إليك وعلمك الله تعالى من الأحكام، وأطلعك عليه من الأخبار، والرؤية هنا تعني: هذا العلم الذي يعتبر كأنه رؤية يقينية، وليست ظنية، لا ريب فيها، ولا شك، وهي خاصَّة به ﷺ.

﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾:

﴿وَلَا﴾: الواو: استئنافية.

لا: الناهية.

﴿تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾: اللام: لام الاختصاص.

﴿لِّلْخَآئِنِينَ﴾: جمع خائن، والخائن: الذي ائتُمن؛ فأخذ؛ فخان.

والخائن: هو الذي تصدر عنه الخيانة مرة واحدة، أو تصدر منه الخيانة في أمر صغير.

أما الخوان: فهو الذي تصدر عنه الخيانة مرات عديدة، أو تصدر منه الخيانة في أمر عظيم.

﴿خَصِيمًا﴾: مدافعاً عن الخائنين، ومعيناً لهم، أو تقف لصالح الخائنين.

ولم يقل الحق سبحانه: ولا تكن عن الخائنين خصيماً، بل قال: للخائنين: الغايــة من الدفاع عــن الخائن أن ترجح كفته، وتكون له لا عليه، والســؤال هل خاصم ﷺ أم لا؟

الجــواب على ذلك: همَّ أن يخاصم، وكان مجــرد خاطر أن ينصر طعمة، ولم يحدث ذلك.

همَّ ﷺ؛ لأنه ظن أن طعمة، وقومه لا يكذبون.

ولِمَ عبَّر بقوله: للخائنين مع أن الخائن، أو السارق هو طعمة فقط؟

الجواب على ذلك: أن بني ظفر (قوم طعمة وإخوته) شــهدوا له بالبراءة، ونصروه، فكانوا شركاء له في الإثم.

للخائنين: تشــمل طعمة، وكل من خان خيانته؛ أيْ: لا تجادلوا عنهم، وإن كان الخطاب موجَّه إلى الرسول ﷺ؛ فهو يشمل أمته.

❖ ❖ ❖

وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ
عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ
خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ
مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ
ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ
عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ
سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا
رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ
وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا
ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا
فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن
يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن
شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ
مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾

سورة النساء [الآيات ١٠٦ - ١١٣]

[١٠٦] ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾:

﴿وَٱسْتَغْفِرِ﴾: الواو: عاطفة، استغفر الله: ممّا هممت به، أو تردد في خاطرك فيما حدث في هذه القضية، ونزلت هذه الآيات قبل الحكم في هذه القضية، وبين الله سبحانه لرسوله حقيقة الأمر.

والاستغفار لا يقدح في عصمة الأنبياء، والموعظة في هذه القصة إرشاد الله عزَّ وجلَّ لرسوله وإرشاد الأمة، إلىٰ وجوب التثبت والتحقق قبل إصدار أيِّ حكمٍ، أو قضاءٍ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾:

﴿إِنَّ﴾: للتوكيد. كان: تشمل، أو تستغرق كل الأزمنة: الماضي، والحاضر، والمستقبل.

﴿غَفُورًا﴾: كثير الغفران: صيغة مبالغة، والغفر: هو الستر، يغفر الذنوب مهما عظمت إلا الكفر، والشرك به.

﴿رَّحِيمًا﴾: كثير الرحمة بعباده وخلقه؛ فهو أرحم الراحمين. ارجع إلىٰ الآية (٩٦) من نفس السورة؛ لمزيد من البيان.

[١٠٧] ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾:

﴿وَلَا تُجَٰدِلْ﴾: الواو: عاطفة.

﴿وَلَا﴾: الناهية.

﴿تُجَٰدِلْ﴾: من الجدل، وأصله الفتل، والجدال: هو الحوار الذي يقع بين طرفين، أو أطراف؛ لإثبات حق، أو إظهار حجة، أو دفع شبهة، والجدال أشد من الحوار.

﴿وَلَا تُجَٰدِلْ﴾: تعني هنا: لا تدافع، أو تجادل عن طعمة بن أبيرق وقومه.

﴿يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾: كيف يختان الإنسان نفسه، ولم يقل: يخونون أنفسهم؟ عادة يخون الإنسان غيره: بعدم إتمام العهد، أو إرجاع الأمانة، أو السرقة، ويخون غيره من أجل مصلحة، أو ارتكاب معصية، أو سيئة، ثم يرمي بها بريئاً، وعندما يخون الإنسان نفسه؛ فهذا أمر غريب، ويحتاج إلى جهد أكبر من خيانة الغير.

ولذلك جاء بفعل يختان، وجاء بفعل يختانون (بصيغة المضارع)؛ للدلالة على بشاعة الفعل، وفيها معنى: التجدد، والاستمرار، فمن خان مرة قد يعود ويخون مرات كثيرة.

فهم حين يرتكبون المعصية؛ فهم يختانون أنفسهم؛ أي: المعصية خيانة منهم لأنفسهم.

والذي يخون غيره كأنه يخون نفسه؛ لأن إثم الخيانة الحاصل من جراء ذلك يعود على الخائن.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: إن: للتوكيد. لا يحب: النافية تشمل كل الأزمنة.

﴿خَوَّانًا﴾: كثير الخيانة؛ أيْ: تصدر منه الخيانة مراراً أمثال طعمة بن أبيرق.

﴿أَثِيمًا﴾: كثير الإثم، والإثم يشمل الصغائر والكبائر.

والفرق بين الخائن، والخوّان؛ الخائن: قد تصدر منه الخيانة مرة، أو خيانة في أمر صغير. والخوّان: تصدر منه الخيانة مراراً، أو في أمر كبير.

[١٠٨] ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾:

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾: أيْ: يستترون من الناس؛ كي لا يروهم، سواء كان خوفاً، أو حياءً؛ أيْ: يستتر بنو أبيرق، قوم طعمة من الناس.

﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾: ولا يخافون الله، ولا يستخفون منه بما فعلوه من الخيانة.

﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾: هو ضمير متصل تفيد التوكيد؛ أيْ: والله مطلع عليهم، وعلى ما يفعلونه، ولا يخفى عليه خافية.

﴿إِذْ﴾: ظرفية زمانية بمعنى: حين.

﴿يُبَيِّتُونَ﴾: من التبيُّت، أو التدبير الخفي الذي يتم ليلاً، وليس في وضح

النهار؛ لكون فاعل التبيُّت خائفاً وجباناً. ارجع إلى الآية (٨١) من نفس السورة؛ لمزيد من البيان.

﴿مَا لَا يَرْضَىٰ﴾: أيْ: ما لا يرضاه الله، ولا يقرّه.

﴿مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾: أيْ: كيف يلصقون التهمة باليهودي البريء، ويحلفون على براءة أخيهم طعمة.

وهذا القول، أو التبيُّت لا يرضاه الله، ولا يقرُّه، ويترتب عليه أثم عظيم.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾: (كان) تستغرق كل الأزمنة: الماضي، والحاضر، والمستقبل.

﴿بِمَا﴾: الباء: للإلصاق.

﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾: من التبيُّت، والمكر، ويعملون تشمل الأقوال والأفعال.

﴿مُحِيطًا﴾: بعلمه، ولا تخفى عليه خافية، ومحيط بكل شيء، فلا يخرج، أو يفلت أحد منه؛ لكونه محيطاً بعلمه، وقدرته كل شيء.

[١٠٩] ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾:

﴿هَٰٓأَنتُمْ﴾: ضمير منفصل للمخاطبين، والهاء: للتنبيه.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾: والهاء: لتكرار التنبيه؛ لأن الموقف يحتاج إلى زيادة في التنبيه والحذر من الوقوف إلى جانب أهل طعمة، وزيادة الوعظ واللوم مقارنة بقوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ﴾ [آل عمران:١١٩]. أولاء: اسم إشارة يشير إلى المجادلين أهل طعمة وقبيلة بنو أبيرق، ها أنتم الذين جادلتم عنهم في الحياة الدنيا.

﴿جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: جادلتم: خاصمتم عنهم؛ أيْ: جادلتم عن طعمة بن أبيرق؛ لتبرِّئوه من الخيانة (خيانة السرقة).

واستعمل صيغة الجمع عنهم بدلاً من صيغة المفرد جادلتم عنه؛ لأنهم كانوا شركاء في الإثم، ويدافعون عنه وينصرونه.

﴿جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: جادلتم رسول الله ﷺ والصحابة؛ لكي تبرِّئوا طعمة.

﴿فَمَن﴾: الفاء: للتوكيد. من: استفهامية؛ للإنكار، والتوبيخ.

ومن: للعاقل تشمل المفرد، والجمع.

﴿يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: أيْ: من يتولَّىٰ الدفاع عنهم يوم القيامة، أو الدفاع عن طعمة بن أبيرق.

﴿أَم﴾: للإضراب الانتقالي.

﴿مَّن﴾: للاستفهام الإنكاري، والتوبيخ.

﴿يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾: كفيلاً، أو قائماً بأمورهم، يدافع عنهم يوم القيامة أمام الله تعالىٰ.

إذن: لا يجوز الوقوف إلىٰ جانب الخونة، أو الظالمين، ولا يجوز الحكم بغير ما أنزل الله في كتابه، وعلىٰ لسان رسوله ﷺ.

[١١٠] ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾:

﴿وَمَن﴾: الواو: استئنافية، من: شرطية.

السوء: الأمر المنهي عنه من الله سبحانه ورسوله، ويعني: الإثم والذنب، وسُمِّيَ بالسوء؛ لأنه يسيء إلىٰ النفس، وإلىٰ الغير، مثل السارق، يسيء إلىٰ نفسه وإلىٰ غيره.

وأسوأ الذي عملوا؛ يعني: الكفر، والشرك، والقتل.

﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾: هنا الإساءة، أو الظلم مقتصر علىٰ نفسه وحدها، ولا يصيب الآخرين بظلمه، مثال: الذي يشرب الخمر في بيته، وفي عزلة من الناس.

﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾: ثم لا تفيد الترتيب والتراخي، وإنما التباين في الدرجة بين ظلم النفس وعمل السوء والاستغفار، وإذا دلت علىٰ الترتيب والتراخي؛ فهي تدل علىٰ رحمة الله بعبده حيث يعطيه الزمن الكافي، والوسع ليتوب من ذنبه وإثمه، والاستغفار يسبق التوبة.

﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾: الفرق بين يجد الله ويغفر الله القول يجد المستغفر المغفرة والرحمة من باب التوكيد ليكون المؤمن واثقاً من رحمة الله تعالىٰ ومغفرته بدلاً من الوعد والانتظار يجد أمامه أبوابه سبحانه مفتوحة للتوبة، والاستغفار والإنابة إليه. ارجع إلىٰ الآية ١٠٠ من نفس السورة.

[١١١] ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾:

﴿وَمَن﴾: الواو: عاطفة، ومن: شرطية.

﴿يَكْسِبْ إِثْمًا﴾: الإثم هو الذنب المتعمد (المنهي عنه، والمسمىٰ بالسوء) ويشمل الصغائر والكبائر، ويكسب من كسب، وكسب تستعمل لكسب الخير عادة، واكتسب تستعمل للشر، أو الحرام علىٰ وزن افتعل، تحتاج إلىٰ

جهد ومشـقة، وكسب تستعمل للحصول على الحرام بدلاً من اكتسب إذا أصبح الإنسان مدمناً على فعل الحرام، ومهنته تلك، عندها يسهل عليه فعل الحرام.

﴿فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾: أيْ: ضـرر، وعقوبة، أو ما قـام به يعود عليه، ويرجع وبال ما كسب عليه وحده.

على تفيد الاستعلاء، والمشقة.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾: (كان) تسـتغرق كل الأزمنـة: الماضـي، والحاضر، والمستقبل، عليماً بما يقوله خلقه ويفعلونه عليماً بكل شيء، بنواياهم، وأقوالهم، وأفعالهم، وذوات صدورهم.

﴿حَكِيمًا﴾: في تدبير خلقه، وكونه، وحكيماً تعني: الحكمة، والحكم فهو أحكـم الحاكمين، وأحكم الحكماء. ارجع إلى الآية (١٢٩) من سـورة البقرة؛ لمزيد من البيان.

[١١٢] ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾:

﴿وَمَن يَكْسِبْ﴾: ارجع إلى الآية السابقة.

﴿خَطِيٓـَٔةً﴾: أي: صغائر الذنوب، أو الأمر غير المتعمد.

﴿إِثْمًا﴾: الذنب المتعمد (المنهي عنه).

﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا﴾: (مثل ما فعل طعمة بن أبيرق)؛ أيْ: يتهم، أو يقذف بما جناه من الإثم بريئاً.

﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلَ﴾: أيْ: حمـل الإثم، أو الخطيئة على ظهـره، وبذل جهداً؛

لكي يحملها كما يُرفع الحمل من الأسفل إلى الأعلى. إذن احتمل تعني حمل وفيه جهد، ومشقة.

﴿بُهْتَٰنًا﴾: الكذب المتعمد المفترى الذي يبهت السامع من شدته، فهو قد كذب؛ لكي ينفي الإثم عن نفسه.

أولاً: ثم أكبر من ذلك بأن ألصق الإثم، أو الخطيئة بشخص بريء.

﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾: إثما ظاهراً لمن سمع به، أو اطلع عليه، وكل إنسان يعلم أنه إثم، والإثم نفسه لا يبقى خافياً، بل يُظهر نفسه.

والبهتان هو أمر معنوي، ولكن في هذه الآية (لقوله: احتمل)، فقد حوَّله من أمر معنوي إلى أمر حسي مادي، كي يشعر به صاحبه كأنه يحمله على كتفه وظهره.

[١١٣] ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾:

﴿وَلَوْلَا﴾: الواو: استئنافية.

لولا: حرف شرط يدل على امتناع شيء لوجود غيره؛ أيْ: حرف امتناع لوجود (وجود رحمة الله وفضله منعت إضلالك).

﴿فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ﴾: القرآن والإسلام.

﴿وَرَحْمَتُهُۥ﴾: النبوَّة والعصمة.

﴿لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾: الطائفة: هم بنو أبيرق.

الهـــم: هو ما دون العزم، والعزم أعلىٰ درجة في الهم وبدء التنفيذ، واللام: في لهمتْ: للتأكيد.

﴿أَن يُضِلُّوكَ﴾: أن: للتوكيد، والتعليل.

﴿يُضِلُّوكَ﴾: بالتزيين، والقول، والتدبيـــر (التبيُّت)، ويضلوك هنا: تعني: يصرفونك عن الحكم العادل، والحق، ولا يعني: ضلال العقيدة، والدِّين.

ويضلونك: بألسنتهم، وبجدالهم للباطل.

﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾:

﴿وَمَا﴾: النافية.

﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾: أي: الضلال الـــذي جادلوك به يرجع وزره ووباله عليهم أنفسهم.

﴿إِلَّآ﴾: تفيد الحصر؛ أيْ: حصراً علىٰ أنفسهم وحدهم.

﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾: ما: النافية. يضرونك: بالتهمة، والافتراء.

بالقول: انظروا كيـــف يعاقب محمد بريئاً، أو هو غيـــر عادل، أو يتعصب محمد لأصحابه، ولم يقل: يضروك، بل قال: يضرونك؛ لتأكيد النفي بالنون.

وكذلك المجيء بـ(ما) مرة ثانية؛ لتأكيد نفي الضرر، والضلال عنك.

﴿مِن﴾: استغراقية تشمل كل شيء.

﴿شَيْءٍ﴾: نكرة.

﴿مِن شَيْءٍ﴾: شيء مهم، مهما كان نوعه، أو صغره، وكبره.

والشيء: هو أقل القليل.

﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾: الكتاب: القرآن، والحكمة قيل: هي النبوَّة، أو مقاصد الشريعة، وفهم الأحكام، والدِّين.

﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾: من أمور الدِّين، والشريعة، والكتاب، والغيبيات، والعلوم، والمعارف، ما لم تكن تعلم: أيْ: تعرف.

﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾: الفضل: تعريفه: هو الزيادة على الأجر؛ أيْ: كرمه وإحسانه، كرَّر كلمة فضل الله مرتين؛ للتأكيد.

الفضل الأول: صرفك عن القضاء، أو الحكم غير العادل بما أوحى إليك من الاطلاع على سرهم، وأعمالهم الضالة.

والفضل الثاني: إنزال القرآن عليك، والنبوَّة، وعلمك ما لم تكن تعلم من أمور الدِّين والشريعة.

وكذلك العصمة، وكونك خاتم النبيين، وكونك أرسلت للناس كافة بشيراً، ونذيراً، وشهيداً عليهم يوم القيامة، وغيرها من النعم العظيمة التي لا تعد، ولا تحصى.

❖ ❖ ❖

فهرس تفسير القرآن الثري الجزء الثاني

السورة ورقمها	الصفحة
سورة البقرة [الآيات ٢٧٥ - ٢٨١]	٦
سورة البقرة [الآية ٢٨٢]	١٥
سورة البقرة [الآيات ٢٨٣ - ٢٨٦]	٢٥
سورة آل عمران [الآيات ١ - ٩]	٣٧
سورة آل عمران [الآيات ١٠ - ١٥]	٥١
سورة آل عمران [الآيات ١٦ - ٢٢]	٦١
سورة آل عمران [الآيات ٢٣ - ٢٩]	٧٣
سورة آل عمران [الآيات ٣٠ - ٣٧]	٨٣
سورة آل عمران [الآيات ٣٨ - ٤٥]	٩٧
سورة آل عمران [الآيات ٤٦ - ٥٢]	١١١
سورة آل عمران [الآيات ٥٣ - ٦١]	١٢١
سورة آل عمران [الآيات ٦٢ - ٧٠]	١٣١
سورة آل عمران [الآيات ٧١ - ٧٧]	١٤١
سورة آل عمران [الآيات ٧٨ - ٨٣]	١٥١
سورة آل عمران [الآيات ٨٤ - ٩١]	١٦٣
سورة آل عمران [الآيات ٩٢ - ١٠٠]	١٧٣
سورة آل عمران [الآيات ١٠١ - ١٠٨]	١٨٥
سورة آل عمران [الآيات ١٠٩ - ١١٥]	١٩٧
سورة آل عمران [الآيات ١١٦ - ١٢١]	٢٠٩

السورة ورقمها	الصفحة
سورة آل عمران [الآيات ١٢٢ - ١٣٢]	٢٢١
سورة آل عمران [الآيات ١٣٣ - ١٤٠]	٢٣٥
سورة آل عمران [الآيات ١٤١ - ١٤٨]	٢٤٩
سورة آل عمران [الآيات ١٤٩ - ١٥٣]	٢٦٣
سورة آل عمران [الآيات ١٥٤ - ١٥٧]	٢٧٣
سورة آل عمران [الآيات ١٥٨ - ١٦٥]	٢٨٣
سورة آل عمران [الآيات ١٦٦ - ١٧٣]	٢٩٣
سورة آل عمران [الآيات ١٧٤ - ١٨٠]	٣٠٣
سورة آل عمران [الآيات ١٨١ - ١٨٦]	٣١٥
سورة آل عمران [الآيات ١٨٧ - ١٩٤]	٣٢٧
سورة آل عمران [الآيات ١٩٥ - ٢٠٠]	٣٣٧
سورة النساء [الآيات ١ - ٦]	٣٤٧
سورة النساء [الآيات ٧ - ١١]	٣٦١
سورة النساء [الآيات ١٢ - ١٤]	٣٧٣
سورة النساء [الآيات ١٥ - ١٩]	٣٧٩
سورة النساء [الآيات ٢٠ - ٢٣]	٣٨٩
سورة النساء [الآيات ٢٤ - ٢٦]	٣٩٥
سورة النساء [الآيات ٢٧ - ٣٣]	٤٠٥
سورة النساء [الآيات ٣٤ - ٣٧]	٤١٧
سورة النساء [الآيات ٣٨ - ٤٤]	٤٢٧
سورة النساء [الآيات ٤٥ - ٥١]	٤٣٩

السورة ورقمها	الصفحة
سورة النساء [الآيات ٥٢ - ٥٩]	٤٥١
سورة النساء [الآيات ٦٠ - ٦٥]	٤٦١
سورة النساء [الآيات ٦٦ - ٧٤]	٤٧١
سورة النساء [الآيات ٧٥ - ٧٩]	٤٨١
سورة النساء [الآيات ٨٠ - ٨٦]	٤٩١
سورة النساء [الآيات ٨٧ - ٩١]	٥٠٣
سورة النساء [الآيات ٩٢ - ٩٤]	٥١٣
سورة النساء [الآيات ٩٥ - ١٠١]	٥٢٣
سورة النساء [الآيات ١٠٢ - ١٠٥]	٥٣٥
سورة النساء [الآيات ١٠٦ - ١١٣]	٥٤٥
فهرس تفسير القرآن الثري الجزء الثاني	٥٥٥

❖ ❖ ❖